
رواية
2.3.2022
هاروكي موراكامي
يوميّات طائر الزّنبرك
I و II
تَرجمة: أحمَد حسن المعيني
دار الآداب

هاروكي موراكامي

يوميَّاتُ طائر الزنبرك

I وII

ترجمها عن الإنجليزيَّة: أحمد حسن المعيني

رواية

دار الآداب ـ بيروت



يوميَّاتُ طائر الزنبرك

I و II

يوميّات طائر الزنبرك I و II

هاروكي موراكامي /روائي ياباني

ترجمة: أحمد حسن المعيني

الطبعة الأولى عام 2021

NEJIMAKIDORI KURONIKURU

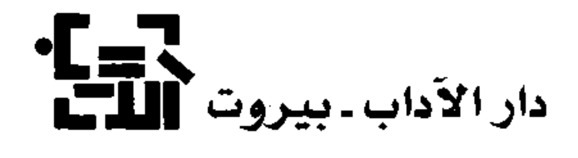
ISBN 978-9953-89-715-8


Daraladab


@Daraladab


daraladab.com


rana@daraladab.com
info@daraladab.com



الكتاب الأوَّل

العقعق السارق

يونيو ويوليو 1984

طائر زنبرك في يوم الثلاثاء
ستَّة أصابع وأربعة أثداء

رنّ الهاتفُ بينما كنتُ في المطبخ أغلي قليلًا من السباغيتي، وأصفِّر مع افتتاحيَّة **العقعق السارق**[1] في المذياع، مقطوعةِ روسّيني التي لا بدَّ من أن تكون الموسيقى المُثلى لطبخ الباستا.

أردتُ أن أتجاهل الهاتف، لا لأنَّ السباغيتي كاد أن ينضج فحسب، بل كذلك لأنَّ المايسترو كلاوديو أبادو كان لحظتَها يقترب من ذروة السيمفونيَّة. لكنَّني سلَّمتُ أمري، فلعلَّ المتَّصل يحمل خبرًا عن وظيفة. خفَّفتُ من شدَّة الغاز، ثم مشيتُ إلى

---

(1) العقعق السارق (The Thieving Magpie): أوپرا من تأليف الموسيقار الإيطاليّ جواكينو روسّيني (1792 ـ 1868)، الذي اشتُهر كذلك بأوپرا **حلّاق إشبيلية**. عُرضت أوپرا **العقعق السارق** للمرَّة الأولى عام 1817، وتحكي قصَّة فتاةٍ تُتَّهم بسرقة ملعقةٍ فضِّيَّة، فتُحاكم على جريمتها، ثم يُكتشف في اللحظة الأخيرة أنّها ليست السارقة بل طائر العقعق. (المترجم).

الصالة، والتقطتُ السمَّاعة.

«عشر دقائق من فضلك».

كان صوتَ امرأة. ومع أنِّي أميِّز الأصواتَ جيِّدًا، فإنَّ هذا لم يكن صوتًا أعرفه.

«معذرةً، مع مَنْ تريدين التحدُّث؟»

«معكَ طبعًا. عشر دقائق من فضلك. هذا كلُّ ما نحتاج إليه لنفهم بعضنا بعضًا».

كان صوتُها خفيضًا ناعمًا، لكنَّه غير مميَّز.

«نفهم بعضنا بعضًا؟»

«مشاعر بعضنا بعضًا».

انحنيتُ قليلًا ألقي نظرةً عبر باب المطبخ. كان قِدرُ السباغيتي يغلي جيِّدًا، وكلاوديو أبادو ما يزال يعزف **العقعق السارق**.

«معذرةً. أنا الآن منهمكٌ في طبخ السباغيتي. هل يمكنكِ الاتِّصالُ لاحقًا؟»

«سباغيتي؟! مَن يطبخ سباغيتي في العاشرة والنصف صباحًا؟»

«ليس هذا من شأنك. أنا مَن يحدِّد طعامي ووقتَ تناوله».

«معك حقّ. سأتَّصل لاحقًا».

قالتْها بصوتٍ فاترٍ لا تعبيرَ فيه. مجرَّدُ تغييرٍ طفيفٍ في المزاج يمكن أن يفعلَ أفاعيلَه في نبرة الصوت. فقلتُ لها قبل أن تغلق الخطّ: «لحظة. إنْ كانت هذه حيلةً من حِيَلِ البائعين، فانسي الموضوع. أنا عاطلٌ عن العمل. ولا أريد أن أشتري أيَّ شيء».

«لا تقلق. أعرف هذا».

«تعرفين؟ تعرفين ماذا؟»

«أنَّك عاطل. أعرفُ هذا. سأتركَك الآن مع أكلتك العظيمة».

«وأنتِ مَنْ تكون».

أغلقت الخطَّ قبل أن أُكمل.

لم أجد متنفَّسًا لانفعالي، فأخذتُ أحدِّق في سمَّاعة الهاتف التي في يدي إلى أن تذكَّرتُ السباغيتي. عدتُ إلى المطبخ، فأطفأتُ الغازَ وصببتُ محتويات القِدْرِ في مصفاة. بسبب المكالمة انطبخت السباغيتي فترةً أطولَ ممَّا يلزم لتبلغ مستوى **ألدينتي**[1]، لكنّ الطبخة لم تَفْسد. أخذتُ أتناول طعامي، وأفكِّر.

نفهم بعضنا بعضًا؟ نفهم مشاعر بعضنا بعضًا في عشر دقائق؟ ماذا تقصد؟ لعلَّها مكالمةٌ من مكالمات النَّصْب والاحتيال. لا يعنيني ذلك على أيِّ حال.

بعد الغداء عدتُ إلى كتابي الذي استعرتُه من المكتبة، أسترِقُ النظر بين الفينة والأخرى من أريكة الصالة إلى الهاتف. تُرى ما الذي يُفترض أن نفهمه عن بعضنا بعضًا في عشر دقائق؟ ما الذي يُمكن أن يفهمه اثنان عن بعضهما بعضًا في عشر دقائق؟ بدت واثقةً جدًّا من تلك الدقائق العشر؛ فهي أوَّلُ ما قالته في اتِّصالها. كما لو أنَّ تسعَ دقائق لا تكفي، وإحدى عشرةَ دقيقةً

(1) ألدينتي (al dente): مصطلح خاصّ بطبخ المعكرونة والخضروات، ويعني أن تُطبخ فترةً معيّنةً إلى أن تصل إلى مستوًى لا تكون فيه ليِّنةً ولا صلبةً. (المترجم).

أطولُ من اللازم. شأن طبخ السباغيتي إلى مستوى ألدينتي.

لم أستطع أن أواصل القراءة، فقرَّرتُ أن أكويَ قمصاني. هذا ما أفعله دائمًا حين أكون مستاءً. هي عادةٌ قديمة. أقسِّم العمَل إلى اثنتيْ عشرة مرحلةً، تبدأ بالياقة (الخارجيَّة) وتنتهي بالكمِّ الأيسر. لا أغيِّر شيئًا من هذا الترتيب أبدًا. أُعدّ المراحلَ مرحلةً مرحلة، وإلَّا فلن أعتبر أنِّي أدَّيتُ المهمَّة كما ينبغي.

كويتُ ثلاثةَ قمصان، وتفحَّصتُها جيِّدًا ثم وضعتُها على المشاجب. وما إنْ أطفأتُ المكواةَ وأعدُتها إلى الدولاب مع طاولة الكيّ، حتى شعرتُ بأنَّ عقلي أصبح أكثر صفاءً.

هممتُ إلى المطبخ أشرب ماءً، فرنَّ الهاتف ثانيةً. تردَّدتُ لحظةً، ثم قرَّرتُ أن أردّ. إنْ كان المُتَّصل هو المرأةَ نفسَها فسأقولُ لها إنَّني أكوي ملابسي ثم أغلق الخطّ. لكنَّ المتَّصلة كانت كوميكو. نظرتُ إلى الساعة فوجدتُها تُشير إلى الحادية عشرة والنصف. سألتْني: «كيف حالك؟»

قلتُ وقد شعرتُ براحة حين أتاني صوتُ زوجتي: «بخير».

«ماذا تفعل؟»

«انتهيتُ الآن من كيِّ ملابسي».

«ما الأمر؟». لاح شيء من التوتُّر في صوتها، فقد كانت تعلم ما يعنيه أن أكوي ملابسي.

«لا شيء. كنتُ أكوي بضعة قمصان فحسب». جلستُ على الأريكة ونقلتُ السمَّاعة من يدي اليسرى إلى اليمنى.

«هل تستطيع أن تكتب شِعرًا؟»

«شعر!». هل كانت تقصد الشِعر فعلًا؟

«أعرف ناشرًا يُصدر مجلَّة قصص للبنات، وهم يبحثون عن شخص يختار قصائدَ القارئات ويراجعها. ويريدون من هذا الشخص أيضًا أن يكتب قصيدةً قصيرةً كلّ شهر تكون افتتاحيَّةً للمجلَّة. الراتب معقول بالنسبة إلى عملٍ سهلٍ كهذا. والدوام جزئيّ طبعًا، لكنَّهم قد يضيفون بعضَ المهامِّ التحريريَّة إنْ أثبت الشخصُ ـ».

«عمل سهل؟ أنا أبحث عن وظيفة في القانون، لا الشعر».

«خطر لي أنَّك كنتَ تكتب أيَّام المدرسة الثانويَّة».

«نعم، لصحيفة المدرسة. نكتب عن الفريق الفائز في بطولة الكرة، أو كيف سقط معلِّمُ الفيزياء من السلالم ودخل المستشفى.. هذا النوع من الأخبار. وليس الشعر. لا أستطيع أن أكتب شعرًا».

«صحيح، لكنَّني لا أتحدَّث عن شِعر رفيع. يريدون شيئًا لبنات المدارس، وليس ضروريًّا أن يصبح خالدًا في تاريخ الأدب. يمكنك أن تكتبه وأنت مغمضُ العينيْن، أليس كذلك؟».

«اسمعي، أنا لا أستطيع أن أكتب شعرًا، سواءٌ أغمضتُ عينيّ أمْ فتحتُهما. لم أفعل ذلك في حياتي، ولست مستعدًّا لفعله الآن».

قالت كوميكو بشيء من الحزن: «حسنًا. ولكن من الصعب العثور على وظيفة في القانون».

«أعرف. ولذلك تحدَّثتُ مع كثيرين للبحث عن وظيفة لي.

يُفترض أن تصلني أخبارٌ هذا الأسبوع. وإنْ لم يحصل ذلك، سأفكِّر في شيء آخر أفعله».

«حسنًا، انتهى الموضوع إذن. بالمناسبة، ما اليوم؟ أيّ يوم من الأسبوع؟»

فكّرت لحظة ثم قلت: «الثلاثاء».

«إذن هل يمكنك الذهاب إلى البنك لدفع فاتورتَي الغاز والهاتف؟»

« لا بأس. كنتُ على وشك الخروج لشراء حاجيّاتٍ للعشاء».

«وماذا ستطبخ؟»

«لا أدري. سأقرّر وأنا أشتري الأغراض».

سكتتْ قليلًا ثم قالت فجأةً بنبرة جادّة: «أتدري، لسنا في عجلة للعثور على وظيفةٍ لك».

باغتتني هذه الجملة، وكأنَّ نساء الأرض قرَّرن اليوم أن يفاجئنني على الهاتف. «كيف ذلك؟ علاوتي ستنتهي عاجلًا أم آجلًا، ولا يمكنني أن أبقى عاطلًا هكذا إلى الأبد».

«صحيح، لكنّنا إنْ توخّينا الحرص، فنستطيع أن نعيش جيّدًا في الوقت الحاليّ بعد زيادة راتبي والأعمال الإضافيّة التي أحصلُ عليها، بالإضافة إلى مدّخراتنا. لسنا في أزمة. هل ضجرتَ من البقاء في البيت وأعباء البيت؟ أقصد هل ترى أنّ هذه الحياة غير مناسبة لك؟»

أجبتُ بصدق: «لا أدري». لم أكن أدري فعلًا.

«حسنًا، خُذْ وقتك وفكّر في الأمر. بالمناسبة، هل عاد القطّ؟»

القطّ! لم أفكّر في القطّ طوال الصباح. «لا لم يعد بعد».

«من فضلك ألقِ نظرةً في الحيّ. لقد مضى أسبوعٌ على غيابه».

همهمتُ بشيء غير مفهوم، ونقلت السمّاعةَ إلى يدي اليسرى.

«أنا متأكّدة أنّه في مكانٍ ما عند البيت الخالي، في الطرف الآخر من الزقاق. ذلك البيت الذي في فنائه تمثالُ طائر. كثيرًا ما رأيتُه هناك».

«الزقاق؟ ومنذ متى تذهبين إلى الزقاق؟ لم تخبريني قطّ عن ـ».

«أوه، عليَّ الذهاب الآن. لديَّ أعمال كثيرة. لا تنسَ القطّ».

أغلقتِ الخطَّ. وجدتُ نفسي أحدِّق في السمّاعة مرَّةً أخرى، ثم وضعتُها في مكانها.

تساءلتُ عمّا يجعل كوميكو تذهب إلى الزقاق. فلكي يصل المرءُ إلى هناك من بيتنا عليه أن يتسلَّق جدارًا خرسانيًّا. لكنْ لو أفلَحَ فلن يجد أيّ فائدة من ذلك.

ذهبتُ إلى المطبخ أشرب ماءً، ثم إلى الشرفة كي أنظر في صحن القطّ. قِطَعُ السردين ما تزال كما هي منذ الليلة الماضية. لم يعد القطّ إذن. وقفتُ هناك أنظر إلى حديقتنا الصغيرة، مع أشعَّة الشمس الساقطة عليها من أوائل الصيف. حديقتنا ليست من

ذلك النوع الذي يمنحك رضًا روحيًا عند النظر فيها. فالشمس لا تدخل الحديقة إلَّا في وقت قصير من كلِّ يومٍ، وهكذا تظلّ الأرضُ سوداءَ رطبة. أمَّا النباتات فلم يكن لدينا منها سوى بضع شجيْرات كُوبِيَّة مغبرَّة في إحدى الزوايا. وأنا لا أحبّ الشجيْرات الكوبيَّة. ثمَّة أجَمةٌ قريبة، تصدر منها صيحةٌ آليَّةٌ لطيرٍ يبدو صوتُه كما لو أنَّه يلفّ زنبركًا. كنَّا نسمّيه طائرَ الزنبرك. كوميكو هي التي أطلقتْ عليه هذا الاسم؛ فلم نكن نعرف اسمَه ولا شكلَه، وما ضرَّه ذلك في شيء. كان يأتي كلَّ يوم إلى الأجمة في حيِّنا، ويلفّ زنبركَ عالمِنا الهادئِ الصغير.

عليَّ الذهابُ الآن إذن للبحث عن القطّ. لطالما أحببتُ القطط، وكنت أحبّ هذا القطَّ بالتحديد. غير أنَّ القطط لها طريقتُها الخاصَّة في الحياة، وهي ليست حمقاء. إنْ لم تجد القطَّ في مسكنك، فذلك يعني أنَّه قرَّر الذهابَ إلى مكانٍ آخر. وما إن يشعر بالجوع والتعب حتى يعود ثانيةً. ومع ذلك، ولكي أرضي كوميكو، فإنَّ عليَّ الذهاب للبحث عن قطِّنا. لم يكن لديَّ شيءٌ أفضل أفعله على أيِّ حال.

*

كنتُ قد تركتُ وظيفتي في أوائل نيسان/ إبريل الماضي، وهي الوظيفة التي عملتُ فيها منذ تخرُّجي. لم يكن هناك دافع خاصّ جعلني أترك الوظيفة، ولم أكن أكره عملي. صحيح أنَّه لم يكن عملًا شائقًا، لكنَّ الراتب كان جيِّدًا، وأجواءُ العمل وِدِّيَّةٌ لطيفة.

وكي لا أجمِّل الأمر أكثرَ من اللازم، فلم يكن دوري في الشركة سوى «مرمطون»؛ أيْ من ينجز الأعمالَ التي يتأفَّف منها

الآخرون. الحقيقة أنّي كنتُ أجيد هذا الأمر، بل ربّما كانت لديَّ موهبةٌ حقيقيَّةٌ في تنفيذ المهامّ العمليَّة. فأنا سريعُ التعلُّم، أُنجز الأعمالَ بكفاءة، ولا أشتكي أبدًا، وأتعامل مع الأمور بواقعيَّة. لذلك حين أبديتُ رغبتي في ترك الوظيفة، بلغ الأمرُ بالشريك الأكبر (أي الأب، في هذه الشركة المكوَّنة من أبٍ وابنِه) أن يَعرض عليّ زيادةً بسيطةً في الراتب.

لكنَّني قدَّمتُ استقالتي. ولم تكن الاستقالةُ وسيلةً لتحقيق أمنية أو الحصول على عمل أفضل؛ فآخرُ ما كنتُ أريده هو أن أغلقَ على نفسي البابَ وأدرسَ لامتحان نقابة المحامين، مثلًا. كنتُ قد أيقنتُ أنَّني لا أريد أن أصبح محاميًا. وأدركتُ أيضًا أنَّني لم أرغبْ في مواصلة العمل في تلك الوظيفة، وإذا ما أردتُ الخلاصَ منها فهذا هو الوقت المناسب، وإلَّا فلن أتركها أبدًا؛ فقد بلغت الثلاثين.

كنتُ قد أخبرتُ كوميكو، ونحن نتعشَّى، أنَّني أفكِّر في ترك وظيفتي. كان جوابها: «أها». لم أفهم رأيها في الأمر، وظلَّت فترةً لم تقل أيَّ شيء آخر.

لزمتُ الصمتَ أنا أيضًا، إلى أن قالت: «إنْ أردتَ تركَ الوظيفة، اتركْها. هذه حياتُكَ، وعليك أن تعيشها بالطريقة التي تريدها». قالت ذلك وانشغلتْ في إخراج عظم السمك وزحزحته إلى طرف الصحن.

كانت كوميكو تتقاضى راتبًا ممتازًا في وظيفتها محرِّرةً لمجلَّةٍ للتغذية الصحِّيَّة، وكانت تتلقَّى بين الحين والآخر أعمالًا لإنجاز

رسوم من محرِّرين أصدقاء في مجلّات أخرى، فتكسب بذلك دخلًا إضافيًا كبيرًا. (كانت قد درستِ التصميمَ في الكلِّيَّة وأرادت أن تصبح رسَّامةً مستقلَّة). وعلاوةً على ذلك، فإنْ تركتُ وظيفتي فسيكون لي دخل موقَّت من العلاوة التي تُصْرف للعاطلين. وهذا يعني أنَّني لو بقيتُ في المنزل أهتمّ بشؤونه فقط، فسوف يبقى لنا ما يكفي من المال للخروج لتناول الطعام، أو لدفعٌ فواتير التنظيف. لن يتأثر نمطُ حياتنا كثيرًا.

وهكذا تركت الوظيفة.

*

كنت أصفُّ الأطعمةَ في الثلَّاجة حين رنَّ الهاتف. هذه المرَّة بدا وكأنَّ للرنين نبرةَ إلحاح. في يدي علبةٌ بلاستيكيَّةٌ من التوفو فتحتُها للتوّ، فوضعتُها بعنايةٍ فوق طاولة المطبخ كي لا ينسكب الماءُ منها. ثم مشيتُ إلى الصالة والتقطتُ السمَّاعة.

«لا بدَّ أنَّك انتهيتَ الآن من السباغيتي». كان ذلك صوت المرأة نفسها.

«بلى، لكن عليَّ الآن أن أذهب للبحث عن القطّ».

«لكنَّ موضوع القطّ هذا يمكن أن ينتظر عشرَ دقائق طبعًا. ليس كطبخ السباغيتي».

ثمَّة سبب يمنعني من إغلاق الخطّ. ففي صوتها شيءٌ يسترعي انتباهي. «حسنًا، ولكنْ ليس أكثر من عشر دقائق».

قالت بيقين هادئ: «الآن نستطيع أن نفهم بعضنا بعضًا».

أحسستُ أنَّها تستقرّ في جلستها على الكرسيّ وتضع ساقًا

فوق الأخرى. قلتُ لها: «تُرى، ما الذي يمكنكِ فهمُه في عشر دقائق؟»

«الدقائق العشر قد تكون أطولَ ممَّا تعتقد».

«هل أنتِ متأكِّدة من أنكِ تعرفينني؟»

«بالطبع. التقينا مئاتِ المرَّات».

«أين؟ ومتى؟»

«في مكانٍ ما، في زمانٍ ما. لكنَّني لو خضتُ في هذا الأمر فلن تكفي الدقائقُ العشرُ أبدًا. المهمّ هو الوقت الذي بين أيدينا الآن. الحاضر. أليس كذلك؟»

«ربَّما. لكنَّني أريد دليلًا على أنَّكِ تعرفينني».

«دليل من أي نوع؟»

«عمري مثلًا؟»

فقالت فورًا: «ثلاثون. ثلاثون وشهران. هل يكفي ذلك؟»

أخرسني ردُّها. من الواضح أنَّها تعرفني، لكنِّي لم أستطع أن أتذكَّر صوتها.

قالت بصوت فيه إغراء: «والآن دوري. حاول أن تتخيَّلني. من صوتي. تخيَّل شكلي. عمري. أين أنا. ماذا ألبس. هيَّا هيَّا».

«لا أدري».

«هيَّا حاول».

نظرتُ في ساعتي. مرَّت دقيقة وخمسُ ثوانٍ فقط. «لا أدري».

«إذن سأساعدكَ. أنا الآن على السرير، استحممتُ لتوِّي، ولا أرتدي شيئًا».

هذا ما كان ينقصني: مكالمة جنسيَّة!

«هل تفضِّل أن أرتدي شيئًا؟ ملابس شفَّافة، أو جوربيْن طويليْن؟»

«لا يعنيني ذلك. افعلي ما يحلو لك. ارتدي شيئًا إنْ أردتِ، أو ابقي عاريةً. معذرة، لا وقت لديّ لهذه الألعاب الهاتفيَّة. لديّ أشياء كثيرة عليَّ أن ـ».

«عشر دقائق. عشر دقائق لن تقتلك. لن تُحدث فجوةً في حياتك. فقط أجب عن سؤالي. هل تريدني عاريةً أم ألبس شيئًا؟ لديَّ كلّ أنواع الملابس التي يمكن ارتداؤها في هذا الوضع. ملابس داخليَّة سوداء شفّافة».

«ابقي عارية، لا بأس».

«جيِّد. تريدني عاريةً».

«نعم. عارية. جيِّد».

مرَّت أربعُ دقائق.

«شعرُ عانتي ما يزال مبتلًا. لم أجفِّف نفسي جيِّدًا. أوه، أنا مبتلَّة جدًّا! دافئة، ورطبة. وناعمة. الشعر أسود وناعم جدًّا. المسني».

«اسمعي، معذرةً لكنَّني ـ».

«وأسفل الشعر مبتلٌّ أيضًا. دافئ جدًّا هناك، مثل الزبدة.

دافئ جدًّا. اممم. وساقاي.. كيف تتصوَّر ساقيّ الآن؟ رُكبتي اليمنى للأعلى، وساقي اليسرى مفتوحة بما يكفي. تقريبًا، مثل الساعة العاشرة وخمس دقائق».

يبدو من صوتها أنَّها لا تتصنَّع الأمر. كانت فِعلًا تفتح ساقيْها على شكل الساعة العاشرة وخمس دقائق، وشيئُها دافئ، ومبلَّل.

«المس الشفرتيْن. ببطططططء. افتحهما الآن. نعم، هكذا. أبطأ، أبطأ. داعبْهما بأصابعك. أوه، ببطء، ببطء. الآن، ضع يَدَك الأخرى على نهدي الأيسر. لاعبْه. داعبْه. إلى الأعلى. واعصرْ حلمتي قليلًا. مرةً أخرى. مرةً أخرى. وأخرى، إلى أن تقتربَ شهوتي».

وضعتُ السمَّاعة من دون أيِّ حرف آخر. تمدَّدتُ على الأريكة، وحدَّقت في الساعة، ثم أطلقتُ تنهيدةً طويلةً عميقة. تحدَّثنا ستَّ دقائق تقريبًا. رنَّ الهاتفُ مرَّةً أخرى بعد عشر دقائق، لكنِّي لم أردّ. رنَّ خمس عشرة مرَّةً. وحين توقَّف الرنين، حلَّ صمتٌ عميقٌ بارد على الغرفة.

*

قُبَيْل الساعة الثانية تسلَّقتُ الجدار العازل ووصلتُ إلى الزقاق، أو ما كنَّا نسمِّيه الزقاق. لم يكن «زقاقًا» بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنْ ربَّما لا توجد كلمة أخرى تصفه. لم يكن «شارعًا» أو «ممرًّا» أو حتى «سكَّة». فإنْ شئنا الدقَّة، فإنَّ «السكَّة» ينبغي أن تكون ممرًّا ذا مدخل ومخرج، ممرًّا يأخذك إلى مكانٍ ما لو

اتَّبعتَه. لكنّ «زقاقنا» لم يكن ذا مدخل ولا مخرج. ولا يمكنك أن تسمّيه «زاروبًا» كذلك، فالزاروب ذو نهاية واحدة مفتوحة على الأقلّ، وأمّا الزقاق هذا فكان مسدودًا من الجهتيْن. والناس في الحيّ كانوا يسمُّونه «الزقاق» تجاوزًا. كان طوله حوالي مئتيْ ياردة ويمتدّ على طول الحدائق الخلفيَّة للبيوت التي تصطفّ على الجهتين. عرضُه لا يزيد على ثلاث أقدام إلّا قليلًا، وفي عدَّة مواضع منه ينبغي عليك أن تتمهَّل في مشيتك كي تتجاوز الأسوارَ البارزةَ في طريقك، أو الأشياءَ التي يتركها الناسُ ملقاةً هناك.

أمّا حكاية هذا الزقاق (وهي الحكاية التي رواها لي خالي الذي أجَّر لنا بيتَنا بالمجّان تقريبًا) فتقول إنّه كان ذا مدخل ومخرج، وكان طريقًا مختصرًا بين شارعيْن. لكنَّ النموَّ الاقتصاديّ المتسارع في منتصف الخمسينيّات أفرز صفوفًا من البيوت الجديدة التي ظلَّت تستحوذ على المساحات الفارغة في جانبي الطريق، إلى أن لم يبقَ منه سوى ممرّ ضيّق تقريبًا. ولأنَّ السكّان لم يكونوا يحبُّون أن يمرّ الغرباء لِصْقَ بيوتهم وأفنيتهم، فما لبثوا أن أغلقوا نهايةً واحدةً من هذا الممرّ، أو بالأحرى حجبوه بسورٍ خجول. ثم قرَّر أحدُ السكّان أن يكبّر فناءه، فأغلق الطرفَ الآخر من الممرّ بجدارٍ عازل. وفي ما يشبه الردّ على ذلك، ظهر سورٌ شائكٌ في الطرف الآخر، فلم تستطع الكلاب نفسُها أن تدخل. لم يشتكِ أحدٌ من الجيران، فلم يكن من بينهم مِن يستخدم الزقاقَ أصلًا، بل إنَّهم فرحوا بهذه الحماية الإضافيَّة من المجرمين. وهكذا أصبح الزقاقُ أشبهَ ما يكون بالقناة المهجورة، ويكاد لا يُفيد إلّا لكونه منطقةً عازلةً بين صفَّيْن من

البيوت. حتى إنَّ العناكب نسجتْ بيوتَها الدَبقة هناك، فوق النباتات المهملة المتطاولة.

تُرى ما الذي جعل كوميكو تتردَّد إلى مكانٍ كهذا؟ فأنا نفسي لم أمشِ في هذا «الزقاق» أكثر من مرَّتيْن. ثم إنَّ كوميكو كانت تخاف من العناكب أصلًا. أيًّا كان الأمرُ، فما دامت كوميكو قد طلبتْ منِّي الذهابَ إلى الزقاق والبحث عن القطّ، فسوف أذهب وأبحث عنه. بقيَّة الأشياء يمكنني أن أفكِّر فيها لاحقًا. عمومًا، الخروج أفضل بكثير من الجلوس في البيت وانتظار أن يرنّ الهاتف.

ترقّش سطحُ الزقاق بظلال الفروع التي امتدَّت في الأعلى تحت ضوء الشمس القويّ في أوَّل الصيف. ليس ثمَّة ريحٌ تحرِّك الفروع، فبدت الظلالُ مثلَ بقع دائمة، مقدور لها أن تظلّ مطبوعةً فوق الرصيف إلى الأبد. ولا صوت يعلو في المكان. كنتُ كما لو أنَّني أسمع أوراقَ العشب تتنفَّس في ضوء الشمس. بضعة سُحب صغيرة تطفو في السماء، بأشكالٍ صافيةٍ دقيقة، تُشبه السحبَ في منحوتات القرون الوسطى. كنت أرى الأشياء كلَّها بوضوحٍ شديد، حتى إنَّ جسمي بدا معها هائمًا متراميًا منسابًا... وساخنًا!

كنتُ أرتدي قميصًا بكمَّيْن قصيرين، وبنطالًا قطنيًّا خفيفًا، وحذاءَ تريُّض. لكنّ شمس الصيف جعلتني أشعر بغشاء رقيق من العرق تحت ذراعيّ وفي فجوة صدري. كان القميص والبنطال في صندوق الملابس الصيفيَّة، حتى أخرجتُهما صباحَ اليوم؛ فما تزال رائحةُ النفتالين النفَّاذة تغشى مِنخريّ. وكانت البيوتُ التي

اصطفَّت على جانبي الزقاق من نوعيْن متمايزيْن: بيوت حديثة، وبيوت أقدم منها. أمّا الحديثة فكانت أصغرَ حجمًا، بأفنية صغيرة تناسبها. لذلك كانت حبالُ الغسيل كثيرًا ما تلوح في الزقاق، فيصبح من الضروريّ أن أشقّ طريقي بين المناشف والشراشف والقمصان الداخليَّة. ومن فوق بعض الجدران الخلفيَّة كان يعلو صوتُ أجهزة التلفاز والمراحيض الجارية، وتتصاعد رائحةُ الكاري.

أمّا البيوت الأقدم فكانت تكاد لا تشي بأيِّ حسٍّ بالحياة. محجوبةً بشجيرات وأسيجة نباتيَّة، لمحتُ من بينها حدائقَ مشذَّبة. في زاوية إحدى الحدائق شجرةُ عيدِ ميلادٍ قديمةٌ بنِّيَّةُ اللون ذاوية، في حين غدت حديقةٌ أخرى مَرْدمًا لكلِّ أنواع الدمى والألعاب المعروفة. فَضْلةٌ من طفولاتٍ عديدة. ثمَّة درَّاجات ثلاثيَّة العجلات، وأطواق، وسيوف بلاستيكيَّة، وكُرات مطَّاطيَّة، وسلاحفُ دمًى، ومضاربُ بيسبول صغيرة. وفي إحدى الحدائق شبكةٌ لكرة السلَّة، وأخرى عليها مقاعدُ جميلة تحيط بطاولة من السيراميك. المقاعد يغطِّيها التراب، كأنَّها لم تُستخدم شهورًا أو حتى سنوات. سطحُ الطاولة مغطًّى ببتلاتٍ من الماغنوليا، هدّها وابلُ المطر.

رأيتُ صالةً عبر باب من الألومنيوم، بأريكة جلديَّة وطقم كراسي، وتلفاز كبير، ومنضدة جانبيَّة (عليها حوضُ أسماك استوائيَّة، ودرعان تذكاريَّان)، ومصباح زخرفيّ. بدت لي الغرفة مثلَ موقع تصوير مسلسلٍ تلفزيونيّ. في حديقة أخرى وجارُ كلبٍ ضخم، ولا أثر لأيِّ كلبٍ هناك، وبابُ البيت مفتوح. الأسلاك

في باب الوجار ناتئةٌ إلى الخارج، كما لو أنّ شخصًا كان يتّكئ عليها شهرًا وراء شهر.

البيت الخالي الذي أخبرتني كوميكو عنه يقع بعد هذا المكان مباشرةً. من نظرة واحدة لا أكثر أدركتُ أنّه خالٍ، ومن الواضح أنّه ظلّ خاليًا منذ فترة. كان بيتًا حديثًا من طابقيْن، لكنّ أبوابه الخشبيّة ذاتَ المصراعيْن بالية جدًّا، والقضبانَ الخارجيّة في نوافذ الطابق الثاني كان يملأها الصدأ. للبيت حديقةٌ صغيرةٌ مريحة، فيها بالفعل تمثالٌ حجريٌّ لطائر. كان التمثال يتّكئ على قاعدةٍ تبلغ مستوى الصدر، تحيط بها الحشائشُ من كلِّ جانب. سعفاتٌ من نبات قضبان الذهب تطاولتْ حتى كادت تلمس قدمَي الطائر. أمّا الطائر (الذي لم أعرف أيّ نوع من الطيور هو) فكان مفتوحَ الجناحيْن، كأنّما يودّ الفرارَ من هذا المكان البغيض بأسرع ما يمكن. وباستثناء هذا التمثال تخلو الحديقةُ من أيّ زينة أو زخارف. كومةٌ من مقاعدَ بلاستيكيّةٍ قديمة تواجه البيت، وإلى جانبها شُجَيْرة أزاليّة تفتّحت زهورُها الحمراء بحُمرةٍ غريبةٍ لا تبدو حقيقيّة. وما دون ذلك حشائشُ لا غير.

اتّكأتُ فترةً على سياج السلاسل الذي يصل إلى مستوى صدري، أتأمّل الحديقة. يُفترض أن يكون هذا المكانُ جنّةً للقطط، ولكنْ لا أثرَ لقطط هنا. حطّت حمامةٌ على هوائيّ التلفاز فوق السطح، وراحت تنشر هديلًا رتيبًا فوق المكان. أثناء ذلك سقط ظلُّ الطائر الحجريّ على النباتات الخفيضة، متشظّيًا.

أخذتُ سُكّرةَ ليمونٍ من جيبي، أزلتُ عنها لفافتها، ثم ألقيتُها في فمي. كنتُ قد انتهزتُ استقالتي من الشركة للإقلاع عن

التدخين، لكنَّني الآن لا أترك جيبي خاليًا من سكاكر الليمون. تقول كوميكو إنَّني أدمنتُها، وعمَّا قريب سوف ينتشر السوسُ في أسناني، ولكنْ لم يكن في وسعي إلَّا أن أتناوَلها. بينما أنا واقفٌ هناك أنظر إلى الحديقة، واصلتِ الحمامةُ فوق الهوائيّ هديلَها المنتظم، مثلَ موظَّفٍ يَخْتم على حزمةِ أوراق. لا أدري كم بقيتُ هناك، مائلًا على السور، لكنَّني أذكر أنّي بصقتُ سكَّرةَ الليمون على الأرض بعد أن ذاب نصفُها وامتلأ فمي بحلاوتها. كنتُ قد نقلتُ تحديقتي إلى ظلِّ الطائر الحجريّ حين تناهى إليَّ صوتٌ يناديني من الخلف.

استدرتُ فرأيتُ فتاةً تقف في الحديقة على الجانب الآخر من الزقاق. كانت صغيرة، وكان شَعرُها ملمومًا في ذيل حصان. ترتدي نظَّارةً شمسيَّةً داكنة بإطار كهرمانيّ، وقميصًا أزرقَ فاتحًا من دون كمَّيْن. على ذراعيْها النحيفتيْن سُمرةُ شمسٍ ناعمةٌ جميلة، على الرَّغم من أنَّ موسَم الأمطار لم يكد ينقضي. وضعتْ يدًا في جيب سروالها القصير، واليدَ الأخرى على سور بامبو ضعيف يصل إلى خصرها. ثلاثُ أقدامٍ تفصلنا فقط، أو ربَّما أربع.

قالت: «الجوّ حارّ».

«نعم، صحيح».

بعد هذا الحوار القصير وقفتْ هنالك تنظر إليَّ. ثم أخرجتْ مَن جيْبها علبةَ سجائر «هوپ»، وسحبتْ سيجارةً ثم وضعتْها بين شفتيْها. فمُها صغير، والشفةُ العليا تميل إلى الأعلى قليلًا. أشعلتْ سيجارتَها بعود ثقاب، وحين أمالت رأسَها لتُشْعلها، تطاير

شعرُها بعيدًا، فكشف عن أذنٍ جميلةٍ ناعمةٍ كأنَّما خُلقتْ للتوّ، تتوهَّج حافَّتُها بزغبٍ خفيف.

رمت عودَ الثقاب بعيدًا بإصبعها، وزفرت الدخانَ من بين شفتيْها المزمومتيْن. ثم رفعتْ عينيْها إليَّ وكأنَّها نسيتْ وجودي. لم أستطع رؤيةَ عينيْها من وراء النظَّارة الداكنة.

سألتني: «تعيش قريبًا من هنا؟»

«نعم». أردتُ أن أومئ باتِّجاه منزلنا، لكنَّني بعد استداراتٍ كثيرةٍ للوصول إلى هنا لم أعد أعرف أين يوجد منزلُنا بالضبط. فأومأتُ كيفما اتَّفق.

قلت وأنا أمسح راحتي المتعرِّقة في بنطالي: «أبحث عن قطّي. مضى أسبوعٌ وهو غائب. وقد رآه أحدهم في مكانٍ ما هنا».

«أيّ نوع من القطط؟»

«قطّ كبير. مخطَّط باللون البنِّيّ. وطرفُ ذيله مائل قليلًا».

«الاسم؟»

«نوبورو. نوبورو واتايا».

«لا.. لا أقصد اسمَك أنت، بل القطّ».

«هذا هو اسمُه».

«أوه، اسم باهر».

«في الحقيقة هو اسمُ صهري. القطّ يذكِّرنا به، فسمَّيناه باسمه، تندُّرًا».

«من أيّ ناحية يذكّركما القطّ به؟»

«لا أعرف. بشكل عامّ. ربَّما المشية. والتحديقة الفارغة».

ابتسمتْ للمرَّة الأولى، فبدت ملامحُها أكثر طفوليَّةً. لا يمكن أن يزيد عمرُها عن خمس عشرة سنة أو ستّ عشرة. كانت شفتُها العليا مائلةً بعضَ الشيء بزاوية غريبة. شعرتُ وكأنَّني أسمع صوتًا يقول «المسني». صوتُ المرأة في الهاتف. مسحتُ العرقَ من جبيني بظاهر يدي.

«قطّ بخطوط بنّيَّة وذيلٍ معقوف. أممم. هل له طوقٌ أو شيء كهذا؟»

«طوق أسود ضدّ القمل».

وقفتْ هنالك تفكِّر عشرَ ثوانٍ أو خمسَ عشرةَ ثانيةً، ويدها ما تزال تتَّكئ على البوَّابة. ثم أسقطتْ ما تبقّى من سيجارتها وسحقتْها بنعلها.

«ربَّما رأيتُ قطًّا كهذا. لستُ متأكّدةً من ذيله المعقوف، لكنَّه كان قطًّا نَمريًّا بنّيًّا، كبيرًا، وأعتقد أنّ له طوقًا».

«متى رأيتِه؟»

«متى رأيتُه؟ أممم. ليس قبل ثلاثة أيَّام أو أربعة. فناؤنا يُعتبر ممرًّا لقطط الحيّ. كلّها تمرّ من هنا، من بيت تاكيتاني إلى بيت مياواكي».

وأشارت إلى البيت الخالي، حيث ما يزال الطائرُ الحجريُّ ينشر جناحيْه، وقضبانُ الذهب ما تزال تقبض على شمس أوائل الصيف، والحمامةُ ما تزال في هديلها الرتيب فوق الهوائيّ.

«لديَّ فكرة. لِمَ لا تنتظرُه هنا؟ كلُّ القطط تمرّ عبر بيتنا عاجلًا أمْ آجلًا في طريقها إلى بيت مياواكي. وإنْ رآك أحد تتمشّى هنا هكذا، فسوف يتّصل بالشرطة. صدِّقْني، فقد حدث هذا من قبل».

تردّدتُ.

قالت: «لا تقلقْ. لا أحد غيري هنا. يمكننا أن نجلس هنا تحت الشمس وننتظر ظهورَ القطّ. سأساعدُك. نَظري ستّة على ستّة».

نظرتُ في ساعتي. الثانية وستّ وعشرون دقيقة. كلُّ ما كان ينبغي عليّ فعلُه اليوم قبل حلول الظلام هو أن أجمعَ الغسيلَ وأطبخَ العشاء.

دخلتُ من البوّابة وتبعتُ الفتاة إلى الحديقة. كانت تجرّ ساقَها اليمنى قليلًا. مشتْ بضعَ خطوات، توقّفتْ، ثم استدارتْ نحوي.

قالت بلا اكتراث: «سقطتُ من درّاجةٍ ناريّةٍ».

ثمّة شجرةُ بلُّوط منتصبة في المكان الذي انتهت عنده حديقةُ الفناء. تحت الشجرة مقعدان قماشيّان، تنسدل على واحدٍ منهما منشفةُ استحمام شاطئيّةٌ زرقاء. وعلى المقعد الآخر علبةٌ جديدة من سجائر هوب، ومنفضةٌ، وولّاعةٌ، ومجلّة، ومسجّلةٌ كبيرةُ الحجم. تنبعث من المسجّلة موسيقى «هارد روك» بصوت خفيض. أطفأتْها، وأزاحت الأغراضَ من على المقعد كي أجلس، وألقت بها على العشب. من مكاني على المقعد كنتُ

أنظر في فناء البيت الخالي. الطائر الحجريّ، وقضبانُ الذهب، وسياجُ السلاسل. ربَّما كانت الفتاة تراقبني طوال الوقت حين كنتُ هناك.

فناءُ هذا البيت كبيرٌ جدًّا. فيه حديقةٌ واسعة مائلة، تنتشر عليها بعضُ الشجيْرات هنا وهناك. إلى يسار المقعديْن بركةٌ إسمنتيَّةٌ كبيرة، قاعُها الفارغ مكشوفٌ للشمس. من لونها المخضرّ يبدو أنَّها ظلَّت فارغةً فترةً من الزمن. جلسنا وظهرُنا إلى البيت الذي كان باديًا من خلف أوراق الشجر. لم يكن البيت كبيرًا أو باذخًا، غير أنَّ الفناء يُضفي انطباعًا باتِّساع المكان. وكان مشذَّبًا.

قلتُ وأنا أنظر حولي: «فناء كبير. لا بدَّ من أنَّ العناية به مرهقة جدًّا».

«يبدو كذلك».

«عملتُ في طفولتي في شركةٍ لجزِّ العشب».

«أوه».

يبدو أنَّ حديثَ الحدائق لا يهمّها. سألتُها: «هل تكونين بمفردك هنا دائمًا؟»

«نعم، دائمًا. باستثناء خادمةٍ تأتي في الصباح والمساء. بقيَّة اليوم أكونُ وحدي. وحيدة. تريد مشروبًا باردًا؟ لدينا بيرة».

«لا، شكرًا».

«صحيح، لا تخجلْ».

هززتُ رأسي. «ألا تذهبين إلى المدرسة؟»

«وأنت ألا تذهب إلى العمل؟»

«ليس لديَّ عمل أذهب إليه».

«فقدتَ وظيفتَك؟»

«نوعًا ما. قدَّمتُ استقالتي قبل بضعة أسابيع».

«وماذا كنت تعمل؟»

«كنتُ مساعدَ محامٍ. أُحضر المستندات من المؤسَّسات الحكوميَّة، وأرتِّب الأشياء، وأدرس السوابقَ القانونيَّة، وأهتمّ بإجراءات المحكمة. أمورٌ من هذا القبيل».

«لكنَّكَ استقَلْتَ».

«نعم».

«وزوجتُك، هل تعمل؟»

«نعم».

لا بدَّ من أنَّ الحمامة توقَّفتْ عن الهديل وحطَّت في مكانٍ آخر. فقد أدركتُ، حينها فقط، الصمتَ العميقَ الذي هبط من حولي.

قالت وهي تشير إلى الجانب البعيد من الحديقة: «من هناك تمرّ القطط. أترى مرمدَ القمامة في فناء بيت تاكيتاني؟ تأتي القططُ تحت السور هناك، وتَعْبر العشبَ، ثم تخرج من البوَّابة إلى الفناء في الجهة الأخرى. دائمًا تتبع الطريقَ نفسَه».

رفعتْ نظّارتَها إلى جبينها، وضيَّقتْ عينيْها وهي تنظر إلى الفناء، ثم أنزلتْها ثانيةً وهي تُطْلق سحابةَ دخان. أثناء ذلك

لاحظتُ جُرحًا صغيرًا عند عيْنها اليسرى، من نوع الجروح التي تترك أثرًا دائمًا على الوجه. لعلَّها تلبس النظَّارةَ الداكنةَ لإخفاء الجرح. لم تكن ذاتَ جمالٍ مميَّز، لكنّ في وجهها أمرًا جذّابًا. قد يكون عينيْها الممتلئتيْن بالحياة، أو شفتيْها الغريبتيْن.

«هل تعرف عن بيت مياواكي؟»

«لا، مطلقًا».

«هم الذين كانوا يسكنون البيتَ الخالي. أسرة راقية. كانت لهما ابنتان، وكلٌّ منهما في مدرسة بناتٍ خاصَّة. أبوهما السيِّد مياواكي كان يملك بضعةَ مطاعم».

«ولماذا غادروا البيت؟»

«ربَّما الديون. لقد هربوا. تركوا كلَّ شيء ذاتَ ليلة. قبل حوالي سنة، ربَّما. تركوا المكانَ إلى أن تعفَّن وفرَّخ قططًا كثيرة. أمّي دائمًا تشتكي».

«هل تأتي قططٌ كثيرةٌ هناك؟»

نظرتْ إلى السماء وسيجارتُها بين شفتيْها. «من كلّ شكلٍ ونوع. بعضُها فقد فروَه، وبعضُها أصبح بعيْنٍ واحدة... ومكانَ العيْن كتلةٌ من لحمٍ نيِّئ. يَع!»

هززتُ رأسي.

«لديَّ قريبةٌ لها ستةُ أصابع في كلِّ يد. تَكْبرني بقليل. والإصبع الزائد إلى جانب إصبعِها الصغير. مثل إصبع طفلٍ رضيع. دائمًا ما تثنيه، فلا يلاحظه أغلبُ الناس. إنَّها جميلة جدًّا».

هززتُ رأسي ثانيةً.

«هل تعتقد أنَّه يسري في العائلة؟ ذلك الذي يسمُّونه.. لا أدري.. جزءًا من السلالة؟»

«لا أعرف الكثيرَ عن الوراثة».

توقَّفتْ عن الكلام. فأخذتُ أمصّ سكَّرةَ الليمون وأراقب طريقَ القطط. لم تظهر قطَّة واحدةٌ حتى الآن.

«متأكِّد أنَّك لا تريد شيئًا؟ سأحضر لي كوكاكولا».

قلتُ لها إنَّني لا أريد شيئًا.

نهضتْ عن مقعدها واختفت خلف الأشجار تجرّ ساقَها المعطوبة. التقطتُ مجلَّتَها من على العشب وأخذتُ أتصفَّحها. فوجئتُ بأنَّها مجلَّة رجَّاليَّة، من تلك المجلَّات الشهريَّة ذات الصفحات اللامعة. في الصفحة المطويَّة رأيتُ امرأةً ترتدي سروالًا داخليًّا رفيعًا لا يخفي فَرجَها وشعرَ عانتها. كانت تجلس على كرسيٍّ بلا ظهر، وساقاها مفتوحتان بزاويةٍ غريبة. أعدتُ المجلَّة وأنا أتنهّد، ثم طويتُ ذراعيّ على صدري وأخذت أراقب ممرَّ القطط مرَّةً أخرى.

*

مضى وقت طويل قبل أن تعود الفتاةُ بعلبة الكولا في يدها. كان شعوري بالحرارة يزداد. وأنا تحت الشمس شعرتُ بالضباب يلفُّ دماغي. آخرُ ما كنتُ أريدُه هو أن أفكِّر.

قالت وهي تلتقط خيطَ الحديث من حيث تركناه: «قل لي، لو وقعتَ في حبِّ فتاة واكتشفتَ أنَّ لديها ستَّةَ أصابع، ماذا ستفعل؟»

«أبيعها للسيرك».

«حقًّا؟»

«كلّا، طبعًا. أمزح. لا أظنّ أنَّ الأمر سيُزعجني».

«حتى إنْ كان هناك احتمال أن يظهر في أطفالك؟»

أخذتُ أفكِّر لحظةً في الأمر. «نعم، صدقًا لا أعتقد أنَّ الأمر سيزعجني. ما الضرر من إصبعٍ زائد؟»

«طيِّب، ماذا لو كان لها أربعةُ أثداء؟»

فكَّرتُ في هذا أيضًا. «لا أدري». أربعة أثداء؟ يمكننا أن نستمرّ في لعبة الافتراضات هذه إلى ما لا نهاية، فقرَّرتُ أن أغيِّر الموضوع.

«كم عُمركِ؟»

«ستَّ عشرة سنةً. دخلتُها قريبًا. هذه أوّلُ سنةٍ لي في الثانويَّة».

«منذ مدَّة وأنتِ متغيِّبة عن المدرسة؟»

«ساقي تؤلمني إنْ مشيتُ كثيرًا. ولديّ ندبةٌ عند عيني. مَدرستي صارمة جدًّا، وربَّما يبدأون في مضايقتي إنْ عرفوا أنَّني وقعتُ من درَّاجة ناريَّة. لذلك أخذتُ إجازةً مَرَضيَّةً. بإمكاني أن آخذ سنةً كاملة. لستُ في عجلةٍ من أمري كي أنتقل إلى الصفّ التالي».

«نعم».

«على أيِّ حالٍ، نعود إلى ما قلتَه سابقًا من أنَّك لا ترفض

الزواجَ من فتاةٍ بستَّة أصابع ولكنْ ليس بأربعة أثداء. . .».

«لم أقل ذلك. قلتُ لا أدري».

«ولِمَ لا تدري؟»

«لا أدري. . من الصعب أن أتخيَّل شيئًا كهذا».

«هل تستطيع أن تتخيَّلَ شخصًا بستَّة أصابع؟»

«نعم».

«إذن لِمَ لا تتخيَّل الأثداءَ الأربعة؟ ما الفرق؟»

فكَّرتُ لحظةً أخرى، لكنِّي لم أجد جوابًا.

«أسئلتي كثيرة جدًّا؟»

«نعم، أحيانًا».

استدرتُ نحو ممرِّ القطط مرَّةً أخرى. ما الذي أفعلُه هنا؟ لم تظهر أيُّ قطَّةٍ حتى الآن. ما تزال ذراعاي على صدري، وأغمضتُ عينيّ ثلاثين ثانيةً ربَّما. كنتُ أشعر بحبَّات العرق تتشكَّل في أجزاء مختلفة من جسمي. كانت الشمسُ تصبّ فيَّ بثقلٍ غريب. كلَّما حرَّكتِ الفتاةُ كأسَها، رنَّ الثلجُ في رأسي مثلَ جرس الأبقار.

همستْ لي: «يمكنك أن تغفو قليلًا إنْ أردتَ. سأوقظكَ إنْ رأيتُ قطَّة».

أومأتُ في صمت وأنا مغمضُ العينيْن.

الهواء ساكن، ولا أصوات على الإطلاق. اختفت الحمامةُ منذ فترة. بقيتُ أفكِّر في امرأة الهاتف. هل كنتُ أعرفُها فعلًا؟

لم يكن في صوتها أو أسلوبِ كلامها ما يذكِّرني بشيء. لكنَّها بالتأكيد تعرفني. بدا الأمر كما لو أنَّني أنظر إلى لوحةٍ لدي كيريكو[1]: ظلُّ المرأة الطويل يَعْبر الشارعَ الفارغ ويمتدّ نحوي، لكنَّها هي نفسها في مكان بعيد معزول عن حدود إدراكي. جَرَسٌ يرنّ ويرنّ قرب أذني.

قالت الفتاةُ بصوت خفيض جدًّا لم أكن متأكِّدًا من أنَّني أسمعُه: «هل نمتَ؟»

«لا، لستُ نائمًا».

«هل يمكنني أن أقترب أكثر؟ سيكون الأمر. أسهل لو أبقيتُ صوتي خفيضًا».

قلتُ وعيناي مغمضتان: «لا بأس».

حرَّكتْ مقعدَها حتى اصطدم بمقعدي، في قرقعة خشبيَّة جافَّة. والغريب أنّ صوت الفتاة كان مختلفًا حين أغمضتُ عينيّ.

«هل يمكنني أن أتكلَّم؟ سأكون هادئةً جدًّا، ولستَ مضطرًّا إلى الإجابة. بل يمكنك أن تنام. لا مانع لديَّ».

«حسنًا».

«إنَّني أرى في موت الناس شيئًا مثيرًا جدًّا».

كان فمُها لصقَ أذني، حتى إنَّ كلماتها تدخل فيَّ مع أنفاسها الرطبة الدافئة.

---

(1) جورجو دي كيريكو (Giorgio de Chirico) (1888 ـ 1978): رسَّام إيطاليّ يُعدّ رائدَ «الفنّ الميتافيزيقيّ»، وهو مدرسة تجريديَّة سابقة على السرياليَّة وأثَّرتْ فيها. (المترجم)

«لماذا؟»

وضعتْ إصبعَها على شفتيّ، كأنَّها تغلقهما.

«لا أسئلة. ولا تفتح عينيْك. اتَّفقنا؟»

أومأتُ إيماءةً هادئة، كصوتها. فرفعتْ إصبعَها من شفتيّ ووضعتْه على معصمي.

«ليت لي مشرطًا. لكنتُ فتحتُها ونظرتُ في داخلها. لا أقصد الجثَّة.. بل كتلة الموت. لا بدَّ من وجود شيء كهذا، أنا متأكِّدة. شيء مدوَّر ليِّن، مثل كرة السوفتبول، ذات لبّ صغير صلب من أعصاب ميِّتة. أودّ لو أخرجه من شخص ميِّت وأشقّه وأنظر داخله. لطالما تساءلتُ عن شكله. ربَّما كلّه صلب، مثل معجون أسنان جفّ داخل عبوَّته. هو ذلك، ألا تظنّ؟ لا، لا تُجِبْ. إنَّه ليِّن من الخارج، وكلَّما تعمَّقتَ داخله ازدادَ صلابة. أودُّ لو أقطَع الجلد وأُخرِجَ الشيءَ الليِّن، ثم أستخدم المشرط وشيئًا يُشبه الملعقة المسطَّحة كي أصل داخله. وكلَّما اقتربتَ من مركزه يصبح الليِّنُ أصلبَ، إلى أن تصل إلى جوهره الصغير. إنَّه صغيييير جدًّا، مثل كرةٍ صغيرة، وصلب بالفعل. لا بدَّ من أن يكون كذلك، ألا توافقني؟»

تنحنحتُ بضع مرَّات.

«هذا كلُّ ما أُفكِّر فيه هذه الأيَّام. لا بدَّ من أنَّ السبب هو وقت الفراغ الطويل. حين لا يكون لديك ما تفعله، تشطح أفكارك.. تشطح بعيدًا إلى درجة أنَّك لا تستطيع اللحاقَ بها إلى النهاية».

رفعتْ إصبعَها من معصمي، وازدردتْ ما تبقّى من شرابها. عرفتُ من صوت الثلج أنَّ الكأس فرغتْ.

«لا تقلق على القطّ. سأراقب المكان، وأقول لك إنْ ظهر نوبورو واتايا. أبقِ عينيْكَ مغمضتيْن. أنا واثقة بأنَّ نوبورو واتايا يتمشّى بالقرب من هنا. سيظهر في أيِّ لحظة. إنَّه قادم. متأكِّدة أنَّه قادم، من فوق العشب، تحت السور، يتشمَّم الزهور في طريقه، شيئًا فشيئًا يقترب. تصوَّرْه هكذا. استحضرْ صورَته في عقلك».

حاولتُ أن أستحضرَ صورةَ القطّ، فلم أفلح إلّا في استحضار صورة ضبابيَّة بخلفيَّة مُضاءة. ضوءُ الشمس الذي يخترق جفنيَّ زعزع ظلمتي الداخليَّة وشتَّتها، فجعل من المستحيل أن أصل إلى صورةٍ دقيقةٍ للقطّ. كلّ ما استطعتُ تخيُّله صورةٌ غريبةٌ مشوَّهة، عليها ملامحُ تُشبه الأصلَ، لكنَّ أجزاءها الأهمّ مفقودة. لم أستطع حتى أن أتذكَّر كيف يبدو القطّ وهو يمشي.

أعادت الفتاة إصبعها على معصمي، وأخذتْ ترسم بطرفه صورةً غريبةً لشكلٍ غير محدَّد. وفي ما يشبه ردّ الفعل، بدأتْ ظُلمةٌ من نوعٍ آخر تشقّ طريقَها في وعيي، ظلمةٌ تختلف عن تلك التي كنتُ أعرفها سابقًا. لعلّي كنتُ أغفو. لم أرغب في النوم، ولكنْ لم تكن هناك طريقةٌ لمقاومته. شعرتُ بجسدي مثل جثَّة (جثَّة شخص آخر) تغوص في الكرسيّ القماشيّ.

في الظلمة رأيتُ سيقان نوبورو واتايا. أربع سيقان بنّيَّة هادئة، من تحتها أربعةُ مخالب ناعمة، وكلٌّ خُفٌّ منتفخ يشبه المطّاط.

سيقان تطأ الأرض في مكانٍ ما، من دون صوت. ولكنْ أين؟

«عشر دقائق فقط»، تقول امرأةُ الهاتف. لا، لا بدَّ من أنَّها مخطئة. الدقائق العشر أحيانًا ليست عشر دقائق. بإمكانها أن تمتدّ أو تتقلَّص. وهذا شيء كنتُ أدركه تمامًا.

*

حين استيقظتُ كنتُ بمفردي. اختفت الفتاةُ من المقعد الذي ما يزال يلامس مقعدي. المنشفة والسجائر والمجلَّة في مكانها، أمَّا الكأس والمسجّلة فلم تكونا هناك.

كانت الشمسُ قد بدأتْ تغرق في مغربها، وظِلٌّ فرعٍ من شجرة البلُّوط يزحف فوق ركبتيّ. تشير ساعتي إلى الرابعة والربع. وقفتُ أنظر حولي. حديقة واسعة، بركة جافَّة، سور، طائر حجريّ، قضبان ذهب، هوائيّ تلفاز. وحتى الآن لا أثر للقطّ. ولا للفتاة.

ألقيتُ نظرةً على ممرِّ القطط، وانتظرتُ عودةَ الفتاة. عشرُ دقائق مرَّت، لا القطّ ولا الفتاة ظهرا. لا شيء تحرَّك. شعرتُ بأنَّني كبُرت كثيرًا وأنا نائم.

وقفتُ ونظرتُ إلى البيت، حيث لا أثر لبشر هناك. النافذة بين العمودَين تعكس وميضَ الشمس الغاربة. يئست من الانتظار، فعبرتُ الحديقةَ إلى الزقاق في طريقي إلى البيت. لم أجد القطّ، لكنَّني بذلتُ كلّ ما في وسعي.

*

حين بلغتُ البيتَ بدأتُ أجمع الغسيل، ثم جهَّزت المقاديرَ

لعشاء خفيف. رنَّ الهاتف اثنتي عشرة رنَّة عند الخامسة والنصف، لكنَّني لم أردّ. توقَّف الرنين، لكنَّ صوت الجرس لبث في كآبة المساء، مثل غبار يطوف في الهواء. على الطاولة كانت الساعة تدقّ كما لو أنَّها تقرع لوحًا شفيفًا يطفو في المكان.

لِمَ لا أكتب قصيدةً عن طائر الزنبرك؟ استهوتني الفكرةُ، لكنّ البيت الأوَّل لم يَحْضرني بعد. كيف يمكن أن تستمتعَ بناتُ المدارس بقصيدةٍ عن طائر زنبرك؟

*

عادت كوميكو إلى البيت عند السابعة والنصف. كانت تتأخَّر في عملها أكثر فأكثر طوال الشهر الماضي. فلم يكن من الغريب أن تعود بعد الثامنة، أو بعد العاشرة أحيانًا. وبسبب وجودي في البيت لإعداد العشاء، فإنَّها لم تكن مضطرَّة إلى الإسراع في العودة. كان لديهم نقصٌ في الموظَّفين، وأحدُ زملائها خرج مؤخَّرًا في إجازة مرضيَّة.

قالت: «آسفة. كان هناك عمل متواصل من دون توقُّف. وتلك الفتاة التي تعمل بدوامٍ جزئيٍّ لا فائدة منها».

مشيتُ إلى المطبخ لأُعدّ العشاء. سمك مشوّح في الزبدة، مع السلطة وحساء الميزو. جلستْ كوميكو إلى طاولة المطبخ واسترخت.

«أين كنتَ عند الخامسة والنصف؟ حاولتُ الاتِّصالَ بك لأُخبرك أنِّي سوف أتأخَّر».

كذبتُ قائلًا: «نفدت الزبدة. ذهبتُ إلى المتجر».

«هل ذهبتَ إلى البنك؟»

«نعم».

«والقطّ؟»

«لم أجده. ذهبتُ إلى البيت الخالي كما قلتِ لي، ولم أجد له أثرًا. أعتقد أنّه ذهب إلى مكانٍ أبعد».

لم تقل شيئًا.

حين انتهيتُ من الاستحمام بعد العشاء، كانت كوميكو في الصالة والأضواء مطفأة. تحدّبتْ في الظلام وهي ترتدي قميصَها الورديّ، فبدت مثلَ حقيبةٍ تُركت في المكان الخطأ.

جلستُ على الأريكة مقابل كوميكو، وأنا أجفِّف شعري.

قالت بصوت لم أكد أسمعه: «أنا متأكّدة أنَّ القطّ مات».

«دعكِ من هذا الكلام. أنا متأكّد أنّه يمرح في مكانٍ ما. سيشعر بالجوع ويعود قريبًا. حدث هذا سابقًا، ألا تذكرين؟ حين كنَّا نعيش في كوينجي...».

«الأمر مختلف هذه المرّة. أنا متأكِّدة. القطّ مات. إنَّه يتعفّن الآن فوق رقعةٍ من العشب. هل نظرتَ في العشب حول البيت الخالي؟»

«لا. ربَّما يكون البيت خاليًا، لكنَّه مِلْكُ شخصٍ ما. لا يمكنني أن أقتحم المكانَ هكذا».

«إذن أين بحثتَ عن القطّ؟ أُراهن أنَّك لم تحاول ولو مجرَّد محاولة. ولذلك لم تجده».

تنهَّدتُ وجفَّفتُ شعري مرَّةً أخرى بالمنشفة. هممتُ بالكلام ثم تراجعتُ حين أدركت أنَّها كانت تبكي. الأمر طبيعيّ؛ فقد كانت تحبّ هذا القطّ. لقد ظلّ معنا منذ زواجنا تقريبًا. ألقيتُ بمنشفتي في سلَّة الحمَّام، وذهبتُ إلى المطبخ لأحضر بيرةً باردة. يا له من يوم سخيف. يوم سخيف من شهرٍ سخيف من سنةٍ سخيفة.

أين أنت يا نوبورو واتايا؟ هل نسيَ طائرُ الزنبرك أن يلفّ زنبركك؟

جاءت الكلماتُ مثل أبيات شعر.

نوبورو واتايا

أين أنت؟

هل نسي طائرُ الزنبرك

أن يلفّ زنبركك؟

ولمَّا وصلتُ إلى نصف البيرة، رنَّ الهاتف.

صحتُ في ظلام الصالة: «رُدّي على الهاتف من فضلك».

«رُدّ أنت».

«لا أريد».

ظلَّ الهاتف يرنّ، ينثر الغبارَ الذي يطفو في الظلام. لم يقل أحدُنا كلمة. شربتُ البيرة، فيما استمرَّت كوميكو في بكائها الصامت. أحصيتُ عشرين رنَّة، ثم توقَّفتُ. لم يكن هناك معنى للعدّ إلى ما لا نهاية.

2

البَدر وكسوف الشمس
عن الخيول التي تموت في الإسطبلات

هل يمكن حقًّا أن يَفهم الإنسانُ إنسانًا آخر فهمًا كاملًا؟

بمقدورنا أن نُنفق وقتًا طائلًا، وطاقةً هائلة، في محاولات جادَّة لمعرفة شخصٍ آخر، ولكنْ في نهاية المطاف إلى أيّ حدٌ يُمْكننا أن نقتربَ من جوهره؟ نستمرئ أن نُقْنع أنفسَنا بأنَّنا نعرف الآخر حقَّ المعرفة، ولكنْ هل نعرف شيئًا مهمًّا عن أيٍّ كان؟

بدأتُ أُفكّر في هذه الأشياء مليًّا بعد أسبوع من تركي العملَ في شركة المحاماة. أمَّا قبل ذلك فلم تخطر لي هذه الأسئلةُ قطّ. لماذا يا تُرى؟ لعلَّ الحياة، أو مجرَّد العيش وحده كان يستنفد كلّ

تفكيري. كنت لفرط انشغالي لا أجد وقتًا كي أفكّر في نفسي.

أمّا الذي جعلني أبدأ في التفكير فكان أمرًا تافهًا، تمامًا كما تنشأ الأشياءُ الأهمُّ في هذا العالم من بدايات صغيرة. فذات صباح، وبعد أن أسرعتْ كوميكو في تناول فطورها وغادرتْ إلى عملها، ألقيتُ بالملابس في الغسّالة، ورتّبتُ الفراش، وغسلتُ الأطباق، وكنستُ البيت. ثم جلستُ في الشرفة والقطُّ إلى جانبي أطالع إعلانات الوظائف والأغراض المعروضة للبيع. عند الظهيرة تناولتُ غدائي، وذهبتُ إلى السوبرماركت. اشتريتُ طعامًا للعشاء، ثم اشتريتُ من طاولة التخفيضات مطهّرًا ومحارمَ وورقَ مرحاض. وحين عدتُ إلى البيت جهّزتُ أغراض العشاء، واضطجعتُ على الأريكة أقرأ، في انتظار عودة كوميكو إلى المنزل.

لقد استطبتُ حياةَ العاطلين عن العمل. فلم أعد مضطرًا إلى التنقُّل في قطارات المترو المزدحمة، أو إلى الاجتماع بأشخاصٍ لا أودّ أن ألتقيهم. والأفضل من ذلك كلّه أنّه بات بإمكاني أن أقرأ أيّ كتابٍ أريده، في أيِّ وقت أشاء. لم أكن أعرف طبعًا كم ستطول حياةُ الاسترخاء هذه، لكنّني في ذلك الوقت على الأقلّ، أيْ بعد أسبوعٍ من ترك العمل، كنتُ مستمتعًا بهذه الحياة وأحاولُ جاهدًا ألّا أُفكِّر في المستقبل. كانت هذه عطلتي الكبيرة في الحياة. سوف تنتهي ذاتَ يوم، لكنّني كنتُ مصمّمًا على أن أستمتع بها حتى النهاية.

غير أنّي في ذلك المساء تحديدًا لم أستطع أن أستغرق في لذّة القراءة؛ فكوميكو تأخّرتْ عن موعدها. لم تتأخّر قطّ عن السادسة والنصف، وإنْ ظنّت أنّها سوف تتأخّر ولو عشرَ دقائق، كانت تتصل

لتُخبرني. كانت كوميكو هكذا تمامًا؛ تكاد تُفرط في دقّتها والتزامها. لكنّ ذلك اليوم كان استثناءً. فقد بلغت الساعة السابعة مساءً ولمّا تصل بعد. اللحم جاهز، والخضار جاهزة، يمكنني أن أطبخَها فور وصولها. لم أكن أخطّط لوليمة عظيمة؛ فسوف أقلي شرائحَ لحمٍ رفيعة مع البصل والفلفل الأخضر وبراعم الفاصوليا مع قليل من المِلح والفلفل وصلصة الصويا، ورشّةٍ من البيرة. هي وصفة من أيّام العزوبيّة. كان الرزّ جاهزًا، وحساء الميزو دافئًا، والخضار كلّها مقطّعة إلى شرائح ومرتّبة في كومات منفصلة في صحن كبير، تنتظر نقلَها إلى المقلاة. لا ينقص إلّا كوميكو. وقد بلغ بي الجوع أن فكّرتُ في طبخ حصّتي من الطعام لأتناولها بمفردي، لكنّني لم أكن جاهزًا لهذه الخطوة. لم تبدُ خطوةً سليمة.

جلستُ إلى طاولة المطبخ أرتشفُ البيرةَ وأمضغ مقرمشات الصودا التي وجدتُها في آخر الدولاب. نظرتُ إلى الساعة فوجدتُ عقربها الصغير يقترب من السابعة والنصف، ثم يتجاوزه ببطء.

حين وصلتْ كوميكو كان الوقت قد تجاوز التاسعةَ مساء. كانت تبدو منهكةً وعيناها حمراوين، وذاك نذيرُ سوء. فقد كان دائمًا ما يحدث أمر سيّء حين تحمرُّ عيناها.

قلتُ لنفسي: حافظْ على هدوئك، ودع الأمرَ يمضي بسيطًا وطبيعيًّا، من دون أن تُستثار.

قالت كوميكو: «أنا آسفة. كان لديَّ عمل عَصيّ جدًّا. فكّرتُ في الاتّصال بك، لكنّ الأعمال ظلَّت تقاطِعني».

قلتُ بنبرة عاديّة قدر الإمكان: «لا بأس، لا تزعجي نفسَكِ

بذلك». في حقيقة الأمر لم أكن مستاء. فقد مررتُ بهذه التجربة مرَّاتٍ عديدة. فالعمل الرسميّ قد يكون صعبًا، ليس شيئًا حُلوًا هادئًا يُشبه أن تقطف أجملَ وردة في حديقتك كي تأخذها إلى جدّتك المريضة ثم تقضي النهارَ معها على بُعد شارعيْن. في بعض الأحيان يتوجَّب عليك أن تفعل أشياء كريهةً مع أشخاص كريهين، ولا تجد فرصةً كي تتصل بالبيت. كلّ ما يتطلَّبه الأمر ثلاثين ثانية كي تقول: «سوف أتأخَّر هذه الليلة»، والهواتف في كلّ مكان من حولك، لكنَّك لا تستطيع.

بدأتُ أطبخ. أشعلتُ الفرن، ووضعتُ زيتًا في المقلاة. أمَّا كوميكو فأخذت زجاجةَ بيرة من الثلَّاجة وكأسًا من الدولاب، ثم ألقت نظرةً سريعةً على الطعام الذي كنتُ سأطبخه، وجلستْ إلى طاولة المطبخ من دون أن تقول شيئًا. يبدو من النظرة على وجهها أنَّها لم تكن مستمتعةً بالبيرة.

«ليتكَ أكلتَ ولم تنتظرني».

«لا بأس. لم أكن جائعًا جدًّا».

وبينما كنت أقلي اللحمَ والخضارَ ذهبتْ كوميكو إلى الحمَّام. كنتُ أسمعها تغسل وجهها وتنظِّف أسنانها. وبعد قليل خرجتْ من الحمَّام وهي تحمل شيئًا. كان ورقَ المرحاض والمحارم التي اشتريتُها من السوبرماركت.

سألتني بصوت مُتعب: «لماذا اشتريتَ هذه؟»

نظرتُ إليها والمقلاةُ في يدي، ثم نظرتُ إلى علبة المحارم وحزمةِ ورق المرحاض. لم أعرف ما الذي كانت تقصده.

«اشتريتُ ماذا؟ مجرَّد محارم وورق مرحاض. نحتاج إليها. صحيح أنَّها لم تنفد، لكنَّها لن تتعفَّن طبعًا إن ظلّت عندنا فترة».

«بالطبع لا، ولكنْ لماذا اشتريتَ محارم زرقاء وورقَ مرحاض مزخرفًا بالزهور؟»

قلتُ محاولًا التحكُّم بأعصابي: «وأين المشكلة؟ كان عليها تخفيضُ أسعار. المحارم الزرقاء لن تلوِّنَ أنفَكِ بالأزرق. ما المشكلة؟»

«بل مشكلة. أنا أكره المحارمَ الزرقاء وورقَ المرحاض المزخرفَ بالزهور. أوَلا تعرف ذلك؟»

«لا، لا أعرف. لماذا تكرهينها؟»

«وما أدراني لماذا أكرهها؟ أكرهُها وحسب. أنت تكره أغطية الهواتف، والترموسَ المزخرفَ بالزهور، وبناطيلَ الجينز ذات الفتحات الواسعة والدبابيس، وتكره أن أطلي أظافري. لكنْ أنتَ نفسُكَ لا تستطيع تفسيرَ ذلك. إنَّها مسألة ذوق».

في الواقع كان يمكنني تفسيرُ أسبابي لكلِّ تلك الأشياء، لكنَّني بالطبع لم أفعل. قلت: «حسنًا، إنَّها مسألة ذوق. ولكنْ هل تريدين إقناعي بأنَّكِ طوال السنوات الستّ التي قضيناها معًا لم تشتري مرَّةً واحدةً محارمَ زرقاءَ أو ورَق مرحاض مزخرفًا بالزهور؟»

«ولا مرَّة».

«حقًّا؟»

«نعم، حقًّا. المحارم التي أشتريها إمَّا بيضاء أو صفراء أو ورديَّة. ولا أشتري ورقَ مرحاضٍ مزخرفًا أبدًا. أنا مصدومة لأنَّك

عشتَ معي طوال هذه السنوات ولا تعرف ذلك».

كان الأمر صادمًا لي أنا أيضًا، أن أدرك أنّي طوال ستّ سنوات لم أَستخدم قطّ محارمَ زرقاء أو ورقَ مرحاض مزخرفًا.

فتابعتْ تقول: «وبالمناسبة، أنا أكره اللحمَ المقليّ بالبيرة مع الفلفل الأخضر. أوَلَمْ تكن تعرف ذلك؟»

«كلّا، لم أكن أعرف».

«حسنًا، هذه هي الحقيقة. ولا تسألني عن السبب. كلّ ما أعرفه هو أنّني لا أستطيع احتمالَ رائحة هذين الشيئيْن ينطبخان في المقلاة نفسِها».

«هل تقصدين أنّكِ طوال السنوات الستّ لم تطبخي لحمًا وفلفلًا أخضر معًا؟»

هزّت رأسها. «آكل الفلفل الأخضر في السلطة، وأقلي اللحم مع البصل. لكنّي لم أطبخ قطّ لحمًا وفلفلًا أخضر معًا».

تنهّدتُ.

سألتني: «ألم يخطر ببالك قطّ أنّ هذا المزج غريب؟»

«غريب؟ لم ألاحظه أصلًا». قلتُها وأنا أسأل نفسي هل أكلتُ شيئًا مقليًا يحتوي على لحم وفلفل أخضر منذ أن تزوّجت. بالطبع كان من المستحيل أن أتذكّر.

«عشتَ معي طوال هذه السنوات، لكنّك تكاد لا تهتمّ بي. لا تفكّر إلّا في نفسك».

«لحظة، لحظة». أطفأتُ الغاز ووضعتُ المقلاةَ على

الموقد. «لا داعي لأن نُضخِّم الأمر. قد تكونين محقَّة. ربَّما لم أولِ ما يكفي من الاهتمام أشياءَ مثلَ المحارم وورق المرحاض ومزج اللحم بالفلفل الأخضر. لكنَّ هذا لا يعني أنَّني لم أهتمّ بك أنتِ. لون محارمي لا يهمّني في شيء. حسنًا، ربَّما يزعجني الأسود، أمَّا الأزرق أو الأبيض فلا يهمّ. وكذلك الأمر مع اللحم والفلفل الأخضر. ممزوجان، أم منفردان، ما أهمِّيَّة ذلك؟ لو اختفى اللحم المقليّ مع الفلفل الأخضر من على وجه الأرض فلن يهتزّ لي جفن. الأمر لا يتعلَّق بك أنتِ، بجوهرك، بما يجعلك كوميكو. أليس كذلك؟»

لكنَّها لم تُجبْني، بل ازدردتْ بيرتَها في جرعتيْن وأخذتْ تحدِّق في الزجاجة الفارغة.

ألقيتُ بمحتوى المقلاة في القمامة. خسارةٌ ما راح من لحم وفلفل أخضر وبصل وبراعم فاصوليا! غريب هذا الأمر؛ يكون الشيء طعامًا في لحظة، ثم قمامةً في اللحظة التالية. فتحتُ زجاجةَ بيرة وأخذتُ أشرب.

«لماذا رميتَها؟»

«لأنَّك تكرهينها جدًّا».

«ولكنْ كان بإمكانَك أنتَ أن تأكلَها».

«لم أعد راغبًا في اللحم والفلفل الأخضر».

هزَّت كتفيْها. «كما تشاء».

وضعتْ ذراعيْها على الطاولة وأرخت وجهَها عليهما. ظلَّت هكذا فترة. وكان واضحًا أنَّها ليست نائمة أو تبكي. نظرتُ إلى

المقلاة الفارغة على الموقد، ثم إلى كوميكو، وشربتُ بيرتي. هذا جنون، فمن ذا الذي يدقّق في ورق المرحاض والفلفل الأخضر؟

غير أنّي مشيتُ نحوها ووضعتُ يدي على كتفها. «حسنًا، لقد فهمتُكِ. لن أشتري أبدًا محارمَ زرقاءَ أو ورقَ مرحاض مزخرفًا. أَعِدُكِ. سأُعيد الأغراضَ إلى السوبرماركت غدًا، وأُحضر غيرها. وإنْ لم يوافقوا على إرجاعها سأحرقها في الفناء، وألقي بالرماد في البحر. ولن أطبخ بعد اليوم لحمًا مع الفلفل الأخضر. أبدًا. وعمّا قريب ستختفي الرائحة، ولن تُزعجك».

لكنَّها لم تقل شيئًا. أردتُ أن أخرج كي أمشي ساعةً ثم أرجع فأجدها مرحة، لكنَّني عرفتُ أنَّ ذلك لن يحدث. عليَّ أن أُصلح الأمر بنفسي.

«اسمعي. تبدين متعبةً. خذي قسطًا من الراحة، ثم نذهب إلى مطعم بيتزا. متى كانت آخر مرَّة خرجنا فيها وأكلنا بيتزا؟ بيتزا بسَمَكِ البَلَم والبصل. سنتقاسم واحدة. لن نموت جوعًا إنْ أكلنا في مطعمٍ بين فترة وأخرى».

حتى هذا لم يُجْدِ نفعًا. ظلَّ وجهُها على ذراعيْها.

لم يكنْ لديّ ما أقوله أكثرَ من ذلك. جلستُ وأخذت أحدِّق بها من الجهة الأخرى من الطاولة. ظهرتْ أذنها من خلف شعرها الأسود القصير، فرأيتُ قرطًا لم أره قبل ذلك، ذهبيًّا صغيرًا على شكل سمكة. من أين اشترت هذا القرطَ يا ترى؟ شعرتُ برغبة في التدخين. تخيَّلتُ نفسي أُخرجُ سجائري وقدّاحتي من جيبي، ثم أضع سيجارةً بين شفتيَّ وأُشعلُها. تنفَّستُ ملءَ رئتيّ. صدمتني

رائحةُ اللحم المقليّ مع الخضار. كنتُ أتضوَّر جوعًا.

وقعتْ عيناي على التقويم المعلَّق على الجدار، وفيه منازلُ القمر. كان البدر يقترب. آه، الآن فهمتُ؛ لقد كان موعدَ دورتها الشهريَّة!

لم أستوعب أنَّني من سكَّان كوكب الأرض، الكوكبِ الثالثِ من المجموعة الشمسيَّة، إلَّا بعد أن تزوَّجتُ. فالأرض التي أعيش عليها تدور حول الشمس، والقمر يدور حول الأرض. وسواء أعجبني هذا أم لا، فسوف يستمرّ الأمر هكذا إلى الأبد (أو ما يمكن أن يُعتبر أبدًا بالنسبة إلى حياتي). ما حثَّني على رؤية الأشياء بهذه الطريقة كانت الدقَّةَ الشديدةَ لدورة زوجتي، بأيَّامها التسعة والعشرين. كانت تتطابق تمامًا مع تزايد القمر وتناقصه. وقد كانت دوراتها شديدةً دائمًا؛ فتجعلها متقلِّبة المزاج بل مكتئبة أيَّامًا قبل أن تبدأ. وهكذا أصبحتْ دورتُها دورتي. فصار لزامًا عليَّ أن أكون حذرًا من التسبُّب في أيِّ مشكلة غير ضروريَّة في هذا الوقت من الشهر. قبل زاوجنا لم أكد ألاحظ مراحلَ الشهر. ربَّما وقعتْ عيناي على منظر القمر في السماء، لكنَّ شكله لم يكن يهمّني في شيء. أمَّا الآن فقد أصبح شكلُ القمر شيئًا ينبغي عليّ أن أحمله دائمًا في عقلي.

كانت لي علاقاتٌ نسائيَّةٌ قبل كوميكو، وبطبيعة الحال كانت لكلٍّ منهنَّ دورتُها الخاصَّة. كان بعضها شديدًا، وبعضها خفيفًا، بعضُها ينتهي في ثلاثة أيَّام، وبعضُها يطول أكثر من أسبوع، بعضُها منتظم، وبعضُها قد يتأخَّر عشرة أيَّام فأموت فزَعًا. بعضُ النساء ينقلب مزاجُهنَّ تمامًا، وبعضهنَّ يكاد لا يتأثَّر. لكنَّني لم

أعش مع امرأة إلى أن تزوَّجتُ كوميكو. فإلى ذلك الوقت كانت دوراتُ الطبيعة بالنسبة إليَّ لا تعني أكثر من تغيُّر الفصول. أُخرج معطفي شتاءً، وخُفَّيَّ الخفيفيْن صيفًا. لكنَّني حين تزوَّجتُ لم أتَّخذ شخصًا يسكن معي فحسب، بل اتَّخذتُ كذلك مفهومًا جديدًا لدورة الأشياء، أيْ منازِل القمر. لم تغب عنها دورتُها إلَّا مرَّةً واحدةً بضعة أشهر، حين كانت حبلى.

قالت وهي ترفع وجهها: «آسفة. لم أقصد أن أُنفِّسَ عن ضيقي فيكَ. أنا متعبة، وفي مزاجٍ سيِّء».

«لا عليكِ. من الأفضل أن تنفِّسي عن ضيقك في أحدٍ ما. هكذا تشعرين بتحسُّن».

أخذتْ كوميكو نَفَسًا طويلًا بطيئًا، حَبَسَتْه فترةً، ثم أطلقتْه.

سألتني: «وأنت؟»

«أنا ماذا؟»

«أنتَ لا تنفِّس عن ضيقِكَ في أحد، كما أفعل. لماذا؟»

هززتُ رأسي. «غريب. لم أُلاحظ ذلك».

«لعلَّ لديك بئرًا عميقةً داخلك، وتصرخ فيها **المَلِكُ له أُذنا حمار**[1]، فتنصلحُ الأحوال».

---

(1) الإحالة هنا على قصَّة من التراث العالميّ تحكي عن ملك نَمَتْ له أُذنان طويلتان كأذني الحمار، وكان يخفيهما عن الناس، إلَّا أنَّ حلَّاقه (أو في رواية أخرى صانع تاجه) كان يعرف، وأمره ألَّا يُخبر أحدًا. ولمَّا كان من الصعب كتمانُ سرٍّ كهذا، فقد لجأ الحلَّاقُ إلى حيلة يتنفَّس بها عمَّا في داخله، وذلك بأن يحفر حفرة عميقة ويقول فيها «الملك له أذنان مثل أذني الحمار»، لكنَّ الصوت وصل إلى الآخرين في نهاية المطاف وانكشف السرّ. (المترجم)

فكَّرتُ برهةً في الأمر ثم قلت: «ربَّما».

نظرتْ كوميكو إلى زجاجة البيرة الفارغة مرَّةً أخرى، وحدّقتْ في مُلصقها، ثم في فوَّهتها، ثم دوَّرت العنقَ بين أصابعها.

«دورتي الشهريَّة قادمة. أظنُّ أنَّ هذا هو سبب مزاجي السيّء».

«أعرف. لا تزعجي نفسَكِ. لستِ الوحيدة، عشراتُ الخيول تموت حين يكتمل البدر».

رفعتْ يدها عن الزجاجة، وفتحتْ فمَها ثم نظرت إليَّ.

«وما مناسبةُ هذا الكلام؟!»

«قرأتُه في الجريدة. كنتُ أودّ أن أُخبرك عنه، لكنِّي نسيت. كان لقاءً مع طبيب بيطريّ. يبدو أنَّ الخيول تتأثَّر تأثُّرًا كبيرًا بمنازل القمر، بدنيًّا ونفسيًّا. فتثور موجاتُ دماغها حينما يقترب البدر، ثم تبدأ تعاني مشكلاتٍ بدنيَّة كثيرة. وفي ليلة البدر نفسها يمرض الكثيرُ منها، ويموت عدد هائل منها. لا أحد يعرف سبب ذلك، لكنَّ الإحصاءات تُثْبت الأمر. فبيطريُّو الخيول لا يجدون وقتًا للنوم أبدًا في ليالي البدر. مشغولون جدًّا».

«عجيب».

«لكنَّ كسوفَ الشمس أسوأ؛ فهو مأساة حقيقيَّة بالنسبة إلى الخيول. لا يمكنك أن تتخيَّلي كم خيلًا تموت في الكسوف الكامل. على أيِّ حال كلُّ ما أريد قولَه أنَّ هناك خيولًا تموت في كلِّ أنحاء العالم في هذه الثانية. فليست مشكلةً كبيرةً أن تُنفِّسي عن ضيقك في أحدٍ ما. لا تُزعجي نفسَكِ. فكِّري في الخيول

التي تموت. تخيَّليها ممدَّدةً على القشِّ في إحدى المزارع تحت البدر، تزبُد، وتشهق في عذاباتها».

بدت كما لو أنَّها تفكِّر في الخيول وهي تموت في المزارع.

ثم قالت بنبرة رضوخ: «حسنًا، أعترفُ بقدرتك على إقناع أيٍّ كان بأيِّ كلام».

«حسنًا إذن. غيِّري ملابسَكِ كي نخرج لتناول البيتزا».

*

تلك الليلة، في غرفة نومنا المظلمة، استلقيتُ إلى جانب كوميكو، محدِّقًا في السقف أسأل نفسي عن مدى معرفتي بهذه المرأة. كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا، وكانت تغطُّ في نومها. في الظلام كنتُ أُفكِّر في المحارم الزرقاء وورق المرحاض المزخرف واللحم مع الفلفل الأخضر. عشتُ معها طوال تلك السنوات من دون أن أُدرك شدَّة كرهها لتلك الأشياء. هي في حدِّ ذاتها أشياء تافهة، حمقاء، نضحك عليها، ولا نضخِّمها. ندخل في شجار بسيط حولها ثم ننساها بعد يومَيْن.

أمَّا هذه فقد كانت مختلفة. كانت تزعجني على نحو غريب، تحفر في داخلي مثل عظم سمك عالق في حلقي. ربَّما، وأقول ربَّما، كان الأمر أكثر أهمِّيَّة ممَّا بدا. ربَّما يكون الضربةَ القاصمة. أو ربَّما كان بدايةَ ما سوف يكون الضربةَ القاصمة. قد أكون واقفًا على أعتاب شيء كبير، يُفْضي إلى عالم ينتمي إلى كوميكو وحدها، عالمٍ شاسع لم أكن أعرفه على الإطلاق. رأيته غرفةً كبيرة مظلمة. كنت أقف هناك أحمل قدّاحة، لا أرى من

ضوئها الصغير إلَّا أصغر جزء من الغرفة. أتراني سأرى الباقي؟ أم أكبر وأشيخ وأموت دون أن أعرفها حقّ المعرفة؟ إنْ كان هذا ما هو مقدور لي، فما فائدةُ هذه الحياة الزوجيَّة التي أعيشها؟ ما فائدةُ حياتي كلّها إنْ كنتُ أقضيها في السرير مع رفيقةٍ لا أعرفها؟

*

هذا ما كان يدور في خاطري تلك الليلة، وما ظللتُ أفكّر فيه بعد فترة طويلة، من وقتٍ إلى آخر. بعد مدَّة طويلة خطر لي أنَّني اهتديْتُ إلى جوهر المشكلة.

3

قبَّعة مالطا كانو

لون الشربت، وآلن غنزبرغ، والصليبيُّون

رنَّ الهاتفُ ثانيةً وأنا منهمكٌ في إعداد الغداء. كنتُ قد قطعتُ شريحتَيْ خبز، ودهنتُهما بالزبدة والخردل، وحشوتُهما بشرائح الطماطم والجبن، ثم وضعتُ الخبزتَيْن على لوح التقطيع، وهممتُ بقطعهما إلى نصفَيْن، فرنّ الهاتف.

تركتُه يرنّ ثلاث مرَّات، وقطعتُ الشطيرةَ نصفَيْن، ثم نقلتُهما إلى صحن، ومسحتُ السكِّين، ووضعتُها في الدرج، قبل أن أصبّ لنفسي فنجانًا من القهوة التي سخَّنتُها.

ظلَّ الهاتف يرنّ. ربَّما خمس عشرة مرَّةً. ثم استسلمتُ

والتقطتُ السمّاعة. في الحقيقة كنتُ أفضّل ألّا أردّ، لكنّي خشيتُ أن تكون كوميكو هي المتّصلة.

«ألو». كان صوتَ امرأة لم أسمعْه في حياتي. ليس صوتَ كوميكو ولا المرأة الغريبة التي اتصلتْ يومَ كنتُ أطبخ السباغيتي.

قالت كما لو أنّها تقرأ من نصّ مكتوب: «مساء الخير. من فضلك، هل يمكنني التحدُّثُ إلى السيِّد تورو أوكادا؟»

«أنا تورو أوكادا».

«زوج كوميكو أوكادا؟»

«نعم. كوميكو أوكادا زوجتي».

«وشقيق السيِّدة أوكادا الأكبر هو نوبورو واتايا؟»

قلتُ بهدوء أُحْسَدُ عليه: «أيضًا نعم. نوبورو واتايا شقيقُ زوجتي الأكبر».

«حسنًا سيِّدي، اسمي كانو».

انتظرتُ أن تواصل كلامَها؛ فإشارتُها المفاجئة لاسم شقيق زوجتي جعلتني متحفِّزًا. رفعتُ قلم الرصاص من جانب الهاتف وأخذتُ أحكّ قفاي بطرفه غير المسنَّن. مضت خمسُ ثوانٍ أو أكثر، وهي صامتةٌ لم تقل شيئًا. صمتٌ تامٌّ في الهاتف، وكأنَّ المرأة أطبقتْ يدَها على السمّاعة كي تتحدَّث إلى شخصٍ بالقرب منها.

بدأتُ أقلق. «ألو؟»

فانطلق صوتُها: «أرجو المعذرة، سيِّدي. في هذه الحالة

اسمحْ لي أن أتَّصل بكَ في وقتٍ لاحق».

«انتظري لحظة. هذا ـ».

لكنَّها أنهت المكالمة. حدَّقتُ في السمَّاعة، ثم أعدتُها إلى أذني. الأمر أكيد: لقد أغلقتِ الخطَّ.

شعرتُ باستياء غريب، فتوجَّهتُ إلى طاولة المطبخ، وشربتُ قهوتي، وتناولتُ شطيرتي. قبل أن يرنّ الهاتف كنتُ أُفكّر في شيء، لكنَّني لم أعد أذكره. الأكيد أنَّني كنتُ أُفكِّر في شيءٍ والسكِّينُ في يدي كي أقطع الشطيرة. شيء مهمّ. شيء ظللتُ أحاول أن أتذكَّره منذ فترة طويلة. وتذكَّرتُه في تلك اللحظة حين هممتُ بقطع الشطيرة. لكنّي نسيتُ الآن. حاولتُ جاهدًا أن أستعيده، وأنا أمضغ شطيرتي. عاد ذلك الشيء مرَّةً أخرى إلى الجزء المظلم في عقلي، حيث كان يقبع إلى تلك اللحظة.

*

فرغتُ من طعامي ورحتُ أغسل الأطباق، فرنّ الهاتف مجدَّدًا. هذه المرَّة رددتُ مباشرة.

مرَّةً أخرى سمعتُ امرأةً تقول: «ألو»، لكنَّها كانت كوميكو هذه المرَّة.

«كيف حالك؟ تغدَّيت؟»

«نعم، وأنتِ ماذا أكلتِ؟»

«لا شيء. مشغولة جدًّا. ربَّما أشتري شطيرة لاحقًا. ماذا أكلت؟»

فأخبرتُها عن الشطيرة.

قالت من دون أن تحسدني على غدائي: «أوه، بالمناسبة نسيتُ أن أخبركَ هذا الصباح. سوف تتصل بك الآنسة كانو».

«اتَّصلتْ. قبل دقائق. كلُّ ما قالته اسمي واسمُكِ واسمُ أخيك، ثم أغلقت الخطّ. لم تقل ماذا تريد. ما قصَّتُها؟»

«أغلقت الخطّ؟»

«قالت سوف تتَّصل مرَّةً أخرى».

«حسنًا، حين تتَّصل أريدكَ أن تفعل ما تطلبه منك. الأمر مهمّ جدًّا. أعتقد أنَّ عليك الذهابَ لمقابلتها».

«متى؟ اليوم؟»

«ما المشكلة؟ هل لديك مخطَّطات؟ لديك موعد؟»

«لا. لا مخطَّطات». لا اليوم، ولا أمس، ولا غدًا. لا مخطَّطات أبدًا. «ولكنْ من تكون هذه الآنسة كانو؟ وما الذي تريده منِّي؟ أريد فكرةً عن الموضوع قبل أن تتَّصل مجدَّدًا. إنْ كان الأمر يتعلَّق بوظيفة من طرف أخيك، فلا أريدُها. لا أريد أيّ شيء يربطني به. تعرفين ذلك».

قالت بنبرة تشي بانزعاج: «لا، ليست للأمر علاقةٌ بوظيفة. الموضوع موضوع القطّ».

«القطّ؟»

«عذرًا، عليَّ الذهاب. شخص ينتظرني. لم يكن ينبغي أن أتَّصل الآن. كما قلتُ لك، لم أتناول غدائي. سأعاود الاتِّصال بك حين أفرغ ممَّا عندي».

«لحظة، أعرف أنَّكِ مشغولة جدًّا، ولكنْ من حقِّي أن أفهم ما يجري. ما موضوع القطّ؟ وهل كانو هذه ــ».

«افعلْ ما تطلبُه منكَ وحسب. ممكن من فضلك؟ هل تفهمني؟ الموضوع جادّ. أريدك أن تبقى في البيت في انتظار اتِّصالها. عليَّ الذهاب الآن».

وذهبتْ.

*

حين رنَّ الهاتفُ عند الثانية والنصف، كنتُ في قيلولة فوق الأريكة. في أوَّل الأمر ظننتُه جرسَ المنبِّه، فمددتُ يدي كي أضغط زرَّه، لكنَّ يدي لم تجد المنبِّه. لم أكن في سريري بل على الأريكة، والوقت لم يكن صباحًا وإنَّما ظهرًا. نهضتُ ومشيتُ إلى الهاتف.

«ألو؟»

جاءني صوتُ امرأة: «ألو». هي المرأة نفسها التي اتَّصلت صباحًا. «السيِّد تورو أوكادا؟»

«نعم، أنا تورو أوكادا».

«اسمي كانو».

«أنتِ التي اتَّصلتِ صباح اليوم».

«بالضبط. أعتذرُ عن قلَّة ذوقي. ولكنْ قل لي سيِّد أوكادا، هل لديكَ وقتُ فراغ عصرَ اليوم؟»

«تقريبًا نعم».

«حسنًا، في هذه الحالة، أعرفُ أنّ الأمر مفاجئ جدًّا، ولكنْ هل يسمح لك وقتُكَ بأن نلتقي؟»

«متى؟ اليوم؟ الآن؟»

«نعم».

نظرتُ في ساعتي. لم أكن محتاجًا إلى ذلك، فقد نظرتُ فيها قبل ثلاثين ثانية. ولكنْ للتأكُّد فقط. كانت ما تزال عند الثانية والنصف.

سألتُها: «هل سيستغرق هذا وقتًا طويلًا؟»

«لا أعتقد أنَّه سيستغرق وقتًا طويلًا جدًّا. لكنِّي قد أكون مخطئة. في هذه اللحظة يصعب عليَّ التحديد بدقَّة. أرجو المعذرة».

لم يكن لديَّ خيار آخر، بصرف النظر عن المدَّة التي سوف يستغرقها هذا اللقاء. كوميكو طلبتْ أن أفعل ما تطلبه هذه المرأة، وقالت إنَّ الموضوع جادّ. وإنْ قالت كوميكو إنَّه جادّ، فهو جادّ، ومن الأفضل أن أنفِّذ ما تقوله.

قلت: «حسنًا. أين نلتقي؟»

«هل تعرف فندق پاسِفِك، مقابل محطَّة شيناغاوا؟»

«نعم أعرفه».

«ثمَّة مقهى في الطابق الأوَّل. سأنتظركَ هناك عند الرابعة إنْ كان الوقت يناسبك سيِّد أوكادا».

«لا بأس».

«أنا في الحادية والثلاثين من العمر، وسوف ألبس قبّعةً حمراء».

رائع! ثمَّة شيء غريب في الطريقة التي تتحدَّث بها هذه المرأة. شيء أثار حيرتي لوهلة، لكنِّي لم أستطع تحديدَ ما يجعله شديدَ الغرابة. وبالطبع لا يوجد قانون يمنع امرأةً في الحادية والثلاثين من أن تلبس قبّعة حمراء.

«طيِّب. سأعرفُكِ بالتأكيد».

«سيِّد أوكادا، هل تتكرَّم عليَّ وتُخبرني بأيِّ مواصفات مميَّزة في مظهرك؟»

حاولتُ أن أفكِّر في أيِّ «مواصفات مميَّزة في مظهري». هل أملك أيًّا منها؟

«أنا في الثلاثين من العمر، طولي 175 سم، وزني 63,5 كجم، شعري قصير، ولا ألبس نظَّارة». أدركتُ وأنا أعدِّد هذه الصفات أنَّها ليست مواصفاتٍ مميَّزة. ربَّما تجد خمسين رجلًا بهذه المواصفات في مقهى الفندق. إنَّه مقهى كبير، وقد زرتُه من قبل. كانت بحاجة إلى شيء أكثر تميُّزًا، لكنَّني لم أُفلحْ في تذكُّر شيء. لا أقول إنَّني لا أملك أيّ مواصفات مميَّزة. لديَّ نسخة موقَّعة من ألبوم رسومٌ لإسبانيا لمايلز ديفِز. لديَّ سرعة نبض بطيئة: 47 في العادة، ولا تزيد عن 17 مع الحمَّى الشديدة. عاطل عن العمل. أعرف أسماء جميع الإخوة كارامازوف. لكنَّ هذه المواصفات كلّها لا علاقة لها بمظهري.

سألتني: «ماذا ستلبس؟»

«لا أدري. لم أقرّر بعد. الأمر مفاجئ جدًّا».

قالت بنبرة قاطعة: «إذن البسْ ربطةَ عنقٍ منقَّطة. هل لديك واحدة منقَّطة، سيِّد أوكادا؟»

«أظنّ ذلك، نعم». لديَّ ربطةُ عنق زرقاء فاتحة، وعليها نقطٌ صغيرة قشديَّة اللون. كوميكو أحضرتْها لي في عيد ميلادي قبل بضع سنوات.

«إذن البسْها من فضلك. شكرًا لك على قبولك لقائي عند الساعة الرابعة». وأغلقتِ الخطّ.

*

فتحتُ الخزانة أبحثُ عن ربطة العنق. لم أجد لها أثرًا في علّاقة الربطات. بحثتُ في جميع الأدراج. فتحتُ صناديق التخزين. لم أجد الربطةَ المنقَّطة. لا يمكن أن تكون الربطة في البيت ولا أجدها. كوميكو لا تشوبها أيُّ شائبة حين يتعلّق الأمر بترتيب ملابسنا، فلا يمكن أن تكون الربطةُ في مكان آخر غير مكانها. كانت ملابسي وملابسها في ترتيبٍ شديدِ الإحكام. قمصاني مطويَّة في رفِّها المناسب، وستراتي الصوفيَّة في صناديق مليئة بكرات النفتالين، إلى درجةِ أنْ أصابتني حرقةٌ في عينيَّ ما إنْ رفعتُ الغطاء. في أحد الصناديق ملابسُها التي كانت ترتديها في المدرسة: زيّ المدرسة الأزرق، وفستان قصير مزهَّر، محفوظان مثل صورٍ في ألبوم قديم. ما فائدةُ الاحتفاظ بهذه الأشياء؟ لعلّها أحضرتْها معها لأنّها لم تجد فرصةً مناسبةً للتخلُّص منها. أو ربَّما كانت تنوي إرسالها إلى بنغلاديش. أو تتبرَّع بها يومًا ما لمتحف

مقتنيات ثقافيَّة. على أيِّ حال، لم أجد الربطةَ المنقَّطة في أيِّ مكان.

وبينما أنا أُسند يدي على باب الخزانة رحتُ أحاول أن أتذكَّر آخرَ مرَّة لبستُ فيها الربطة. كانت في واقع الأمر ربطةَ عنقٍ أنيقةً جدًّا، لكنَّها ليست من النوع الذي يَصْلح للعمل. ولو أنَّني لبستُها في الشركة، فمن المؤكَّد أنَّ شخصًا ما كان سيظلّ يتحدَّث عنها بلا توقُّف وقتَ الغداء، يمتدح لونَها أو مظهرَها الأنيق. وهذا في حدِّ ذاته نذيرُ سوء. ففي الشركة التي كنت أعملُ فيها، لم يكن من المحمود أن يُمتدح المرءُ على اختياره ربطةَ عنق. لذلك لم ألبسها للعمل قطّ، واحتفظتُ بها للمناسبات الخاصَّة أو الرسميَّة، مثل حفل موسيقيٍّ، أو عشاء في مطعمٍ راقٍ حين تريد كوميكو أن نظهر «بملبس أنيق» (في الحقيقةِ لم تكن هناك مناسبات كثيرة كهذه). كانت الربطة مناسبة جدًّا لبذلتي الزرقاء، وكانت كوميكو تحبّها جدًّا. ومع ذلك، لم أستطع أن أتذكَّر متى لبستُها آخرَ مرَّة.

ألقيتُ نظرةً سريعةً على محتويات الخزانة مرَّةً أخرى، ثم استسلمتُ. لقد اختفت الربطة. ارتديتُ بذلتي الزرقاء مع قميص أزرق وربطة عنق مخطَّطة. لم يقلقني الأمر، فربَّما لن تتعرَّف هي إليّ، لكنْ كلُّ ما كان عليّ فعله هو البحث عن امرأةٍ تبدو في الثلاثينيَّات من عمرها تلبس قبَّعةً حمراء.

بعد أن ارتديتُ ملابسي، جلستُ على الأريكة أحدِّق في الجدار. مضت فترة طويلة منذ آخر مرَّة لبستُ فيها بذلة. بذلتي هذه تصلح لثلاثة فصول في السنة، وفي الأوضاع العاديَّة تُعدّ بذلةً

ثقيلةً على هذا الوقت من السنة، لكنّ ذلك اليوم تحديدًا كان يومًا ماطرًا، والجوّ يميل إلى البرودة. كانت هذه هي البذلة نفسها التي ارتديتُها في آخر يوم لي في العمل (في شهر نيسان/إبريل). فجأة خطر لي أنّه قد يكون هناك شيء في أحد جيوبي. وجدتُ في جيب الصدر الداخليّ فاتورةً من فصل الخريف الماضي. قد تكون فاتورةَ تاكسي، وكان يمكنني أن أحصل على تعويض منها من الشركة. أمّا الآن فقد فات الأوان. كَرمشتُها وألقيت بها في سلّة المهملات.

لم ألبس هذه البذلة قطّ منذ أن قدّمتُ استقالتي، قبل شهرين. والآن، بعد هذا الانقطاع الطويل، شعرتُ بأنّني أتعامل مع شيء غريب. كانت ثقيلةً صلبةً، وبدت غيرَ متناسقةٍ مع تقاطيع جسمي. نهضتُ ومشيتُ في الصالة. وقفتُ أمام المرآة أشدّ الكمَّيْن وأطراف البذلة كي تُناسب هيئتي أكثر. مددتُ ذراعيّ، وسحبتُ نَفَسًا عميقًا، ومِلت إلى الأمام كي أرى إنْ كان قوامي قد تغيَّر في الشهريْن الأخيريْن. عدتُ إلى الأريكة، لكنّي ما زلتُ غير مرتاح.

كنتُ إلى ربيع هذا العام أذهب إلى العمل يوميًّا ببذلة من دون أن أشعر بشيء غريب. والحقيقة أنَّ الشركة التي كنتُ أعمل فيها صارمة في ما يتعلَّق بالملبس؛ فحتى الموظَّفون الصغار مثلي لا بدَّ من أن يرتدوا بذلة. ولم يزعجني هذا الأمر. أمّا الآن، فمجرَّد الجلوس على الأريكة بالبذلة بدا لي ضربًا من الزيف، مثل الكذب في السيرة الذاتيَّة، أو الخروج بزيِّ امرأة. وإذ غالبني شعورٌ أشبهُ بتأنيب الضمير، فقد بدأتُ أحسّ بصعوبةٍ أكبر في

التنفُّس. مشيتُ إلى الردهة وسحبتُ حذائي البنِّيّ من الرف، وحشرتُ قدميَّ فيه باللبَّاسة. كانت هناك طبقةُ غبارٍ رفيعة فوق الحذاء.

*

تبيَّن لاحقًا أنَّني لم أكن في حاجة إلى العثور على المرأة؛ فهي التي وجدتني. حين وصلتُ إلى المقهى أخذتُ جولة سريعة في المكان بحثًا عن القبَّعة الحمراء. لم تكن هناك أيُّ نساء بقبَّعاتٍ حُمر. نظرتُ في ساعتي، كانت الرابعة إلَّا عشر دقائق. اتَّخذت مقعدًا، وشربتُ الماء الذي أحضرتْه النادلة، ثم طلبتُ فنجانَ قهوة. وما إنْ ذهبت النادلة حتى سمعتُ من خلفي صوتَ امرأة تقول: «لا بدَّ أنَّكَ السيِّد تورو أوكادا». باغتتني، فالتفتُّ إلى الوراء سريعًا. لم تكد تمضي ثلاث دقائق منذ أن بحثتُ في المكان.

كانت ترتدي سترةً بيضاء من تحتها قميصٌ حريريٌّ أصفر، وفوق رأسها قبَّعة حمراء. وفي ردِّ فعلٍ منِّي وقفتُ أواجهها. كانت من النساء اللائي يمكن أن ينطبق عليهنَّ وصفُ «جميلة». أقلُّه كانت أجملَ بكثير ممَّا تخيَّلتُ من صوتها في الهاتف. قوامُها جميلٌ ممشوق، متخفِّفة في زينة وجهها. تُحسن اختيارَ ملبسها، ما عدا تلك القبَّعة الحمراء؛ فالسترة والقميص يكشفان عن خياطة رفيعة. على ياقةِ السترةِ مشبكٌ ذهبيّ على شكل ريشة. من هيئتها تبدو سكرتيرةً في شركة كبيرة. لكنِّي لم أفهم لماذا تَخْتم هذا التأنُّقَ الباذخَ في ملبسها بارتداء تلك القبَّعة. أتراها ترتديها دائمًا كي تسهِّل الأمر على الآخرين للعثور عليها في حالاتٍ كهذه؟

فكرة لا بأس بها. إنْ كان هدفُ تلك القبَّعة أن تتميَّز في غرفةٍ مليئةٍ بالغرباء، فقد أحسنتِ الاختيارَ.

اتَّخذتْ مقعدَها قبالتي، فجلستُ مرَّةً أخرى.

قلت: «مُدهشٌ أنَّكِ عرفتني. لم أجد ربطةَ عنقي المنقَّطة. أنا واثق بأنَّها موجودة في مكان ما، لكنَّني لم أجدها. لهذا السبب لبستُ هذه الربطة المخطَّطة. قلتُ في نفسي سوف أجدك، ولكنْ كيف عرفتِ أنَّني أوكادا؟»

قالت وهي تضع حقيبتها الجلديَّة البيضاء على الطاولة: «بالطبع عرفتُك». خلعتْ قبَّعتها ووضعتْها على الحقيبة، فغطَّتها. شعرتُ بأنَّها على وشك إجراء خدعةٍ سحريَّة: ترفع القبَّعة فتختفي الحقيبة.

«لكنَّني لا أرتدي الربطةَ الصحيحة».

نظرتْ إلى ربطة عنقي بتعبير حائر كأنَّها تقول: ما الذي يقوله هذا الإنسانُ الغريب؟ «الربطة الصحيحة؟» أومأتْ، ثم قالت: «لا يهمّ».

ثمَّة شيء غريب في عينيْها. فيهما افتقار عجيب إلى العمق. جميلتان، ولكنْ لا يبدو أنَّهما تنظران إلى أيِّ شيء. عيناها محضُ سطحٍ، مثل عينيْن زجاجيَّتيْن. لكنَّهما ليستا زجاجيَّتيْن بالطبع، فكانتا تتحرَّكان والأجفان ترفّ.

ترى كيف استطاعت أن تعرفني في هذا المقهى المكتظّ؟ كانت كلّ المقاعد مشغولة، وكثيرٌ ممَّن يشغلونها رجالٌ في مثل سنِّي. أردتُ أن أستفسر منها، لكنِّي منعتُ نفسي. من الأفضل

ألّا أُثير قضايا خارج الموضوع.

نادت على نادلٍ عابر، وطلبتْ زجاجةَ مياهٍ معدنيَّة من ماركة «بيرييه». قال إنَّها غير متوفِّرة لديهم، ولكنْ بإمكانه أن يحضر لها مياهً غازيَّة. فكَّرتْ في اقتراحه لحظةً ثم وافقتْ. وبينما كانت تنتظر المياهَ الغازيَّة، لم تقل شيئًا، ولا أنا.

وفجأةً، رفعتِ القبَّعةَ الحمراءَ وفتحت الحقيبة. أخرجت منها علبةً جلديَّةً سوداءَ لامعة، أصغرَ من شريط الكاسيت. كانت حافظةَ بطاقاتٍ تعريفيَّة، لها مشبكٌ مثل مشبك الحقيبة. أوَّل مرَّة أرى حافظةَ بطاقاتٍ لها مشبك. سحبتْ بطاقةً وناولتني إيَّاها. مددتُ يدي إلى جيب صدري كي أُخرج بطاقتي، فأدركتُ حينها أنَّني لم أكن أحمل أيّ بطاقةٍ معي.

كانت بطاقتُها من البلاستيك الرفيع، وبدت كما لو أنَّها تحمل نفحةً من بخور. قرَّبتُها من أنفي، فاتَّضحت الرائحةُ أكثر. بخورٌ بلا شكّ. لم يكن في البطاقة سوى سطرٍ واحدٍ من أحرفٍ سوداء صغيرة:

مالطا كانو

مالطا؟ قلبتُ البطاقة، فوجدتُها فارغةً من الخلف. رحتُ أتساءل في نفسي عن معنى هذه البطاقة، فجاء النادلُ ووضع أمام المرأة كأسًا مليئةً بالثلج، ثم صبَّ المياهَ الغازيَّة إلى نصف الكأس المزيَّنة بشريحة ليمون. جاءت النادلة بإبريق قهوة فضّيّ على

صينيَّتها، فوضعتْ فنجانًا أمامي وملأته بالقهوة. ثم تركتِ الفاتورةَ على الطاولة في حركةٍ تشبه مَنْ يدسّ أوراق الحظّ التعيس في أيادي السائلين عن أقدارهم في المعابد، ومضتْ.

قالت مالطا كانو: «إنَّها فارغة». كنتُ ما أزال أحدِّق في خلفيَّة البطاقة. «اسمي فقط. لا حاجة لي بأن أذكر عنواني أو رقمَ هاتفي. فلا أحد يتَّصل بي أبدًا. أنا التي أتَّصل».

«أها». ردٌّ بلا معنى حام في الهواء فوق الطاولة مثل الجزيرة الطافية في رحلات غَلِفر.

أخذتْ رشفةً صغيرةً من القشَّة وهي تمسك الكأسَ بيديْها. عبرتْ في وجهها لمحةٌ من عبوس، ثم نحَّت الكأسَ جانبًا، وكأنَّها فقدتْ كلَّ رغبةٍ فيها.

«مالطا ليس اسمي الحقيقي. كانو حقيقيّ، لكن مالطا هو اسمٌ اتَّخذتُه للمهنة تيمُّنًا بجزيرة مالطا. هل سبق أن زرتَ مالطا سيِّد أوكادا؟»

أجبتُ بأنِّي لم أزرها، ولم أكن أنوي زيارتها في أيِّ وقتٍ قريب. لم يخطر في بالي أن أزورها. كلُّ ما كنتُ أعرفه عن مالطا أغنية هيرب ألبرت **رمال مالطا**، وهي أغنية مقرفة.

«عشتُ فترةً في مالطا. ثلاث سنوات. الماء هناك لا يُحتمل ولا يُمكن شربهُ. كأنَّه ماء بحر مخفَّف. والخبز مالحٌ أيضًا، ليس لأنَّهم يضيفون الملح إليه، بل لأنّ الماء الذي يصنعون منه العجينَ مالح. ومع ذلك فالخبز ليس سيِّئًا. في الحقيقة يُعجبني خبزُ مالطا».

هززتُ رأسي ورشفتُ من قهوتي.

«وعلى الرَّغم من سوء الطعم، فإنَّ هناك مكانًا واحدًا في مالطا للماء فيه تأثيرٌ مذهلٌ في عناصر الجسد. ماء خاصّ جدًّا، بل فيه سحرٌ روحيّ، ولا يوجد إلّا في مكانٍ واحدٍ في تلك الجزيرة. منبعُه في الجبال، وعليك أن تتسلَّق عدَّةَ ساعات من قرية في السفح كي تصل إليه. ولا يمكن نقلُ الماء من النبع. فما إن يُنقل من مكانه حتى يفقدَ قوَّتَه. لا سبيل إلى شرب ذلك الماء إلّا بالذهاب إلى هناك. وهو مذكورٌ في نصوصٍ من أيَّام الحروب الصليبيَّة. كانوا يسمُّونه ماءَ الروح. الشاعر آلن غنزبرغ جاء ذاتَ مرَّة ليشرب منه. والفنّان كِيث رِتشردز كذلك. عشتُ هناك ثلاث سنوات في القرية الصغيرة في سفح الجبل. زرعتُ الخضروات وتعلّمتُ النسج. كنتُ أتسلَّق كلّ يوم إلى النبع وأشرب من ذلك الماء. من العام 1976 حتى العام 1979. ذاتَ مرَّة، ظللتُ أسبوعًا كاملًا أشرب هذا الماء ولا شيء غيره من شراب أو طعام. على المرء ألّا يضع في فمه شيئًا غيرَ ذلك الماء أسبوعًا كاملًا. هذا نوعٌ من الالتزام المطلوب هناك. يمكن أن نسمِّيه تقشُّفًا دينيًا. وبهذه الطريقة تنقِّي جسدَكَ. كانت تجربةً رائعة، ومن هنا اخترتُ اسمَ مالطا حين عدت إلى اليابان».

«هل يمكنني أن أسألَ عن مهنتك».

هزَّت رأسَها. «ليست مهنتي إن أردنا الدقَّة. فلا أتقاضى نَقودًا مقابلَ ما أفعله. أنا استشاريَّة، أتحدَّث مع الناس عن عناصر الجسد، وأُجري أبحاثًا عن المياه ذاتِ الآثار المفيدة لعناصر الجسد. والنقود ليست مشكلةً عندي، فلديَّ كلُّ ما

أحتاجه. والدي طبيب، وقد وضع لي ولأختي الصغيرة أسهمًا وسنداتٍ في صندوقٍ استثماريّ. لدينا مُحاسبٌ يُديرها لنا، فتدرُّ علينا مدخولًا جيّدًا كلَّ سنة. كما أنّني كتبتُ عدّة كتب يأتيني منها مدخولٌ قليل. عملي على عناصر الجسد غير ربحيّ. وهذا هو السبب في أنَّ بطاقتي لا تحمل عنوانًا أو رقمَ هاتف. أنا التي أتّصل».

هززتُ رأسي. لكنّها كانت مجرّد حركةٍ للرأس، أمّا فعليًّا فلم أفهم شيئًا ممّا تقوله. كنتُ أفهم الكلمات، ولكن بدا من المستحيل لي أن أفهم المعنى الكلّيّ لكلامها.

عناصر الجسد؟

آلن غنزبرغ؟

زاد اضطرابي. لستُ من أولئك الناس الذين يملكون حدسًا خاصًّا، لكنّني كلّما قضيتُ وقتًا أطول مع هذه المرأة داخلتني الشكوك وبدأتُ أشتمّ رائحةَ مصيبة.

«أرجو أن تعذريني، لكنْ هل لي أن أطلب منكِ تفسيرَ الأمر من البداية، خطوةً خطوة؟ كلُّ ما قالته لي زوجتي هو ضرورةُ أن أقابلكِ وأتحدّث معك عن قطّنا الضائع. وبصراحة، لا أجد أيّ معنى للكلام الذي كنتِ تقولينه الآن. هل له أيُّ علاقةٍ بالقطّ؟»

«نعم بالتأكيد. ولكنْ قبل الدخول في هذا الموضوع، ثمّة شيء أُريدك أن تعرفه، سيّد أوكادا».

فتحتْ مشبكَ حقيبتها من جديد وأخرجتْ مظروفًا أبيض. في المظروف صورةٌ ناولتْني إيّاها وقالت: «أختي». كانت صورةً

ملوَّنةً لامرأتيْن، إحداهما مالطا كانو، وكانت في الصورة تلبس قبَّعة أيضًا، صفراءَ منسوجةً. مرَّةً أخرى ليس ثمَّة انسجامٌ مع ملبسها. أما أختها (وافترضتُ أنَّها أختُها الصغيرة التي ذكرتها سابقًا) فكانت ترتدي بذلة فاتحةَ اللون وقبّعةً تُطابقُها في اللون، من النوع الذي كان شائعًا في أوائل الستِّينيَّات. أذكرُ تقريبًا أنَّ مثل هذه الألوان كانت تُعرف باسم «لون الشربت». أمرٌ واحد كان أكيدًا، وهو أنَّ الأختيْن تحبَّان القبَّعات. للأخت الصغيرةَ قَصَّةُ شعر جاكلين كينِدي حين كانت في البيت الأبيض. كانت تُفْرط في زينة وجهها، ومع ذلك يمكن القولُ إنَّها جميلة. كانت في بداية العشرينيَّات من العمر أو منتصفِها. أعدتُ الصورةَ إلى مالطا كانو، فوضعتْها في المظروف، وأعادت المظروفَ إلى الحقيبة، وأغلقت المشبك.

«أختي تَصْغرني بخمس سنوات. وقد انتَهَكها نوبورو واتايا. اغتصبها بوحشيَّة».

هذا ما كان ينقصني! أردتُ أن أخرج من هناك، لكنِّي لم أستطع أن أقف وأغادر. تناولتُ منديلًا من جيبي، ومسحتُ فمي ثم أعدتُ المنديلَ إلى الجيب نفسه. ثم تنحنحت.

«هذا أمر فظيع، ولم أكن على علم به. ولكنَّني أشعر بالأسف من أجل أختك ما دام قد آذاها. مع ذلك، لا بدَّ أن أقول لك أنْ لا علاقة بيني وبين صهري هذا. لذلك إنْ كنتِ تتوقَّعين منِّي ـ».

«مطلقًا، سيِّد أوكادا. لا أحمِّلك أيَّ مسؤوليَّة. وفي الحقيقة

إنْ كان هناك شخص ينبغي أن يتحمَّل مسؤوليَّةَ ما حدث فهو أنا، وذلك لغياب انتباهي، ولعدم حمايتي إيَّاها كما ينبغي. للأسف، حدثتْ أشياءُ حالت بيني وبين ذلك. وهذه الأشياء يمكن أن تحدث سيِّد أوكادا. كما تعرف، نحن نعيش في عالمٍ من الفوضى والعنف. وفي هذا العالم أماكنُ أعنفُ من غيرِها، وأكثرُ فوضويَّةً. هل تفهم ما أقصده سيِّد أوكادا؟ ما حدث قد حدث. أختي سوف تتعافى من جروحها، من انتهاكها. لا بدَّ أن تتعافى، ولحسن الأقدار أنَّها لم تكن جروحًا قاتلة. وكما قلتُ لأختي، فقد كان من الممكن أن يحدث شيء أسوأ بكثير جدًّا. ما يقلقني الآن هو عناصرُ جسدها».

«عناصرُ جسدها». كانت تكرِّر الحديث عن «عناصر الجسد» هذه.

«لا أستطيع أن أشرح لك بالتفصيل كيف أنَّ هذه الظروف كلَّها مرتبطة بعضها ببعض. سوف تكون قصَّة طويلةً وشديدةَ التعقيد. ومع أنِّي لا أقصد أيَّ نوع من تقليل الاحترام حين أقول لك هذا، فإنَّه يستحيل في هذه المرحلة أن تستوعب المعنى الحقيقيَّ لهذه القصَّة، لكنَّها من صميم مهنتنا. أنا لم أطلب لقاءك كي أقدِّم شكوى بخصوص هذا الأمر. أنت بالطبع غيرُ مسؤول بأيِّ حال من الأحوال عمَّا حدث. أردتُكَ فقط أن تعرف (على الرَّغم من أنَّه وضع موقَّت) أنَّ عناصرَ أختي قد انتهكها السيِّد واتايا. غالبًا سوف تتواصل معك؛ فهي مساعِدتي كما ذكرتُ سابقًا. وحينها سيكون من الأفضل أن تكون على علمٍ بما حصل بينها وبين السيِّد واتايا، وأن تُدرك أنَّ هذه الأشياء قد تحصل».

تبع ذلك صمتٌ قصير. كانت مالطا تنظر إليّ كما لو أنّها تقول: أرجوكَ فكِّرْ فيما قلتُه. في أنّ نوبورو واتايا اغتصب أختَ مالطا كانو. عن العلاقة بين ذلك وعناصر الجسد. وعن العلاقة بين تلك العناصر واختفاءِ قطّنا.

قلت: «هل أفهم من كلامك أنّكِ وأختَكِ لا تعتزمان التقدُّمَ ببلاغٍ رسميٍّ في هذا الأمر... لن تبلّغا الشرطة؟»

قالت بوجهٍ يخلو من أيِّ تعبير: «كلّا، بالطبع لن نفعل ذلك. نحن لا نُحمِّل أحدًا المسؤولية. نودُّ فقط أن نكوِّن فكرةً أدقّ عن سبب حدوث ذلك الأمر. وإلى أن نحلّ هذه المسألة، هناك احتمالٌ أن يحدث أمرٌ أسوأ».

شعرتُ بارتياحٍ لسماع هذا. لن أنزعج طبعًا أن يُدان نوبورو واتايا بتهمة الاغتصاب ويدخل السجن. فمثله يستحقّ ذلك. لكنَّ نوبورو شخصيَّة معروفة، واعتقاله ومحاكمته سوف تتصدَّران الأخبارَ بالتأكيد، وهذا ما سيُسبِّب صدمةً مريعةً لكوميكو. كنتُ أودّ لو يختفي هذا الأمرُ كلُّه، على الأقلّ كي يرتاح عقلي.

«تأكَّد سيِّد أوكادا أنّني طلبت رؤيتَكَ اليوم من أجل القطّ الضائع فقط. هذا هو الموضوع الذي لجأ إليّ السيِّد واتايا من أجله. أختُه السيِّدة أوكادا طلبتْ مساعدَته، وهو استشارني».

كلامها هذا فسَّر الكثير. فمالطا كانو أشبهُ بالعرّافة أو الوَسيطة الروحيَّة، وقد لجأتْ إليها عائلةُ واتايا لمعرفة مكان القطّ. هذه العائلة مهتمَّة بهذه الأشياء، العِرافة والفِراسة وما إلى ذلك. لا مشكلة لديَّ، فالناس أحرار في ما يؤمنون به. ولكنْ

لماذا يغتصب أختَّ مستشارَته الروحيَّة؟ لماذا يجرّ على نفسه مشكلاتٍ لا داعي لها؟

سألتُها: «هل هذا مجالُ تخصُّصكِ؟ مساعدةُ الناس في العثور على الأشياء؟»

حدَّقتْ فيَّ بتلك العينيْن المعدومتَي العمق، العينيْن اللتين تبدوان كأنَّهما تحدِّقان في نافذة بيتٍ خالٍ. يبدو من تعبير عينيْها أنَّها لم تفهم معنى سؤالي.

ومن دون أن تُجيب قالت: «أنت تسكن في مكانٍ غريبٍ جدًّا، أليس كذلك سيِّد أوكادا؟»

«غريب؟ من أيِّ ناحية؟»

لم تُجب، بل دفعتْ كأسَها نحو عشرين سنتيمترًا بعيدًا منها. «لعلمَكِ، القطط كائناتٌ حسَّاسةٌ جدًّا».

حلَّ صمتٌ آخر علينا.

«بيتنا غريب، والقطط حيوانات حسّاسة. حسنًا، لكنَّنا نعيش هناك منذ فترة طويلة. نحن والقطّ. لماذا الآن فجأةً قرَّر أن يتركنا؟ لماذا لم يغادرْ من قبل؟»

«هذا ما لا أملك جوابه. ربَّما تغيَّر التدفُّق. ربَّما هناك شيء عوَّق التدفُّق».

«التدفُّق!»

«لا أعرف حتى الآن ما إذا كان القطُّ ما يزال حيًّا، لكنَّني متأكِّدة من شيء واحد: أنَّه ليس قريبًا من بيتكم. لن تجد القطّ أبدًا في حيِّكم».

رفعتُ فنجاني ورشفتُ من قهوتي الفاترة. نظرتُ في نوافذ المقهى: كان هناك مطر ضبابيّ يهطل. السماء مغطّاة بسحبٍ سوداء خفيضة. حشدٌ حزين من الناس والمظلّات، يصعد ويهبط من جسر المشاة.

«أعطني يدَكَ».

وضعتُ يدي اليمنى على الطاولة، وراحتُها إلى الأعلى مفترضًا أنَّ مالطا كانو تريد قراءةَ كفِّي. لكنَّها مدَّت يدها ووضعتْ راحتَها فوق راحتي. ثم أغمضتْ عينيْها، وظلَّت ساكنةً تمامًا، كحبيبةٍ توبِّخ حبيبَها الخائنَ بصمت. جاءت النادلة وملأتْ فنجاني بالقهوة، تتظاهر أنَّها لم تُلاحظْ ما نفعله أنا ومالطا كانو. كان مَن حولنا يسترقون النظر. ظللتُ أرجو في داخلي ألَّا يظهر أحدٌ من معارفي في المقهى.

قالت: «أريدكَ أن تستحضر في ذهنك شيئًا واحدًا رأيتَه قبل أن تأتي».

«شيئًا واحدًا؟»

«واحدًا فقط».

فكَّرتُ في الفستان القصير المزهَّر الذي رأيتُه في صندوق ملابس كوميكو. لا أدري لماذا قفز إلى رأسي هذا الشيء تحديدًا. لكنَّ هذا ما حدث.

أبقينا يديْنا على وضعهما خمسَ دقائق أخرى. خمس دقائق بدت طويلة جدًّا، لا لأنَّ الناس كانوا يحدِّقون بي بقدْر ما كان في لمسة مالطا كانو شيء غير مريح. كانت يدها صغيرةً، لا باردةً

ولا ساخنة. لمسةُ يدها ليست لمسةً حميمةً من حبيب، ولا هي لمسة عَمَليَّة من طبيب. تأثيرُ لمستها كتأثير عينيْها. تُحيلني على بيتٍ خالٍ. شعرتُ بأنّي فارغ، لا أثاث، ولا ستائر، ولا سجاجيد. مجرَّد حاوية فارغة لا أكثر. في النهاية سحبتْ مالطا كانو يدها من يدي، وأخذتْ عدَّة أنفاس عميقة، ثم هزَّت رأسَها عدَّة مرَّات.

«سيِّد أوكادا. أنت على أعتاب طورٍ من حياتك سوف تَحْدث فيه أشياءُ كثيرةٌ مختلفة. واختفاء القطّ هو البداية فقط».

«أشياء مختلفة! جيِّدة أم سيِّئة؟»

أمالت رأسَها تتفكَّر. «أشياء جيِّدة وأشياء سيِّئة. أشياء سيِّئة تبدو في البداية جيِّدة، وأشياء جيِّدة تبدو في البداية سيِّئة».

«هذا كلام عامّ جدًّا. أليس لديكِ معلومات محدَّدة ملموسة أكثر؟»

«أعرف أنَّ ما أقوله يبدو غير محدَّد. ولكنْ في النهاية يا سيِّد أوكادا، حين يتحدَّث المرء عن جوهر الأشياء، فإنَّه غالبًا لا يملك إلَّا أن يتحدَّث في العموميَّات. الأشياء الملموسة تشدّ الانتباه، لكنَّها في الغالب ليست سوى توافه. عروض جانبيَّة. وكلَّما حاول المرء أن يرنو ببصره بعيدًا، ازدادت الأشياءُ عموميَّةً».

هززتُ رأسي بصمت، من دون أن أفهم شيئًا ممَّا تقوله.

«هل تسمح لي بالاتِّصال بكَ مرَّةً أخرى؟».

«أكيد». قلتُها مع أنّي في الحقيقة لم أكن أريد أن يتَّصل بي

أحد. كانت كلمة «أكيد» الجواب الوحيد الذي استطعتُ التفوّهَ به.

اختطفتْ قبّعتها الحمراء، وأخذت الحقيبةَ المخبَّأة تحتها، ونهضتْ. لم أعرف كيف أتصرّف، فبقيتُ جالسًا.

قالت مالطا كانو وهي تنظر إليّ بعد أن لبست قبّعتها الحمراء: «لديَّ معلومة صغيرة يمكنني أن أُخبرك بها. سوف تجد ربطةَ عنقِكَ المنقَّطة، ولكنْ ليس في بيتك».

4

أبراج عالية وآبار عميقة
(أو: بعيدًا عن نومونهان)

حين عدتُ إلى المنزل وجدتُ كوميكو في مزاج جيِّد. بل في مزاج جيِّد جدًّا. كانت الساعة توشك على السادسة مساءً، فلم يكن ثمَّة وقت لإعداد وجبة عشاءٍ جيِّدة. لذلك أعددتُ وجبةً بسيطة ممَّا وجدتُه في الفريزر، مع زجاجة بيرة لكلٍّ منَّا. أخذتْ كوميكو تتحدَّث عن العمل، وهذا ما تفعله حين تكون في مزاجٍ جيِّد. تحكي عمَّن قابلتْه في المكتب، وماذا فعلتْ، ومَن أجادَ مِن زملائها ومَن أخفق، وما إلى ذلك.

كنتُ أستمع وأردُّ بما يناسب. لكنِّي في الحقيقة لم أسمعْ إلَّا نصفَ ما كانت تقوله، لا لأنِّي كنتُ أكره الاستماعَ إليها تتحدَّث

في تلك المواضيع؛ بل لأنّي كنتُ أحبّ أن أنظرَ إليها على طاولة العشاء وهي تتحدَّث بحماس عن عملها. كنتُ أقول في نفسي: هذا هو «البيت». كان كلٌّ منَّا يؤدّي واجباته المنزليَّة على أتمّ وجه. هي تتحدَّث عن العمل، وأنا أستمعُ إليها بعد تجهيز العشاء. صحيح أنّ هذا يختلف عن صورة البيت التي كنتُ أتخيَّلها قبل الزواج، لكنَّه البيت الذي اخترتُه. في طفولتي كان لديَّ بيت بطبيعة الحال، لكنَّه لم يكن بيتًا من اختياري. وُلدتُ لذلك البيت، وفُرض عليَّ بوصفه حقيقةً ثابتة. أمَّا الآن، فأنا أعيش في عالم اخترتُه بإرادتي. هذا بيتي. قد لا يكون كاملًا، لكنَّ مبدئي الأساس في ما يتعلَّق ببيتي هو أن أتقبَّله، بما فيه من مشكلاتٍ ونقائص، لأنَّه الشيء الذي اخترتُه لنفسي. وإنْ كانت فيه مشكلات، فهي غالبًا مشكلاتٌ ناشئةٌ من داخلي.

سألتْني كوميكو: «أخبرْني، ماذا حدث بخصوص القطّ؟» لخَّصتُ لها لقائي بمالطا كانو في الفندق في شيناغاوا. أخبرتُها عن ربطة عنقي المنقَّطة، وأنَّني لم أجد لها أثرًا في الخزانة، وأنَّ مالطا كانو استطاعت رغم ذلك أن تَعْرفني في المقهى المزدحم، وأنَّها غريبة الملبس والكلام (ووصفتُ لها ذلك). كانت مستمتعةً بحديثي عن قبَّعة مالطا كانو الحمراء، لكنَّها أُحبطت غايةَ الإحباط حين لم أستطع أن أعطيَها جوابًا واضحًا عن مكان القطّ.

«إذن هي أيضًا لا تعرف مكانَ القطّ؟ وأقصى ما تعرفه هو أنَّ القِطّ لم يعد في حيِّنا؟»

«هذا كلّ شيء». قرَّرتُ ألَّا أذكر لها شيئًا عن موضوع «إعاقة التدفُّق» في المكان الذي نعيش فيه، أو احتمال أن تكون لذلك

علاقةٌ باختفاء القطّ. كنتُ أعرف أنَّ الأمر سيزعجها، ولم أكن أريد المزيدَ من مسبِّبات القلق. فسوف نواجه مشكلةً كبيرةً لو أصرَّت كوميكو على الانتقال من هذا المنزل لأنَّه «مكان سيِّئ». وبالأخذ في الاعتبار وضعنا الماليّ الآن، فلن نتمكَّن من الانتقال.

«هذا ما قالته لي. القطّ لم يعد في مكانٍ قريب».

«وهذا يعني أنَّه لن يعود إلى البيت أبدًا؟»

«لا أدري. كلامُها غامض، ولا شيء واضح فيه سوى تلميحات. لكنَّها قالت إنَّها سوف تتواصل معي حين تعرف المزيد».

«هل تصدِّقها؟»

«لا أدري. أنا لا أعرف شيئًا في هذه الأمور».

سكبتُ لنفسي مزيدًا من البيرة وأخذتُ أحدِّق في رأس الزجاجة حتى استقرَّت. أمَّا كوميكو فوضعتْ يدَها على الطاولة وأسندتْ ذقنَها عليها.

«بالطبع أخبرتْكَ أنَّها لا تقبل أموالًا، أو هدايا من أيِّ نوع».

«نعم. هذه ميزة إضافيَّة. لا شيء نخسره، ما دامت لن تأخذ أموالَنا، أو تسرق أرواحَنا، أو تخطف الأميرةَ الحسناء».

«أريدُ منكَ أن تفهم شيئًا واحدًا. هذا القطّ مهمّ جدًّا بالنسبة إليَّ. أو ربَّما عليَّ القول إلينا. فقد وجدناه بعد أسبوعٍ من زواجنا. وجدناه معًا. هل تذكر؟»

«بالطبع أذكر».

«كان صغيرًا جدًّا، مبلَّلًا تمامًا من وابل المطر. كنتُ في طريقي إلى لقائكَ عند المحطَّة أحمل مظلَّتي. الصغير المسكين.

رأيناه في طريقنا إلى البيت. وضعه شخصٌ في صندوق بيرة عند محلّ بيع الكحول. إنَّه أوَّل قطّ لي. مهمّ جدًّا بالنسبة إليَّ، شيء مثل الرمز، لا أقوى على فقده».

«لا تقلقي. أعرف هذا».

«إذن أين هو؟ مضى على اختفائه عشرةُ أيَّام. لهذا السبب اتَّصلتُ بأخي. قلتُ ربَّما يعرف وسيطًا روحيًا أو عرَّافًا. شخصًا يمكنه العثورُ على قطٍّ ضائع. أعرف أنَّك لا تحبّ أن أطلب شيئًا من أخي، لكنَّه هو الذي سار على درب أبي، ويعرف الكثيرَ عن هذه الأمور».

قلتُ ببرودٍ أشبه بنسمة مساءٍ تهبّ من منفذ هواء: «آه نعم، تقاليد آل واتايا. ولكنْ ما الرابط بين نوبورو واتايا وهذه المرأة؟»

هزّت كتفيْها. «هي بالتأكيد واحدة ممَّن تعرَّف إليهم. يبدو أنَّ لديه الكثيرَ من المعارف هذه الأيَّام».

«أكيد».

«يقول إنَّ لديها قوًى مدهشة، لكنَّها غريبةُ الأطوار». أخذتْ تعبث بمقلاة المعكرونة. «ذكِّرني، ما اسمُها؟»

«مالطا كانو. كانت تمارس نوعًا من التقشُّف الدينيّ في مالطا».

«آه نعم. مالطا كانو. ما رأيكَ بها؟»

نظرتُ في يديّ المسندتيْن إلى الطاولة. «من الصعب أن أحكم عليها. على الأقلّ ليست مملَّة. وهذا جيِّد. أقصد أنَّ العالم مليء بأشياءَ لا يمكن تفسيرُها، ولا بدَّ من وجود شخصٍ يسدّ هذه الفجوة. والأفضل ألَّا يكون شخصًا مملًّا، أليس

كذلك؟ كالسيِّد هوندا مثلًا».

ما إنْ سمعتْ كوميكو اسمَ السيِّد هوندا حتى انفجرتْ في ضحكةٍ عالية. «كان عجوزًا رائعًا. أليس كذلك؟ كنتُ أحبّه جدًّا».

«وأنا كذلك».

*

كنَّا أنا وكوميكو نزور منزلَ العجوز هوندا مرَّةً كلَّ شهر، طوال سنة تقريبًا بعد زواجنا. كان يحضِّر الأرواح، فأصبح أحدَ الوسطاء الروحيِّين المفضَّلين لدى عائلة واتايا. لكنَّه كان يعاني صعوباتٍ شديدةً في السمع، وبصعوبةٍ يفهم ما نقوله، حتى باستخدام سمَّاعته. كانت أبوابُ الشوجي الورقيَّة تهتزّ لفرط صراخنا حتى يسمعَنا. وكنتُ أسأل نفسي كيف يمكنه أن يسمعَ ما تقوله الأرواحُ وهو لا يكاد يسمع. لكنْ ربَّما كان الأمر بالعكس؛ فكلَّما ضعف سمعُكَ، استطعتَ أن تستمعَ إلى كلام الأرواح. فقد السيِّد هوندا سمعَه في الحرب، إذ كان ضابطَ صفٍّ في حامية مانشوريان اليابانيَّة، في جيش كوانتونغ، فانفجرتْ طبلتا أذنه مع انفجار قذيفةِ مدفع أو قنبلةٍ يدويَّة أو شيء كهذا بالقرب منه في معركةٍ مع وحدة مشتركة سوفيتيَّة ـ منغوليَّة خارجيَّة، وذلك في قرية نومونهان على الحدود بين منشوريا ومنغوليا الخارجيَّة[1].

---

(1) كانت دولة منغوليا الواقعة بين روسيا والصين تابعةً لحكم سلالة كينغ في الصين، = إلى أن ثار زعماؤها وأرادوا الاستقلال، فاستعانوا بروسيا واستطاعوا أن يحرِّروا جزءًا من أرضهم سُمِّي «منغوليا الخارجيَّة»، وهي ما يُعرف اليوم بدولة «منغوليا». أمَّا «منغوليا الداخليَّة» فهي منطقة ذاتيَّة الحكم لكنَّها تتبع الصين. (المترجم)

لم يكن باعثَنا إلى زيارة السيِّد هوندا إيمانٌ بقواه الروحيَّة؛ فأنا لم أكترثْ في حياتي قطّ بهذه الأمور، وكوميكو لم تكن تثق كثيرًا بالظواهر الخارقة للطبيعة. صحيح أنَّ بها نفحةً من خرافة، وقد تتشاءم من بعض الأشياء، لكنَّها لم تصل أبدًا إلى حدِّ التعامل مع هذه الأمور الروحيَّة.

السبب الوحيد الذي جعلنا نزور السيِّد هوندا هو أنَّ والد كوميكو أَمَرَنا بذلك. كان هذا هو الشرطَ الذي وضعه كي يوافق على زواجنا. كان شرطًا غريبًا، لكنَّنا تقبَّلناه كي لا تتعقَّد الأمور. في الحقيقة لم نتوقَّع، أنا وكوميكو، أن يرحِّب والداها بزواجنا. كان أبوها مسؤولًا حكوميًّا، وُلد لعائلة فلَّاحين بسيطة في نيغاتا، ثم حصل على منحةٍ للدراسة في جامعةٍ مرموقةٍ في طوكيو، وتخرَّج فيها بامتياز مع مرتبة الشرف، فأصبح من رجالات وزارة النقل. كلّ هذا يستحقّ الإعجابَ بالطبع، ولكنْ كما هو الحال غالبًا مع مَن يَصِلون إلى المعالي بهذه الطريقة، فقد كان مغرورًا معتدًّا برأيه. ولأنَّه اعتادَ إعطاءَ الأوامر، فلم يكن يشكّ لحظةً واحدةً في القيم التي تَحْكم هذا العالمَ الجديدَ الذي ينتمي إليه. مثلُ هؤلاء لا يؤمنون إلَّا بالتراتبيَّة. ينحنون لمن هم أعلى منهم من دون سؤال، ويدوسون على مَنْ هم أدنى منهم من دون تردُّد. لذا، كنَّا نعرف أنا وكوميكو أنَّ رجلًا كهذا لن يوافق على زواج ابنته من شابٍّ نكرةٍ فقيرٍ في الرابعة والعشرين من عمره، لا يملك منصبًا ولا نَسَبًا، ولا درجاتٍ عاليةً أو مستقبلًا واعدًا. لذلك قرَّرنا أن نتزوَّج ونقطعَ علاقتنا بأهلها إنْ فشِلنا في إقناعهم.

لكنَّني مع ذلك قرَّرتُ المضيّ في الأمر وفقًا للأصول.

التزمتُ بالشكليَّات وذهبتُ إلى والديْها وطلبتُ يد كوميكو للزواج. وإنْ قلتُ إنَّهما استقبلاني استقبالًا باردًا، فسيكون ذلك وصفًا ملطَّفًا جدًّا؛ فالحقّ أنَّ أبوابَ ثلَّاجات الدنيا كلّها انفتحتْ في وجهي دفعةً واحدة.

وافق أبواها في نهاية المطاف، على مضضٍ، وتصريف أقدارٍ تشبه المعجزة. والفضلُ في ذلك كلّه كان للسيِّد هوندا. فبعد أن عرف منهما كلّ شيء عنّي، قال لهما إنَّني أفضلُ زوجٍ ممكنٍ لابنتهما. فإذا كانت كوميكو تريد الزواج منّي، فإنَّ رفضهما سوف يُفضي إلى عواقبَ وخيمة. ولمَّا كان والداها يصدِّقان السيِّد هوندا تصديقًا مطلقًا، فلم يكن لهما من خيار آخر غير الموافقة على الزواج.

كنتُ دائمًا دخيلًا في المكان، ضيفًا غير مدعوّ. كنَّا أنا وكوميكو نزور أهلَها ونتناول العشاء معهم مرَّتيْن في الشهر، بانتظام ميكانيكيّ. كانت تجربةً كريهةً جدًّا، تقع في منتصف المسافة تمامًا بين إماتة الجسد والتعذيب الوحشيّ. فأثناء الوجبات كنتُ أشعر أنّ طاولة العشاء طويلةٌ جدًّا كأنَّها محطَّة قطار. كانوا يأكلون ويتحدَّثون عن شيء ما هناك في الطرف البعيد، أمَّا أنا فكنتُ في الطرف الآخر بعيدًا عن مجال رؤيتهم. ظلَّ الوضعُ هكذا سنةً كاملة، إلى أن وقعتْ مشادّةٌ عنيفةٌ بيني وبين والدها، ولم يَرَ أحدُنا الآخرَ بعدها قطّ. كانت الراحة التي شعرتُ بها تصل إلى تخوم النشوة. فلا شيء يستهلك المرءَ مثلَ جهدٍ لا معنى له.

ومع ذلك فقد بذلتُ جهدي لبعض الوقت بعد زواجنا للحفاظ على علاقاتٍ جيِّدةٍ بيننا. وكانت أقلّ تلك الجهود إيلامًا

بلا شكّ زيارتنا للسيِّد هوندا.

كان والدُ كوميكو هو الذي يدفع مستحقّات السيِّد هوندا. أمّا نحن فالمطلوب منّا هو أن نزوره مرّةً كلّ شهر مع زجاجةٍ كبيرةٍ من الساكي، نسمع ما يقوله لنا، ثم نعود إلى البيت. أمر بسيط.

أحببنا السيِّد هوندا منذ اللقاء الأوّل. كان عجوزًا طيِّبًا، يُضيءُ وجهُه ما إن يرى زجاجةَ الساكي التي أحضرناها له. كنّا نحبّ كلّ شيء فيه، ربّما باستثناء تلفازه الذي كان يعمل دائمًا بأقصى صوته، لأنَّ السيِّد هوندا لا يسمع جيِّدًا.

زياراتُنا إليه كانت في الصباح دائمًا. وسواء أكان الفصلُ صيفًا أمْ شتاءً، فقد كنّا نجده دائمًا يضع ساقيْه في المدفأة المحفورة في الأرض. في الشتاء يلفّ نفسَه ببطّانيّةٍ حول خصره كي يحفظ الحرارةَ الناتجةَ من لهب الفحم. أمّا في الصيف فلا يَستخدم البطّانيّة ولا الفحم. كان عرّافًا ذائع الصيت، لكنّه يعيش حياةً بسيطةً جدًّا، بل زاهدة. يعيش في بيت صغير ذي ردهة ضئيلة تكاد لا تتّسع لشخصٍ واحد يربط حذاءه أو يفكّ رباطَه. أمّا حصائر التاتامي فكانت بالية جدًّا، وألواحُ النوافذ مرقّعةً بشريطٍ لاصقٍ بعد أن تصدّعتْ. على الجانب الآخر من المدخل مرآبٌ فيه شخص كان دائمًا يصرخ بأقصى قوّة في رئتيْه. وكان السيِّد هوندا يرتدي كيمونو، هو في الواقع مزيجٌ من المنامة وسترة العمّال، ولا يدلّ مظهرُ هذا الكيمونو على أنّه غُسل في أيِّ وقتٍ قريب. كان يعيش وحيدًا، وتأتيه امرأةٌ للطبخ والتنظيف. ولكنْ لسببٍ أو لآخر لم يكن يدعها تغسل الكيمونو. أمّا شاربا السيِّد هوندا فكانا أبيضيْن رثّيْن، متدلّييْن على وجنتيْه الغائرتيْن.

إنْ كان ثمَّة شيء يمكن أن يوصَفَ بأنَّه مميَّز في بيت السيِّد هوندا، فهو تلفازُه الضخم. كان حضورُه طاغيًا في بيته الضئيل، وكان مفتوحًا دائمًا على شبكة «ان اتش كيه» المدعومة حكوميًا. لا أدري إنْ كان السبب حبّه لهذه الشبكة، أمْ تكاسلًا عن تغييرها، أمْ أنَّ تلفازه لا يستقبل سوى قنوات هذه الشبكة. على أيِّ حال، لم يكن يشاهد غيرها.

يملأ التلفاز تجويفًا زخرفيًا في الصالة كان يمكن أن يتزيَّن بباقة أزهارٍ أو لوحةِ خطٍّ جميل. يجلس السيِّد هوندا في مواجهة التلفاز دائمًا، يقلِّب عَصَوَيْه فوق مدفأته الغائرة، فيما تستمرّ شبكة «ان اتش كيه» في عرض برامج الطبخ، والعناية بنباتات البونساي، وآخرِ الأخبار، والنقاشات السياسيَّة.

قال السيِّد هوندا ذاتَ يومٍ لي، أو لشخص يقف على مسافةٍ بعيدةٍ خلفي: «المجال القانوني قد لا يكون المجال المناسب لك يا بنيّ».

«حقًّا؟»

«نعم. في نهاية المطاف القانون يحكم على أشياء من هذا العالم، حيث الظلّ هو الظلّ، والضوء هو الضوء، والين هو الين، واليانغ هو اليانغ[1]، وأنا أنا، وهو هو.

---

(1) الين واليانغ «وفقًا للفكر الشرقيّ هما القوّتان اللتان تشكّلان جميعَ جوانب الحياة وظواهرها. فالين رمزٌ للأرض والأنوثة والظلام والسلبيَّة والامتصاص. وهو موجود في الأعداد الزوجيَّة، والأودية، والينابيع، ويتمظهر في النمر، واللون البرتقاليّ، والخطّ المقطوع. أمَّا اليانغ فيرمز إلى الجنة والذكورة والضوء والنشاط والاختراق. وهو موجود في الأعداد الفرديَّة والجبال، ويتمظهر في التنِّين واللون الأزوريّ والخطّ غير المقطوع». (المترجم، عن **الموسوعة البريطانيَّة**).

أنا أنا

وهو هو:

عشيّة الخريف.

أمَّا أنتَ فلا تنتمي إلى ذلك العالم يا بنيّ. العالم الذي تنتمي إليه يقع فوق ذلك أو تحته».

من باب الفضول سألتُه: «وأيّهما أفضل؟ الذي فوق أمْ تحت؟»

«لا يوجد واحد أفضل من الآخر». بعد سُعالٍ قصير، بصق كرةً من البلغم في منديل وتفحَّصها جيِّدًا ثم كرمش المنديلَ وألقى به في سلَّة المهملات. «المسألة ليست مسألة أفضل أو أسوأ. المهمّ هو ألَّا تقاوم التدفُّق. ينبغي لك الاتِّجاه إلى الأعلى حين يُفترض بك الصعودُ، والاتِّجاه إلى الأسفل حين يُفترض بك النزولُ. حين ينبغي لك أن تصعد، ابحثْ عن أعلى برج وتسلَّقْه حتى تبلغ قمَّته. وحين ينبغي لك أن تنزل، ابحثْ عن أعمق بئر وانزلْ حتى تبلغ قاعَها. وعندما يتوقَّف التدفُّق، الزمْ مكانَك. فإذا قاومتَ التدفُّق نضب كلُّ شيء. وإنْ نضب كلُّ شيء، أصبح العالم ظلامًا.

أنا هو

وهو أنا:

مساء الربيع.

انبذِ الذاتَ، تصلْ».

سألتُه كوميكو: «وهل هذه إحدى الحالات التي يتوقَّف فيها التدفُّق؟»

«ماذا تقولين؟»

صرختْ كوميكو: «**هل هذه إحدى الحالات التي يتوقَّف فيها التدفُّق؟**»

فقال وهو يومئ إلى نفسه: «لا تدفُّقَ الآن. هذا أوان السكون. لا تفعلوا شيئًا. احذروا الماءَ وحسب. ذاتَ يوم سيَلْقى هذا الشابُّ معاناةً كبيرةً ذاتَ علاقةٍ بالماء. ماء مفقود من المكان الذي ينبغي أن يكون فيه. ماء موجود في مكان لا ينبغي له أن يكون فيه. في كلِّ الأحوال، احذروا الماء حذرًا شديدًا».

كانت كوميكو إلى جانبي تهزّ رأسَها في جدّيَّةٍ بالغة، لكنَّني لاحظتُ أنَّها تُصارع نفسها كي لا تضحك.

سألتُه: «أيّ نوع من الماء؟»

«لا أدري. ماء».

على التلفاز كان أستاذ جامعيّ يقول إنَّ فوضى الناس في استخدام قواعد اللغة اليابانيَّة يتوافق مع الفوضى في أنماط حياتهم. «وإنْ تحرَّينا الدقَّة طبعًا فلا يمكننا أن نسمِّيها فوضى. قواعدُ اللغة كالهواء؛ فقد يوجد شخص في الأعلى يحاول أن يضع قواعدَ لكيفيَّة استخدامه، لكنّ الناس لن يمتثلوا لها بالضرورة». بدا الموضوع لافتًا، لكنَّ السيِّد هوندا تابع حديثَه عن الماء.

«كي أكون صريحًا معكما، فقد عانيتُ بسبب الماء. لم يكن هناك ماء في نومونهان. الخطّ الأماميّ كان غاية في الارتباك، والإمداداتُ انقطعتْ. لا ماء، ولا غذاء، ولا ضمَّادات، ولا رصاص. كان الوضع مروّعًا. أمَّا كبار الضبَّاط في الصفوف

الخلفيَّة فلم يكن يهمّهم سوى شيء واحد: الاستيلاء على الأرض بأسرع ما يمكن. لم يفكِّر أحد منهم بالإمدادات. ظللتُ ثلاثة أيَّام بلا ماء تقريبًا. لو تركتَ قميصَكَ الداخليّ في الهواء، فسوف يبلِّله الندى في الصباح، فيمكنك أن تعصرَ بضعَ قطراتٍ تشربها. ولا شيء غير ذلك. كنت على وشك الموت. كان الأمر غاية في السوء. أسوأ شيء في الدنيا أن يصيبَكَ هذا الظمأ. بعضُ الجنود فقدوا عقولَهم لفرط الظمأ. كان جحيمًا حقيقيًّا. كنَّا نرى نهرًا يتدفَّق أمام أعيننا، لا أوَّل لمائه ولا آخر. لكنَّنا لم نستطع أن نصل إليه. بيننا وبينه صفٌّ من الدبابات السوفييتيَّة الضخمة المستعدَّة بقاذفات اللهب. منصَّات الرشَّاشات منتصبة مثل الدبابيس. والرماةُ مصطفُّون فوق الأرض المرتفعة. كانوا في الليل يقذفون اللهب. أمَّا نحن فكلّ ما لدينا بنادقُ مشاةٍ من طراز 38، في كلٍّ منها خمسٌ وعشرون رصاصة لا غير. ومع ذلك فقد مضى معظمُ رفاقي إلى النهر. لم يطيقوا صبرًا. ولم يعد أيٌّ منهم. كُلُّهم قُتلوا. وهكذا يا بنيّ، حين ينبغي لك البقاءُ في مكانك، الزمْ مكانَك».

أخذ منديلًا، وتمخَّط فيه بصوتٍ عالٍ، ثم نظر في ما أخرج قبل أن يكرمش المنديلَ ويُلقي به في سلَّة المهملات.

«قد يكون انتظارُ التدفُّق متعبًا. ولكنْ حين يتوجَّب عليك الانتظار، لا بدَّ أن تنتظر. في أثناء ذلك، اعتبرْ نفسَكَ ميتًا».

سألتُه: «تقصد أنَّ عليَّ أن أبقى ميتًا هذه الفترة؟»

«ماذا تقول؟»

«تقصد أنَّ عليَّ أن أبقى ميتًا هذه الفترة؟»

«هو هذا يا بنيّ».

الموت هو السبيل الوحيد

كي تطفو حرًّا:

نومونهان».

وراح يتحدَّث عن نومونهان ساعةً أخرى. بقينا أنا وكوميكو نستمع. فقد أُمرنا أن «نتلقَّى تعاليمه»، ولكنْ بعد سنة من الزيارات الشهريَّة لمنزله، لم نجد أيَّ «تعاليم» كي «نتلقَّاها». كان نادرًا ما يمارس المِرافة. الأمر الذي يتحدَّث عنه غالبًا هو حادثةُ نومونهان، وكيف أنَّ قذيفةَ المدفع فجَّرتْ نصفَ جمجمة الملازم الذي كان بجواره، وكيف قفز على دبَّابة سوفييتيَّة وأشعلها بقنبلة مولوتوف، وكيف حاصروا طيَّارًا سوفييتيًّا وأسقطوه. كلُّ القصص التي كان يحكيها لافتة، بل مثيرة، لكنَّها مثل أيّ قصص أخرى تفقد شيئًا من بريقها حين تسمعها سبعَ مرَّاتٍ أو ثمانٍ. وفي الواقع لم يكن «يحكي» تلك القصص، بل يَصْرخ بها. كان كمن يقف على حافَّة جرفٍ في يومٍ عاصف، يصرخ إلينا عبر هاوية. كانِ الأمر أشبهَ بمشاهدة فيلمٍ قديم لكوروساوا من الصفّ السفليّ الأوَّل في السينما. فحين تغادر الفيلم تظلّ عاجزًا بعض الوقت عن سماع أيّ شيء.

ومع ذلك فقد كنَّا نستمتع بقصصه (أو كنتُ أنا أستمتع بها على الأقلّ). معظم تلك القصص كانت دمويَّة، لكنّ تفاصيلَ المعركة الخاسرة تَخلع رداء الواقع حين تخرج من رجلٍ في آخر أيَّامه يلبس رداءً متَّسخًا. كانت أقربَ إلى الحكايات الخياليَّة. قبل

حوالي نصف قرن، خاضت وحدةُ السيِّد هوندا معركةً ضاريةً للاستحواذ على قطعة أرض قاحلة في الحدود المنشوريَّة ـ المنغوليَّة. لم أكن أعرف أيّ شيء عن معركة نومونهان قبل ذلك. لكنَّها كانت معركة مدهشة؛ فقد قاوموا القوَّات السوفييتيَّة المتفوّقة بأياديهم العارية تقريبًا، وسُحقوا. انهارت الوحداتُ العسكريَّة واحدةً تلو الأخرى. أُبيدتْ. وبعضُ الضبَّاط بادروا فأمروا جنودَهم بالانسحاب لتفادي الإبادة، فأجبرهم رؤساؤهم على الانتحار. معظمُ القوَّات التي أسرها السوفييت رفضت المشاركةَ في تبادل الأسرى بعد الحرب، فقد كان أفرادُها يخشوْن من المحاكمة بتهمة الفرار من المعركة. وانتهى الأمر بهؤلاء الرجال إلى الموت على الأرض المنغوليَّة. أمَّا السيِّد هوندا فحين فقد سمعه مُنح إعفاء مشرّفًا من الخدمة، واحترف العِرافة.

«كان في ذلك خيرٌ لي. لو أنّي لم أفقدْ سمعي، لربَّما لقيتُ حتفي في جنوب المحيط الهادي. هذا ما حدث لمعظم القوَّات التي نجت من نومونهان. كانت معركة نومونهان مصدرَ حَرَجٍ كبيرٍ للجيش الإمبراطوريّ، لذلك أرسلوا الناجين إلى مكان يُرجِّح أن يلقوا حتفَهم فيه. أمَّا القادة العسكريُّون الذين تسبَّبوا في تلك المصيبة في نومونهان فقد أكملوا مسيرتَهم المهنيَّة وتقلَّدوا المناصبَ في القيادة المركزيَّة. وبعض أولاد الحرام هؤلاء أصبحوا سياسيِّين بعد الحرب. أمَّا أولئك الذين ذرفوا دماء قلوبهم من أجلهم، فقد قُضي عليهم كلّهم تقريبًا».

سألتُه: «لماذا كانت نومونهان مصدرَ إحراجٍ كبيرٍ للجيش؟ القوَّات كلّها قاتلتْ بشجاعة، وكثير من عناصرها قُتلوا، أليس

كذلك؟ لماذا عومل الناجون تلك المعاملة السيِّئة؟»

لكنَّه لم يسمع سؤالي فيما يبدو. قلَّب عَصَوَيْه وقرعهما. «من الأفضل لك أن تحذر الماء». وبهذا انتهت جلستُنا لذلك اليوم.

*

بعد مشادَّتي مع والد كوميكو توقَّفنا عن زيارة السيِّد هوندا. كان من المستحيل أن أستمرّ في تلك الزيارات وأنا أعرف أنَّ صهري هو الذي يدفع أجرَه. ولم نكن نستطيع أن ندفع، فمدخولنا كان لا يكاد يكفينا. بمرور الوقت نسينا السيِّد هوندا، كما ينسى أغلبُ الشباب كبارَ السنِّ في غمرة انشغالهم.

*

رحتُ أُفكِّر في السيِّد هوندا تلك الليلة وأنا على السرير. لقد تحدَّث هو ومالطا كانو عن الماء. هوندا أوصاني بالحذر، ومالطا كانو عاشت حياةَ تقشُّفٍ دينيٍّ في جزيرة مالطا لإجراء بحثها حول الماء. ربَّما كان الأمر مصادفةً، لكنَّ كليْهما كان يشغله أمرُ الماء. وقد بدأ الأمر يقلقني. نقلتُ أفكاري إلى ساحة المعركة في نومونهان. الدبَّابات السوفييتيَّة ومنصَّات الرشَّاشات والنهر المتدفِّق خلفها. العطش غير المحتمل. كان يمكنني أن أسمع صوتَ النهر في الظلام.

قالت لي كوميكو بصوت خفيف: «تورو. هل ما زلت مستيقظًا؟»

«نعم».

«ربطة العنق. تذكَّرتُ الآن أنِّي أخذتُها إلى المغسلة في

كانون الأوَّل / ديسمبر. كانت بحاجةٍ إلى كيّ. وأظُنّني نسيتُ الأمر».

«كانون الأوَّل؟ أي قبل أكثر من ستَّة أشهر يا كوميكو!».

«أعرف. أنت تعرفني جيّدًا وتعرف أنَّني لا أنسى الأشياء. كما أنَّها كانت ربطةَ عنقٍ رائعة». وضعتْ يدها على كتفي وقالت: «أخذتُها إلى المغسلة قرب المحطّة. برأيك هل ما تزال عندهم؟»

«سأذهب غدًا. ربَّما أجدُها عندهم».

«ما الذي يجعلَك تعتقد أنَّها ما تزال لديهم؟ ستَّة أشهر فترة طويلة. معظم أصحاب المغاسل يتخلَّصون من الأشياء التي لا يسأل عنها أصحابُها بعد ثلاثة أشهر. يحقّ لهم ذلك وفقًا للقانون. لماذا إذن تظن أنَّهم ما يزالون يحتفظون بها؟»

«مالطا كانو قالت إنِّي سأجدها، في مكانٍ ما خارج البيت».

شعرتُ بها تنظر إليَّ في الظلام.

«تقصد أنَّك تصدِّق كلامَها؟»

«بدأتُ أُصدِّق».

قالت بنبرة ابتهاج: «عمَّا قريب قد تُصبح أنتَ وأخي صديقيْن».

«ربَّما».

ظللتُ أُفكِّر في ساحة المعركة في نومونهان بعد أن نامت كوميكو. الجنود كلّهم نائمون هناك. السماء تغطِّيها النجوم، وآلافُ الجداجد تصرّ في الظلام. كنتُ أسمع صوتَ النهر. نمتُ وأنا أنصتُ إليه، يتدفَّق.

5

مدمنُ سكاكرَ الليمون
طائرٌ لا يطير وبئر بلا ماء

بعد أن غسلتُ أطباقَ الفطور، ركبتُ درَّاجتي متَّجهًا إلى المغسلة قرب المحطَّة. كان صاحب المغسلة (وهو رجل نحيف في أواخر الأربعينيَّات ذو تجاعيدَ عميقةٍ في جبينه) يستمع إلى شريط أوركسترا بيرسي فيث[1] من مسجِّلة موضوعة فوق رفّ. كان جهازًا كبيرًا من ماركة «جي في سي»، مع سمَّاعاتٍ ملحقةٍ به وكومة من أشرطة الكاسيت إلى جانبه. كانت الأوركسترا تعزف

[1] بيرسي فيث (Percy Faith) (1908 ـ 1976): عازف ومايسترو كنديّ، عُرف أيضًا بموسيقاه التصويريَّة لعدد من الأفلام. (المترجم)

«لحن تارا»، بأنغامها الوتريَّة الحافلة، وصاحبُ المغسلة في مؤخّرة المحلّ يصفِّر مع الموسيقى وهو يمرِّر مكواةً بخارٍ على قميص، بحركاتٍ نشيطةٍ دقيقة. اقتربتُ من طاولة المحاسبة وقلتُ معتذرًا إنَّني أحضرتُ ربطةَ عنق في أواخِر العام الفائت، ونسيتُ أن أستلمها. بالنسبة إلى عالمه الصغير الهادئ في التاسعة والنصف صباحًا، كان الأمر أشبه برسول يحمل أنباءَ شؤمٍ في مسرحيَّة مأساةٍ إغريقيَّة.

قال بصوت غريب بعيد: «أفترضُ أيضًا أنَّك لم تعد تملك الوصل». لم يكن يتحدَّث إليّ، بل إلى التقويم المعلَّق على الجدار. كانت الصورة المختارة لشهر حزيران / يونيو من جبال الألب: وادٍ أخضر، وأبقارٌ ترعى، وسحابةٌ بيضاء دقيقة الحوافّ تطفو فوق جبل «مون بلان» أو جبل «ماترهورن» أو غيره. نظر إليَّ بتعبيرٍ في وجهه يقول: لئن كان مقدَّرًا لك أن تنسى تلك الربطةَ اللعينة، فكان ينبغي أن تنساها! كانت نظرتُه مباشرةً وبليغةً.

«نهاية العام، هاه؟ الأمر صعب، فنحن نتحدَّث عن أكثر من ستَّة أشهر. حسنًا، سأتأكَّد، ولكنْ لا تتوقَّع أن أجدها».

أطفأ مكواته، ووضعها على لوح الكيّ وهو يصفِّر مع لحنِ **مكان صيفيّ**، وأخذ يفتِّش في أرفُفِ الغرفة الخلفيَّة.

حين كنتُ في الثانويَّة أخذتُ حبيبتي لمشاهدة فيلم **مكان صيفيّ**، من بطولة تروي دوناهيو وساندرا دِي. شاهدنا الفيلم في سينما مخصَّصة لعروض الأفلام القديمة، بتذكرةٍ مزدوجةٍ مع فيلم **اتبع الفتيان** لكوني فرانسِس. كان فيلمًا رديئًا بحسبِ ما أذكر،

لكنّي الآن بعد ثلاث عشرة سنةً وأنا أسمع موسيقاه في المغسلة، لا تحضرني سوى الذكريات الجميلة.

سألني صاحبُ المحلّ: «ربطة عنق زرقاء منقّطة؟ باسم أوكادا؟»

«نعم، هي».

«أنت محظوظ».

*

فور عودتي إلى البيت اتّصلتُ بكوميكو. «وجدتُ الربطةَ عندهم».

«رائع. مبروك».

كان ردُّها مصطنعًا، مثلَ مديح الأبوين لولدٍ حصل على درجاتٍ جيّدة. شعرتُ بعدم ارتياح. ربّما كان ينبغي أن أنتظر حتى ساعة الغداء كي أتّصل بها.

قالت: «خبر مفرح حقًّا، لكنَّ عندي شخصًا ينتظر على الخطّ الآخر. آسفة. هلّا اتّصلت بي عند الظهر؟»

«حسنًا».

بعد أن أغلقتِ الخطَّ خرجتُ إلى الشرفة ومعي جريدةُ الصباح. كالعادة، انبطحتُ على بطني وفرشتُ صفحات الوظائف الشاغرة أمامي، كي أتفحّص كلّ الإعلانات على مهل، لا سيّما أنَّ الصفحات مليئة برموز وإشارات غير مفهومة. مدهشٌ تنوُّع المِهن في هذا العالم، وكلُّ مهنةٍ لها مكانُها في الأعمدة المصفوفة بعناية، مثل خريطة مقبرة.

وكما يحدث في كلِّ صباح، سمعتُ طائرَ الزنبرك يلفّ زنبركَه فوق شجرة في مكانٍ ما. طويتُ الجريدة، وجلستُ مسنِدًا ظهري إلى عمود، أنظر إلى الحديقة. سرعان ما صدح الطائرُ بصوته الأجشّ مرّةً أخرى. صريرٌ طويل تهادى من فوق شجرة الصنوبر في بيت الجيران. بذلتُ جهدي كي أرى ما يوجد خلف الأغصان، لكنّي لم أرَ أثرًا للطائر. كانت تلك صيحتَه وحسب. كالعادة. إذن فقد لفّ الطائرُ زنبركَ العالم لهذا اليوم.

قبيل العاشرة صباحًا بدأ المطر. لم يكن مطرًا غزيرًا. وفي الحقيقة لم يكن للمرء أن يتأكّد إنْ كانت السماء تُمطر فعلًا؛ فالقطرات رفيعة جدًّا ولا يمكنكَ أن تراها إلّا إذا أنعمتَ النظرَ. للعالم حالتان، ممطرة وغير ممطرة، ولا بدَّ أن يكون هناك خطّ فاصل بين الحالتيْن. بقيتُ جالسًا في الشرفة فترةً، أحدِّق في ذلك الخطّ المفترض.

ما عساي أفعل حتى وقت الغداء؟ أأذهب للاستحمام في بركة السباحة العموميَّة؟ أم أذهب إلى الزقاق بحثًا عن القطّ؟ هكذا بقيتُ متردِّدًا بين الخياريْن وأنا مستند على عمود الشرفة، أنظر إلى المطر يهطل في الحديقة.

بركة السباحة.

القطّ.

فاز القطّ. قالت مالطا كانو إنَّ القطّ لم يعد في الحيّ، لكنّني في ذلك الصباح شعرتُ بدافع قويّ للبحث عنه. لقد غدا البحثُ عن القطّ جزءًا من روتيني اليوميّ. كما أنَّ كوميكو قد

تفرح حين تعلم أنَّني حاولت. ارتديتُ معطف المطر الخفيف، وقرَّرتُ ألَّا آخذ مظلَّة معي. لبستُ حذائي الرياضيّ وخرجتُ من البيت بمفتاحي وبضعة سكاكر ليمون في جيب المعطف. عبرت الفناءَ، ولكنْ ما إنْ وضعتُ يدي على الجدار العازل حتى سمعتُ رنين هاتف. وقفتُ في مكاني، أصيخ السمع، لكنِّي لم أستطع أن أحدِّد إنْ كان هاتفَنا أم هاتفَ الجيران. ما إن تترك البيت حتى تتشابه أصواتُ الهواتف كلّها. يئستُ وتسلَّقتُ الجدار.

كنتُ أحسّ بالعشب الناعم من أخمص حذائي. الزقاق هادئ أكثر من المعتاد، فبقيتُ هادئًا برهةً، أتسمَّع، لكنَّني لم أسمع شيئًا. كان الهاتف قد توقَّف عن الرنين، ولم أسمع تغريدَ طيور أو ضجيجَ شوارع. السماء ملوَّنة بلون رماديّ موحّد. في أيَّامٍ كهذه تبدو السحب وكأنَّها تمتصّ الأصواتَ من على سطح الأرض. لا الأصواتَ فقط، بل كلّ شيء. حتى الإدراكات الحسِّيَّة.

حشرتُ يديَّ في جيبي معطفي، وانسللتُ إلى الزقاق الضيِّق حيث تبرز أعمدةُ المناشر في الممرّ، فشققتُ طريقي عرضيًّا بين الجدران، تحت أفاريز البيوت. بهذه الطريقة مضيتُ في طريقي الصامت في هذا الممرّ الذي يشبه قناةً مهجورة. حذائي الرياضيّ على العشب لم يُصدر أيَّ صوتٍ على الإطلاق. الصوت الوحيد الذي سمعتُه في رحلتي القصيرة تلك هو صوتُ مذياعٍ في أحد البيوت. كان برنامجًا حواريًّا يناقش مشكلاتِ المستمعين. رجل في منتصف العمر كان يشكو إلى المذيع حماتَه. فهمتُ ممَّا سمعتهُ أنَّها كانت في الثامنة والستِّين من عمرها، وكانت مهووسةً

بسباقات الخيول. ما إن اجتزتُ البيت حتى بدأ صوتُ المذياع يتلاشى إلى أن اختفى تمامًا، كما لو أنَّ الذي تلاشى إلى اللاشيء لم يكن صوتَ المذياع فقط، بل معه أيضًا الرجلُ وحَماتُه المهووسةُ بالخيول، ولا بدَّ أن يكونا كلاهما موجودًا في مكانٍ ما في هذا العالم.

وصلتُ أخيرًا إلى البيت الخالي. كان منتصبًا هنالك، بصمته المعتاد. على خلفيَّة السحب الرماديَّة الخفيضة، كانت مصاريعُ العواصف في الطابق الثاني مُسمَّرةً، والبيتُ كلّه في حضورٍ معتم ظليل. كان أشبهَ بسفينةِ شحنٍ ضخمة علقت فوق شعاب في ليلةَ عاصفة منذ زمن طويل، وتُركتْ هنالك إلى أن تتحلَّل. لولا الارتفاع الزائد في مستوى العشب منذ زيارتي الأخيرة لربَّما صدَّقتُ أنَّ الزمن قد توقَّف في هذا المكان وحده. لكنَّ الأيَّام المطيرة جعلتْ أوراقَ العشب تتوهَّج ببريق أخضر عميق، وأضفت على المكان رائحةَ الغاب، التي تتفرَّد بها الأشياءُ التي تغرس جذورها في الأرض. وفي منتصف بحر العشب هذا ينتصب تمثالُ الطائر، الذي ما يزال على وضعيَّته التي رأيتُه عليها سابقًا، ينشر جناحيه مستعدًّا للطيران. لكنَّه طائر لا يطير، طبعًا. كنتُ أعرف ذلك، والطائر يعرف. وسوف يبقى ينتظر في مكانه إلى اليوم الذي يُحمل فيه أو يُحطَّم. لا احتمالات أخرى له. أمَّا الشيء الوحيد الذي كان يتحرَّك هناك فهو فراشة بيضاء صغيرة، ترفرف فوق العشب بضعة أسابيع خارج موسمها. يبدو أنَّها لم تنجح في مهمَّتها، شأن باحثٍ نسي ما كان يبحث عنه. وبعد دقائقَ خمس من هذا البحث غير المثمر، انصرفت الفراشةُ إلى مكانٍ ما.

مِلتُ على سياج السلاسل وأخذتُ أنظر إلى الحديقة وأنا أمصّ سكَّرتي. لا أثر للقطّ. لا أثر لأيِّ شيء. بدا المكانُ مثلَ بركةٍ آسنة، في داخلها قوّةٌ هائلةٌ سدَّت التدفُّق الطبيعيّ.

شعرتُ بأحدٍ خلفي، فاستدرتُ بسرعة. لم يكن هناك أحد، سوى السياج على الجانب الآخر من الزقاق، والبوَّابة الصغيرة في السياج، والبوَّابة التي كانت الفتاةُ تقف عندها. لكنَّها مغلقة الآن، أمَّا الفناء فلا أثر فيه لأحد. كلّ شيء كان رطبًا، وصامتًا. كانت هناك روائح. العشب، والمطر، ومعطفي الواقي من المطر، وسكَّرةُ الليمون تحت لساني، نصف ذائبة. كلّها وصلتني مرَّةً واحدةً في نَفَسٍ عميقٍ واحد. التفتُّ كي أتفحَّص المكانَ مرَّةً أخرى، فلم أجد أحدًا. أرهفتُ السمعَ، فتناهى إليَّ صوتٌ مكتومٌ لِمروحيَّةٍ بعيدة. ثمَّة أناسٌ في الأعلى هناك، يطيرون فوق السحاب. ولكنَّ ذلك الصوت نفسَه انسحب إلى البعيد، واسّاقطَ الصمتُ من جديد.

كان لسياج السلاسل المحيط بالبيت الخالي بوَّابةٌ من السلاسل أيضًا. دفعتُها دفعةً خفيفة، فانفتحتْ بسهولة تكاد تكون مخيِّبةً للآمال، كما لو أنَّها كانت تحثّني على الدخول، كما لو أنَّها تقول لي: «لا مشكلة. ادخلْ». لم أكن محتاجًا إلى خبرة ثماني سنوات في القانون كي أعرف أنَّ ما أفعله قد يسبِّب مشكلةً خطيرة. فلو لمحني أحدُ الجيران وأبلغ الشرطة، فسوف يأتون لاستجوابي. سأقول إنَّني كنتُ أبحث عن قطّي؛ فقد اختفى وكنتُ أبحث عنه في كلِّ مكان في الحيّ. سيسألون عن عنواني ووظيفتي، وسوف أُضطرّ إلى إخبارهم بأنّي عاطل. وبالطبع سيزيد

هذا من شكوكهم. قد يكونون قلقين من الإرهابيِّين اليساريِّين، مقتنعين أنَّهم ينتشرون في أنحاء طوكيو، وأنَّهم يُخْفون ترساناتٍ من المسدَّسات والقنابل المصنوعة منزليًا. سيتَّصلون بكوميكو في العمل كي يتحقَّقوا من كلامي. وسوف تنزعج.

لا يهمّ. دخلتُ، وسحبتُ مصراعَ البوَّابة خلفي. إنْ كان سيحدث شيء، فليحدثْ. إن أراد أن يحدث، فليحدثْ.

عبرتُ الحديقةَ وأنا أبحث في المكان. لا صوت من حذائي الرياضيّ فوق العشب. ثمَّة أشجار فاكهةٍ خفيضة لم أعرف أسماءها، مع امتدادٍ وافرٍ من الخضرة. كانت هذه الأشجار قد أفرطتْ في نموِّها، فأصبحتْ تخفي كلَّ شيء. وهناك كُرومٌ قبيحة من زهرة الباشن تزحف فوق شجرتَي فاكهة، فبدتا كأنَّهما مشنوقتان. صفٌّ من نبات العبقة على طول السياج تحوَّل إلى لونٍ أبيضَ مريع، تحت غطاء من بيوض الحشرات. ذبابة صغيرة عنيدة ظلّت تئزّ قرب أذني طوال الوقت.

اجتزتُ التمثالَ الحجريّ ومشيتُ إلى كومةٍ من كراسي الحدائق البيضاء تحت الأفاريز. كان الكرسيّ في أعلى الكومة قذرًا جدًّا، لكنّ الذي تحته لم يكن سيِّئًا. نفضتُ الغبارَ عنه وجلستُ عليه. كان من المستحيل أن يراني أحد من الزقاق بسبب الحشائش الكثيفة والسياج، وكانت الأفاريزُ تحميني من المطر. جلستُ هناك أصفِّر وأنظر في الحديقة، أحتفي بوفرتها من قطرات المَطر الجميلة. في البدء لم أكن أعرف النغمةَ التي أصفِّرها، ثم أدركتُ أنَّها مقدِّمة **العقعق السارق** لروسِّيني، وهو اللحن الذي كنت أصفِّره حين اتَّصلتْ بي المرأةُ الغريبةُ وأنا أطبخ السپاغيتي.

وبينما كنتُ جالسًا في الحديقة، وحيدًا، أنظر إلى العشب والطائر الحجريّ، وأصفِّر لحنًا (بطريقة سيِّئة)، نما إليَّ شعورٌ بأنَّني عدتُ إلى طفولتي. كنتُ في مكانٍ سرِّيٍّ لا يراني فيه أحد. غمرني مزاجٌ هادئ، وشعرتُ برغبةٍ في إلقاء حجر على هدفٍ ما (حجر صغير سَيَفِي بالغرض). الطائر الحجريّ قد يكون هدفًا جيِّدًا. سأضربه ضربةً تكفي لإحداث قرقعة صغيرة. كنتُ ألعب وحدي هكذا كثيرًا وأنا صغير. أضع علبةً فارغة، وأتراجع إلى الوراء، ثم ألقي الصخورَ عليها إلى أن تمتلئ. كنتُ لا أملُّ من هذه اللعبة ولو قضيتُ ساعاتٍ فيها. لكنَّني الآن لا أجد أيّ صخور عند قدميّ. لا بأس، لا مكانَ نجد فيه كلَّ ما نحتاج إليه.

رفعتُ قدميّ، وثنيتُ ركبتيّ، ثم أرحتُ ذقني على يدي، وأغمضتُ عينيَّ. لا أصوات بعدُ. الظلام خلف جفنيَّ المطبقيْن مثل السماء الملبَّدة، لكنَّ اللون الرماديّ كان أعمق بعضَ الشي. وبين الفينة والأخرى يأتي شخص يطلي الرمادي بدرجة أخرى من الرماديّ، بها لمسة من الذهبيّ أو الأخضر أو الأحمر. أذهلني ذلك التنوُّع من الرماديَّات. ما أغربَنا نحن البشر، فكلُّ ما على المرء أن يفعلَه هو أن يبقى ساكنًا عشرَ دقائق فقط، وسوف يرى هذا التنوُّع المدهش من الرماديَّات.

أخذتُ أقلِّب نماذجَ اللون الرماديّ، ثم استأنفتُ التصفيرَ من جديد من دون أن أفكِّر في شيء.

«هيبي».

كان صوتَ شخصٍ ما، ففتحتُ عينيَّ بسرعة، ومددتُ عنقي

جانبًا كي أرى البوَّابة من خلف الحشائش. كانت البوَّابة مفتوحة على وسعها. لقد تبعني شخصٌ ما إلى الداخل. بدأ قلبي يدقّ بقوَّة.

تكرَّر الصوت: «هيبي». كان صوتَ امرأة، مشت من خلف التمثال واتَّجهت نحوي. هي نفسها الفتاة التي كانت تتشمَّس في الفِناء، ترتدي قميصَ الأديداس الأزرق الفاتح نفسَه مع السروال القصير. وهذه المرَّة أيضًا كانت تعرج قليلًا. لا تختلف في شيءٍ عن المرَّة السابقة سوى أنَّها خلعتْ نظَّارتها الشمسيَّة.

«ماذا تفعل هنا؟»

«أبحثُ عن القطّ».

«متأكِّد؟ لا يبدو الأمر كذلك. تجلس هنا وتصفِّر وأنت مغمضُ العينيْن. لا أظنّك ستجد شيئًا بهذه الطريقة».

شعرتُ بنفسي أتورَّد خجلًا.

«لا مشكلة عندي، ولكنْ إن رآكَ شخص لا يعرفك فقد يظنّ أنَّك من أولئك المتلصِّصين المنحرفين». توقَّفتْ لحظة ثم أضافت: «لستَ منحرفًا، صحيح؟»

«كلَّا على الأرجح».

اقتربتْ مني وتفحَّصتْ كومةَ الكراسي ثم اختارت أنظفَها، وتفحَّصتْه من جديد قبل أن تضعَه على الأرض وتجلسَ عليه.

«تصفيركَ سيِّئ أيْضًا. لا أعرف اللحن، لكنَّه نشاز تمامًا. أنت لستَ مثليًا، أليس كذلك؟»

«كلَّا على الأرجح. لماذا؟»

«سمعتُ أنَّ المثليِّن لا يُحسنون التصفير. أهذا صحيح؟»

«وما أدراني؟ لكنَّه يبدو كلامًا فارغًا».

«على أيِّ حال، لا يهمّني إنْ كنتَ مثليًّا أو منحرفًا. بالمناسبة، ما اسمك؟ لا أعرف كيف أناديك».

«تورو أوكادا».

أخذتْ تكرِّر اسمي لنفسها عدَّة مرَّات. «ليس اسمًا مميَّزًا».

«ربَّما لا. لكنَّني كنتُ أرى أنَّ صوته يوحي باسم وزير خارجيَّةٍ من قبل الحرب. تورو أوكادا».

«لا يوحي لي بشيء. أنا أكره التاريخ. أسوأ مادَّة عندي. على أيِّ حال، لا يهمّ. أليس لديك لقب؟ شيء أسهل من تورو أوكادا؟»

لم أستطع أن أتذكَّر لقبًا لُقِّبتُ به مرَّةً في حياتي. تُرى ما السبب؟ قلت: «كلَّا».

«ولا لقب؟ الدبّ؟ الضفدع؟»

«لا شيء».

«يا إلٰهي. فكِّر في لقب».

«طائر الزنبرك».

سألتْني بذهول: «طائر الزنبرك؟ وماذا يكون طائر الزنبرك؟»

«الطائر الذي يلفّ الزنبرك. كلَّ صباح. على قمم الأشجار. يلفّ زنبركَ العالم. هكذا: كرييييك».

واصلتْ تحديقَها بي.

تنهَّدتُ وقلت: «هذا ما طرأ في بالي. يأتي الطائرُ كلَّ يوم إلى بيتي ويصيح في شجرة الجيران: كرييك. ولكنْ لم يره أحد قطّ».

«لقبٌ أنيق. إذن على أيِّ حال سأسمِّيك السيِّد طائر الزنبرك. ليس سهلًا على اللسان، لكنَّه أفضل بكثير من تورو أوكادا».

«شكرًا جزيلًا».

رفعتْ قدميْها إلى الكرسي ووضعت ذقنَها على ركبتيْها.

«وما اسمُكِ أنتِ؟»

«مايو كاساهارا. مايو... مثل شهر مايو».

«هل وُلدتِ في شهر مايو؟»

«وهذه تحتاج إلى سؤال؟ هل تتخيَّل أن يُولد شخص في يونيو ويسمُّونه مايو؟»

«معك حقّ. أفترضُ أنَّكِ ما زلت لا تذهبين إلى المدرسة، صحيح؟»

قالت وهي تتجاهل السؤال: «كنتُ أراقبكَ منذ فترة. من غرفتي. بمنظاري. رأيتُكَ تدخل من البوَّابة. دائمًا ما أحتفظ بمنظار لكي أرى الأشياء التي تدخل الزقاق. أشخاصٌ من كلِّ الأنواع يمرُّون من هنا. أراهن أنَّك لم تكن تعرف هذا. وليس الناس فقط، بل الحيوانات أيْضًا. ماذا كنتَ تفعل هنا وحدك؟»

«أُصفِّي ذهني. أفكِّر في الأيَّام الخوالي. أصفِّر».

قضمتْ مايو كاساهارا ظفرَها. «أنتَ غريبٌ بعضَ الشيء».

«لستُ غريبًا. الناس تفعل ذلك دائمًا».

«ربَّما، لكنَّهم لا يفعلون ذلك في بيوت جيرانهم الخالية. يمكنك أن تفعل ذلك في فنائك إنْ كان كلُّ ما تريدُه هو أن تصفِّي ذهنَكَ وتفكِّر في الأيَّام الخوالي وتصفِّر».

معها حقّ.

«المهمّ. أظنّ نوبورو واتايا لم يعد إلى البيت، هاه؟»

هززتُ رأسي نافيًا. «وأظنُّكِ لم تريه أيضًا».

«لا، رغم أنِّي كنتُ أترصّده. قطٌّ نمريٌّ بُنِّيٌّ مخطَّط. في رأس ذيله عقفة. صحّ؟»

أخرجتْ علبةَ سجائر هوپ من جيب سروالها، وأشعلتْ واحدة. بعد عدَّة أنفاس، حدَّقتْ فيَّ وقالت: «يبدو أنَّ شعرك يتساقط».

تحرَّكتْ يدي تلقائيًّا إلى مؤخّرة رأسي.

«ليس هناك يا بابا، بل في مقدِّمة رأسك. لقد تراجع مَنْبتُ شعركَ أكثرَ ممَّا ينبغي».

«لم ألاحظْ ذلك قطّ».

«أنا لاحظت». أمسكتْ حفنةً من شعرها وسحبتْها للوراء ودفعتْ جبينَها في وجهي: «ستُصاب بالصلع هنا. سوف يتراجع منبتُ شعرك هكذا. لا بدَّ أن تنتبه».

لمستُ منبتَ شعري. لعلَّها محقَّة. ربَّما تراجع قليلًا. أمْ أنِّي أتوهَّم؟ هذا شيء آخر يستدعي القلق.

سألتُها: «ماذا تقصدين؟ كيف أنتبه؟»

«صحيح، لا أظنُّك تستطيع فعلَ أيّ شيء. لا طريقةَ لمنع الصلع. مَن قُدِّرَ له أن يُصابَ بالصلع سيُصاب به. حين يأتي أوانُه، سيحصل، ولا يمكنكَ فعلُ أيّ شيء لإيقافه. يقولون لك إنَّ بإمكانك أن تمنع الصلع إن اعتنيت جيِّدًا بشعرك، لكنَّه كلام فارغ. انظرْ إلى المتشرِّدين الذين ينامون في محطَّة شنجوكو. لديهم شَعر رائع. هل تظنّ أنَّهم يغسلونه كلّ يوم بـ"كلينيك» أو «ڤيدال ساسُون»، أو يفركون رؤوسهم بـ «لوشن إكس»؟ هذا مجرَّد كلام يقوله مصنِّعو أدوات التجميل لكي تشتري منهم».

لفت إعجابي كلامُها فقلتُ: «بالتأكيد أنت محقَّة. ولكنْ كيف لكِ أن تعرفي كلَّ هذه المعلومات عن الصلع؟»

«أنا أعمل بدوام جزئيٍّ في شركة للباروكات. منذ فترة. كما تعرف، أنا لا أذهب إلى المدرسة، ولديَّ وقت فراغ طويل. كنتُ أُجري استبيانات ودراسات استطلاعيَّة، وما إلى ذلك. لهذا السبب أعرف كلَّ ما يتعلَّق بالرجال الذين تَساقط شعرُهم. أصبحتُ مشبَّعةً بالمعلومات».

«يا إلٰهي».

تابعتْ كلامَها وهي تلقي بعقب سيجارتها على الأرض وتدوسه: «ولكنْ أتدري؟ في الشركة التي أعمل فيها، لا يسمحون لك بأن تستخدم كلمة «أصلع». لا بدَّ أن تقول «يعاني تساقُط الشعر». فكلمة «أصلع» تُعتبر نوعًا من التمييز. ذاتَ مرَّةٍ كنتُ أمزح معهم فاقترحت أن نستخدم تعبير «لديه صعوباتٌ في

الحوينصلات». لا تتخيَّل شدَّة غضبهم! وقالوا «اسمعي أيَّتها الفتاة، هذا ليس موضوعًا للتندُّر». إنَّهم يأخذون الأمور بجدِّيِّييية. الناس كلّهم في هذا العالم اللعين يأخذون الأمورَ بجدِّيَّةٍ كبيرة».

أخرجتُ سكاكرَ الليمون وألقيتُ بواحدةٍ في فمي، ثم عرضتُ واحدةً على مايو كاساهارا. فهزَّت رأسها وأخرجتْ سيجارة.

«صحيح، تذكَّرت يا سيِّد طائر الزنبرك. كنتَ عاطلًا عن العمل. هل ما زلتَ عاطلًا؟»

«نعم، بالتأكيد».

«هل أنت جادّ في مسألة البحث عن عمل؟»

«طبعًا». وما إنْ خَرجَت الكلمةُ من فمي حتى بدأتُ أسأل نفسي إنْ كانت صحيحة. «في الحقيقة لستُ متأكِّدًا. أظنّ أنّي أحتاج إلى وقت. وقتٍ للتفكير. لستُ متأكِّدًا ممَّا أحتاجُ إليه. لا أعرف كيف أشرح الأمر».

نظرتْ إليَّ مايو كاساهارا برهةً وهي تمضغ ظفرًا: «اسمعْ سيِّد طائر الزنبرك، لِمَ لا تأتي معي إلى العمل ذات يوم؟ في شركة الباروكات. صحيح أنَّهم لا يدفعون الكثير، لكنَّ العمل سهل ويمكنك أنت أن تحدِّدَ ساعاتِ عملك. ما رأيُك؟ لا تفكِّر كثيرًا. قلْ موافق. تغيير. قد يساعدك هذا في تصفية ذهنك ومعرفةِ ما تريد».

كلامُها مُقْنع. «منطقيّ فعلًا».

«رائع. إذن في المرَّة القادمة سآتي وآخُذُك. قلتَ لي أين يقع بيتك؟»

«هممم، هذا سؤال صعب. أو ربَّما لا. عليكِ المضيُّ في الزقاق مع كلِّ انعطافاته، وعلى اليسار سترين بيتًا فيه سيَّارة هوندا سِفِك حمراء مركونة في الخلف. وعليها واحد من تلك الملصقات «السلام لكلّ شعوب العالم». بيتنا هو الذي يليه، ولكنْ لا بوَّابة له من الزقاق. مجرَّد جدار عازل ينبغي عليكِ تسلُّقه. طولُه إلى مستوى ذقني تقريبًا».

«لا عليكَ. يمكنني أن أتسلَّق جدارًا بهذا الطول، لا مشكلة».

«لم تعد ساقُكِ تؤلمك؟»

نفثتْ دخانًا مشوبًا بصوتٍ يشبه التنهيد وقالت: «لا تقلقْ. أنا أعرج حين يكون والداي هنا، لأنِّي لا أريد الذهابَ إلى المدرسة. أمثِّل، ولكنَّها أصبحتْ عادةً. بتُّ أعرجُ الآن حتى حين لا يَنْظر إليَّ أحد، حتى حين أكون وحيدةً في غرفتي. أحبّ الإتقانَ التامَّ في العمل. هل تعرف المقولة «اخْدع نفسَكَ كي تستطيع خداعَ الآخرين»؟ المهمّ يا سيِّد طائر الزنبرك، أخبرني. هل أنت جريء؟»

«لا».

«لم تكن جريئًا قطّ؟»

«لا، ولا أظنّ أنِّي سأتغيَّر».

«وماذا عن الفضول؟»

«الفضول مسألة أخرى. لديَّ شيء منه».

«أَوَلا تظنّ أنَّ الجرأة والفضول متشابهان قليلًا؟ فحيث تكون الجرأةُ يظهر الفضول، وحيث يكون الفضولُ تظهر الجرأة. أليس كذلك؟»

«همم، ربَّما يتشابهان قليلًا. قد تكونين على حقٍّ. ربَّما يتقاطعان أحيانًا».

«عندما تتسلَّل إلى فناء بيتٍ ما، مثلًا».

قلتُ وأنا أمرِّر سكَّرة الليمون حول لساني: «نعم، مثلًا. حين تتسلَّلين إلى فناء بيتٍ ما، يبدو فعلًا أنَّ الجرأة والفضول يترافقان. الفضول قد يُخرج الجرأةَ من مخبئها أحيانًا، بل ربَّما هو الذي يُطْلقها. لكنَّ الفضول يتبخَّر، أمَّا الجرأة فينبغي أن تستمرّ. الفضول يُشبه الصديقَ الظريفَ الذي لا يمكن الوثوقُ به. قد يُثير اهتمامَكِ بالأمر، ثم يترُكُكِ وحدكِ مع مقدار الجرأة الذي تملكينه».

أخذتْ تفكِّر قليلًا ثم قالت: «أظنّ ذلك. وجهة نظر». بعدها نهضتْ ونفضت الغبارَ العالق في مؤخّرة سروالها، ثم نظرتْ إليَّ. «سيِّد طائر الزنبرك، هل تحبّ أن ترى البئر؟»

البئر؟ سألتُها: «أيَّ بئر؟»

«توجد بئر جافَّة هنا. تُعجبني نوعًا ما. هل تريد أن تراها؟»

*

عبرنا الفناءَ ومشيْنا إلى جانب البيت. كانت بئرًا دائريَّة، ربَّما يصل قطرُها إلى أربع أقدام ونصف. فوقها لوحان خشبيَّان

سميكان مقصوصان على مقاس البئر لتغطيتها، وقالبان إسمنتيّان لتثبيت الغطاء. إفريز البئر قد يصل إلى ثلاث أقدام، وعلى مقربةٍ منه شجرةٌ قديمةٌ وحيدة، كما لو أنّها تحرس البئر. كانت شجرةَ فاكهة، لكنّي لم أعرفْ نوعَها.

مثل كلّ الأشياء المرتبطة بهذا البيت تقريبًا بدت البئرُ مهجورةً منذ زمن طويل. الجوّ المحيط بها يوحي إليك بأنّه ينبغي أن تُسمَّى «الخَدَر الغامر». لعلَّ الجمادات تصبح أكثر جمودًا حين يشيحُ الناسُ عنها.

حين أمعنتُ النظرَ أدركتُ أنَّ البئر كانت أقدمَ بكثيرٍ من الأشياء المحيطة بها. يبدو أنَّها حُفرتْ في عصرٍ آخر، قبل زمنٍ من بناء البيت. حتى الغطاءُ الخشبيّ كان عتيقًا. مُحيط البئر كان مغلَّفًا بطبقة سميكة من الإسمنت، لتقوية البناء بطبيعة الحال. أمَّا الشجرة القريبة فبدت كأنَّها تفاخر بوقوفها هناك قبل أيّ شجرة أخرى في المكان.

أخذتُ قالبًا إسمنتيًّا ووضعتُه على الأرض، ثم أزلتُ أحدَ لوحَي الغطاء الخشبيّ. مِلتُ كي أنظر في البئر ويداي على حافَّتها، لكنّي لم أرَ القاع. من الواضح أنَّها بئر عميقة، ابتلع الظلامُ نصفَها السفليّ. شممتُ البئر، فوجدتُ رائحةً طينيَّةً بعضَ الشيء.

قالت مايو كاساهارا: «لا ماء فيها».

بئرٌ بلا ماء. طائرٌ لا يطير. زقاقٌ بلا مخرج. و ــ.

التقطتْ مايو حجرًا من الأرض وألقته في البئر. بعد لحظة

جاء صوتُ ارتطامٍ جافّ خفيف. كان الصوت جافًّا، يابسًا، وكأنّه يمكنك أن تُكرمشه في يديْك. نهضتُ منتصبًا ونظرتُ إلى مايو كاساهارا: «ترى لماذا لا ماءَ فيها؟ هل جفّت؟ هل رَدَمَها أحدٌ ما؟»

هزّت كتفيْها. «ولكنْ حين يردم الناسُ بئرًا، أوَلا يردمونها حتى رأسها؟ من غير المنطقيّ أن تُترك حفرةٌ جافّةٌ هكذا. فقد يسقط فيها أحد. أليس كذلك؟»

«أعتقد أنّكِ محقّة. لا بدّ أنّ شيئًا حدث وجعل البئرَ تجفّ».

على حين غرّةٍ تذكّرتُ كلامَ السيّد هوندا. «حين ينبغي لك أن تصعد، ابحثْ عن أعلى برجٍ وتسلّقْه حتى تبلغ قمّته. وحين ينبغي لك أن تنزل، ابحثْ عن أعمق بئر وانزلْ حتى تبلغ قاعَها». لقد باتت لديَّ الآن بئر. مِلْتُ على الحافّة من جديد ونظرتُ في الظلام، من دون أن أتوقّع رؤيةَ شيء محدّد. في مكانٍ مثل هذا، وفي منتصف النهار هكذا، ثمّة ظلامٌ عميق. تنحنحتُ وبلعتُ ريقي. تردّد الصدى في الظلام، وكأنّ شخصًا آخر يتنحنح. ما يزال في ريقي طعمُ سكّرة الليمون.

*

أعدتُ الغطاءَ على البئر، ووضعتُ قالَب الإسمنت فوقه، ثم نظرتُ في ساعتي. كانت قرابة الحادية عشرة والنصف. لقد حان وقتُ الاتّصال بكوميكو في استراحة غدائها. «عليَّ الذهاب الآن».

عَبَستْ مايو كاساهارا قليلًا، ثم قالت: «اذهبْ سيّد طائر

الزنبرك. حلّقْ إلى بيتك».

حين عبرنا الفناءَ كان الطائرُ الحجريّ ما يزال يحملق في السماء بعينيْه الجافَّتيْن. السماء نفسها ما تزال ملبَّدةً بغطاءٍ من الغيوم الرماديَّة. لكنَّ المطر قد توقَّف. قطعتْ مايو كاساهارا حفنةً من العشب وألقت بها نحو السماء. وإذ لم تكن هناك أيُّ ريح تحملها، فقد سقطتْ أوراقُ العشب عند قدميَّ.

قالت من دون أن تنظر إليّ: «احسبْ عددَ الساعات التي تبقَّت بين الآن وغروبِ الشمس».

«صحيح. ساعات كثيرة».

6

عن ميلاد كوميكو أوكادا ونوبورو واتايا

يصعب عليَّ أن أتخيَّل كيف يشعر الإخوة بعضهم حيال بعض حين يلتقون وهم كبار؛ فقد كنتُ وحيدَ أبويّ. أمَّا كوميكو، فكلَّما جاء ذِكْرُ نوبورو واتايا ارتسمتْ في وجهها نظرةٌ غريبة، كما لو أنَّها أَدخلتْ في فمها بالخطأ شيئًا غريبَ المذاق. غير أنّي لم أعرف معنى تلك النظرة تحديدًا. لم أكن أحملُ لأخيها الأكبر أدنى شعور إيجابيّ، وكانت تعرف ذلك ولا تستهجنُه. بل إنَّها هي نفسها أبعدُ ما تكون عن الإعجاب به. كان من الصعب أن يتخيَّل المرء حوارًا يجمعهما، لولا علاقةُ الدم التي تربطهما. لكنَّهما كانا شقيقَيْن في كلِّ الأحوال، وهذا ما زاد الأمور تعقيدًا.

بعد مشادَّتي مع والد كوميكو وقطعي كلَّ أشكال التواصل مع

أسرتها، لم يبقَ لها من سبب يدفعها إلى رؤية نوبورو واتايا. كانت مشادَّةً عنيفة. لم تكن لي مشادّاتٌ كثيرةٌ في حياتي، فليس هذا من طبعي، لكنَّني ما إنْ أدخل في مشادَّة حتى آخذَها إلى مُنتهاها. وهكذا كانت مقاطعتي لوالد كوميكو نهائيَّة. الغريبُ أنَّني بعدها (أيْ حين ألقيتُ عن صدري كلَّ ما كنتُ أحتاج إلى إلقائه)، لم يبقَ في داخلي أثرٌ للغضب. كان مجرَّد شعورٍ بالارتياح. لم أضطرّ إلى رؤيته مرَّةً أخرى، فشعرتُ كما لو أنَّني رفعتُ عن كاهلي حملًا ثقيلًا. لم يبق شيء من غضبٍ أو كراهية، بل إنَّني شعرتُ بشيء من التعاطف مع الصعوبات التي واجهها في حياته، على الرَّغم ممَّا قد تبدو عليه تلك الحياةُ من سخفٍ وقرفٍ بالنسبة إليَّ. قلتُ لكوميكو إنَّني لن أزور والديْها مرَّةً أخرى، لكنَّها تستطيع زيارتَهما في أيِّ وقتٍ تريد. غير أنَّها لم تحاول أن تزورهما. قالت: «لا بأس. لم أكن متلهِّفةً لزيارتهما على أيِّ حال».

كان نوبورو واتايا يسكن مع والديه آنذاك، لكنَّه آثر الانسحاب حين بدأت المشادَّة بيني وبين والده، من دون أن يقول شيئًا لأيٍّ منَّا. لم أستغرب ذلك منه، فقد كنتُ شخصًا عديمَ الأهمِّيَّة بالنسبة إليه. كان يبذل كلَّ ما في وسعه كي يتفادى التواصلَ معي، إلَّا إذا اقتضت الضرورة. وهكذا حين قاطعتُ والدَيْ كوميكو، لم يعد ثمَّة داعٍ لرؤية نوبورو واتايا. كوميكو نفسها لم تجد داعيًا لرؤيته هي الأخرى. كان مشغولًا، وهي مشغولة، على أنَّهما لم يكونا مقرَّبَيْن واحدهما من الآخر أساسًا.

ومع ذلك، فقد كانت كوميكو تتَّصل به من وقتٍ إلى آخر في

مكتبه، وهو يتَّصل بها أحيانًا في مكتبها (لكنَّه لم يتَّصل بهاتف المنزل قطّ). كانت تُخبرني بهذه المكالمات من دون أن تفصّل في محتواها. لم أسألها قطّ، ولم تقل هي شيئًا إلَّا إنْ كان ضروريًّا. في الواقع لم يكن يهمّني ما تتحدَّث فيه مع نوبورو واتايا. لا أقصد أنِّي لا أستسيغ تواصلهما، لكنَّني لم أستطع أن أفهمه. ترى ما الذي يمكن أن يتحدَّث فيه شخصان مختلفان إلى هذا الحدّ؟ أم أنَّ الأمر يحدث عفويًّا بسبب القربى؟

*

صحيحٌ أنَّهما شقيقان، لكنَّ نوبورو واتايا يَكْبُرها بتسع سنوات. أمَّا السبب الآخر في غيابِ التقارب بينهما فهو أنَّ كوميكو عاشت فترةً من حياتها مع أسرة أبيها.

لم تكن كوميكو ونوبورو الطفلَيْن الوحيدَيْن في بيت واتايا؛ فقد جاءت بينهما أختٌ أكبر من كوميكو بخمس سنوات. لكنَّ كوميكو أُرسلتْ من طوكيو إلى نيغاتا البعيدة وهي في الثالثة من عمرها، كي تنشأ هناك فترةً مع جدَّتها لأبيها. قال لها والداها لاحقًا إنَّهما أرسلاها إلى هناك لأنَّها مريضة، والريفُ أنقى هواءً لصحَّتها، لكنَّها لم تصدِّق ذلك. لا تَذْكر كوميكو أنَّها كانت في يوم من الأيَّام واهنةَ الجسم، أو تشكو من مرضٍ خطير، ولم يُبدِ أحدٌ من أهلها في نيغاتا أيَّ قلقٍ على صحَّتها. قالت لي كوميكو ذاتَ مرَّة: «أنا متأكِّدة أنَّه كان مجرَّد عذر لا أكثر».

تعزَّزتْ شكُوكها حين سمعتْ شيئًا من أحد أقاربها. يبدو أنَّ عداءً قديمًا كان قائمًا بين والدة كوميكو وحماتها، لذلك كان إرسالُ كوميكو إلى نيغاتا نتيجةً لصلحٍ بينهما. فحين تُسترضى

الجدّة، وتتربّى الحفيدة في حضن جدَّتها، تتعزَّز علاقةُ الأمّ بولدها (والد كوميكو). هكذا إذن كانت كوميكو أشبهَ بالرهينة.

قالت كوميكو: «كما كان لديهما طفلان أصلًا. فالثالثة لن تكون خسارةً كبيرة. لا أقول إنَّهما كانا يخطِّطان للتخلُّص منِّي، لكنَّهما اعتقدا أنَّ إرسالَ طفلةٍ بعيدًا عن أسرتها لن يكون أمرًا قاسيًا عليها. لعلَّهما لم يفكِّرا كثيرًا في الأمر. كان مجرَّد حلٍّ سهلٍ للمشكلة. هل تصدِّق؟ لا أدري كيف لم تكن لديهما أدنى فكرة عن الأثر الذي يمكن أن يتركه هذا في طفلةٍ صغيرة».

تولَّت الجدَّةُ رعايتَها في نيغاتا من سنِّ الثالثة إلى السادسة، ولم يكن في حياتها في الريف ما يُحزن أو يُسيء. بل على العكس كانت جدَّتُها تغمرها بالحبِّ، وكانت كوميكو مستمتعةً باللعب مع أبناء عمومتها (الأقرب إلى سنِّها)، أكثرَ ممَّا قد تستمتع به مع شقيقَيْها. لكنَّ كوميكو عادت إلى طوكيو في سنة دخولها إلى المدرسة الابتدائيَّة؛ فقد بدأ والداها يقلقان من هذا الانفصال المتطاول عن ابنتهما، فأصرّا على إعادتها قبل فوات الأوان. غير أنَّ الأوان كان قد فات فعلًا. ففي الفترة التي أعقبتْ قرارَ إعادة كوميكو، ازدادت جدَّتُها عصبيَّةً وانفعالًا. امتنعتْ عن الأكل، وكانت لا تكاد تنام. كانت تحتضن كوميكو ساعةً بكلِّ قوَّتها، ثم في ساعةٍ أخرى تضربها بمسطرةٍ على ذراعها ضربةً مبرِّحة. تقول لها في ساعة إنَّها لا تقوى على فراقها، وإنَّها تفضِّل الموت على ذلك، ثم في ساعة أخرى تقول لها اذهبي ولا أريد أن أراكِ مرَّةً أخرى. كانت تتحدَّث أمام كوميكو عن أمّها بأقذع الألفاظ. وذات مرَّةٍ حاولتْ أن تطعن معصمها بالمقصِّ. لم تستطع كوميكو

أن تفهم ما يجري من حولها. كان الوضع أكبرَ من قدرتها على الاستيعاب.

اكتفت كوميكو بأنْ عزلتْ نفسَها عن العالم الخارجيّ. أغمضت عينيْها. سدَّت أذنيْها. وأقفلت عقلها. وضعتْ نهايةً لأيّ شكلٍ من أشكال التفكير أو الأمل. كانت الأشهر التي أعقبتْ ذلك صفحةً بيضاء. لا تذكر أيَّ شيء حدث في تلك الفترة. وحين استفاقت وجدتْ نفسَها في بيت جديد، هو البيت الذي ينبغي لها أن تكون فيه منذ البداية. هناك والداها، وأخوها، وأختُها. لكنَّه لم يكن بيتها. كان بيئةً جديدة.

هكذا أصبحتْ كوميكو طفلةً صعبةَ المراس صَموتةً في هذا المحيط الجديد. لا تثق بأحد، ولا يمكنها أن تعتمد على أحدٍ اعتمادًا مطلقًا. بل إنَّها حتى في حضن والديْها لم تشعر بالارتياح الكامل قطّ. لم تكن تعرف رائحتَهما. أشعرتْها تلك الرائحةُ بالاضطراب، بل إنَّها في بعض الأحيان كرهتها. لم تستطع أن تفتح قلبها لأحد في تلك الأسرة، إلّا لأختها، وبعد عناء. أمَّا والداها فقد يئسا من المحاولة، وأمَّا أخوها فلم يكد يشعر بوجودها. لكنّ أختها هي التي كانت تدرك الحيرة والوحدة خلف ذلك المزاج العنيد. هكذا بقيَت قرب كوميكو طوال تلك الفترة، ونامت معها في الغرفة نفسها، وأخذت تتحدَّث معها، وتقرأ لها، وتمشي معها إلى المدرسة، وتساعدها في واجباتها الدراسيَّة. حين تقضي كوميكو الساعات مكوَّمةً على نفسها في زاوية الغرفة تبكي، وحدها أختُها كانت تحتضنها. كانت تبذل كلَّ ما في وسعها كي تدخل إلى قلب كوميكو. ولو لم تمت جَرَّاء تسمُّم

غذائيّ بعد عودة كوميكو بسنة، لكان الوضع مختلفًا جدًّا.

قالت كوميكو مرّةً: «لو أنَّ أختي عاشت، لربَّما أصبحت الأمورُ أفضل في بيتنا. كانت مجرَّد فتاةٍ في الحادية عشرة، لكنَّها كانت قلبَ البيت. ربّما لو لم تمت، لكنَّا أصبحنا أكثر طبيعيَّةً ممَّا نحن عليه الآن. على الأقلّ لم أكن لأصبح حالةً ميؤوسًا منها هكذا. هل تفهم قصدي؟ لقد شعرتُ بتأنيب الضمير حين ماتت. لماذا لم أمت أنا بدلًا منها؟ لم أزد شيئًا في حياة أحد، ولم أُدخل بهجةً في قلب أحد، فلماذا لستُ أنا التي تموت؟ أدرك والداي ما كنتُ أشعر به، لكنَّهما لم يقولا شيئًا يخفِّف عنِّي. بل على العكس، كانا يتحدَّثان في كلِّ مناسبة عن أختي التي ماتت: عن جمالها، وذكائها، وحبّ الجميع لها، وكيف كانت تهتمّ بالآخرين، وكيف كانت تُحسن العزفَ على البيانو. ثم جعلاني أنا أتلقَّى دروسًا في البيانو! كان لا بدَّ أن يستخدم أحدٌ ما ذلك البيانو الكبيرَ بعد وفاتها. لم يكن لديّ أدنى اهتمام بالعزف، وكنتُ أدرك أنَّني لن أستطيع أبدًا أن أعزفَ مثلها، ولَم أكن في حاجةٍ إلى دليل آخر للكشف عن قصوري عنها. لم أكن أستطيع أن آخذ مكانَ أيِّ شخصٍ آخر، وهي تحديدًا، ولم أكن أريد ولو مجرَّد المحاولة. لكنَّهم لم يستمعوا إليّ قط. لم يستمعوا. وإلى اليوم أكره منظرَ البيانو، وأكره رؤيةَ أيِّ أحدٍ يعزف».

حين سمعتُ هذا من كوميكو شعرتُ بغضب عارم من أسرتها بسبب ما فعلتْه بها، وما لم تفعلْه من أجلها. كان ذلك قبل زواجنا. كنَّا قد تعارفنا قبل أكثر من شهرين. وكان صباحَ يوم أحدٍ هادئ، ونحن في الفراش. حدَّثتني طويلًا عن طفولتها،

وكأنَّها تحلّ عقدةً من الخيوط، تتوقَّف بين لحظة وأخرى لتتأكَّد من صحَّة كلِّ حادثة وهي تقولها. كانت تلك أوَّلَ مرَّة تحكي لي فيها هذا القَذرَ عن نفسها. فلم أكد أعرف شيئًا عن عائلتها أو طفولتها قبل ذلك اليوم. كنتُ أعرف أنَّها هادئة، وأنَّها تحبّ الرسم، وأنَّ شَعرها طويل جميل، وأنَّ لها شامتيْن على منكبها الأيمن، وأنَّ أوَّل مرَّةٍ مارستْ فيها الجنسَ كانت معي.

كانت تبكي قليلًا وهي تتحدَّث. كنتُ أُدرك حاجَتها إلى البكاء. فاحتضنتُها، ومسَّدتُ شعرَها. قالت: «لو أنَّها عاشت، كنتَ ستحبّها بالتأكيد. الكلّ كان يحبّها. حبًّا من النظرة الأولى».

قلت: «ربَّما. لكنَّني وقعتُ في غرامكِ أنتِ. الأمر بسيط. بيني وبينكِ فقط. لا علاقة لأختكِ بالأمر».

ظلَّت كوميكو مستلقيةً تفكّر برهةً. السابعةُ والنصف صباح الأحد. الوقت الذي يبدو كلُّ شيء فيه ناعمًا، وأجوف. سمعتُ صوتَ الحمام يهدل فوق سطح شقّتنا، وصوتَ شخصٍ يُنادي كلبًا في مكان بعيد. أخذتْ كوميكو تحدِّق طويلًا في بقعةٍ في السقف.

وأخيرًا قالت: «قل لي. هل تحبّ القطط؟»

«أعشق القطط. في طفولتي كانت لديَّ دائمًا قطَّة، ألعب معها طوال الوقت. بل أنام معها».

«محظوظ. كنتُ أتلهَّف للحصول على قطَّةٍ، لكنَّهم لم يسمحوا لي. أمِّي تكره القطط. أتدري، ولا مرَّة في حياتي حصلتُ على شيء أريدُه فعلًا. ولا مرَّةً. هل تصدّق؟ لا يمكنك أن تفهم معنى العيش هكذا. ما إن تعتاد حياةً لا تحصل فيها أبدًا

على أيّ شيء تريده، حتى تفقد القدرةَ على معرفةِ ما تريد».

أمسكتُ يدها. «ربَّما كانت هذه هي الحال قبل الآن. لكنَّكِ لم تعودي طفلة. لكِ الحقّ في اختيار حياتك. ويمكنك البدءُ من جديد. إنْ كنتِ تريدين قطَّةً، فكلُّ ما عليك فعله هو اختيارُ الحياة التي يمكنكِ فيها أن تحصلي على قطَّة. الأمر بسيط. هذا حقّك، أليس كذلك؟»

ظلَّت تحدِّق بي. ثم قالت: «اممم، صحيح». وما هي إلَّا بضعة أشهر حتى بدأنا نتحدَّث في أمر الزواج.

*

لئن كانت طفولةُ كوميكو في ذلك البيت صعبةً وغير طبيعيَّة، فإنَّ صِبا نوبورو واتايا في البيت نفسه كان مشوَّهًا على نحوٍ عجيب. كان الوالدان مفتونَيْن بابنهما الوحيد، لكنَّهما لم يتوقَّفا عند إغراقه بالعاطفة، بل أخذا يطالبانه بأشياء أخرى كذلك. كان الأب مقتنعًا بأنْ لا سبيل للمرء كي يعيش حياةً كاملةً في المجتمع اليابانيّ إلَّا بالحصول على أعلى الدرجات، وإزاحةِ كلّ شخصٍ وأيّ شخصٍ يقف في طريقه إلى القمَّة. كان مؤمنًا بذلك تمام الإيمان.

سمعتُ هذا الكلامَ منه بُعَيْد زواجي من ابنته. الناس لم يُخلقوا سواسية. هذا محضُ كلام فارغ يبدو في ظاهره صالحًا، عَلَّموك إيَّاه في المدرسة. قد تكون لليابان البنيةُ السياسيَّةُ لدولةٍ ديمقراطيَّة، لكنَّها في الوقت نفسه مجتمعٌ طبقيّ شديدُ الضراوة، يلتهمُ فيه القويُّ الضعيفَ. وإنْ لم تصبح واحدًا من نخبة القوم،

فلا فائدةَ من عيشك في هذه البلاد. سوف تُسحق إلى تراب. عليكَ أن تقاتل حتى تصعد كلَّ درجة من هذه السلالم. وهذا طموحٌ إيجابيٌّ تمامًا؛ فإنْ فقد الناسُ هذا الطموح، هَلكت اليابان. لم أقدِّم أيَّ رأيٍ إلى صهري في كلامه هذا. ولم يكن هو ينتظر رأيي. كان يلقي خطبةً في ما هو مقتنع به، وهي قناعة سوف تظلّ ثابتةً إلى أبد الأبد.

أمَّا والدة كوميكو فكانت ابنةَ مسؤولٍ رفيعٍ في الدولة، ونشأتْ في أرقى أحياء طوكيو، لا ينقصها شيء، ولا تملك الرأيَ ولا الشخصيَّة التي تؤهِّلها لمعارضة زوجها. أذكرُ أنَّه لم يكن لها رأي على الإطلاق في أيِّ شيءٍ، ما لم يوضع أمام عينيْها مباشرةً (وقد كانت بالفعل تعاني قِصرَ نظرٍ شديدًا). وكلَّما استجدَّ شيء استعارتْ آراءَ زوجها. ولو أنَّ الأمر اقتصر على ذلك ما كانت لتزعج أحدًا، ولكنْ كما هو الحال عادةً مع هذه النوعيَّة من النساء، فقد كانت تعاني ادِّعاءً زائفًا ميؤوسًا منه. فمثل هؤلاء الناس لا يتَّخذون موقفًا إلَّا إذا تبنُّوا آراءَ الآخرين أو معاييرَهم، ذلك أنَّهم لا يملكون أيَّ قيم خاصَّة. المبدأ الوحيدُ الذي يحكم عقولهم هو: «كيف أبدو؟» لذلك كانت السيِّدة واتايا امرأةً ضيِّقةَ الأُفق، متوتِّرةَ الأعصاب، لا يَشْغلها سوى منصبِ زوجها في الحكومة وتحصيلِ ابنها في الدراسة. وكلّ ما عدا ذلك لم يعد يعنيها.

حَفر الوالدان تلك الفلسفةَ المريبةَ في عقل ابنهما الشابّ نوبورو واتايا. بل وجَّهاه إلى غايةٍ محدَّدة، وأحضرا له أفضلَ المعلِّمين. وكان حين يحصل على مرتبة الشرف يُكافأ بشراء أيِّ

شيء يريده. كانت طفولتُه عبارةً عن رفاهيَّة مفرطة. لكنَّه حين وصل إلى تلك المرحلة العمريَّة الأكثر حساسيَّةً وخطورةً، لم يكن لديه وقتٌ للحبيبات، ولا فرصةٌ للمغامرات الطائشة مع أصدقائه. كان المطلوب منه أن يركِّز طاقاته كلَّها في الحفاظ على موقعه في القمَّة. ولستُ أدري حقيقةً ما إذا كان نوبورو واتايا سعيدًا بهذه الحياة أمْ لا. ولا حتى كوميكو تدري. لم يكن من طبع نوبورو واتايا أن يكشف عن مشاعره، لا لأخته ولا لوالديْه ولا لأحدٍ على الإطلاق. على أيِّ حال لم يكن مخيَّرًا في ذلك. يبدو لي أنَّ بعض أنماط التفكير، حين تكون شديدة البساطة والأحاديَّة، تصبح عصيَّةً على المقاومة. المهمّ أنَّ نوبورو واتايا تخرَّج في مدرسةٍ نخبويَّةٍ خاصَّة، وتخصَّص في الاقتصاد بجامعة طوكيو، ثم تخرَّج في هذه الجامعة المرموقة بتقديرٍ مرتفع.

كان والده ينتظر منه أن يتوظَّف في الحكومة أو في شركة كبيرة بعد تخرُّجه، لكنَّه اختار أن يبقى في السلك الأكاديميّ ويصبح باحثًا. لم يكن غبيًّا؛ فقد عرف ما يناسب طبيعتَه؛ ليس العالم الحقيقيّ الجَمعيّ، وإنَّما عالمًا يتطلَّب استخدامًا منظَّمًا ومنضبطًا للمعرفة، عالمًا يثمِّن المهاراتِ الفكريَّة الفرديَّة. لذلك سافر وقضى سنتيْن من الدراسات العليا في جامعة ييل، ثم عاد إلى كلِّيَّة الدراسات العليا في طوكيو. كان يفعل ما يحثُّه عليه والداه. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى وافق على زواجٍ تقليديٍّ مرتَّب، لكنَّه لم يدم أكثر من عاميْن. وبعد طلاقه عاد إلى بيت والديْه. حين التقيتُه أوَّل مرَّة كان شخصًا مُستهجنًا تمامًا، شخصيَّةً بغيضةً إلى أبعد الحدود.

بعد ما يَقْرب من سنتيْن من زواجي بكوميكو، نشر نوبورو واتايا كتابًا ضخمًا. كان عبارةً عن دراسة اقتصاديَّة مليئةٍ بالمصطلحات التخصُّصيَّة، ولم أفهم شيئًا ممَّا يريد قولَه فيه. ولا صفحة واحدة فهمتُ منها شيئًا. لستُ أدري هل كان هذا لصعوبة محتواه أمْ لأنَّ الكتابة نفسها كانت رديئة. أمَّا أهل الاختصاص فقد اعتبروه كتابًا عظيمًا؛ بل إنَّ واحدًا من الذين كتبوا عنه قال إنَّه «ضربٌ جديدٌ تمامًا من الاقتصاد، منظورٌ جديدٌ بالكامل». هذا كلّ ما استطعتُ فهمَه من هذا المقال. وسرعان ما بدأتْ وسائلُ الإعلام تُقدِّم نوبورو واتايا على أنَّه «بطل العصر الجديد». بل إنَّ كُتُبًا بأكملها نُشرتْ لتفسير كتابه. كما أنَّ المصطلحَيْن الذين نَحَتهما في كتابه أصبحا من الكلمات الرائجة في ذلك العام: «الاقتصاد الجنسيّ» و«الاقتصاد الإفراغيّ». وهكذا أخذت الصحفُ والمجلَّاتُ تنشر مقالاتٍ عنه في وصفه أحد مفكِّري العصر الجديد. لم أصدِّق أنَّ أحدًا من كتَّاب تلك المقالات فهم شيئًا ممَّا قاله نوبورو واتايا في كتابه، وأشكّ في أنَّهم فتحوا الكتابَ أصلًا. لكنّ هذا كلَّه لم يكن يعنيني. كان نوبورو واتايا شابًّا وأعزبَ وذكيًّا بما يكفي لكي يكتب كتابًا لا يفهمه أحد.

أصبح مشهورًا. كلُّ المجلَّات كانت تطلب منه أن يكتب فيها، والقنواتُ التلفزيونيَّة تدعوه إلى التعليق على قضايا سياسيَّة واقتصاديَّة، وسرعان ما أصبح عضوًا دائمًا في أحد برامج المناظرات السياسيَّة. أمَّا مَنْ كانوا يعرفون نوبورو واتايا (بمن فيهم أنا وكوميكو) فلم يتخيَّلوا قطّ أن يكون مناسبًا لهذه الأضواء. كان الجميع يراه من أولئك الأكاديميِّين المتوتِّرين الذين

لا يَشْغلهم سوى تخصُّصِهم. ولكنْ يبدو أنَّ لعابَه سال ما إنْ ذاق طعمَ الإعلام. كان يُجيد ما يفعله، ولا يضيره على الإطلاق وجودُ الكاميرات أمامه. بل بدا أكثرَ استرخاءً أمامها ممَّا هو في العالم الواقعيّ. كنَّا مشدوهين ونحن نتابع هذا التحوُّلَ المفاجئ. نوبورو واتايا الذي رأيناه على التلفاز كان يرتدي بذلاتٍ غاليةً، وربطاتِ عنقٍ ونظَّاراتٍ متناسقةً ذاتَ إطارات جميلة تشبه ظهرَ السلحفاة. شعره مصفَّف على أحدث الموضات. من الواضح أنَّ شخصًا محترفًا كان يعتني بمظهره. فلم أره قطّ يشعّ رفاهيَّةً هكذا. وحتى لو كانت القنواتُ التلفزيونيَّة هي التي تختار ملبسه، فقد كان يظهر بها بأريحيَّةٍ تامَّة، وكأنَّه اعتادها طوال حياته. حين رأيتُه أوَّلَ مرَّة قلتُ في نفسي: من هذا؟ وأين نوبورو واتايا الحقيقيّ؟

أمام الكاميرات كان يؤدِّي دور الحكيم البليغ. فحين يُسأل عن رأيه يقدِّم جوابًا بسيطًا، واضحًا، ودقيقًا. وكلَّما احتدمَ النقاش وارتفعت الأصوات، كان يحافظ على هدوئه. وحين يُشكِّك أحدٌ في كلامه، كان يتماسك ويترك خصمَه يقول كلَّ ما لديه، ثم ينسف رأيَ هذا الخصم بعبارةٍ واحدة. كان يتقن فنَّ الضربة القاصمة المشفوعة بهمهمةٍ وابتسامة. على شاشة التلفاز كان يبدو ذكيًّا وموثوقًا أكثرَ بكثير ممَّا هو في الواقع. ولستُ أدري كيف تسنَّى له ذلك. لم يكن وسيمًا، لكنَّه طويل ورفيع وذو منظرٍ يدلّ على حُسن التنشئة. هكذا إذن وَجَدَ نوبورو واتايا عبر التلفاز المكانَ الذي ينتمي إليه. لقد فتحتْ وسائلُ الإعلام أذرعَها إليه، وفتح ذراعيْه إليها بالحماس نفسه.

أثناء حصول ذلك كلّه، لم أكن أحتمل رؤيته، لا في الإعلام

المطبوع ولا المرئيّ. بالتأكيد كان ذا مهارة وقدرات عالية، وكنتُ أدركُ ذلك. كان يعرف جيِّدًا كيف يهزم خصمَه بسرعة وإتقان بأقلّ قدر من الكلام. لديه غريزةٌ حيوانيَّةٌ تحسّ باتِّجاه الريح. لكنَّك ما إنْ تتفحَّص ما يقوله أو يكتبه حتى تكتشف أنَّ كلامَه غير متماسك. لم تكن في كلامه نظرةٌ واحدة مبنيَّة على قناعة عميقة. العالم الذي يقدّمه عالمٌ مُفَبرك، مزيجٌ من أنظمة فكريَّة أُحاديَّة النظرة. وكان في مقدوره أن يُعيد ترتيبَ هذا المزيج في لحظةٍ واحدة، وفق ما تقتضيه الحاجة. الحقُّ أنَّها كانت إحلالات وتمزيجات فكريَّة بارعة، لا تعوزها اللمسةُ الفنِّيَّة، لكنَّها بالنسبة إليَّ لم تكن أكثرَ من لعبة. لئن كان هناك شيء ثابت في آرائه، فهو غيابُ الثبات. وإنْ كان لديه منظورٌ إلى العالم، فهو منظور يكشف عن غياب منظور للعالم. لكنّ ما يفتقر إليه هو نفسُه ما يشكِّل ذخيرته الفكريَّة. أمَّا التماسك الفكريّ والمنظور الراسخ إلى العالم فقد كان متاعًا زائدًا في ظلِّ التقاتل الفكريّ الذي اضطرم في الوجبات السريعة التي تقدِّمها وسائلُ الإعلام. وكان من صالح نوبورو واتايا أن يتحرَّر من هذه الأعباء.

لم يكن لديه شيء يخشى عليه، أيْ كان في مقدوره أن يصبّ كلَّ اهتمامه في معاركه. لم يكن مطلوبًا منه سوى الهجوم، والقضاء على خصومه. كان نوبورو واتايا حرباءَ فكريَّةً؛ يغيِّر لونَه وفقًا للون خصمه، يرتجل مَنطقَه ويحشد كلَّ بلاغته للوصول إلى أفضل النتائج. لا أعرف كيف تحصّل على هذه المهارات، لكنَّه بالتأكيد كان يعرف كيف يستميل عواطفَ الجماهير. كان يعرف أيَّ منطقٍ يحرِّك السوادَ الأعظم. وليس من الضروريّ أن يكون

لديه منطق أصلًا؛ فالمطلوب أن يبدو كذلك، ما دام يحرّك الجماهير.

من نقاط قوَّته أيضًا استحضارُ المصطلحات التخصُّصيَّة. لم يكن أحد يفهمها طبعًا، لكنَّه كان قادرًا على تقديمها بطريقةٍ تجعلك تقتنع أنّ المشكلة في فهمك أنت. وكان دائمًا ما يستشهد بالإحصاءات. كانت مطبوعةً في ذهنه دائمًا، ولها قوَّةٌ إقناعيَّةٌ هائلة. لكنَّك إنْ توقَّفت لحظةً للتفكير فيها، فستُدرك أنَّ أحدًا لم يُدقِّق فيها أو يسأل عن مصدرها أو درجة موثوقيَّتها.

كانت أساليبُه الذكيَّة هذه تُثير جنوني، لكنَّني لم أستطع قطّ أن أشرح ما يزعجني تحديدًا. لم أكن قادرًا على الإتيان بحجَّةٍ تفنِّد كلامَه. كان الأمر أشبهَ بالملاكمة مع شبح؛ فلا أثر للّكمةِ التي توجّهها سوى هسهسةٍ في الهواء. لا شيء ملموسًا تصل إليه. كنتُ مصدومًا من استجابة المثقَّفين الرفيعين أنفسهم له. كلُّ ذلك كان يغمرني باستياءٍ غريب.

وهكذا أصبح يُنظر إلى نوبورو واتايا واحدًا من أذكى الناس في أيَّامنا. يبدو أنَّ الناس لم يعودوا يهتمُّون بتماسك الفكر، وكلُّ ما يبحثون عنه هو الفرجة على أولئك المصارعين الفكريِّين. فكلَّما ازداد احمرارُ الدم الذي يريقونه، كان ذلك أفضل. لم يكن يهمّ لو قال الشخصُ نفسُه شيئًا يوم الاثنين، ثم قال ما يعارضه يوم الخميس.

*

كان لقائي الأوَّل بنوبورو واتايا بعد أن قرَّرتُ الزواجَ

بكوميكو. كنتُ أريد أن أتحدَّث إليه قبل مقابلة والدها. قلتُ في نفسي إنَّه شابٌ أقرب إلى سنِّي، وربَّما يمهِّد لي الطريقَ إلى والده.

قالت لي كوميكو بصعوبةٍ بادية: «لا أعتقد إنَّ بإمكانك التعويل على مساعدته. لا أدري كيف أشرح لك، ولكنَّه ليس من هذا النوع».

«عاجلًا أم آجلًا لا بدّ أن ألتقيه».

«نعم، هذا صحيح».

«الأمر يستحقّ التجربة. فقد ننجح».

«نعم، ربَّما».

حين اتَّصلتُ به لم يُبْدِ اهتمامًا كبيرًا بمقابلتي، لكنَّه قال إنْ كنتُ مصرًّا فسوف يقتطع من وقته نصفَ ساعة. قرَّرنا أن نلتقي في مقهى قرب محطَّة أوكانوميزو. في ذلك الوقت كان مجرَّدَ أستاذٍ جامعيٍّ، قبل أن يكتب كتابه وقبل أن يغيِّر جلدَه وملبَسَه بوقتٍ طويل. كانت جيوبُ معطفه الرياضيّ بارزةً لفرط ما وُضعتْ فيهما القبضتان. أمَّا شعره فكان يحتاج إلى قصٍّ منذ أسبوعيْن على الأقلّ. قميصُه الخردليّ متنافر مع معطفه الأزرق والرماديّ. كان يبدو نموذجًا للأستاذ الجامعيّ الشابّ الذي يعتبر المالَ شيئًا غريبًا. في عينيْه ذلك التعبيرُ الناعسُ لشخصٍ خرج لتوِّه من المكتبة بعد يومٍ طويلٍ من البحث في أكوام الكتب. ومع ذلك فقد كان في عينيه بريقٌ باردٌ ثاقب، لو نظرتَ إليه من كثب.

قلتُ له بعد أن قدَّمتُ نفسي إنَّني أنوي التقدُّم للزواج من

كوميكو. حاولتُ أن أشرحَ له وضعي بصدقٍ قدرَ الإمكان، فقلتُ إنَّني أعمل في شركة محاماة لكنَّني أُدرك أنَّها ليست الوظيفةَ المناسبةَ لي. كنتُ ما أزال أبحث عن ذاتي. قد يبدو الزواجُ بالنسبة إلى شخص كهذا مشروعًا متهوّرًا، لكنَّني كنتُ أحبَّ أختَه، وأثقُ تمامًا بأنَّني سأُسعدها. قلتُ إنَّنا نجد الراحةَ والطمأنينة في أن نكون معًا.

لم يبدُ أنَّ لكلامي أيَّ تأثير فيه. كان يجلس شابكًا ذراعيْه ويستمع في صمت. وحتى بعد أن انتهيتُ من كلامي، ظلّ ساكنًا تمامًا. بدا أنَّه يفكِّر في شيء آخر.

منذ البداية كنتُ أشعر بالحرج، وافترضتُ أنَّ الموقف الذي نحن فيه هو السبب. فأيُّ شخص سوف يشعر بالحرج حين يقول لرجل غريب: «أريد أن أتزوَّج أختك». لكنَّني حين كنتُ جالسًا قبالته بدأ يتشكَّل داخلي شعورٌ غريبٌ غير مريح، أشبهُ بالمادَّة الغريبة، ذاتِ الرائحة الحامضة، تتخلَّق في وسط معدتك. ما أثار استيائي لم يكن شيئًا قاله أو فعله، بل وجهه. وجه نوبورو واتايا نفسه. كان يُشعرني بأنَّه مغطًّى بطبقةٍ من شيءٍ آخر، شيءٍ غير مناسب. لم يكن وجهَه الحقيقيّ. ولم أستطع أن أطردَ هذا الإحساسَ من داخلي.

وددتُ لو أنصرفُ من ذلك المكان. بل فكَّرت فعلًا في أن أنهض من مكاني وأذهب، ولكنِّي كنتُ مضطرًّا إلى معرفة كيف سينتهي الأمر. بقيتُ في مكاني، أرتشفُ قهوتي الفاترة وأنتظر منه أن يقول شيئًا.

حين تكلَّم، بدا كأنَّه يتعمَّد خفض صوته كي يحافظ على طاقته. قال: «في الحقيقة، لا أستطيع أن أفهمَ ولا أن أهتمَّ بشيء ممَّا قلتَه لي. الأشياء التي أهتمُّ بها من نظام آخر تمامًا، أشياء لا أظنّك أنت تفهمها أو تهتمّ بها. خلاصةُ ما أريد قوله، إنْ كنتَ تريد الزواجَ بكوميكو وهي موافقة، فليس لي حقٌّ ولا سببٌ للوقوف في وجهك. لذلك، لن أقف في وجهك. لن أفكّر ولو مجرَّد تفكير في ذلك. ولكنْ لا تتوقَّع منِّي أيَّ شيء آخر. الأهمّ من ذلك، لا تنتظر مني أن أضيِّع وقتًا أكثر ممَّا أضعتهُ في هذا الموضوع».

ثم نظر في ساعته ونهض. كان كلامه مختصرًا ومباشرًا. لا زيادة ولا نقصان. فهمتُ تمامًا كلامَه ورأيَه فيَّ.

وهكذا افترقنا ذلك اليوم.

بعد زواجنا، وبعد أن أصبح نوبورو واتايا صهري، كانت هنالك عدَّةُ مناسبات استوجبتْ أن أتبادل معه بعضَ الكلمات، إنْ لم يكن حوارًا حقيقيًّا. وكما أشار بنفسه سابقًا، فلم تكن ثمَّة أرضيَّةٌ مشتركةٌ بيننا، ولذلك لا يمكن أن يتطوَّر أيُّ كلام بيننا إلى شيء يمكن أن نسمِّيه حوارًا. كنَّا كما لو أنَّنا نتحدَّث لغتيْن مختلفتيْن. لو تخيَّلنا أنّ الدالاي لاما كان على فراش الموت، وحاول عازفُ الجاز إريك دولفي أن يشرح له أهمِّيَّة أن يختار الإنسانُ زيتَ محرِّكه بما يتوافق مع تغيّرات صوت كلارينيت البيز، لكان في ذلك الحوار معنًى وجدوى أكثرُ من حواري مع نوبورو واتايا!

نادرًا ما أشعرُ بكَدرٍ طويل من التواصل مع الآخرين. قد يُغضبني شخصٌ أو يزعجني، لكنَّ الأمر لا يستمرّ وقتًا طويلًا. أستطيع إقناعَ نفسي بأنَّني والشخصَ الآخرَ من عالمَيْن مختلفيْن. وهذه مهارة (لا أقصد التفاخر، لكنَّه ليس أمرًا يسيرًا. فإنْ كنتَ تستطيع ذلك، فهي مهارة؛ نوع من القوى الخاصَّة). حين يُثير أحدُهم استيائي، فإنَّ أوَّل ما أفعله هو تحويلُ مشاعري السيِّئة إلى نطاق آخر بعيد عنِّي. ثم أقول لنفسي: أنا مستاء، لكنَّني وضعتُ تلك المشاعر في مكانٍ آخر بعيد، حيث يمكن أن أنظر فيها وأتعامل معها لاحقًا. أيْ إنَّني بعبارةٍ أخرى أضع مشاعري في «الفريزر». بعد ذلك، حين أُذيب الثلجَ عن مشاعري كي أتفحَّصَها، يكون الأمرُ مختلفًا. قد يحدث أن أظلّ مستاءً، لكنّ هذا نادرًا ما يحدث. فالوقتُ كفيلٌ باستخراج السمّ من معظم الأشياء. وهكذا عاجلًا أو آجلًا، أنساها.

استطعتُ طوال حياتي (باستخدام إدارة العواطف هذه) أن أُبقي عالمي في حالة ثابتة بعضَ الشيء، وذلك بأن أتجنَّب المشكلات التي لا جدوى من ورائها. يحقّ لي أن أفخرَ قليلًا بنجاحي في الحفاظ على هذا النظام حتى الآن.

لكنَّ نظامي هذا لا يعمل في حالة نوبورو واتايا. لم أستطع أن أضع نوبورو واتايا في منطقةٍ أخرى بعيدةٍ عنِّي. وهذا تحديدًا ما يثير جنوني. كان والدُ كوميكو رجلًا مغرورًا بغيضًا، هذا صحيح، لكنَّه شخصيَّة صغيرة العقل عاشت حياتَها عبر التمسُّك بمجموعة من المعتقدات الضيِّقة الأفق. شخصٌ كهذا يمكنني أن أنساه بسهولة. أمَّا نوبورو واتايا، فكان يعرف أيَّ نوع من الناس

يكون، ويعرف جيِّدًا ما يُثير استيائي. وكان يمكنه أن يسحَقَني تمامًا إنْ أراد. السبب الوحيد الذي منعه من ذلك هو أنَّه لم يكن يهتمّ بي على الإطلاق. لم أكن أستحقّ لا الوقتَ ولا الطاقةَ اللذين يلزمُهما سحقي. هذا بالضبط ما كان يزعجني. كان إنسانًا سافلًا وأنانيًا وفارغًا، لكنَّ قدراته كانت أعلى منِّي بكثير.

بعد ذلك اللقاء الأوَّل بيننا، ظلَّ في فمي طعمٌ كريه. شعرتُ كما لو أنَّ شخصًا حشر في فمي حفنةً من الحشرات النتنة. وحتى إنْ بصقتُها يظلّ طعمُها في فمي. هكذا ظلّ نوبورو واتايا يومًا بعد يوم كلَّ ما يَشْغل تفكيري. حاولتُ أن أُغيِّر مزاجي في المسارح ودُور السينما، بل حضرتُ مباراةَ بيسبول مع زملائي في العمل. شربتُ وقرأتُ كتبًا كنتُ أؤجِّل قراءتها. لكنّ نوبورو واتايا كان دائمًا أمامي، شابكًا ذراعيْه، ينظر إليَّ بعينيْه الخبيثتيْن، ويهدِّد بابتلاعي مثلَ مستنقعٍ لا قاعَ له. أتلفَ هذا الوضعُ أعصابي، وزلزل الأرضَ التي أمشي عليها.

حين التقيتُ كوميكو بعد ذلك سألتْني عن انطباعي عن أخيها. لم أستطع أن أُجيبَ بصدق. كنتُ أودّ لو أسألها عن القناع الذي يرتديه وعن «الشيء» المريبِ الموجودِ خلفه. وددتُ لو أقول لها كلَّ ما في خاطري عن أخيها، لكنَّني لم أقل شيئًا. قلتُ في نفسي إنَّ هذه أشياء لن أستطيعَ أبدًا أن أوصلَها بوضوح؛ وإنْ لم أستطع أن أعبِّر عن نفسي جيِّدًا فلا ينبغي أن أقول شيئًا. ليس الآن على الأقلّ.

قلتُ لها: «إنَّه... شخص مختلف، بالتأكيد». أردتُ أن أضيفَ شيئًا، لكنَّ الكلمات لم تسعفني. ولا هي ضغطت عليّ

كي أقولَ أكثر. هزّت رأسَها بصمت.

لم تتغيَّر مشاعري تجاه نوبورو واتايا بعد ذلك قطّ. بل ظلّ يُتْلف أعصابي كعادته. كان أشبهَ بالحمَّى الخفيفة المُزمنة. ومع أنّني لا أملك تلفازًا في بيتي، فإنَّني كلَّما نظرتُ في تلفازٍ وجدتُه. وكلّما قلَّبتُ مجلَّةً في عيادة طبيب، وجدتُ صورتَه مع مقالةٍ له. شعرتُ وكأنّ نوبورو واتايا يتربَّص بي في كلِّ مكان. حسنًا، سأقول الصراحة: كنتُ أكرهه.

7

المغسلة السعيدة

كريتا كانو تَدْخل المشهد

أخذتُ سترةَ كوميكو وتنُّورتَها إلى مغسلة المحطَّة. كنتُ في العادة آخذ ملابسَنا إلى المغسلة الموجودة قرب منزلنا، لا لأنَّها أفضل، بل لأنَّها أقرب. أمَّا كوميكو فكانت في بعض الأحيان تستخدم مغسلَة المحطَّة وهي في طريقها إلى العمل، فتسلِّمُها الثيابَ في الصباح وتستلمها منها حين تعود إلى البيت. تقول كوميكو إنَّ هذه المغسلةَ أغلى قليلًا، لكنَّ العمَّال فيها يتقنون عملهم أكثر من مغسلتنا. كانت تأخذ فساتينَها المفضَّلة إلى تلك المغسلة. وهذا ما جعلني في ذلك اليوم تحديدًا أركب درَّاجتي وأذهب إلى المحطَّة. قلت في نفسي لو كان لها الخيار لأخذتْ

هذه الملابسَ إلى هناك.

غادرتُ المنزل أرتدي بنطالًا قطنيًّا أخضر اللون وحذائي الرياضيَّ المعتاد، وقميصي الأصفر النرويجيّ من شركة ڤان هالن، إذ كانت كوميكو قد حصلتْ عليه هديَّةً من شركة أسطوانات. كان صاحبُ المحلّ يستمع إلى الموسيقى الصاخبة، كما في المرَّة السابقة. وهذه المرَّة كان شريطًا للمغنِّي الأميركيّ أندي وِليمز. كانت أغنية «هاوايان وِدِنغ سونغ» في نهايتها، وفور أن دخلتُ بدأتْ أغنية «كانيدين سَنسِت». كان صاحبُ المحلّ يصفِّر بسعادة، ويكتب في دفتره، بحركات نشيطة كعادته. في كومة الأشرطة فوق الرفّ لاحظتُ أسماء مثل سيرجيو مينديز، وبيرت كايمفرت، و101 سترينغز. يبدو أنَّه أحدُ المهووسين بما يُسمَّى بالموسيقى السهلة[1]. فجأةً خطر لي أنَّ المتحمِّسين الحقيقيِّين لموسيقى الجاز (مثل ألبرت آيلر ودون تشيري وسيسِل تيلر) لا يمكن أبدًا أن يصبحوا أصحابَ مغاسل في مجمّعات مقابل محطّات قطار، أو ربَّما يصبحون كذلك لكنَّهم لن يكونوا سعداء.

(1) الموسيقى السهلة (easy listening): «نوع من الموسيقى الرائجة التي تهدف إلى أن تكون مُريحةً للمستمع، بعكس أصناف موسيقيَّة أخرى قد تكون بطبيعتها أكثرَ استفزازًا للمشاعر وتتطلَّب انتباهًا أكبر من المستمع (مثل موسيقى الروك والجاز). وعادةً ما تكون الموسيقى السهلة موسيقى خلفيَّة لتُضفي جوًّا حميميًّا يَسْهلُ الاسترخاءُ فيه. ولعلَّنا نميِّز الموسيقى السهلة بإيقاعها البطيء إلى المتوسِّط، والتوزيع الموسيقيّ الوافر... وعلى الرَّغم من شيوع هذا النوع من الموسيقى بين قاعدة عريضة من المستمعين، فإنَّ معظم النقَّاد الموسيقيِّين يستهجنونها ولا يعدُّونها موسيقى «جادّة»». (المترجم، عن موقع www.freemusicdictionary.com).

حين وضعتُ السترةَ الخضراء المزهّرة والتنُّورة على المنضدة، نشرهما أمامه كي يُلقي نظرةً سريعة، ثم كتب على الإيصال: «سترة وتنُّورة». كان خطّه حَسنًا وواضحًا. أحبّ أصحاب المغاسلَ الذين يكتبون بوضوح. وما أجمل لو أن يحبُّوا آندي وليمز.

«سيِّد أوكادا، صحيح؟» قلتُ له نعم. كتب اسمي، وناولني نسخةَ الإيصال. «ستكون جاهزةً يومَ الثلاثاء القادم. لا تنسَ أن تستلمها هذه المرَّة. هذه ملابس السيِّدة أوكادا؟»

«نعم».

«جميلة جدًّا».

ثمَّة طبقة كثيبة من الغيوم تملأ السماء. كانت أنباءُ الطقس تُشير إلى سقوطِ أمطار. الوقت الآن تجاوز التاسعة والنصف، لكنْ ما يزال هناك عدَّةُ رجال بحقائبهم ومظلَّاتهمِ المطويَّة يشقُّون طريقَهم نحو سلالم المحطَّة. متأخِّرون عن أعمالهم. كان الصباح حارًّا ممطرًا، لكنَّ ذلك لم يُحْدث أيَّ فرق لهؤلاء الرجال، فكلُّهم متهندمون في بذلات وربطات عنقٍ وأحذيةٍ سود. رأيتُ الكثير منهم ممَّن هم في سنّي، ولكنْ لا أحد منهم يرتدي قميص ڤان هالن. كلُّهم يعلّقون بطاقات الشركات التي يعملون فيها، يتأبَّطون نسخةً من جريدة نِكّيه. رنَّ الجرس، فانطلق عددٌ منهم في السلالم. مضى وقتٌ طويل منذ أن رأيتُ رجالًا كهؤلاء.

وإذ أتَّجه إلى البيت على درَّاجتي، وجدتُ نفسي أصفِّر أغنية غروبٌ كَنَديّ.

*

عند الحادية عشرة اتَّصلتْ بي مالطا كانو. «آلو. من فضلك، هل هذا منزل السيِّد أوكادا؟»

«نعم. أنا تورو أوكادا». عرفتُ أنَّها مالطا كانو من أوَّل آلو.

«اسمي مالطا كانو. لقد تكرَّمتَ بلقائي قبل أيَّام. هل يا ترى لديك مخطَّطات بعد الظهر؟»

قلتُ كلَّا. ليس مثلي مَن تكون له مخطَّطات بعد الظهر، ولا في الأحلام!

«إذن ستزورك أختي الصغرى كريتا كانو عند الواحدة».

قلتُ بصوتٍ لا نبرة فيه: «كريتا كانو؟»

«نعم، أعتقد أنِّي أريتُكَ صورتَها ذلك اليوم».

«أذكرها طبعًا. الأمر وما فيه ــ».

«اسمُها كريتا كانو. ستزورك نيابةً عنِّي. هل تناسبك الساعة الواحدة؟»

«لا بأس».

فقالت: «ستزورك في الموعد إذن»، وأغلقت الخطَّ.

كريتا كانو؟

كنستُ الأرضيَّات، ورتَّبتُ المنزل. ربطتُ صحفَنا القديمة في حزمة وألقيتُ بها في إحدى الخزانات. وضعتُ الأشرطةَ المبعثرة في أغطيتها وصفَّفتُها عند المسجِّلة. غسلتُ الأواني المتراكمة في المطبخ. استحممتُ، وارتديتُ ملابسَ نظيفة. ثم

أعددتُ قهوةً وتناولتُ الغداء: شطيرةً من لحم الخنزير مع بيض مسلوق. بعدها جلستُ على الأريكة أقرأ في مجلَّة هوم جُورنل، وأُفكِّر في ما سأطبخُه للعشاء. وضعتُ إشارات على وصفة أعشاب البحر وسلطة التوفو، وكتبتُ المقادير في قائمة للتسوُّق. أدرتُ المذياع: كان مايكل جاكسن يغنِّي بيلي جين. رحتُ أُفكِّر في الأختيْن مالطا كانو وكريتا كانو. يا لهما من اسميْن! مثل فرقة كوميديَّة: مالطا كانو. كريتا كانو.

من المؤكَّد أنَّ حياتي كانت تتَّجه في مساراتٍ جديدة. القطّ هرب. اتِّصالات غريبة من امرأة غريبة. التقيتُ فتاةً عجيبة، وبدأتُ أتردَّد إلى بيتٍ خالٍ. نوبورو واتايا اغتصب كريتا كانو. مالطا كانو تنبَّأتْ بأنَّني سأجد ربطةَ العنق. كوميكو قالت إنَّه لا داعي للبحث عن عمل. أغلقتُ المذياع، وأعدتُ المجلَّة إلى الرفّ، وشربتُ فنجانَ قهوة آخر.

*

عند الواحدة تمامًا قَرعتْ كريتا كانو جرسَ الباب. كانت تبدو مثلَ الصورة تمامًا. امرأة ضئيلة بين بدايات العشرينيَّات ومنتصفِها، من النوع الهادئ. وقد أجادت تمامًا في الظهور بمظهر أوائل الستِّينيَّات. بتسريحة البُوفانت التي رأيتُها في الصورة، مع تمويج الأطراف إلى الأعلى. أمَّا مقدِّمة شعرها فكانت مسحوبةً إلى الخلف ومثبَّتة بمشبكٍ لامعٍ كبير. حاجباها محدَّدان تمامًا، في حين أضافت المسكرةُ ظلالًا غامضةً على عينيْها. أمَّا أحمر الشفاه فكان إحياءً حقيقيًّا لذلك اللون الشائع في تلك الأيَّام. حين تراها يُخيَّل إليك أنَّها ستغنِّي أغنية «جوني

أنجل»[1] لو وضعتَ ميكروفونًا في يدها.

أمَّا ملبسُها فكان أبسطَ بكثيرٍ من مكياجها. كان لباسًا عمليًّا لا مسحة فيه لشيء شخصيّ. سترة بيضاء، وتنُّورة خضراء ضيِّقة، ولا إكسسوارات. تتأبَّط حقيبةً جلديَّةً بيضاء، وتنتعل كعبيْن أبيضيْن مدبَّبيْن. كان حذاؤها صغيرًا جدًّا، والكعبُ رفيع وحادٌّ مثل رأس قلم رصاص، حتى ليبدو أنَّه حذاءُ دمية. كدتُ أُهنِّئها على أنَّها استطاعت المشيَ به كلَّ تلك المسافة.

إذن هذه كريتا كانو. أدخلتُها إلى البيت، وأجلستُها على الأريكة، ثم سخَّنتُ القهوة وقدَّمتُ إليها فنجانًا. سألتُها إنْ كانت قد تناولتْ غداءها. بدا لي أنَّها جائعة. قالت إنَّها لم تأكل بعد.

ثم أضافت بسرعة: «ولكنْ لا تزعجْ نفسَك. أنا لا آكل كثيرًا عند الغداء».

«أأنتِ متأكِّدة؟ يمكنني إعدادُ شطيرة بسرعة. لا داعي للرسميَّات، فأنا أُعِدُّ الوجبات الخفيفة طوال الوقت. لا إزعاج مطلقًا».

كانت تُجيب بإيماءاتٍ خفيفةٍ من رأسها. «هذا من كرم أخلاقك، ولكنْ فعلًا لا داعي لذلك. لا تزعجْ نفسَك. فنجان القهوة كافٍ جدًّا».

مع ذلك أحضرتُ صحنًا من الكعك، احتياطًا. أكلتْ كريتا كانو أربعًا منها وهي مستمتعة. أمَّا أنا فأكلتُ قطعتيْن وشربتُ قهوتي.

---

(1) أغنية رائجة جدًّا في ستِّينيَّات القرن العشرين. (المترجم)

بدتْ أكثر أريحيَّةً بكثيرٍ بعد القهوة والكعك.

«جئتُ اليوم نيابةً عن أختي الكبرى مالطا كانو. كريتا ليس اسمي الحقيقيّ طبعًا. اسمي الحقيقيّ سيتسوكو. اتَّخذتُ اسم كريتا حين بدأتُ أعمل مساعدةً لأختي، لأغراض المهنة. كريتا هو الاسم القديم لجزيرة كريت، ولكنْ لا علاقة لي بالجزيرة. لم أزرها قطّ. أختي مالطا هي التي اختارت الاسمَ كي يتماشى مع اسمها. هل سبق أن زرتَ جزيرة كريت، سيِّد أوكادا؟»

قلتُ كلَّا للأسف. لم أزر كريت ولا أُفكِّر في زيارتها قريبًا.

هزَّت رأسها وقالت بنظرة جادَّة جدًّا: «أنا أودّ أن أذهب إلى هناك يومًا ما. كريت هي الجزيرة اليونانيَّة الأقرب إلى إفريقيا. جزيرة كبيرة ذاتُ حضارة عظيمة ازدهرتْ هنالك قبل زمن طويل. أختي مالطا زارت كريت، وتقول إنَّها رائعة. الريح قويَّة، والعسل لذيذ. أنا أحبّ العسل».

هززتُ رأسي. لستُ مهووسًا بالعسل.

«أتيتُ اليوم أطلبُ منك خدمة. أريد أن آخذ عيِّنةً من الماء في منزلك».

«الماء؟ تقصدين ماء الحنفيَّة؟»

«أجل لا بأس. وإنْ كانت ثمَّة بئرٌ قريبة، أودّ أن آخذ عيِّنةً منها أيضًا».

«لا أعتقد. أقصد، توجد بئر في الحيّ، لكنَّها في بيت شخصٍ آخر. وهي جافَّة. لم يعد فيها أيُّ ماء».

حَدَجتني بنظرةٍ مبهمة. «هل أنت متأكِّد؟ متأكِّد أنْ لا ماءَ فيها؟»

تذكَّرتُ الصوت الجافّ الذي أحدثتْه الطوبةُ حين ألقت بها الفتاةُ في البئر. «نعم، جافَّة، جافَّة. أنا متأكِّد».

«أها. حسنًا. إذن سآخذ عيِّنةً من ماء الحنفيَّة فقط، إنْ لم يكن لديك مانع».

أخذتُها إلى المطبخ. أخرجتْ من حقيبتها الجلديَّة قنِّينتيْن صغيرتيْن من ذلك النوع الذي ربَّما يستخدمونه للأغراض الطبِّيَّة. ملأتْ إحداهما بالماء، وأحكمت غلقَ الغطاء بعناية فائقة. ثم قالت إنَّها تريد عيِّنة من الأنبوب الذي يمدّ حوضَ الاستحمام. أخذتُها إلى الحمَّام. لم تُلقِ بالًا بالملابس الداخليَّة التي تركتها كوميكو هناك كي تجفّ، واتَّجهتْ إلى الحنفيَّة وملأت القنِّينةَ الأخرى. وبعد أن أغلقتْها، قلبتْها كي تتأكَّد من أنَّها لا تسرِّب. كانت هناك شفرةٌ في ألوان الأغطية؛ فالأزرق لماء الحمَّام، والأخضر لماء المطبخ.

وحين عدنا إلى أريكة الصالة وضعتِ القنِّينتيْن في كيسٍ بلاستيكيّ صغير وأغلقتْه جيِّدًا. ثم وضعتِ الكيسَ بعنايةٍ في حقيبتها الجلديَّة، وانغلق مشبكُها المعدنيّ بطقطقةٍ جافَّة. كانت يداها مدرَّبتيْن جيِّدًا. ومن الواضح أنَّها فعلتْ ذلك كثيرًا من قبل.

قالت: «شكرًا جزيلًا لك».

«هل انتهى الأمر؟»

«نعم، لهذا اليوم». رتَّبتْ تنُّورتَها، وتأبَّطتْ حقيبتَها وهمَّتْ بالنهوض.

فقلتُ في حيرة: «لحظة واحدة». لم أكن أتوقَّع أن تُغادر بهذه السرعة. «انتظري دقيقةً من فضلك. زوجتي تريد أن تعرف ما حدث للقطّ. لقد اختفى منذ أسبوعيْن تقريبًا. إنْ كنتِ تعرفين شيئًا، أخبريني».

نظرتْ إليَّ لحظةً وهي ما تزال تتأبَّط حقيبتَها، وأومأتْ برأسها إيماءاتٍ سريعة. كانت أطرافُ شعرها تهتزّ بخفَّةٍ تحاكي أوائلَ الستِّينيَّات. وكلَّما رَمَشت كانت رموشُها المستعارة الطويلة تتحرَّك في بطءٍ إلى الأعلى والأسفل، كالمراوح الطويلة التي يهفّ بها العبيدُ لأسيادهم في مصر القديمة كما تُصوِّرها الأفلام.

«كي أكون صريحةً معك، تقول أختي إنَّ الحكاية ستكون أطولَ ممَّا بدت في البداية».

«حكاية أطول؟»

عبارة «حكاية أطول» هذه رسمتْ في ذهني وتدًا طويلًا في الصحراء، حيث لا شيء غيره يمكن أن تبصره العين. وحين تبدأ الشمسُ في الغرق، يطول ظِلُّ الوتد ويطول، إلى أن يبتعد رأسُه كثيرًا فلا تراه العينُ المجرَّدة.

«هذا ما قالته. ستكون هذه الحكايةُ عن شيء أكبر من مجرَّد اختفاءِ قطّ».

«لا أفهم. كلُّ ما نريده هو مساعدُتنا في العثور على القطّ. لا شيء أكثر. إنْ كان القطّ قد مات، فنحن نريد أن نتأكَّد. لماذا

توجد «حكاية أطول»؟ لا أفهم».

«ولا أنا». قرَّبتْ يدَها من المشبك اللامع على رأسها ودفعتْه إلى الخلف قليلًا. «لكنْ أرجو أن تثق بأختي. لا أقول إنَّها تعرف كلَّ شيء، لكنَّها إنْ قالت ستكون هناك حكايةٌ أطول، فكن واثقًا بأنَّه ستكون هناك حكاية أطول».

هززتُ رأسي في صمت. لا شيء أكثر يمكن أن أقوله.

نظرتْ في عينيَّ مباشرةً وقالت بلهجةٍ رسميَّةٍ جديدة: «هل أنت مشغولٌ الآن سيِّد أوكادا؟ لديك أعمال تُنجزها؟»

قلتُ كلَّا.

«هل تمانع إذن لو حكيتُ لك بعضَ الأشياء عن نفسي؟» وضعتِ الحقيبةَ البيضاءَ على الأريكة وأراحت يديْها، واحدةً فوق الأخرى، على تنُّورتها الخضراءِ الضيِّقةِ عند الركبة. كانت أظافرها مطليَّةً بلونٍ ورديّ رائع. لا خواتم في يديْها.

«أبدًا. قولي كلَّ ما تريدينه». وهكذا، كان تدفُّق حياتي (كما ظهرتْ إشاراتُه منذ اللحظة التي قرعتْ فيها كريتا كانو جرسَ بابي) يسير الآن في اتِّجاهاتٍ أغرب، فأغرب.

8

حكاية كريتا كانو الطويلة
مبحث في طبيعة الألم

بدأتْ كريتا كانو تحكي حكايتها: «وُلدتُ في التاسع والعشرين من أيّار / مايو. وفي عيد مولدي العشرين قرّرتُ أن أنتحر».

وضعتُ فنجانَ قهوة جديدًا أمامها. أضافت إليه الكريمة، ثم أخذتْ تحرّكه في كسل. لا سكّر. أمّا أنا فشربتُ قهوتي سادةً، كالعادة. فيما مضت ساعةُ الرفّ في دقّاتها الجافّة على جدار الزمن.

نظرتْ إليّ كريتا كانو وقالت: «لا أدري إنْ كان عليّ أن أبدأ

من البداية. أين وُلدتُ، وحياتي مع عائلتي، وهذه الأشياء».

«كما تشائين. الأمرُ لكِ».

«أنا الطفلة الثالثة في بيتنا؛ فلدينا ـ أنا ومالطا ـ أخٌ أكبر. كان أبي يُدير عيادتَه الخاصَّة في إقليم كاناغاوا. ولم يكن في بيتنا ما يعكِّره من مشكلات أُسريَّة. نشأتُ في بيت عادي، من ذلك النوع الذي تراه في كلِّ مكان. كان أبواي من النوع الذي يقدِّر قيمةَ الجِدّ في العمل. كانا صارمَيْن معنا، لكنَّهما أعطيانا كذلك قدرًا لا بأس به من الاستقلاليَّة في الأشياء الصغيرة. وعلى الرَّغم من أنَّ أسرتنا كانت ذاتَ مدخول جيّد، فإنَّ والديَّ لم يحبّا تدليلَ أطفالهما بالمال الزائد من أجل الكماليَّات. أعتقد أنَّني نشأتُ نشأة مقتّرة.

«تكبرني مالطا بخمس سنوات. ومنذ البداية كان واضحًا أنَّها ليست طفلة عاديَّة. كانت تستطيع أن تخمِّن الأشياء، وتعرف إنَّ المريض في الغرفة الفلانيَّة قد تُوفِّي لتوِّه، أو تعرف المكانَ الذي فُقدتْ فيه محفظة، مثلًا. كلّنا استمتعنا بذلك في البداية، بل وجدناه مفيدًا، غير أنَّه سرعان ما بدأ يزعج والديّ. لذلك أمراها بأنْ لا تتحدَّث أبدًا أمام الآخرين عن «الأشياء التي لا أساسَ واضحًا لها في الواقع». ففي نهاية المطاف كان أبي رئيسًا لمستشفى، ولم يكن يريد أن يتحدَّث الناسُ عن ابنته صاحبةِ القوى الخارقة. وهكذا أقفلت مالطا فمها. ليس فقط عن «الأشياء التي لا أساس واضحًا لها في الواقع»، بل كانت نادرًا ما تشارك حتى في الأحاديث العاديَّة.

«لكنَّها فتحتْ قلبَها لي. وقد كانت علاقتُنا قويَّة. كانت تقول: «لا تقولي لأحد ما سأخبرك به» ثم تقول شيئًا مثل «سوف يقع حريقٌ في الشارع»، أو «عمَّتُنا الفلانيَّة في سيتاغايا ستسوء حالتُها». وكانت دائمًا على حقّ. كنتُ ما أزال طفلةً صغيرةً آنذاك، فوجدتُ في الأمر تسليةً ومتعة. لم يخطرْ في بالي قطّ أن أخاف أو أستغرب ما يحدث. أذكر أنَّني كنتُ دائمًا أتبع أختي الكبرى وأنتظر أن أسمع «رسائلها».

«ازدادت قواها الخارقة هذه قوَّةً كلَّما كَبُرت. لكنَّها لم تكن تعرف كيف تستخدمُها أو تنمِّيها؛ وهذا ما قادها إلى حالةٍ من الكرب. لم تجد أحدًا ينصحها، أو يُرْشدها. لذلك كانت في سنّي مراهقتِها فتاةً وحيدةً جدًّا. كانْ عليها أن تحلّ كلَّ مشكلاتها بنفسها، وأن تجد كلَّ الإجابات بنفسها. لم تكن سعيدةً في بيتنا، ولم يطمَئِنّ قلبُها قطّ. كانت مضطرَّة إلى قمع قواها وإخفائها، كما لو أنَّك تزرع نبتةً كبيرةً قويَّة في أصيص صغير. كان شيئًا قويًّا، وغير طبيعيّ. كلّ ما كانت تعرفه هو ضرورةُ الخروج من ذلك المكان بأسرع ما يمكن. كانت مؤمنةً بأنَّ ثمَّة عالـمًا وأسلوب حياة مناسبيْن لها، في مكانٍ ما. ولكنْ كان عليها أن تراقب حركاتها وسكناتها إلى أن تتخرَّج من الثانويَّة.

«كانت مصمِّمةً على السفر إلى الخارج بدلًا من إكمال دراستها. ولأنَّ والديّ عاشا حياةً عاديَّةً جدًّا، فلم يكن لديهما الاستعدادُ لقبول ذلك. هكذا أخذتْ أختي تعمل بجدٍّ كي تجمع ما تحتاج إليه من مال، ثم هربتْ. كان أوَّل مكان اتَّجهت إليه هو هاواي، واستقرَّت في جزيرة كاواي سنتيْن. ثم قرأتْ في مكانٍ ما

أنَّ ماءً رائعًا يخرج من نبعٍ في الساحل الشماليّ لكاواي. كانت مهتمَّةً جدًّا بالماء، وتؤمن أنَّ الحياة البشريَّة محكومةٌ إلى حدٍّ كبير بعناصر الماء. وهذا ما جعلها تذهب إلى كاواي. في ذلك الوقت كانت هنالك كوميونةٌ للهيبيز في داخل الجزيرة، فانضمَّت إليها. أحدث الماء أثرًا عظيمًا في قواها الروحيَّة، فاكتسبت انسجامًا أكبر بين قواها وكيانها الجسمانيّ. كانت ترسل إليَّ وتحكي عن روعةِ ما يحدث لها، وكنتُ أشعر بسعادةٍ بالغةٍ من رسائلها. غير أنَّها لم تعد راضيةً عن المكان. فعلى الرَّغم من هدوئه وجماله، ورغم أنَّ الناس هناك كانوا يسعوْن إلى السلام الروحيّ بعيدًا عن الرغبات الماديَّة، فإنَّهم كانوا يعتمدون اعتمادًا هائلًا على الجنس والمخدِّرات. لم تكن أختي في حاجة إلى هذه الأشياء، فغادرتْ كاواي بعد سنتيْن.

«من هناك اتَّجهتْ إلى كندا. وبعد أن ترحَّلتْ في شمال الولايات المتَّحدة انتقلتْ إلى أوروبا. كانت تأخذ عيِّنات الماء من كلِّ مكان تذهب إليه، وحصلتْ على ماء رائع في أماكن عدَّة، لكنْ لم يكن من بينها الماءُ الأمثل. لذلك ظلَّت تسافر من مكانٍ إلى آخر. وكلَّما نفد مالُها، اتَّخذت عملًا ما، مثل قراءة الطالع. كان الناس يكافئونها حين تساعدهم في العثور على ما فقدوه من أغراضٍ أو أشخاص. لم تكن تحبّ أن تأخذ أموالًا، فلا ينبغي أن يتاجر المرء بالقوى التي تَهَبها إيَّاه السماءُ. لكنَّها كانت الطريقة الوحيدة آنذاك كي تعيش. كان الناس يسمعون عنها في كلِّ مكان تذهب إليه، فأصبح من السهل أن تحصل على المال. بل إنَّها ساعدت الشرطةَ الإنجليزيَّة في تحقيقٍ عن فتاة صغيرة

مفقودة، إذ عثرتْ على مكان الجثّة وقفّازات القاتل، فقبضت الشرطةُ على الرجل واعترف بالجريمة. وكتبتْ جميعُ الصحف عن ذلك. سأريك القصاصاتِ يومًا ما. على أيِّ حال، أخذتْ مالطا تهيم في أوروبا هكذا حتى انتهى بها المطافُ في مالطا. كانت قد مضت نحو خمس سنوات منذ رحيلها عن اليابان، فأصبحتْ مالطا وجهتَها النهائيَّة في بحثها عن الماء. أظنّ أنّها أخبرتك عن هذا بنفسها».

هززتُ رأسي.

«لم تنقطع رسائلُها أثناء سفرها في أنحاء العالم. ربَّما لم تكن تستطيع أن ترسل إليَّ في بعض الأحيان، لكنَّني كنتُ أتلقَّى منها كلَّ أسبوع تقريبًا رسالةً مطوَّلةً تحكي لي عن الأماكن التي زارتها وماذا كانت تفعل. استمرَّت العلاقة قويَّةً بيننا؛ فقد استطاعت ـ بصرف النظر عن المسافات بيننا ـ أن نتحدَّث عن مشاعرنا بالرسائل. وما أروعها من رسائل! لو قرأتها سترى روعة هذه الإنسانة. كانت رسائلُها تدخلني إلى عوالم مختلفة، وتعرِّفني بأناسٍ مذهلين! كنتُ أستمدّ قوّة كبيرةً من رسائلها! لقد ساعدتني على أن أكبر وأنضج. لهذا السبب سأظلّ ممتنَّة لها دائمًا، ولا أنكر ما فعلتْه من أجلي. ولكنْ في نهاية الأمر، تظلّ الرسائلُ مجرَّدَ رسائل. كانت مالطا دائمًا بعيدةً حين كنتُ في أصعب سنوات المراهقة، حين احتجتُ إليها أكثرَ من أيِّ وقت مضى. لم يكن بإمكاني أن أمدَّ يدي فأجدها بالقرب منِّي. هكذا أصبحتُ وحيدةً في البيت. معزولة. كانت سنواتُ المراهقة مثخنةً بالألم، وسوف أُحدِّثك لاحقًا عن هذا الألم. لم أجد من ألجأ إليه طلبًا

للنصح. وهكذا كنتُ وحيدةً مثلما كانت مالطا من قبل. لو كانت قربي لاختلفتُ حياتي. كانت ستمدّني بالنصح والتشجيع والخلاص. ولكنْ ما فائدةُ الحديث عن هذا الآن؟ فكما اضطُرَّت هي إلى شقِّ طريقها بنفسها، كان عليَّ أنا أيضًا أن أجدَ طريقي. وحين بلغتُ العشرين، قرَّرتُ أن أنتحر».

تناولتْ كريتا كانو فنجانَها، ورشفتْ ما تبقَّى منه.

«قهوة لذيذة!»

«شكرًا». قلتُها بطريقةٍ عابرةٍ قدرَ الإمكان. «هل أجلبُ إليك شيئًا تأكلينه؟ كنتُ قد غليتُ بيضًا قبل وصولك».

بعد شيء من التردُّد قالت إنَّها ستأكل واحدةً. أحضرتُ البيضَ والملحَ من المطبخ، وصببتُ لها المزيدَ من القهوة. أخذتْ كريتا كانو تقشِّر البيضة وتأكلها وتشرب قهوتها، من دون أيِّ أثر للعجَلة. في أثناء ذلك رنَّ الهاتف، لكنَّني لم أردّ. توقَّف بعد خمس أو ست عشرة رنَّة، غير أنَّ كريتا كانو بدت غيرَ واعيةٍ بذلك الرنين.

حين انتهت من بيْضتها، تناولتْ من حقيبتها البيضاء منديلًا صغيرًا ومسحتْ فمَها. ثم اعتدلتْ في جلستها.

«وما إنْ قرَّرتُ الانتحار، حتى أردتُ أن أتركَ رسالة. جلستُ إلى المكتب ساعةً أحاول أن أبيِّن أسبابَ انتحاري. أردتُ أن يعرف الجميع أنَّ الأسباب إنَّما تقع داخلي، وليس لأحد أيُّ ذنبٍ فيها. لم أرد أن تَشعر أسرتي بالمسؤوليَّة عن شيء لم تكن لها يدٌ فيه.

«غير أنّي لم أستطع إنهاءَ الرسالة. حاولتُ مرّة بعد أخرى، وكلُّ رسالة بدت أسوأ من التي سبقتها. حين قرأتُ ما كتبتُه وجدتُه كلامًا غبيًّا، بل مضحكًا. وكلّما حاولتُ أن أجعل الرسالة جادَّة، ازدادت سخافتُها. في النهاية قرَّرتُ ألّا أكتب شيئًا.

«شعرتُ أنَّ الأمر بسيط جدًّا. كنتُ محبطةً من حياتي، ولم أعد قادرةً على تحمُّل صنوف الألم التي ظلَّت تكيلها لي هذه الحياة. تحمَّلتُ الألمَ عشرين سنةً. حياتي كلّها عبارةٌ عن مصدر مستمرّ للألم. لكنَّني حاولتُ تحمّلها بأقصى ما يمكنني. وأثقُ تمامَ الثقة بما أبذُله من جهدٍ لتحمّل الألم. بل يمكنني القول، باعتزاز حقيقيّ أنَّ أحدًا لا يضاهيني في ذلك. لم أكن أستسلم بسهولة، لكنَّني حين بلغتُ العشرين وصلتُ إلى نتيجة بسيطة: الحياة لا تستحقّ. الحياة لا تستحقّ كلَّ هذا العناء».

توقّفتْ كريتا كانو عن الكلام، وأخذتْ ترتِّب المنديل الأبيض فوق حجرها. وحين نظرتْ إلى الأسفل أسقطتْ رموشُها الطويلةُ المستعارة ظلالًا ناعمةً على وجهها.

تنحنحتُ. شعرتُ بأنَّ عليَّ أن أقولَ شيئًا، لكنّي لم أعرف ماذا أقول، فبقيتُ صامتًا. ومن مكان بعيد سمعتُ طائر الزنبرك يصيح.

قالت: «الألم هو الذي جعلني أقرِّر الانتحار. وحين أقول «الألم» فأنا أقصد كلَّ ما تحمله الكلمةُ من معنى. لا مجازات، ولا أوهام عقليَّة. إنَّما هو الألم الجسديّ الخالص. ألم جسديّ عاديّ، واضح، مباشر، ولذلك كان شديدًا. صداع، ألم أسنان،

ألـم حيْض، آلام أسفل الظهر، تصلُّب الكتفيْن، حمَّى، آلام عضلات، حروق، تقرُّحات البرد، التواءات، كسور، كدمات. طوال حياتي كنتُ أتألَّم بوتيرةٍ أعلى وأشدّ من الآخرين. خذ أسناني مثلًا. يبدو أنَّ بها عيبًا خِلقيًّا، فتؤلمني من أوَّل السنة إلى نهايتها. ومهما اعتنيتُ بتنظيفها، ومهما كرَّرتُ ذلك في اليوم الواحد، ومهما تجنَّبتُ السكَّريَّات، فلا فائدة. كلُّ جهودي تنتهي بالتسوُّس. والأسوأ من ذلك أنَّ الأدوية المخدِّرة لا تؤثِّر فيَّ. كانت زيارات طبيب الأسنان كابوسًا حقيقيًّا. ألمٌ يفوق الوصف، يصيبني بالرعب حدّ الموت. بعد ذلك جاءت آلامُ الدورة الشهريَّة. كانت شديدةً جدًّا، إذ أظلُّ أسبوعًا بأكمله أحيانًا أشعر كأنَّ شخصًا يُدير مثقابًا في داخلي. كان رأسي ينبض ألمًا. لعلَّه يصعب عليك تخيُّل الأمر يا سيِّد أوكادا، لكنَّني كنتُ أبكي من شدَّة الألم. كنت أخضع لهذا العذاب غير المحتمل أسبوعًا كاملًا من كلِّ شهر.

«وإنْ ركبتُ طيَّارةً شعرتُ كأنَّ رأسي ينفلق من تغيُّر الضغط. قال الطبيب إنَّ السبب في ذلك تركيبُ أذني، إذ يحدث هذا حين يكون للأذن الداخليَّة شكلٌ يتحسَّس من تغيّر الضغط. الأمر نفسه يحدث كثيرًا في المصاعد. لا يمكنني أن أركبَ المصاعد في البنايات الطويلة. الألم شديدٌ جدًّا، وكأنَّ رأسي سينفلق في عدَّة أماكن وينفجر الدمُ منه. معدتي كذلك. كانت تؤلمني مرَّةً واحدةً علىَ الأقلِّ كلَّ أسبوع، ألمًا حادًّا ثاقبًا لا أستطيع معه أن أنهض من فراشي. لم يهتدِ الأطبَّاءُ إلى سبب. قال بعضُهم إنّ المشكلة نفسيَّة ـ بدنيَّة. حتى لو كان الأمر كذلك، فقد كنتُ أتألَّم. ورغم

هذه المعاناة لم يكن في الإمكان أن أترك المدرسة وأبقى في البيت. فلو تغيَّبتُ عن المدرسة كلَّما حدث ما يؤلمني، فلن أذهب أبدًا.

«كلَّما اصطدمتُ بشيء ترك كدمةً على جسدي. كنتُ حين أنظر إلى نفسي في مرآة الحمَّام أشعر برغبة في البكاء. كان جسدي مغطًّى بكدماتٍ داكنةٍ كثيرة، حتى لفرطها بدوتُ مثلَ تفَّاحةٍ فاسدة. كنتُ أكره أن يراني أحد بملابس الاستحمام. ولا أذكر أنِّي ذهبتُ إلى السباحة قطّ. هذا غير اختلاف حجم قدَمَيّ، فكلَّما اشتريتُ حذاءً جديدًا، كانت قدمي الكبرى تؤلمني كثيرًا إلى أن يتقطَّع حذاؤها.

«وبسبب هذه المشكلات لم أمارس أيَّ نوع من الرياضة تقريبًا. ذات مرَّة في المدرسة سحبتني صديقاتي إلى حلبة التزلُّج على الجليد. وقعتُ وأُصبتُ في فخذي، فكانت تؤلمني ألمًا هائلًا كلَّ شتاء. كنتُ أشعر كأنَّ إبرةً كبيرةً سميكة غُرزتْ فيها. وكلَّما حاولتُ النهوضَ من على الكرسي، وقعتُ.

«عانيتُ الإمساكَ أيضًا. كانت أمعائي تتحرَّك كلّ بضعة أيَّام، فتؤلمني. كتفاي تتصلّبان تصلُّبًا فظيعًا. عضلاتي تشتدّ حتى تصبح صلبةً كالصخر. كان يؤلمني ذلك كثيرًا، فلا أقوى على الوقوف. لكنّ الاستلقاء أيضًا لم يأتِ بنتيجة. خطر لي أنّ معاناتي هذه لا بدَّ من أن تكون مثلَ «العقاب الصينيّ» الذي قرأتُ عنه. كانوا يضعون الشخصَ في صندوقٍ عدَّة سنوات. حين تتصلّب كتفاي، أكاد لا أستطيع التنفُّس.

«أستطيع أن أستمرّ في تعداد أنواع الألم التي عانيتُها في حياتي، لكنّك ستشعر بالضجر يا سيِّد أوكادا، لذلك سأكتفي بذلك. ما أريد قولَه هو أنّ جسمي كان عبارةً عن دليلٍ توضيحيّ لعيِّنات الألم. فقد جرَّبتُ كلَّ ألم يمكن تخيُّله. بدأتُ أفكِّر أنَّني مصابةٌ بلعنة، وأنَّ الحياة غير عادلة. قد أستطيع الاستمرار في احتمال الألم لو أنَّ الناس في هذا العالم كانوا يعيشون مثلي. لكنَّ أنصبةَ الألم لم تُوزَّعْ توزيعًا عادلًا. حاولت أن أسأل الناس عن الألم، لكنَّهم لم يكونوا يعرفون الألمَ الحقيقيّ. معظمُ الناس يعيشون من دون أن يشعروا بالألم الشديد، على الأقلِّ ليس بصفةٍ يوميَّة. فلمَّا أدركتُ تلك الحقيقة (وكنتُ في المدرسة الابتدائيَّة) حزنتُ حزنًا شديدًا ولم أتوقَّف عن البكاء. لماذا أنا؟ لماذا عليَّ أنا أن أتحمَّل هذا العبءَ الفظيع؟ كنتُ أريد أن أموت في تلك اللحظة، في ذلك المكان.

«في الوقت نفسه خطرتْ لي فكرةٌ أخرى. لا يمكن أن يستمرّ هذا إلى الأبد. ذات يوم سأصحو، وسوف يختفي الألم، فجأةً ومن دون سبب. سوف تنفتح أمامي أبوابُ حياةٍ كاملة جديدة، من دون ألم. لكنَّني لم أصدِّق هذه الفكرة تصديقًا كاملًا.

«أخبرتُ أختي بما أُفكِّر فيه. قلتُ لها إنَّني لا أريد أن أواصل العيشَ بهذا الألم. فماذا أفعل؟ بعد أن فكَّرتْ قليلًا قالت: «ثمَّة مشكلة فيكِ بالتأكيد. لكنَّني لا أعرفها، ولا أعرف ما ينبَغي عليكِ فعلُه. حتى الآن ليست لديَّ القُوَّة التي تؤهِّلني لمعرفة ذلك. كلّ ما أعرفه هو أنَّه ينبغي عليك، على الأقلِّ، أن تنتظري حتى تبلغي العشرين. تحمَّلي الألم إلى أن تبلغي العشرين، ثم

اتَّخذي قرارَكِ. هذا أفضلُ ما يمكنكِ فعله».

«وهكذا قرَّرتُ أن أواصل حياتي إلى أن أبلغ العشرين. ومع ذلك لم يتحسَّن الوضع، بل على العكس. كان الألم يشتدّ ويشتدّ. تعلَّمتُ من هذا شيئًا واحدًا: «كلَّما كبر الجسد، زادت حدَّةُ آلامه». لكنَّني احتملتُ الألم ثماني سنوات. واصلتُ العيش وأنا أحاول أن أرى الجانبَ المشرقَ في الحياة. لم أكن أشتكي لأحد. جاهدتُ كي أحافظ على ابتسامتي، حتى في أشدِّ أوقات الألم. ألزمتُ نفسي بأن أبدو هادئةً دائمًا، حتى حين يشتدّ الألمُ إلى درجةٍ تمنعني من الوقوف. البكاء والشكوى لا يخفِّفان الألمَ، بل يُضيفان تعاسةً إلى تعاستي. لذلك أحبَّني الناس، إذ رأوني فتاةً هادئةً حسنةَ الطباع. نِلتُ ثقةَ الكبار وصداقةَ الصغار من سنِّي. لولا الألم لربَّما عشتُ حياةً مُثلى. لكنَّه كان دائمًا موجودًا. مثلَ ظِلِّي. لو نسيتُ أمرَه لحظةً، يعود فينقضّ على جزءٍ آخرَ من جسدي.

«في الكلِّيَّة اتَّخذتُ حبيبًا، وفقدتُ عذريَّتي في صيف السنة الأولى. حتى الجنس (كما توقَّعتُ) لم يمنحني سوى الألم. قالت لي صديقةٌ أكثرُ خبرةً منِّي إنَّني لن أشعر بألم حين أعتاد الأمر، لكنَّ هذا لم يحدث. فكلَّما مارسنا الجنس بكيتُ من الألم. ذات يوم قلتُ لحبيبي إنَّني لا أريد ممارسةَ الجنس بعد اليوم. قلت له: «أنا أحبُّكَ، لكنَّني لا أريد أن أتعرَّض لهذا الألم مرَّةً أخرى». فقال إنَّه لم يسمع كلامًا سخيفًا كهذا من قبل. «المشكلة نفسيَّة. استرخي، وسوف يتوقَّف الألم. بل سوف تشعرين بالمتعة. الجميع يستطيع ممارسةَ الجنس، وأنتِ أيضًا. لكنَّكِ لا تبذلين

جهدًا كافيًا. تتدلَّلين. تستخدمين هذا «الألَمَ» للتغطية على مشكلاتك. كفِّي عن الشكوى، فلن تفيدَكِ».

«حين سمعتُ هذا الكلام بعد كلّ ما تحمَّلتُه طوال السنوات، انفجرتُ. «وما الذي تعرفه أنت عن الألم؟ الألم الذي أشعر به ليس ألمًا عاديًا. أعرف ما هو الألم. جرَّبتُ كلَّ أنواعه. وحين أقول أنا إنَّ شيئًا يؤلم، فمعنى ذلك أنَّه فعلًا يؤلم!» أخبرتُه بأنواع الألم التي كنتُ أشعر بها، لكنَّه لم يفهم شيئًا. يستحيلُ على المرء أن يفهم الألمَ الحقيقيَّ ما لم يجرِّبْه. وهكذا انتهت علاقتُنا.

«لم يمضِ وقتٌ طويل بعدها حتى بلغتُ العشرين. تحمَّلتُ ذلك الألم عشرين عامًا، أملًا في أن أصل إلى نقطة تحوُّل يتبدَّل فيها كلُّ شيء، لكنّ ذلك لم يحدث. شعرتُ بأنِّي مهزومة. تمنَّيتُ لو متُّ قبل ذلك. الانعطافة الطويلة التي اتَّخذتُها لم تُنتج سوى تمديد ألمي».

أخذتْ كريتا كانو نَفَسًا عميقًا. على الطاولة أمامها صحنٌ فيه قشور البيض، وفنجانُها الفارغ. على حجرها المنديلُ الذي طوتْه بعناية شديدة. نظرتْ إلى الساعة فوق الرفّ كأنَّها تذكَّرت الوقت. «أنا آسفة جدًّا. لم أكن أريد أن أُطيلَ الحديثَ هكذا. أخذتُ من وقتك الكثير جدًّا، ولن أفرضَ نفسي عليك أكثر من ذلك. لا أعرف كيف أعتذر إليك فقد أضجرتُكَ طوال هذا الوقت».

التقطتْ حزامَ حقيبتها البيضاء ونهضتْ عن الأريكة.

فوجئتُ بذلك. «لحظة من فضلِكِ». لم أكن أريد أن تُنهي

حكايتَها في نصفها. «إنْ كانت المسألة مسألةَ وقتي، فلا تقلقي. لستُ مشغولًا طوالَ فترة العصر. ولأنَّكِ حكيتِ لي كلَّ هذا، فلماذا لا تُكملي الحكايةَ حتى النهاية؟ بالتأكيد هناك المزيد في حكايتك».

قالت وهي تنظر إليّ، ويداها تقبضان على حزام الحقيبة: «بالطبع هناك المزيد. ما حكيتُه لكَ أشبهُ بالمقدِّمة». طلبتُ منها أن تنتظر لحظةً وذهبتُ إلى المطبخ. وقفتُ عند المغسلة وأمهلتُ نفسي وقتًا لنَفَسيْن عميقيْن، ثم تناولتُ كأسيْن ووضعتُ فيهما ثلجًا، وملأتُهما بعصير برتقالٍ من الثلَّاجة. وضعتُ الكأسيْن على صينيَّة صغيرة، وأخذتُهما إلى الصالة. كنتُ أتحرَّك ببطءٍ متعمَّد، لكنِّي وجدتها واقفةً كما تركتُها. غير أنِّي حين وضعتُ الكأسيْن على الطاولة تراجعتْ. جلستْ مرَّة أخرى على الأريكة ووضعتْ حقيبتَها إلى جانبها.

«هل تريدني أن أحكي لك حكايتي حتى النهاية؟ هل أنت متأكِّد؟»

«نعم متأكِّد».

شربتْ نصفَ كأسها ثم تابعتِ الحكاية.

«فشلتْ محاولةُ الانتحار طبعًا. لو أنِّي نجحتُ لما كنتُ هنا الآن معك أشرب عصيرَ البرتقال سيِّد أوكادا». نظرتْ في عينيَّ، فابتسمتُ لها. «لو أنِّي متّ كما أردتُ، لكان ذلك خلاصًا لي. الموت نهايةُ الوعي، ولن أضطرّ أبدًا إلى الشعور بالألم مرَّةً أخرى. وهذا ما أردُته. لكنِّي اخترتُ الطريقةَ الخاطئة، للأسف.

«في التاسعة من مساء التاسع والعشرين من أيّار / مايو، ذهبتُ إلى أخي في غرفته وطلبتُ منه سيَّارتَه. كانت سيَّارة تويوتا جديدة، لذلك لم يكن سعيدًا بالسماح لي باستعارتها. لكنَّني لم أهتمّ. لم يستطع أن يرفض، لأنَّني كنتُ قد أقرضتُه المالَ لكي يستطيع شراءها. أخذتُ المفتاح وقدتُ السيَّارة نصفَ ساعة. لم تكن السيَّارة قد اجتازت أكثر من 1600 كيلومترًا بعد، ما يعني أنَّها ستطير بضغطةٍ على دوَّاسةِ الوقود. كانت السيَّارة المثاليَّة لما أريد أن أفعله. قدتُ السيَّارة إلى نهر تاما على ضواحي المدينة، فوجدتُ جدارًا حجريًّا ضخمًا من النوع الذي كان في بالي. كان جدارًا خارجيًّا لبناية سكنيَّة مشتركة، عند الطرف البعيد من طريق مسدود. تركتُ لنفسي مسافةً كي أسرع، ثم ضغطتُ على الدوَّاسة إلى آخرها. لا بدَّ أنَّني كنتُ أسير بسرعةٍ تقارب المئة وستِّين كيلومترًا في الساعة حين صدمتُ الجدار وفقدتُ الوعي.

«لسوء حظِّي، لم يكن الجدارُ صلبًا كما يبدو. لم يثبِّتوه جيِّدًا، كي يخفِّفوا النفقات! وهكذا تهاوى الجدار، وتحطَّمتْ مقدِّمة السيَّارة. هذا كلُّ ما حدث. والأسوأ من ذلك أنَّني، في غمرة اضطرابي، نسيتُ أن أفكَّ حزامَ الأمان.

«وهكذا نجوتُ من الموت. بل إنَّني بشقّ النفس أُصبت بجروح. الأغرب من ذلك أنَّني لم أشعر بأيّ ألم. كان أمرًا شديدَ الغرابة. أخذوني إلى المستشفى وعالجوا ضلعي المكسور، ثم جاءت الشرطةُ للتحقيق لكنَّني قلتُ لهم إنَّني لا أذكر شيئًا ممَّا حدث. قلتُ الأمر ربَّما اختلط عليّ، فضغطت على دوَّاسة الوقود بدلًا من المكابح. صَدَّقوني، فقد كنت في العشرين من العمر ولم

أحصلْ على رخصة القيادة إلَّا منذ ستَّة أشهر. كما أنَّني لم أبدُ من النوع الذي يُقْدم على الانتحار. ومن يا تُرى يحاول الانتحارَ وهو يرتدي حزامَ الأمان؟!

«ما إنْ خرجت من المستشفى حتى كان عليّ أن أواجِه مشكلات صعبة عدَّة. أولاها أن أدفع ما تبقَّى من قرض السيَّارة التي حطَّمتُها. ولوجود خللٍ في إجراءات شركة التأمين، لم يكن هناك تأمينٌ على السيَّارة.

«بعد فوات الأوان أدركتُ أنَّه كان يجدر بي استئجارُ سيَّارة ذات تأمينٍ مناسب. في ذلك الوقت طبعًا كان التأمين آخرَ ما يمكن أن أُفكِّر فيه. لم يخطر في بالي أنَّ سيَّارة أخي غيرُ مؤمَّنة، أو أنَّ محاولةَ الانتحار ستَفْشل. لقد صدمتُ جدارًا حجريًّا بسرعة مئة وستِّين كيلومترًا في الساعة. من المدهش أن أنجو.

«بُعَيْد ذلك وصلتني فاتورةٌ من اتِّحاد ملَّاك البناية لإصلاح الجدار. طالبوا بدفع 294، 364، 1 ينًّا نقدًا، وعلى الفور. كلُّ ما استطعتُ فعلَه هو أن أقترضَ المبلغ من والدي. لم يرفض أن يُعطيني المبلغ، بشرط أن أُعيدَه إليه. كان أبي حازمًا في ما يتعلَّق بالمال. قال إنَّني أتحمَّل المسؤوليَّة عن الحادث، وعليَّ أن أُعيدَ المبلغَ إليه كاملًا وفق الموعد المتَّفق عليه. في الحقيقة لم يكن يملك الكثيرَ من المال آنذاك؛ فقد كان ماضيًا في توسعة عيادته ويواجه صعوبةً في تدبير المال اللازم للمشروع.

«فكَّرتُ ثانيةً في الانتحار. لكنَّني هذه المرَّة سأنفِّذ الأمرَ جيِّدًا. سوف أقفز من الطابق الخامس عشر من مبنى إدارة

الجامعة. لا أخطاء. سأموتُ بالتأكيد. أجريتُ عدَّة تجارب، واخترتُ النافذةَ الأفضلَ للمهمَّة. وكنتُ على وشك القفز.

«لكنَّ شيئًا استوقفني في تلك اللحظة. ثمَّة شيء غير عاديّ، ألحَّ على عقلي. في اللحظة الأخيرة كان ذلك «الشيء» هو الذي أعادني من حافَّة النافذة. لقد مضى وقت قبل أن أدرك هذا «الشيء».

«لم أكن أشعرُ بالألم.

«منذ الحادثة لم أكد أشعر بأيّ ألم. ومع تعاقب الأحداث لم أجد وقتًا كي ألاحظَ ذلك، لكنّ الألم كان قد اختفى من جسدي. حركاتُ أمعائي كانت طبيعيَّة. آلامُ الدورة الشهريَّة اختفت. لا صداع، ولا مغص. حتى ضلعي المكسور كان يكاد لا يؤلمني. لا أدري كيف حدث ذلك، لكنَّني أصبحتُ فجأةً بلا ألم.

«قرَّرتُ أن أواصل العيشَ موقَّتًا. أردتُ أن أعرف معنى الحياة من دون ألم، وإنْ لبعض الوقت. ويمكن أن أموت لاحقًا.

«لكنَّ مواصلةَ العيش تعني أن أدفعَ ديوني. كانت تبلغ كلّها أكثرَ من ثلاثة ملايين ين. ولكي أستطيع أن أدفعها عملتُ عاهرة».

«عاهرة؟!»

قالت وكأنَّ الأمر عاديّ جدًّا: «نعم. كنتُ في حاجة إلى المال في وقت قصير. أردتُ أن أدفع ديوني بأسرع ما يمكن، وتلك هي الطريقةُ الوحيدة التي أعرفها لجمع المال. لم أتردَّد.

كنتُ قد عزمتُ على الانتحار، وما زلت عازمةً، عاجلًا أو آجلًا. أمَّا الذي يُبْقيني حيَّةً الآن فهو محضُ الفضول في معرفة طبيعة الحياة من دون ألم، موقَّتًا فقط. لذلك، لم يكن بيعُ جسدي يعني لي شيئًا إنْ قارنته بالانتحار».

«فهمتُ قصدَكِ».

ذاب الثلجُ في عصيرها، فحرَّكتْه كريتا كانو بالقشَّة قبل أن تأخذ رشفةً.

«هل لي أن أسألكِ سؤالًا؟»

«نعم، تفضَّلْ».

«ألم تستشيري أختَكِ في هذا؟»

«كانت آنذاك تعيش حياةَ التنسُّك في المالطا. وكانت ترفض أن ترسل إليَّ عنوانها كي لا أقطعَ تركيزَها. لثلاث سنوات كاملة كان من المستحيل أن أرسل إليها شيئًا».

«فهمتُ. هل تريدين مزيدًا من القهوة؟»

«نعم، من فضلك».

ذهبتُ إلى المطبخ وسخَّنتُ القهوة. وبينما كنتُ أنتظر، رحتُ أحدِّق في مروحة المطبخ وآخذ عدَّة أنفاسٍ عميقة. وحين جهَّزت القهوةُ صببتُها في فنجانيْن جديديْن وأخذتُهما إلى الصالة على صينيَّة، مع صحنٍ من كعك الشوكولاتة. أكلنا وشربنا بعضَ الوقت.

«كم مضى من الوقت منذ أن حاولتِ الانتحار؟»

«كنتُ في العشرين وقتها. قبل ستّ سنوات. في أيّار / مايو 1978».

أيَّار / مايو 1978 هو الشهر الذي تزوَّجتُ فيه كوميكو. إذن، في الشهر الذي تزوَّجنا فيه، حاولتْ كريتا كانو الانتحارَ، وكانت مالطا كانو تعيش حياةَ التنسُّك في مالطا.

«ذهبتُ إلى حيٍّ يحوي الكثيرَ من الحانات، واقتربتُ من أوَّلِ رجلٍ رأيتُه زبونًا محتملًا. فاوضتُه على السعر، وذهبنا إلى فندق، ومارستُ الجنسَ معه. لم يعد الجنسُ يسبِّب لي أيَّ آلام جسديَّة، ولا أيَّ متعة. كان مجرَّد حركات جسديَّة. ولم أشعرْ بأيِّ تأنيب ضمير جرَّاء ممارسة الجنس بمقابل. كنتُ مُغلَّفةً بالخَدَر، بغيابٍ للشعور، عميقٍ لا يُرى قاعُه.

«حصلتُ على مبلغ جيِّدٍ بهذه الطريقة. نحو مليون ينّ في الشهر الأوَّل فقط. وبذلك المعدَّل كان يمكنني أن أدفع ديوني في غضون ثلاثة أشهر أو أربعة. كنتُ أعود من الكلِّيَّة إلى البيت، ثم أخرج في المساء وأعود عند العاشرة كحدٍّ أقصى. قلتُ لوالديّ إنَّني أعمل نادلةً، ولم تساورْهما الشكوك في كلامي. بطبيعة الحال كانا سيستغربان أن أحصل على ذلك القدْرِ من المال دفعةً واحدة، لذلك قرَّرتُ أن أُعطي والدي مئةَ ألف ينّ كلّ شهر، وأحتفظ بالباقي.

«ولكنْ ذات ليلة بينما كنتُ أعرض خدماتي على الرجال عند المحطَّة، أمسك بي رجلان من الخلف. في البداية اعتقدتُ أنَّهما الشرطة، ثم أدركتُ أنَّهما من رجال العصابات. سحباني إلى

شارع خلفيّ، وهدَّداني بشيء يشبه السكِّين، ثم أخذاني إلى مقرّهم. ألقيا بي في غرفة خلفيَّة وجرَّداني من ملابسي، ثم علَّقاني من معصميَّ وشرعا في اغتصابي مرَّةً بعد الأخرى أمام كاميرا. أبقيتُ عينيّ مغمضتيْن طوال الوقت وحاولتُ ألَّا أُفكِّر في شيء. لم يكن ذلك صعبًا، فلم أشعر لا بألمٍ أو بلذَّة.

«بعد ذلك جعلاني أشاهد التصويرَ وهدَّداني بنشره إنْ لم أوافقْ على العمل لصالح العصابة. أخذا بطاقتي الجامعيَّة من حقيبتي، وهدَّداني بإرسال نسخةٍ من الشريط إلى والديّ وابتزازهما. قلتُ لهما إنَّني سأفعل ما يقولان، وإنَّ الأمرَ لا يهمّني. وبالفعل لم يكن يهمّني. لم يكن هنالك شيء يهمّني. قالا إنَّ مدخولي سيقلّ لأنَّهم سيقتطعون منه سبعين في المئة، لكنَّني لن أضطرّ إلى البحث عن زبائن أو الخوف من الشرطة. سوف يرتِّبون لي زبائن من مستويات عالية. أمَّا إنْ عملتُ لوحدي واخترتُ الزبائن هكذا من دون تمييز، فسوف ينتهي بي الأمرُ مشنوقةً في غرفة فندق.

«وهكذا لم أعد مضطرَّةً إلى الوقوف عند نواصي الشوارع. كنتُ أذهب إلى مكتبهم في المساء، ويخبروني بالفندق الذي عليَّ الذهابُ إليه. نفَّذوا وعدَهم وكانوا بالفعل يرسلوني إلى زبائن ممتازين. لا أعرف السبب، لكنَّني عُوملتُ معاملةً خاصَّة. ربَّما لأنَّ لي مظهرَ الفتاة البريئة. كانت في مظهري مسحةُ التنشئة الجيِّدة، وهذه لا توجد في بقيَّة الفتيات. ربَّما كان الكثير من الزبائن يفضِّلون هذا النوعَ من الفتيات اللائي لا يبدون «محترفات». كانت الفتيات الأخريات يُجبرن على زيارة ثلاثة

زبائن أو أكثر في اليوم، أمَّا أنا فكان لديَّ موعدٌ واحد فقط، أو اثنان على الأكثر. وكانت بقيَّةُ الفتيات يحملن معهنَّ جهازَ نداء، وما إنْ يتصل بهنَّ المكتبُ حتى يسرعن إلى فندق حقير كي يمارسن الجنس مع رجالٍ لا يُعرف الكثيرُ عنهم. أمَّا أنا فكان عندي دائمًا موعدٌ محدَّد في فندقٍ من الدرجة الأولى، وفي بعض الأحيان في شقَّة. كان زبائني دائمًا من الشريحة الأكبر عمريًّا، ونادرًا ما يكونون من الشباب.

«كان المكتب يدفع لي مرَّةً في الأسبوع. لم يكن المبلغ يساوي ما كنتُ أحصل عليه لوحدي، لكنَّه ليس مبلغًا سيِّئًا، مع الأخذ في الاعتبار الإكراميَّات التي يدفعها الزبائن. بعضُهم كان يطلب أن أفعل له أشياءَ غريبةً جدًّا، لكنَّني لم أمانع. فكلَّما ازداد الطلبُ غرابةً، زادت الإكراميَّة. هكذا بدأ بعضُ الرجال يطلبونني بانتظام، وكانوا يدفعون إكراميَّاتٍ سخيَّة. احتفظتُ بمالي في عدَّة حسابات بنكيَّة، لكنّ المال في ذلك الوقت لم يكن يعنيني. كان عبارةً عن أرقام لا أكثر. كنتُ أعيش لغرضٍ واحدٍ فقط: أن أتأكَّد من غياب إحساسي.

«كنتُ أصحو في الصباح وأظلّ في فراشي، أتفحَّص إنْ كان جسدي لا يحسّ بألم. أفتح عينيّ، ثم أستجمع أفكاري ببطء، وبعدها أتفحَّص الإحساسَ في جسدي من الرأس حتى أخمص القدمَيْن. لم يكن هناك أيُّ ألم على الإطلاق. تُرى أَلَم يعد شيءٌ يؤلمني، أمْ أنَّني لا أحسّ بالألم على الرَّغم من وجوده؟ لم أستطع أن أفرِّق بين الأمرَيْن. على أيِّ حال، لم يكن هناك ألم. بل لم يكن لديَّ إحساسٌ أبدًا. بعد هذا، كنتُ أنهض من سريري

وأدخل الحمَّام فأفرك أسناني، ثم أخلع منامتي وآخذ حمَّامًا ساخنًا. كانت هناك خِفّةٌ مخيفةٌ في جسدي إلى حدِّ أنَّني لم أشعر أنَّه جسدي. شعرتُ كما لو أنَّ روحي استقرَّت في جسد آخر غير جسدي. كنتُ أنظر إليه في المرآة، فأشعر بمسافة طويلة جدًّا بين نفسي والجسدِ الذي أراه.

«حياةٌ من دون ألم. كان هذا ما حلمتُ به سنوات، ولكنْ بعد أن تحقَّق لم أستطع أن أجد لي مكانًا داخل هذه الحياة. ثمَّة فجوة واضحة تبعدني عنها، فزادت حيرتي. شعرتُ كما لو أنَّني لم أُثبِّتْ في هذا العالم؛ العالم الذي كرهتُه كرهًا شديدًا، العالم الذي قلتُ إنَّه غير منصف. لكنَّه العالم الذي كنتُ أعرف فيه على الأقلِّ أين أكون. أمَّا الآن فلم يعد العالمُ هو العالم، ولم أعد أنا أنا.

«بدأتُ أبكي كثيرًا. كنتُ بعد الظهر أذهب إلى حديقة (حدائق شنجوكو الملكيَّة أو حديقة يويوغي). أجلس على العشب وأبكي، ساعةً أو ساعتيْن، وأنشجُ بصوتٍ عال. كان المارَّة يحدِّقون بي، لكنَّني لم آبه بهم. تمنَّيتُ لو أنَّني متّ في ذلك الحادث، لو أنَّني استطعتُ الانتحار ليلةَ التاسع والعشرين من أيّار / مايو. ألم يكن هذا أفضل؟ أمَّا الآن فلا سبيل لي إلى الموت، ولا عُدتُ أنا نفسي».

أخذتْ كريتا كانو نَفَسًا عميقًا وحبستْه. ثم أخذتْ فنجانَ القهوة، ونظرتْ فيه برهةً، ثم هزَّت رأسها، وأعادت الفنجانَ إلى صحنه.

قالت: «في تلك الفترة التقيتُ نوبورو واتايا».

«نوبورو واتايا؟! زبونًا؟»

أومأتْ كريتا كانو في صمت.

«ولكن ـ» ثم توقَّفتُ كي أتمعَّن في كلماتي. «أختُكَ أخبرتني ذلك اليوم أنَّ نوبورو واتايا اغتصبَكِ. هل هو أمر منفصل عمَّا تحكينه لي الآن؟»

تناولتْ كريتا كانو المنديلَ من حجرها ومسحتْ فمَها مرَّةً أخرى. ثم نظرتْ في عينيّ. شيء ما في عينيْها حرَّك قلبي على نحوٍ غير مريح.

«اعذرْني على إزعاجك، ولكنْ هل يمكن أن آخذَ فنجانَ قهوةٍ آخر؟»

«طبعًا». وضعتُ فنجانها في الصينيَّة وحملتُه إلى المطبخ. اتَّكأتُ على لوح تجفيف الأواني واضعًا يديَّ في جيبيّ، وأنا أنتظر القهوة. حين حملتُها إلى الصالة وجدتُ كريتا كانو اختفت من على الأريكة. حقيبتُها، منديلُها، كلُّ أثرٍ لها اختفى. مشيتُ إلى الردهة، فوجدتُ أنَّ حذاءها اختفى أيضًا.

رائع!

9

البَرَابِخ والقصور التامّ للطاقة الكهربائيَّة
مايو كاساهارا تستكشف طبيعة الشعر المستعار

في صباح اليوم التالي انتظرتُ حتى غادرتْ كوميكو إلى عملها، ثم ذهبتُ إلى المسبح العموميّ. أوقات الصباح هي الأفضل، إذ يقلّ الزحام. وحين عدتُ إلى البيت غليتُ لنفسي قليلًا من القهوة وجلستُ في المطبخ أشربها وأُفكّر في قصَّة كريتا كانو الغريبة التي لم تُنهِها، أحاول أن أتذكَّر كلّ حادثة من حياتها وفقًا للترتيب الزمنيّ الصحيح. وكلَّما تذكَّرتُ أكثر، ازدادت الحكايةُ غرابةً. ولكنْ سرعان ما تباطأتْ أمواجُ عقلي، وبدأتُ أنعس. ذهبتُ إلى الصالة، واستلقيتُ على الأريكة، وأغمضتُ عينيّ. في لحظة كنتُ نائمًا، وأحلم.

حلمتُ بكريتا كانو. ولكنْ قبل أن تظهر في الحلم، حلمتُ بمالطا كانو. كانت ترتدي قبّعةً بافاريّةً بريشة كبيرة ذات لون بهيّ. كان المكان مزدحمًا (يشبه القاعةَ الكبيرة)، لكنّ قبّعة مالطا كانو اجتذبت انتباهي مباشرةً. كانت تجلس وحيدةً إلى البار، وأمامها شرابُ كوكتيل، لكنّي لم أستطع أن أحدّد ما إذا كانت تشربه فعلًا.

كنتُ أرتدي بذلتي وربطةَ عنقي المنقّطة. وفورَ أنْ رأيتُ مالطا كانو حاولتُ أن أسير باتّجاهها، لكنّ الزحام ما انفكّ يعترضني. حين وصلتُ إلى البار، كانت قد اختفتْ. المشروب الذي كان أمامها في مكانه، أمام مقعدها الذي أصبح فارغًا. اتّخذتُ المقعد الذي يليه وطلبتُ وِسكي بالثلج. سألني الساقي أيَّ نوعٍ أريد، فأجبتُه «كَتي سارك». في الحقيقة لم يكن يهمّني نوعُ الوِسكي، لكنَّ هذا أوّل ما خطر ببالي.

وقبل أن يقدّم إليّ المشروب، شعرتُ بيدٍ تقبض على ذراعي من الخلف، بلمسةٍ ناعمة كما لو أنَّ اليد كانت تمسك بشيءٍ قد يتهاوى في أيّ لحظة. التفتُّ، فإذا برجل من دون وجه. لا أدري إنْ كان بلا وجه فعلًا، لكنَّ المكان الذي كان يُفترض أن يَشغلُه وجهُه كان ملفوفًا بظلٍّ قاتم، ولم أستطع أن أتبيّن ما خلفه. قال لي: «مِنْ هنا، سيّد أوكادا». حاولتُ أن أتكلّم، لكنّه قال: «من فضلك تعالَ معي. لا وقت لدينا. أسرعْ». يدُه ما تزال على ذراعي، فقادني بخطوات سريعة عبر الزحام إلى الرواق. تبعتُه في الرواق من دون مقاومة؛ فقد كان يعرف اسمي. الأمر ليس كما لو أنّني أسمح لشخصٍ غريب أن يأخذني إلى أيّ مكان. كان ثمّة

سببٌ وغرضٌ في كلِّ ما يحدث.

وبعد أن مشينا في الرواق قليلًا توقَّف عديمُ الوجه أمام باب. كان رقمُه 208. «الباب غير مقفول. ولكنْ ينبغي أن تكونَ أنتَ من يفتحه». فعلتُ ما قاله وفتحتُ الباب، فوجدتُ غرفةً كبيرة، جزءًا من جناح فندقٍ قديم الطراز. كان السقف عاليًا، تتدلَّى منه ثريّا على الطراز القديم. لم تكن الثريّا مُضاءةً، والمصدرُ الوحيدُ للضوء كان مصباحًا صغيرًا على الجدار. أمَّا الستائر فكانت مغلقةً تمامًا.

قال عديمُ الوجه: «إنْ كان الوِسكي ما تريد يا سيِّد أوكادا، فلدينا منه الكثير. كتي سارك، أليس كذلك؟ اشربْ كما تريد»، وأشار إلى دولاب إلى جانب الباب، ثم أغلق البابَ بهدوء، وتركني وحيدًا. وقفتُ في منتصف الغرفة لا أدري ماذا أفعل.

كانت هناك لوحةٌ زيتيَّة كبيرة معلَّقة على الجدار. صورة نهر. نظرتُ فيها فترةً، آملًا أن تهدأ نفسي. كان القمر عاليًا فوق النهر، يسقط شيءٌ من نوره على الساحل المقابل، لكنَّه نور شحيح حتى إنِّي لم أستطع رؤيةَ المشهد هناك. كانت كلّها خطوطًا غامضة، تسير جنبًا إلى جنب.

وسرعان ما اشتهيتُ الوِسكي. قلتُ لنفسي سأفتح الدولاب وأصبُّ لنفسي كأسًا كما قال عديمُ الوجه، لكنَّ الدولاب لم ينفتح. فما بدا مثلَ أبوابٍ كان في الواقع تقليدًا مُتقنًا. حاولتُ أن أدفعَها أو أسحبَها، لكنَّها ظلَّت مغلقة.

«لا تنفتح بسهولة، سيِّد أوكادا». جاءني صوتُ كريتا كانو.

أدركتُ أنَّها تقف هناك، بزيِّها الذي يذكِّر بأوائل الستِّينيَّات. «لا بدَّ أن ينقضي بعضُ الوقت حتى تنفتح. لا فائدة اليوم».

وبينما كنت أنظر إليها، خلعتْ ملابسَها بسهولةٍ بالغة، كمن يفتح حبَّة بازلَّاء، ووقفتْ عاريةً أمامي من دون إنذار، أو تفسير. «لا وقتَ لدينا سيِّد أوكادا. دعنا ننتهي من الأمر بأسرع ما يمكن. أعتذرُ عن العجلة، ولكن لديَّ أسبابي. المجيء إلى هنا في حدِّ ذاته كان صعبًا». ثم اقتربتْ منِّي وفتحت سحّابَ بنطالي، ثم أخرجت شيئي، كما لو أنّ ما تفعله طبيعيّ جدًّا. خفضتْ عينيْها (برموشها المستعارة)، وطوَّقتْه بشفتيْها. كان فمُها أكبر بكثير ممَّا تخيَّلت. انتصبَ في فمها فورًا. وحين حرَّكتْ لسانَها، كانت أطرافُ شعرها المتموِّجة تهتزّ كما في نسيمٍ خفيف، تربِّت على فخذي. لم أر شيئًا سوى شعرها ورموشها المستعارة. جلستُ على طرف السرير وهي على ركبتيْها، تدفن وجهَها بين ساقيّ. قلتُ لها: «كفى. نوبورو واتايا سيكون هنا في أيِّ لحظة. لا أريد أن أراه هنا».

أبعدتْ كريتا كانو فمَها وقالت: «لا تقلقْ. لدينا وقت كثير. لهذا الشيء على الأقلّ».

أخذتْ تمرِّر لسانَها عليه. لم أكن أريد أن أقذف، لكنَّني لم أستطع أن أمنع ذلك. شعرتُ كما لو أنّه يُشفط من داخلي. كانت شفتاها ولسانها تقبض عليّ مثل كائناتٍ زَلِقة. قذفتُ. استيقظت.

رائع! دخلتُ الحمَّام، وغسلتُ ملابسي الداخليَّة التي اتَّسختْ، وأخذتُ حمَّامًا ساخنًا، ثم نظَّفتُ نفسي بعناية للتخلُّص

من لزوجة الحلم. تُرى كم سنةً مرّت منذ أن احتلمتُ آخرَ مرّة؟ حاولت أن أتذكّر لكنّني لم أستطع. مضت فترةٌ طويلةٌ جدًّا.

خرجتُ من الحمّام، وكنتُ ما أزال أنشّف نفسي، فرنَّ الهاتف. كانت كوميكو هي المتّصلة. شعرتُ بتوتّر قليل من الحديث معها لكوني احتلمتُ لتوّي على امرأةٍ أخرى.

قالت: «صوتك غير طبيعيّ. ماذا بك؟» كان لديها إحساس مرعب بهذه الأشياء.

«لا شيء. كنتُ غافيًا فقط. وأنتِ أيقظتِني».

«أها، حقًّا؟» شعرتُ بشكوكها تقفز من السمّاعة، فزاد توتّري.

«المهمّ، آسفة سأتأخّر اليوم. ربّما إلى التاسعة. لذلك سأتعشّى خارج البيت».

«لا بأس. سأتدبّر أمري. لا تقلقي».

«آسفة فعلًا». قالتها فيما يُشبه الاستدراك. صمتتْ قليلًا، ثم أغلقتِ الخطّ.

نظرتُ في السمّاعة بضع ثوانٍ، ثم ذهبتُ إلى المطبخ أقشّر تفّاحة.

*

طوال سنوات زواجي الستّ لم أضاجعْ امرأةً أخرى. لا أقول إنّني لم أشعر قطّ بالرغبة في امرأةٍ أخرى، أو إنّني لم أجد الفرصةَ المواتية، لكنّني لم أفعلها حين واتتني الفرصة. ليس لديَّ تفسير محدَّد لذلك، ولكنْ لعلّها أولويّاتُ الحياة.

ذاتَ مرَّة قضيتُ ليلةً مع امرأة أخرى. كانت امرأةً تُعجبني، وكنتُ متأكِّدًا من أنَّها ستضاجعني. لكنَّني في النهاية لم أفعل.

كنَّا نعمل في شركة المحاماة نفسها سنوات. وكانت أصغرَ منِّي بسنتيْن أو ثلاث. أمَّا وظيفتها فكانت استقبالَ المكالمات وتنسيقَ المواعيد، وكانت تتقن عملها. كانت سريعة ولها ذاكرة مذهلة. فلو سألتَها عن أيِّ شيء تُجيبك فورًا عن المسؤول عن هذه القضيَّة، وأين هو الآن، والملفّ الفلانيّ موجود في أيِّ دولاب، وما إلى ذلك. كانت ترتِّب جميعَ المواعيد، لذلك كان الكلُّ يُحبّها ويعتمد عليها. على المستوى الشخصيّ كنَّا مقرَّبيْن وادحنا من الآخر، وخرجنا عدَّة مرَّات للشراب معًا. لم تكن من النوع الذي يمكنك أن تَصِفَه بالجمال، لكنّ شكلها كان يُعجبني.

ثم قرَّرتْ أن تترك وظيفتَها لكي تتزوَّج؛ فقد كان عليها الانتقال إلى كيوشو حيث يعمل زوجها. لذلك دعوتُها، أنا وزملاء العمل، إلى تناول شرابٍ أخير معًا. بعد ذلك كان علينا، أنا وهي، أن نستقلّ القطارَ نفسَه للعودة إلى البيت. ولـمَّا كان الوقت متأخِّرًا، فقد حرصتُ على أن أوصلَها إلى شقَّتها. عند باب الشقَّة عرضتْ عليَّ فنجانَ قهوة. كنتُ أخشى أن يفوتني القطارُ الأخير، ولكنَّني وافقتُ لأنَّنا لن نلتقي ثانيةً، وكنتُ في حاجةٍ إلى قهوةٍ تخفِّف أثرَ الكحول. كانت الشقَّة المعتادةَ لفتاة عزباء. فيها ثلَّاجة أكبر بقليل من احتياج شخص واحد، ومسجّلة عَلى رفّ الكتب. أحد الأصدقاء هو الذي أهداها الثلَّاجة. غيَّرتْ ملابسَها وارتدت شيئًا مريحًا، ثم أعدَّت القهوة في المطبخ. وجلسنا على الأرض نتحدَّث.

حين نفد منّا الكلامُ سألتني وكأنَّ الأمر خطر لها للتوّ: «هل هناك شيء واحد، شيء ملموس، تخاف منه أكثر من غيره؟»

أجبتُ بعد لحظة تفكير: «كلّا». هناك أشياء كثيرة أخاف منها، لكنْ لا يوجد شيء محدَّد أخافه أكثر من غيره. «وأنتِ؟»

قالت وهي تحتضن ركبتيْها: «أخاف من البَرابِخ. تعرف ما هو البَربَخ، أليس كذلك؟»

«بلى، ولكنَّه تحت الأرض. ممرٌّ مائيٌّ تحت الأرض. هو مصرفٌ وفوقه غطاء. حالكُ الظلمة».

«نعم، بَربخ».

«وُلدتُ ونشأتُ في الريف، في فوكوشيما. كان لدينا نبعٌ قرب بيتنا، نبعٌ صغير، مجرى الماء من حقولنا. كان يصبّ في مكانٍ ما تحت الأرض في بربخ. حين حدث الأمرُ أعتقد أنَّني كنتُ ألعب مع أطفال أكبر منِّي. كنتُ في الثانية أو الثالثة. وضعني الأطفالُ في قارب صغير وأطلقوه في النبع. لعلَّهم كانوا يفعلون ذلك دائمًا، لكنّ المطر كان ينهمر في ذلك اليوم، وكان منسوبُ الماء مرتفعًا. فسحبني القاربُ بعيدًا عنهم وحملني مباشرةً نحو فتحة البربخ. كان سيبتلعني على الفور لو لم يكن أحدُ المزارعين هناك. ولن يجدوني بالتأكيد».

حرّكتْ سبّابتَها اليسرى على فمها، وكأنَّها تريد أن تتأكّد من أنَّها ما تزال حيَّة.

«أستطيع أن أستعيد كلَّ ما حدث حتى اليوم. أنا مستلقية على ظهري، والماء يسحبني. يرتفع جانبا النهر فوقي مثل جداريْن

حجريَّيْن عاليَيْن، والسماءُ الزرقاء من فوقي، زرقةً صافيةً حادَّة. والتيَّار يسحبني، أسرع فأسرع، لكنَّني لا أُدرك ما يحدث. وفجأةً أُدرك. أُدرك أنَّني أمام ظلام. ظلام حقيقيّ، سرعان ما سيأتي ويحاول أن يبتلعني. أشعرُ بظلٍّ باردٍ يهمّ بأن يطوّقني. هذه أقدمُ صورةٍ في ذكرياتي».

رشفتْ من القهوة.

«أكاد أموتُ فزعًا. فَزَعٌ لا أستطيع أن أحتمله. أشعر وكأنّي قد ابتُلعتُ فعلًا آنذاك، كأنِّي سُحبت إلى الفتحة ولا يمكنني الهروب».

أخرجتْ سيجارةً من حقيبتها، وضعتْها بين شفتيْها وأشعلتها بعود ثقاب، ثم نفثت الدخانَ بِنَفَسٍ طويل بطيء. كانت تلك أوَّل مرَّةٍ أراها تدخِّن.

سألتُها: «هل تقصدين زواجَكِ؟»

«نعم، زواجي».

«هل هناك مشكلة معيَّنة؟»

هزَّت رأسها: «مشكلة ملموسة؟ لا. إنَّما هي أشياء صغيرة كثيرة».

لم أعرف بمَ أردّ، لكنَّ الوضع كان يتطلَّب أن أقول شيئًا.

«الجميع يشعرون بشيء شبيه حين يُقْبلون على الزواج، كما أعتقد. «يا إلهي، إنَّني على وشك أن أرتكب خطأً كبيرًا». ربَّما من غير الطبيعيّ أن لا تشعري بهذا الشعور. الزواج قرار خطير، اختيار شخص تقضين حياتك معه. لذلك من الطبيعيّ أن تشعري

بالخوف، ولكنْ لا ينبغي أن تخافي إلى هذه الدرجة».

«الكلام سهل. «الجميع يشعرون بذلك. الكل يشبهون بعضهم»».

الساعةُ تجاوزت الحادية عشرة. كان عليَّ أن أجد طريقةً لإنهاء هذا الحوار نهايةً مريحةً والخروج. ولكنْ قبل أن أفتح فمي، طلبتْ منّي فجأةً أن أحتضنها.

باغتني هذا الطلب فسألتُها: «لماذا؟»

«كي أشحن بطّاريّتي».

«عفوًا؟»

«نفدت الكهرباءُ من جسمي. منذ أيّام لا أستطيع أن أنام. ما إنْ أغفو حتى أصحو، ثم لا أستطيع النوم ثانيةً. ولا أستطيع أن أفكّر. حين يحدث لي هذا، ينبغي أن يشحن أحدٌ بطّاريّتي، وإلّا لن أستطيع أن أستمرّ في حياتي».

استرقتُ النظرَ إلى عينيْها، لأعرف إنْ كانت ما تزال ثملة، فوجدتُهما قد عادتا كما كانتا ذكيّتيْن باردتيْن. لم تكن ثملةً مطلقًا.

«لكنَّكِ سوف تتزوَّجين الأسبوعَ القادم. اطلبي منه أن يحتضنَكِ كما تشائين. كلَّ ليلة. هذه فائدةُ الزواج. لن تنفد الكهرباءُ من جسمك ثانيةً».

«المشكلة في الآن. ليس غدًا، ولا بعد أسبوع ولا بعد شهر. كهربائيّ نافدةٌ الآن».

أخذتْ تحدِّق في قدميْها بشفتيْن مطبقتيْن. كانت قدماها متوازيتيْن تمامًا، صغيرتيْن وبيضاويْن، بعشرة أصابع جميلة. يبدو

أنَّها كانت بالفعل تريد شخصًا يحتضنها، فطوَّقتُها بذراعي. كان الأمرُ كلّه غريبًا؛ فهي بالنسبة إليَّ مجرَّدُ زميلة لطيفة وقديرة. كنّا نعمل في المكتب نفسه، نتبادل النكات، ونخرج لتناول الشراب بين وقتٍ وآخر. أمّا هنا، بعيدًا عن العمل، في شقَّتها، وأنا أطوِّقُها بذراعيّ، فلم نكن غيرَ كتلتيْن دافئتيْن من اللحم. كنّا في مسرحِ المكتب نؤدِّي دورَينا، لكن بعد النزول من المسرح والتخلّي عن المشاهد التي كنّا نعرضها هناك، أصبحنا كتلتَيْ لحم غريبتيْن مضطربتيْن، قطعتَي لحمٍ دافئتيْن ومتكاملتيَن، بالقناة الهضميَّة والقلب والدماغ والجهاز التناسليّ. ذراعاي تطوِّقان ظهرَها، ونهداها يضغطان بقوَّةٍ على صدري. كانا أكبرَ وأنعمَ ممَّا تخيَّلتُ. كنتُ أجلس على الأرض مستندًا إلى جدار، وهي منهارة فوقي. جلسنا على ذلك الوضع طويلًا، نحتضن بعضنا بعضًا من دون أدنى كلمة.

سألتُها بصوتٍ يبدو غير صوتي: «هل هذه الطريقة نافعة؟» شعرتُ كما لو أنَّ شخصًا آخر يتحدَّث.

لم تقل شيئًا، لكنَّني شعرتُ بإيماءتها. كانت تلبس قميصًا قطنيًّا وتنُّورةً رفيعةً تصل إلى ركبتيْها، ولكنْ سرعان ما أدركتُ أنَّها لا ترتدي ملابسَ داخليَّة. على نحوٍ تلقائيّ تقريبًا، انتصبتُ، ويبدو أنَّها شعرت بذلك. كنتُ أحسُّ بأنفاسها الحارَّة في عنقي.

في النهاية لم أضاجعْها. ولكنْ كان ينبغي عليَّ أن أستمرّ في «شحن بطّاريَّتها» حتى الثانية صباحًا. رجتني أن أبقى معها إلى أن تنام. أخذتُها إلى سريرها، وحاولتُ أن أنوِّمها، لكنَّها ظلَّت مستيقظة فترةً طويلة. غيَّرتُ لباسها إلى منامة، وبقيتُ «أشحنُها».

كنتُ أشعر بوجنتيْها تزداد حرارةً وقلبها ينبض، وهي بين ذراعيّ. لم أكن واثقًا بأنَّني أفعل ما تريد على النحو الصحيح، لكنَّني لم أكن أعرف طريقةً أخرى للتعامل مع هذا الوضع. كان الأبسطَ عندي أن أضاجعَها، لكنَّني استطعتُ أن أنحّي هذه الفكرةَ عن عقلي. غريزتي أوحت لي بأن لا أفعلها.

«أرجوكَ لا تنزعج منّي. كهربائيّ منخفضة جدًّا ولا أستطيع أن أفعل شيئًا».

«لا عليكِ. أتفهَّم الأمر».

كنتُ أعرف أنَّه ينبغي أن أتَّصل بكوميكو، ولكنْ ما عساي أقول لها؟ لم أرد أن أكذب، ولكن من المستحيل أن أشرح لها ما كنتُ أفعله. بعد فترةٍ، لم يعد الأمرُ يقلقني. فليحدثْ ما يحدث. غادرتُ شقَّتها في الثانية صباحًا، ولم أصل إلى البيت إلَّا عند الثالثة. لم يكن من السهل إيجادُ سيَّارة أجرة في ذلك الوقت.

كانت كوميكو تشتعل غضبًا، بالطبع. وجدتُها جالسةً إلى طاولة المطبخ مستيقظةً، تنتظرني. قلتُ لها إنَّني خرجتُ مع زملائي نشرب ونلعب الماهجونغ[1]. قالت لماذا لم تتَّصل؟ فقلتُ لم يخطر ذلك في بالي. لم تقتنع، وكانت الكذبة مكشوفةً منذ البداية تقريبًا؛ فأنا لم ألعب الماهجونغ منذ سنوات، وفي الحقيقة لم أكن أُجيد الكذب على أيِّ حال. انتهى بي الأمر بأن اعترفتُ بالحقيقة. قلتُ لها ما حدث من البداية إلى النهاية، ما عدا جزئيَّة

(1) لعبة صينيَّة أشبه بلعبة الدومينو المعروفة. (المترجم)

الانتصاب طبعًا، وأصررتُ على أنَّني لم أفعل شيئًا مع تلك المرأة.

لم تتحدَّث كوميكو معي ثلاثة أيَّام. ولا كلمةً واحدة. كانت تنام في الغرفة الأخرى، وتتناول وجباتها بمفردها. تلك أكبرُ أزمةٍ مرَّت على زواجنا. كانت غاضبةً منِّي فعلًا، وكنتُ أتفهَّم شعورها.

بعد ثلاثة أيَّام من الصمت سألتْني: «تُرى كيف كنت ستفكِّر أنت لو كنتَ في مكاني؟» هذه أوَّل جملة قالتها. «ماذا لو أنَّني أنا التي عدتُ إلى البيت في الثالثة صباحَ يوم الأحد من دون مجرَّد اتِّصال؟ «لا تقلقْ، كنتُ في الفراش مع رجل آخر طوال هذا الوقت، لم أفعلْ شيئًا، أرجوكَ صدِّقني. كنتُ فقط أشحن بطَّاريَّته. حسنًا، إذن لنأكلْ فطورَنا ثم ننام». تريدني أن أصدِّق بأنَّك لن تغضب؟ ستصدِّقني وينتهي الأمر؟»

لزمتُ الصمت.

«لكنَّ ما فعلتَه كان أسوأ. لقد كذبتَ عليَّ. قلتَ إنَّك كنتَ تشرب وتلعب الماهجونغ. كذبة مفضوحة! كيف تتوقَّع منِّي أن أصدِّقك حين تقول إنَّك لم تضاجعْها؟»

«فعلًا ما كان ينبغي أن أكذب. أعتذرُ منكِ. لكنَّني كذبتُ لأنَّ الحقيقة يصعب تصديقُها. كنتُ أريدُكِ أن تصدِّقيني. أنا بِالفعل لم أفعل شيئًا خطأً».

وضعتْ كوميكو رأسَها على الطاولة. شعرتُ كما لو أنَّ هواء الغرفة كان ينسحب تدريجيًّا.

قلتُ لها: «لا أعرف ما أقول. لا أستطيع أن أبرِّر أو أشرح، لا أملك إلّا أن أطلب منك أن تصدِّقيني».

«حسنًا. إنْ كنتَ تريدني أن أصدِّقك، فسوف أصدِّقك. لكنَّني أريدك أن تتذكَّر شيئًا. ربَّما أفعل الشيء نفسه بكَ يومًا ما. وحينها، أريدُكَ أنت أن تصدِّقني. أصبحتُ أملكُ هذا الحق».

لكنَّ كوميكو لم تستخدمْ هذا الحقّ. بين فترةٍ وأخرى كنتُ أسأل نفسي كيف سأشعر لو أنَّها فعلتْ ذلك. ربَّما سأصدِّقها، لكنَّ ردَّ فعلي بالتأكيد سيكون قويًّا مثل ردّ فعلها، سأغضب جدًّا إنْ هي بذلتْ جهدَها كي تفعل ذلك، ومن أجل ماذا؟ لا بدَّ أنَّ هذا هو بالضبط ما كانت تشعر به.

*

علا صوتٌ من الحديقة: «سيِّد طائر الزنبرك!» صوتُ مايو كاساهارا. ذهبتُ إلى الشرفة وأنا ما أزال أنشِّف شعري بالمنشفة. كانت تجلس على الحافَّة، تقضم ظفرَها، تضع النظّارات الداكنة نفسها التي رأيتُها في أوّل لقاء، مع بنطال قطنيّ قشديّ اللون وقميص أسود. وفي يدها لوحةٌ حافظةٌ للأوراق.

قالت وهي تُشير إلى الجدار العازل: «تسلَّقتُه». ثم نفضت الغبارَ العالقَ ببنطالها. «كنتُ واثقةً بأنَّني وصلتُ إلى المكان الصحيح. لحسن الحظّ أنَّه بيتك! تخيَّلْ لو أنَّني قفزتُ الجدارَ ودخلتُ بيتًا آخر!»

أخرجتْ من جيْبها علبةَ سجائر هوب وأشعلتْ واحدةً.

«المهم، كيف حالك سيِّد طائر الزنبرك؟»

«بخير».

«سأذهب للعمل الآن. لِمَ لا تأتي معي؟ نحن نعمل في فِرق من شخصيْن، وسيكون أفضل بكثييير لو كان رفيقي شخصًا أعرفه. إنْ كان رجلًا جديدًا فسيظلّ يسألني أسئلةً لا تنتهي. «كم عمرُكِ؟ لِمَ لستِ في المدرسة؟ إزعاااج! أو قد يكون منحرفًا. يحدث هذا. أرجوكَ وافقْ، من أجلي أنا سيِّد طائر الزنبرك».

«هل هي تلك الوظيفة التي أخبرتِني عنها؟ الاستطلاعات لشركة صنع الباروكات؟»

«نعم. كلُّ ما عليكَ فعله هو عدُّ الرؤوس الصلع في حيّ غينزا. سهلة! وسوف يفيدك هذا؛ فوفقًا لحالة شعرَكِ الآن قد تصبح أصلعَ ذاتَ يوم. من الأفضل أن تعرف أكثر الآن قبل أن يسقط شعرُك».

«ولكنْ ماذا عنكِ أنتِ؟ ألن تقبض عليك شرطةُ التسرُّب من المدرسة لو رأوكِ في غينزا في منتصف النهار؟»

«لاااا. أقول لهم إنَّني أُجري دراسةً ميدانيَّةً لمادَّة الدراسات الاجتماعيَّة. يصدِّقونني دائمًا».

ولمَّا لم تكن لديَّ أيُّ ارتباطات بعد الظهر، فقد قرَّرتُ أن أُجاريها. اتَّصلتْ مايو كاساهارا بالشركة كي تخبرهم بقدومنا. تحوَّلتْ في الهاتف إلى امرأةٍ ناضجة: «نعم سيِّدي، أودّ أن يكون في فريقي. نعم، صحيح، شكرًا جزيلًا لك. نعم مفهوم، يمكننا أن نصلَ إلى هناك عند الظهر». تركتُ ملاحظةً لكوميكو أُخبرُها فيها أنَّني سأعود عند السادسة، في حال وصولِها إلى البيت

باكرًا، ثم غادرتُ مع مايو كاساهارا.

كان مقرُّ الشركة في شيمباشي، فاستقللنا قطار المترو. وفي الطريق أخذتْ مايو كاساهارا تشرح لي طريقةَ الاستطلاع. علينا أن نقف عند ناصية الشارع ونُحصي جميع الصُلع (أو الذين تساقط شعرُهُم) من بين المارَّة. كما ينبغي أن نصنِّفهم إلى ثلاث فئات طبقًا لدرجة الصلَع: جيم، لِمَنْ تساقط شعرُهم قليلًا؛ باء، لِمَنْ تساقط الكثيرُ من شعرهم؛ ألف، للصُلع تمامًا. أخرجتْ مايو كاساهارا مطويَّةً من ملفِّها لتُريني نماذجَ للفئات الثلاث.

«فهمتَ الفكرة، صحّ؟ فئات الصَلَع؟ لا حاجةَ للدخول في التفاصيل، فقد يستغرق ذلك اليومَ كلَّه. لكنَّكَ فهمتَ تصنيف الفئات عمومًا، صحّ؟»

«نعم». قلتُها من دون قدرٍ كبيرٍ من الثقة.

إلى جانب مايو كاساهار من الجهة الأخرى رجلٌ بدينٌ يبدو أنَّه موظَّف في شركةٍ ما، وهو بالتأكيد من الفئة ب، كان يسترق النظرَ بتوتُّرٍ إلى المطويَّة، لكن لا أظنُّها لاحظت توتُّره.

«سأتولَّى التصنيفَ إلى الفئات، وأنتَ إلى جانبي مع ورقة الاستطلاع. أنا أخبرُكَ الفئة وأنتَ تكتبها في الورقة. هذا كلُّ ما عليك فعله. سهل، صحّ؟»

«أظنُّ ذلك. ولكنْ ما فائدة هذا الاستطلاع؟»

«لا أدري. يُجرون هذه الاستطلاعات في جميع أنحاء طوكيو: في شنجوكو، شيبويا، آوياما. لعلَّهم يحاولون معرفةَ الأحياء التي يزداد فيها الصُلع. أو ربَّما يريدون معرفةَ نسبة هذه

الفئات في التعداد العامّ. من يدري؟ لديهم أموال كثيرة ولا يعرفون ماذا يفعلون بها. لذلك يضيِّعونها على أشياءَ كهذه. الأرباح ضخمة في تجارة الباروكات، والموظَّفون يحصلون على علاواتٍ أعلى بكثير من الموظَّفين في أيِّ شركةٍ قديمة. أتعرف السبب؟»

«كلَّا، لماذا؟»

«لأنَّ الباروكات لا تدوم طويلًا. أراهن أنَّك لم تكن تعرف ذلك. الشعر المستعار يدوم سنتيْن أو ثلاثَ سنوات على الأكثر. وكلَّما علتْ جودتُها استُهلكتْ أسرع. إنَّها المنتَجُ الاستهلاكيّ المثاليّ. ذلك أنَّ الشعر المستعار يُثبَّت على الفروة تمامًا، فيتساقط الشعرُ من تحته أكثر فأكثر. عندها يتوجَّب عليك أن تشتري باروكةً جديدة تناسب فروةَ رأسك. لو كانت لديك باروكة ولم تعد نافعةً بعد سنتيْن، ماذا ستقول لنفسك؟ هل ستقول باروكتي مستهلَكة ولا أستطيع أن ألبسَها، ولكنَّ الباروكة الجديدة غالية، لذلك فمن اليوم لن ألبس باروكة؟»

هززتُ رأسي: «لا أظنّ ذلك».

«بالطبع لا. الرجلُ ما إنْ يلبس باروكة حتى يظلّ يلبسها دائمًا. تُصبح جزءًا من قَدَره. وهذا هو السبب في أنَّ صُنَّاع الباروكات يحقِّقون أرباحًا هائلة. يؤسفني أن أقول هذا، لكنَّهم أشبه بمروِّجي المخدِّرات. فبمجرَّد أن يصطادوا الشخصَ فإنَّه يُصبح زبونَهم إلى الأبد. هل سمعتَ عن رجلٍ أصلع نَبَتَ شعرُه فجأةً؟ الباروكة ثمنُها نصف مليون ينّ على الأقلّ، وربَّما مليون

ينّ للباروكة القويَّة. وينبغي شراءُ واحدةٍ جديدةٍ كلَّ سنتيْن! حتى السيَّارة تدوم أكثر من ذلك، أربع أو خمس سنوات، ويمكنك أيضًا أن تقايض بها».

«نعم فهمتُ قصدَكِ».

«أضف إلى ذلك أنَّ صُنَّاع الباروكات يملكون صالونات حلاقة، فهم يغسلون الباروكات ويقصُّون الشعر الحقيقيّ. بالطبع لن تذهب إلى حلَّاق عاديٍّ وتُعطيه باروكتك وتقول له من فضلك قصّ شعري. المدخول من هذه الصالونات لوحده هائل».

قلتُ بإعجاب حقيقيّ: «تعرفين الكثير جدًّا». كان الرجل من الفئة باء يستمع إلى حوارنا باندهاش واضح.

«طبعًا، الشباب في الشركة يُحبُّونني، ويقولون لي كلَّ شيء. الأرباح في هذه التجارة ضخمة. يصنعون الباروكات في جنوب شرق آسيا وما إلى ذلك، حيث تكون العمالةُ رخيصة. بل إنَّهم يجلبون الشعر من هناك، في تايلند أو الفلبين. النساء يبعن شعرهنَّ هناك لشركات الباروكات، وفي بعض البلدان تكون هذه هي الطريقة كي يدبِّرن المهر. إنَّه عالمٌ عجيب! هل تصدِّق أنَّ الرجل الذي بجانبك ربَّما يلبس شعرَ امرأةٍ إندونيسيَّة!»

في ردَّة فعلٍ عفويَّة، التفتُّ أنا والرجل باء إلى الرجال الآخرين في العربة.

*

مررنا بمكتب الشركة في شيمباشي كي نستلم مظروفًا يحتوي على أوراق الاستطلاع وأقلام رصاص. يُفترض أن تكون لهذه الشركة حصَّةٌ سوقيَّةٌ من الدرجة الثانية، لكنَّها كانت متكتِّمة جدًّا،

ولم تضع ولو لافتةً في مدخلها كي يدخل الزبائن ويخرجوا بأريحيَّة. لم يكن اسمُ الشركة مطبوعًا على المظروف أو أوراق الاستطلاع. هناك، في قسم الدراسات الاستطلاعيَّة، ملأتُ استمارةَ تسجيل موظَّف بدوام جزئيّ، فكتبتُ اسمي وعنواني ومؤهِّلي التعليميّ وسنِّي. كان المكتب هادئًا جدًّا، لا أحد يصرخ في الهاتف، ولا أحد ينقر على أزرار حاسوبٍ وكُمَّاه مرفوعان. الجميع كان حَسَنَ الملبس، ينجز أعماله بتركيز هادئ. وكما هو متوقَّع في شركة باروكات، فلم يكن من بينهم رجلٌ أصلع. لعلَّ بعضهم يلبس منتجاتِ الشركة نفسها، لكنْ من المستحيل أن أعرف مَن يلبسها ومَن لا يلبسها. في العموم، كان لهذه الشركة جوٌّ غريب لم أرَ مثله في أيِّ شركة زرتُها من قبل.

ركبنا قطارَ المترو إلى غينزا. وإذ وصلنا مبكِّرًا وكنَّا جائعَيْن، فقد مررنا بمطعم «ديري كوين» لتناول البرغر.

قالت مايو كاساهارا: «قل لي سيِّد طائر الزنبرك. لو كنتَ أصلع هل سترتدي باروكة؟»

«لا أدري. أنا لا أحبّ الأشياء التي تتطلَّب وقتًا وجهدًا. ربَّما لن أحاول أن أقاوم الأمر لو أصبحتُ أصلع».

قالت وهي تمسح الكاتشَب من فمها بمنديل: «ممتاز. هذا هو التصرُّف الصحيح. الرجال الصُلع في الحقيقة لا يبدون سيِّئين كما يتوقَّعون. شخصيًّا لا يُزعجني الصَلَع».

«لا أدري».

*

وقفنا عند مدخل المترو أمام مبنى «واكو» نُحصي المارَّة الصلع ثلاثَ ساعات. كان النظر من السلالم إلى الرؤوس الصاعدة والنازلة أفضلَ طريقةٍ لتحديد فئة الصلَع. أخذتْ مايو كاساهارا تقول: ألف أو باء أو جيم، وأنا أكتب. من الواضح أنَّها اعتادت ذلك؛ فلم تكن تتردَّد أو تتلعثم أو تصحِّح ما قالته، بل كانت تصنِّف كلَّ رأسٍ في فئته الصحيحة بسرعةٍ ودقَّة، تنطق الحروفَ بنبرةٍ خفيضةٍ مشذَّبة كي لا ينتبه الآخرون. بالطبع كان معنى ذلك أن تكون سريعةً حين تجيء مجموعةٌ كبيرةٌ من الرؤوس الصلع: جيم جيم باء ألف باء جيم ألف ألف جيم جيم باء باء باء. وبينما نحن نعمل جاء رجلٌ كبير أنيق الملبس أشيبُ الشعر تمامًا، وتوقَّف ليشاهدنا. بعد فترة قال: «المعذرة، هل لي أن أسأل ماذا تفعلان؟»

«استطلاع».

«استطلاع من أيِّ نوع؟»

«دراسة اجتماعيَّة».

قالت مايو كاساهارا: «جيم ألف جيم ألف باء جيم».

لم يبدُ الرجل مقتنعًا، لكنَّه ظلَّ يُراقبنا إلى أن ضجر وذهب.

حين أشارت ساعةُ ميتسوكوشي في الجانب المقابل إلى الرابعة أنهينا الاستطلاعَ وعُدنا إلى ديري كوين لتناول فنجانٍ من القهوة. لم يكن العمل شاقًا، لكنَّ رقبتي وكتفيَّ كانت متصلِّبة على نحوٍ غريب. لعلَّه الجانب المظلم في عملنا، أو لعلَّه شعوري بالذنْب من إحصاء الصُلع سرًّا. وبينما نحن في طريقنا في المترو

عائدَيْن إلى مقرّ الشركة في شيمباشي، وجدتُ نفسي تلقائيًا أصنِّف الرؤوسَ التي أراها إلى ألف أو باء أو جيم، فازداد اضطرابي. حاولتُ أن أمنع نفسي، لكنَّ الاندفاع كان قد تشكَّل مسبَّقًا. سلَّمنا أوراقَ الاستطلاع واستلمنا أجرَنا. كان مبلغًا جيِّدًا نسبةً إلى الوقت والجهد المبذولَيْن. وقَّعتُ على الإيصال ووضعتُ المالَ في جيبي. ثم استقلَلْنا أنا ومايو كاساهارا، قطارَ المترو إلى شنجوكو، ومن هناك أخذنا خطَّ «أوداكيو» كي نعود إلى البيت. كان زحامُ ما بعد الظهر قد بدأ، وكانت هذه أوَّل مرَّةٍ أستقلُّ فيها قطارًا مزدحمًا منذ فترة، ولم أفتقدْ ذلك.

قالت مايو كاساهارا وهي تجلس إلى جانبي في القطار: «وظيفة جيِّدة، أليس كذلك؟ سهلة، والأجر ليس سيِّئًا».

قلتُ وأنا أمصّ سكَّرة ليمون: «نعم، مبلغ جيِّد».

«ستأتي معي المرَّة القادمة؟ يمكننا أن نفعل ذلك مرَّةً في الأسبوع».

«لِمَ لا؟»

بعد صمتٍ قليل قالت كأنَّما جاءتها الفكرة فجأةً: «أتدري سيِّد طائر الزنبرك، أراهن أنَّ سببَ خوف الناس من الصلع هو أنَّه يذكِّرهم بالموت. أقصد أنَّه حين يبدأ شعرُكَ في التساقط، تشعر أنَّ حياتَكَ تتساقط، وكأنَّك اتَّخذت خطوةً كبيرةً باتِّجاه الموت، النضوبِ الأخير».

فكَّرتُ قليلًا في ذلك. «وجهة نظر».

«أتعرف سيِّد طائر الزنبرك، أتساءل أحيانًا كيف يكون شعورُ

أن يموتَ المرءُ شيئًا فشيئًا على مدى فترة طويلة من الزمن. ما رأيك؟»

لم أعرف ما الذي ترمي إليه تحديدًا، فغيَّرتُ قبضتي على مقبض اليد ونظرتُ في عينيْها. «هل لكِ أن تعطيني مثالًا محدَّدًا لما تقصدين بالموت شيئًا فشيئًا؟»

«لا أدري. أن تكونَ في الظلام وحدك، دون أكل، ولا شرب، وتموتَ شيئًا فشيئًا...».

«هذه ميتة مريعة بالتأكيد. مؤلمة. لا أريد لنفسي ميتةً كهذه لو كان الأمرُ بيدي».

«ولكنْ سيِّد طائر الزنبرك، أليست الحياةُ هكذا أصلًا؟ ألسنا جميعًا عالقين في الظلام في مكانٍ ما، وقد أُخذ منَّا طعامُنا وماؤنا، بينما نحن نموت ببطء، شيئًا فشيئًا...؟»

ضحكتُ. قلتُ لها مستخدمًا اللفظةَ الإنجليزيَّة: «ما زلتِ صغيرةً جدًّا كي تكوني **بيسيميستِك** إلى هذه الدرجة».

«بيسي ماذا؟»

«بيسيميستِك. تعني أن تري الجانب المظلم من الأشياء».

«بيسيميستِك.. بيسيميستِك». أخذتْ تردِّد الكلمةَ الإنجليزيَّة مرَّةً بعد مرَّةٍ، ثم نظرتْ إليَّ ببريقٍ قويّ. «صحيح أنَّني في السادسة عشرة من عمري، ولا أعرف الكثير عن هذا العالم، لكنَّني **أعرفُ** شيئًا أكيدًا. لو كنتُ أنا بيسيميستِك، فالكبار الذين ليسوا بيسيميستِك في هذا العالم مجرَّدُ مجموعةٍ من الحمقى».

10

لمسةٌ سحريَّة
موتٌ في حوض الاستحمام
مرسال يحمل تذكارات

انتقلنا أنا وكوميكو إلى منزلنا الحاليّ في الخريف، في السنة الثانية من زواجنا، بعد أن طُلب منَّا إخلاءُ شقَّتنا القديمة في كوينجي لغرض تجديدها. وهكذا بدأنا البحثَ عن مسكنٍ جديد. لكنَّ إيجاد شقَّة مناسبة ورخيصة لم يكن سهلًا، أخذًا في الاعتبار ميزانيَّتنا المتواضعة. وحين عَلِم خالي بالأمر عرض علينا الانتقالَ إلى منزلٍ يملكه في سيناغايا، كان قد اشتراه وعاش فيه عشرَ سنوات. في الحقيقة كان يرغب في هدم المنزل وبناء منزلٍ أكثر

عَمَليَّةً، لكنَّ القوانين المعماريَّة لم تكن تسمح له ببناء المنزل على الطريقة التي يريدها. وقد أُشيعَ عن صدور تخفيف لتلك القوانين، فأخذ ينتظر، لكنَّه سيُضطرّ إلى دفع ضريبة أملاك إنْ ترك البيتَ شاغرًا، وإنْ أجَّره إلى شخص غريب فقد لا يتمكَّن من إخراجه منه متى شاء. لذلك عرض علينا إيجارًا رمزيًّا لتغطية الضريبة، في مقابل أن نوافق على إخلاء البيت خلال ثلاثة أشهر من إخطارنا.

لم يكن لدينا مانع من هذا الإخلاء، أمَّا مسألة الضريبة فلم تكن واضحةً لنا، لكنَّنا انتهزنا فرصة السكن في بيت حقيقيٍّ، وإنْ موقَّتًا، آخذين في الاعتبار مبلغَ الإيجار الذي كنَّا ندفعه للعيش في شقَّة (وهي تُعتبر شقَّة رخيصة). كان البيت بعيدًا عن أقرب محطَّة مترو في خطِّ أوداكيو، لكنَّه يقع في حيٍّ سكنيٍّ هادئ، وله فناء صغير. صحيحٌ أنَّنا لا نملك هذا البيت، لكنْ ما إنْ انتقلنا إليه حتى غمرنا الإحساسُ بأنَّنا أصبحنا «أسرة» حقيقيَّة.

لم يطالبْنا خالي (وهو أصغر من أُمّي) بأيِّ شيء. أعتقد أنَّه كان إنسانًا هادئًا لطيفًا، غير أنَّ ثمَّة شيئًا غريبًا نوعًا ما في الطريقة التي تركنا بها. ومع ذلك فقد كنتُ أؤْثره على باقي أقاربي. كان قد تخرَّج في كلِّيَّةٍ في طوكيو، وعمل مذيعًا في محطَّة إذاعيَّة عشر سنوات، وبعد أن ضجر من وظيفته استقال منها وفتح حانةً في غينزا. كانت حانةً صغيرةً بسيطة، لكنَّها اكتسبتْ سُمعةً جيِّدةً بفضل مشروباتها الفريدة. وخلال بضع سنوات أصبح خالي يملك سلسلةً من الحانات والمطاعم. كان كلُّ محلٍّ من محالِّه يحقِّق نجاحًا باهرًا، وبدا أنَّه يملك شرارةَ النجاح التي يحتاج إليها مَنْ يفتح مشروعًا تجاريًّا. ذاتَ مرَّة، وأنا ما أزال طالبًا في الكلِّيَّة

سألتُه عن سرِّ نجاح محالِّه؛ فقد يُفتح مطعمٌ في الموقع نفسه في غينزا ويَفْشل، ثم يَفتح خالي مطعمًا مشابهًا وينجح. ففتح راحتَيْه أمامي وقال من دون أدنى ملمحٍ إلى الدعابة: «المستي السحريَّة». هذا كلُّ ما قاله.

ربَّما كانت لديه «لمسةٌ سحريَّة»، لكنَّه كان يمتلك أيضًا مهارةَ العثور على أصحاب القدرات المتميِّزة. كان يدفع لهم رواتبَ سخيَّةً، ويُحسن معاملتَهم، فيبذلون كلَّ جهدهم في العمل. قال لي ذاتَ مرَّةٍ: «حين أجد الشخصَ المناسب، أعطيه مبلغًا كبيرًا في يده وأطلب منه أن يُظهر قدراتِه الفائقة. يا بنيّ، عليك أن تنفق أموالَكَ على الأشياء التي يستطيع المالُ أن يشتريها ولا تقلقْ بعد ذلك من الربح والخسارة. طاقتُكَ هذه وفِّرْها للأشياء التي لا يمكن أن يشتريها المالُ».

تأخَّر خالي في زواجه، فلم يستقرّ إلَّا بعد أن حقَّق نجاحًا ماليًّا وهو في منتصف الأربعينيَّات من عمره. كانت زوجتُه مطلَّقة، تصغره بثلاث سنوات أو أربع، وكانت هي نفسها مقتدرةً ماليًّا. لم يخبرْني كيف التقاها، لكنَّها كانت امرأة هادئة، من خلفيَّة اجتماعيَّة طيِّبة. لم ينجبا أطفالًا، ويبدو أنَّه لم يكن لديها أطفالٌ من زوجها السابق، ولعلَّ هذا كان سببَ طلاقها. على أيِّ حال، ومع أنَّ خالي لم يكن ثريًّا بالمعنى الحَرْفيّ للكلمة، فإنَّه في منتصف عقده الخامس لم يعد مضطرًّا إلى إرهاق نفسه في العمل كي يجني المال. فبالإضافة إلى أرباح مطاعمه وحاناته، كان لديه مدخول جيِّد من إيجارات عدَّة منازل وشققٍ يملكها، إلى جانب مدخولٍ ثابتٍ من الاستثمارات. ولأنَّ عائلته كانت مُحافظة وتحيا

حياةً متواضعة، فقد كانت ترى في خالي ما يشبه الخارجَ عن القطيع، وهو بدوره لم يكن متلهّفًا على إرضائهم. أنا ابنُ أخته الوحيد، لذلك كان دائمَ الاهتمام بي، لا سيَّما إثر وفاة والدتي بعد مرور سنة على دخولي الكلِّيَّة، واختلافي مع والدي الذي تزوَّج مرَّةً أخرى. وهكذا حين كنتُ أعيش حياةَ شظفٍ وأنا طالب في طوكيو، كان خالي دائمًا ما يدعوني إلى العشاء في أحد مطاعمه في غينزا.

يسكن خالي الآن مع زوجته في شقَّة في آزابو، إذ لا يريد أن يزعج نفسَه بالاعتناء بمنزل كبير. لم يكن مهتمًّا بالرفاهيَّات، لكنَّه احتفظ بهواية واحدة فقط، وهي اقتناءُ السيَّارات النادرة. كانت لديه في مرآبه سيَّارة «جاغوار» وسيَّارة «ألفا روميو»، وكانتا قديمتيْن نادرتيْن وفي حالة ممتازة، تلمعان مثل طفليْن وَليديْن.

*

كنتُ أتحدَّث مع خالي في الهاتف، فانتهزتُ الفرصة لأسأله عمَّا يعرفه عن أُسرة مايو كاساهارا.

«كاساهارا؟»، ثم أخذ يفكِّر برهة. «لم أسمع بهم قطّ. كنتُ عازبًا حين سكنتُ هناك، ولم تكن لي علاقات مع الجيران».

«في الحقيقة، ما يهمّني هو البيت الذي يقابل بيتَهم. ذلك البيت الخالي على الجانب الآخر من الزقاق. أعتقد أنَّ شخصًا اسمُه مياواكي كان يعيش فيه. لكنَّه الآن مهجور، وقد وُضعت ألواحُ خشبٍ على نوافذه وأبوابه».

«أوه، مياواكي، نعم نعم أعرفه. كان يملك بضعةَ مطاعم،

أحدُها في غينزا أيضًا. التقيتُه في سياق العمل بضع مرَّات. لم تكن مطاعمُه ناجحةً في الحقيقة، لكنَّ مواقعه كانت جيِّدة. كنتُ آنذاك أحسب أنَّ أحوالَ مطاعمه تسير على ما يرام. كان رجلًا لطيفًا، ولكنَّه أشبه بالطفل الثريّ المدلَّل الذي لا يُضطرّ إلى بذل جهد في عمله، أو لا يتقن شيئًا، لكنَّه لم ينضج. أوقعه أحدُهم في طريق سُوق الأسهم، وسلبه كلَّ ما يملك: بيته وأرضه ومحالَّه، كلَّ شيء. والتوقيت كان سيِّئًا، إذ كان قد رهن بيتَه وأرضَه لكي يفتح محلًّا جديدًا. وفجأةً، تبخَّر كلُّ شيء. كانت لديه ابنتان كما أعتقد، في سنِّ الجامعة».

«أعتقد أنَّ البيت ظلَّ خاليًا منذ ذلك الحين».

«صحيح؟ أظنّ أنَّ حقَّ ملكيَّته سقط، وربَّما جُمِّدت أملاكُه. اسمع، إيَّاك وهذا البيت، مهما كان العرض الذي يقدِّمونه لك مغريًا».

ضحكتُ وقلت: «أنا؟ لا أستطيع أبدًا أن أشتري بيتًا كهذا. ولكن ماذا تقصد؟»

«لقد فكَّرتُ في هذا البيت حين اشتريتُ بيتي. هنالك شيء ما في ذلك البيت».

«تقصد أشباحًا مثلًا؟»

«ليس أشباحًا ربَّما، لكنَّني لم أسمع شيئًا واحدًا مطَمْئنًا عن هذا البيت. كان هناك شخص في الجيش، معروفٌ إلى حدٍّ ما، سكن في ذلك البيت إلى نهاية الحرب. العقيد.. لا أذكر اسمَه الآن، ضابط رفيع حقًّا. حصلتْ قوَّاتُه في شمال الصين على

أوسمةٍ ونياشينَ عديدةَ جدًّا، لكنَّهم ارتكبوا أعمالًا فظيعةً هناك. أعدموا خمسمئة أسير، وأجبروا عشراتِ الآلاف من المزارعين على العمل عندهم بالسخرة حتى مات نصفُهم. شيء كهذا. هذا ما كان يُتداول آنذاك، ولا أعرف قَدْرَ ما هو صحيح فيها. المهمّ أنَّه استُدعي قبيْل نهاية الحرب، أيّ إنَّه كان هنا في فترة الاستسلام، وكان يستطيع أن يستنتجَ ما سيحدث، فمن المرجَّح أن يُحاكَمَ بوصفه مجرمَ حرب. أولئك الجنرالات وضبَّاط الميدان الذين عاثوا فسادًا في الصين كانوا يسقطون واحدًا تلو الآخر على يد نوّاب البرلمان. لم يكن ليرضى أن يُقدَّم إلى المحاكمة، ويصبح فُرجةً في هذه الصفقة. لذلك فضَّل الانتحارَ على ذلك. وحين رأى ذاتَ يوم جنديًا يوقف سيّارةَ جيب أمام بيته، أطلق الرصاصَ على رأسه. يُقال إنَّه كان يفضِّل الانتحارَ بشقّ بطنه على طريقة الساموراي، لكنّ الوقت لم يكن كافيًا. أمَّا زوجته فقد شنقتْ نفسَها في المطبخ كي «ترافق» زوجَها في الموت».

«عجيب!»

«المهمّ، تبيَّن أنَّ ذلك الجندي كان جنديًّا عاديًّا، يبحث عن بيت حبيبته. كان تائهًا لا أكثر، ويريد أن يسأل عن المكان. أنت تعرف ذلك المكان وكيف يكون صعبًا أن تجد العنوانَ المطلوب. ليس سهلًا على أحدٍ أن يقرّر أنَّ وقتَ موته قد حان».

«طبعًا».

«ظلَّ البيت خاليًا فترةً وجيزةً بعد ذلك إلى أن اشترتْه ممثّلة سينمائيَّة. لا أظنّك تعرف اسمَها، فقد كانت من زمنٍ قبل زمنك،

ولم تكن مشهورةً جدًّا. سكنتْ في ذلك البيت عشر سنوات ربَّما، هي وخادمتُها. كانت عزباء. بعد بضع سنوات من انتقالها إلى البيت أُصيبت بمرض في عيْنها، وأصبح كلُّ شيء بالنسبة إليها غائمًا، حتى من كثب. لكنَّها كانت ممثِّلةً في كلِّ الأحوال ولا يمكن أن تمثِّل بالنظّارات. والعدسات اللاصقة كانت اختراعًا جديدًا آنذاك. لم تكن متقنة، ولم يكد يستخدمها أحد. لذلك كانت قبل التصوير تذهب إلى الموقع وتحفظ مخطَّطَ المكان جيِّدًا، وكم خطوةً تحتاج إلى المشي من النقطة أ إلى النقطة ب. وهكذا استطاعت أن تتدبَّر أمورَها بطريقةٍ أو بأخرى. كانت أفلامًا بسيطةً على كلِّ حال، أفلام الشوتشيكو القديمة. كان التبسُّط سائدًا في كلِّ شيءٍ آنذاك. وذات يوم، بعد أن دخلتْ موقعَ التصوير وذهبتْ إلى الغرفة لتبديل ملابسها، حرَّك أحد المصوِّرين أدوات المشهد وديكوراتِه قليلًا».

«أوه».

«فتعثَّرتْ وسقطتْ، ولم تستطع أن تمشي على قدميْها بعد ذلك. كما أنَّ نظرها أخذ يضعف أكثرَ فأكثر. كانت فعليًّا عمياء. للأسف. كانت ما تزال صغيرةً وجميلة. بطبيعة الحال ودَّعتْ مهنةَ التمثيل، ولم تستطع إلَّا الجلوس في البيت. وذاتَ يوم سرقت الخادمة كلَّ أموالها وهربتْ مع رجل. كانت تلك الخادمة الشخصَ الوحيدَ الذي تثق به وتعتمد عليه في كلِّ شيء، لكنَّها أخذتْ كلَّ مدَّخراتها وسنداتِها الماليَّة، كلَّ شيء. قصَّة فظيعة! أتدري ماذا فعلتْ؟»

«واضح أنَّ قصَّةً كهذه لا يمكن أن تنتهي نهايةً سعيدة».

«طبعًا. ملأت حوضَ الاستحمام وغطستْ وجهَها فيه إلى أن ماتت غرقًا. كي تموت بتلك الطريقة ينبغي أن تكون مصمِّمًا جدًّا على الموت».

«ليست نهايةً سعيدة».

«لا، أبدًا. بُعيْد ذلك اشترى مياواكي المنزلَ. المنزل في الحقيقة جميل، وكلُّ مَن يراه يودّ أن يشتريه. فالحيّ لطيف، والبيتُ يقع على أرض مرتفعة تصلها الشمس، وقطعةُ الأرض نفسُها كبيرة. لكنَّ مياواكي كان قد سمع بالقصص الفظيعة التي حدثتْ لمن سكنوا البيتَ، فهَدَمَه كلَّه من أساسه، وبنى بيتًا جديدًا. بل إنَّه أحضر رجالَ دينٍ شِنتويين لتطهير المكان. يبدو لي أنّ هذا لم يكن كافيًا. فالمصائب تحدث لأيِّ شخص يسكن ذلك البيت. هي أرض من تلك الأراضي، وهي موجودة شئنا أمْ أبينا. لكنَّني لن أسكن فيها ولو منحوني إيَّاها مجّانًا».

*

اشتريتُ بعض الحاجيَّات من السوبرماركت، ثم رتّبتُ ما أحتاجُ إليه لإعداد العشاء. بعد ذلك جمعتُ الغسيلَ وطويتُه بعناية، ووضعتُ الملابس في مكانها. ثم عدتُ إلى المطبخ وأعددتُ لنفسي إبريقَ قهوة. كان يومًا هادئًا جميلًا، خاليًا من المكالمات الهاتفيَّة. تمدَّدتُ على الأريكة أقرأ في كتاب. لم يقاطع أحدٌ قراءتي، سوى طائر الزنبرك الذي أسمع صيحتَه بين الفينة والأخرى في الفناء الخلفيّ. كان هذا هو الصوتَ الوحيد الذي سمعتُه طوال النهار.

رنَّ جرسُ الباب عند الرابعة عصرًا. كان ساعي البريد. قال: «بريد مسجَّل»، وسلَّمني مظروفًا سميكًا. أخذتُه ووضعتُ ختمي على الإيصال.

لم يكن مظروفًا عاديًا. كان مصنوعًا من ورق الرزّ، ثقيلًا على الطراز القديم. والشخصُ الذي أرسله تجشَّمَ عناءَ أن يكتب اسمي وعنواني بالفرشاة، بحروفٍ سوداءَ بارزة. قرأتُ اسمَ المُرسل خلف المظروف: «توكوتارو ماميا»، والعنوان في مكانٍ ما من محافظة هيروشيما. لم أعرف الاسمَ ولا العنوان، ولكنْ ـ بالحكم من طريقة الكتابة بالفرشاة ـ يبدو أنَّ هذا التوكوتارو ماميا كان رجلًا متقدِّمًا في السنّ؛ فلم يعد أحدٌ يُجيد الكتابةَ بهذه الطريقة.

جلستُ على الأريكة وفتحتُ المظروفَ بمقصّ. الرسالة نفسُها كانت قديمةَ الطراز كالمظروف، إذ كانت مكتوبةً على ورق رزّ ملفوف، بحروفٍ متَّصلة. يبدو من الواضح أنّ كاتبَ الرسالة رفيعُ الثقافة. لذلك وجدتُ صعوبةً في قراءة الرسالة لأنَّني لم أكن على الدرجة نفسها من الثقافة. كان أسلوبُ الجمل متوافقًا في رسميَّته الشديدة مع الخطّ، فازداد الأمرُ صعوبة، لكنَّني مع الوقت استطعتُ أن أفهم المعنى العامّ. كان يقول في رسالته إنَّ السيِّد هوندا العجوز (قارئ الطالع الذي كنَّا نزوره أنا وكوميكو في الماضي) قد تُوفِّي بسكتة قلبيَّة قبل أسبوعيْن في منزله في ميغورو. ولأنَّه كان يعيش وحيدًا فقد مات وحده، لكنَّ الأطبَّاء يعتقدون أنَّ وفاته كانت سريعة ومن دون معاناة كبيرة. لعلَّ هذا هو الشيءُ الإيجابيّ الوحيد في هذه الحكاية الحزينة. وجدتْه الخادمةُ في

الصباح، منكفئًا على طاولة المدفأة التي يستخدمها لقدميْه. يذكر كاتبُ الرسالة توكوتارو ماميا أنَّه كان ملازمًا أوَّل في منشوريا، وشارك العريف أويشي هوندا أهوالَ الحرب. ووفقًا لرغبة الراحل، ونظرًا إلى أنْ لا أقارب أحياء له، فقد تولَّى السيِّد ماميا مهمَّة توزيع الهدايا التذكاريَّة التي أوصى بها. ولقد ترك الفقيدُ إرشاداتٍ مكتوبةً مفصَّلة في هذا الشأن. «تُشير وصيَّته المفصَّلة والدقيقة إلى أنَّه توقَّع وفاتَه الوشيكة، وتقول بوضوح إنَّه سيكون سعيدًا جدًّا لو تكرَّمتَ يا سيِّد تورو أوكادا بقبول تذكارٍ منه. لا بدَّ أنَّك مشغول جدًّا سيِّد أوكادا، لكنَّني أؤكِّد لك، بصفتي رفيقَ سلاحٍ قديمًا للراحل (ولم يتبقَّ الكثيرُ من عمري أنا أيضًا) أنَّني سأكون في غاية السعادة لو تفضَّلتَ بقبول هذا التذكار الصغير من الفقيد السيِّد هوندا». ثم ختم الرسالة بكتابة العنوان الذي يُقيم فيه حاليًّا في طوكيو، لعناية شخص آخر يُدعى ماميا أيضًا في هونغو 2 كوم، جناح بونكيو. لا بدَّ أنَّه يسكن مع أحد أقاربه.

كتبتُ ردِّي على الرسالة على طاولة المطبخ. كنتُ أرجو أن تكون البطاقةُ التي سأرسلها قصيرةً وبسيطة. ولكن ما إنْ أمسكتُ القلم حتى تبخَّرت منِّي العباراتُ الوجيزة. «لقد حظيتُ بمعرفة الراحل السيِّد هوندا والاستفادة من معرفتي القصيرة به. وإذ يصلني خبرُ وفاته الآن فإنَّني أستحضر ذكريات عن تلك الأيَّام. بطبيعة الحال نحنا لسنا من سنٍّ متقاربة، ولم أعرفْه إلَّا سنةً واحدةً فقط، لكنَّني كنتُ دائمًا أشعر أنَّه يمتلك شيئًا يؤثِّر في الناس تأثيرًا عميقًا. وفي حقيقة الأمر لم أكن أتخيَّل أن يذْكرني السيِّد هوندا بالاسم ليقدِّم إليَّ هديَّة تذكاريَّة، ولا أدري إنْ كنتُ

أستحقّها. ولكنْ إنْ كانت هذه هي رغبته، فلا أملك إلّا أن أستجيبَ بكلّ احترام. يُرجى التواصلُ معي في أقرب فرصةٍ تناسبك».

حين وضعتُ البطاقةَ البريديَّة في أقرب صندوق بريد، وجدتُ نفسي أتمتم بكلمات هوندا العجوز: «**الموت هو السبيل الوحيد / كي تطفو حرًّا: / نومونهان**».

*

كانت الساعة قد اقتربتْ من العاشرة مساءً حين عادت كوميكو. وكانت قد اتَّصلتْ قبل الساعة السادسة كي تخبرني أنَّها سوف تتأخَّر هذه الليلة أيضًا، فالأفضل أن أتناولَ عشائي بمفردي. قلتُ حسنًا، وتناولتُ وجبةً بسيطة. ثم جلستُ وحيدًا من جديد أقرأ في كتاب. حين وصلتْ قالت إنَّها تريد قليلًا من البيرة، فتشاركنا في زجاجةٍ متوسِّطة الحجم. كانت تبدو مُجهَدة. وضعتْ مرفقيْها على طاولة المطبخ وأراحت ذقْنَها على يديْها، ولم تكن تردّ بكلمات كثيرة حين أتحدَّث إليها. قلتُ لها إنَّ السيِّد هوندا مات، فقالت بتنهيدة: «أوه، حقًّا؟ على أيِّ حال كان يتقدَّم في السنِّ، وأصبح شبهَ أصمّ». فلمَّا أخبرتُها أنَّه ترك هديَّة تذكاريَّة لي، صُدمتْ، وكأنَّ شيئًا وقع فجأةً من السماء.

قالت وقد التوى حاجباها: «لك أنت؟!»

«نعم. غريبٌ، أليس كذلك؟»

«لا بدَّ أنَّه كان يحبّك».

«وكيف ذلك؟ لم أكد أتحدَّث معه. على الأقلِّ لم أكن أقول

الكثير، وحين أتكلَّم لا يسمعني. كلّ ما في الأمر أنَّنا كنَّا نجلس ونستمع إلى قصصه مرَّةً كلَّ شهر. وكلُّ ما سمعناه منه كان عن معركة نومونهان، وكيف ألقوا بقنبلة المولوتوف، وأيّ دبَّابة احترقتْ وأيّ دبَّابة لم تحترق، وما إلى ذلك».

«لا أعرف. لا بدَّ أنَّه أحبّ شيئًا فيك. لا أفهم هذا النوعَ من الناس ولا ما يدور في أذهانهم».

بعد ذلك عادت إلى صمتها. كان صمتًا مشحونًا. ألقيتُ نظرةً على التقويم المعلَّق على الجدار. لم تكن دورتُها الشهريَّة قد حانت بعد. قلتُ في نفسي ربَّما حدث شيء في العمل.

سألتُها: «أأجهدتِ نفسَكِ في العمل؟»

قالت بعد أن رشفتْ من البيرة وحدَّقتْ في ما تبقَّى من الزجاجة: «قليلًا». كانت هناك نبرةٌ تكاد تكون نبرةَ تحدٍّ في صوتها. «آسفة لأنّني تأخَّرتُ كثيرًا، لكنَّكَ تعرف كيف يصبح عملُ المجلَّة في فترات الضغط. وأنا لا أتأخَّر دائمًا، بل أحرص على ألَّا يكلِّفوني بأعمال إضافيَّة كثيرة مثل الباقين. فهم يعرفون أنَّني مرتبطة بزوج».

هززتُ رأسي وقلت: «أنا لا ألومُكِ. أعرف أنَّك تُضطرِّين إلى التأخُّر في العمل أحيانًا. كلُّ ما يقلقني هو أنَّكِ تُجهدين نفسَكِ».

أخذتْ حمَّامًا طويلًا، في حين جلستُ أشرب بيرتي وأقلِّب في مجلَّةٍ أسبوعيَّة أحضرتْها كوميكو.

أدخلتُ يدي في جيب بنطالي فوجدتُ الأجرَ الذي حصلتُ

عليه من الوظيفة الأخيرة. لم أُخرج المبلغَ من المظروف بعد. والأمر الآخر الذي لم أفعله هو أنَّني لم أُخبرْ كوميو عن الوظيفة. لم أكن أُخفي الأمرَ عنها، لكنَّني ضيَّعتُ فرصةَ إخبارها، ولم تأتِ فرصةٌ أخرى. وبمرور الوقت أصبح من الصعب أن أذكر الموضوع، لا أدري لماذا. كلّ ما كان عليَّ قولُه هو: «لقد التقيتُ فتاةً في السادسة عشرة من عمرها عند الزقاق وقبلتُ وظيفةً معها، بموجبها نُجري استطلاعًا لشركةٍ تصنع الباروكات. والأجر الذي يدفعونه جيِّد». وكانت كوميكو ستقول: «أوه، حقًّا؟ هذا جميل». وينتهي الأمر. أو ربَّما لا. ربَّما كانت سترغب في معرفة المزيد عن مايو كاساهارا. ربَّما كانت ستنزعج من صداقتي لفتاة في السادسة عشرة. ثم سأُضطرّ إلى إخبارها عن مايو كاساهارا وأشرح بالتفصيل أين التقينا وكيف ومتى. لكنَّني لا أُجيد تقديمَ التوضيحات المرتَّبة عن الأشياء.

أخرجتُ المبلغ من المظروف ووضعتُه في محفظتي، ثم كرمشتُ المظروفَ وألقيتُ به في سلَّة المهملات. قلت لنفسي: هكذا تبدأ الأسرار. يبنيها الناسُ شيئًا فشيئًا. لم أكن أخطِّط أن أخفي أمرَ مايو كاساهارا عن كوميكو. لم تكن علاقتي بها أمرًا مهمًّا، فسواءٌ أذكرتُ الموضوع أمْ لم أذكرْه، لن يحدث شيء. لكنَّني ما إن انزلقتُ في هذا المجرى الضيِّق حتى ارتديتُ دثارَ السرِّيَّة، بصرف النظر عن نواياي الحقيقيَّة. والأمر نفسه ينطبق على موضوع كريتا كانو. كنتُ قد أخبرتُ كوميكو أنَّ أخت مالطا كانو الصغيرة جاءت إلى البيت وأنَّ اسمَها كريتا، وأنَّ هيئتها تُذكِّر بأوائل الستِّينيَّات، وأنَّها أخذت عيِّناتٍ من ماء الحنفيَّة، لكنِّي لم

أذكر شيئًا عن أنَّها بعد ذلك بدأتْ تقصّ عليَّ أشياءَ عجيبة، ثم اختفت قبل أن تكمل الحكاية. كانت حكايةُ كريتا كانو شديدةَ الغرابة، ولا أستطيع أن أُعيدَ بناءَ تلك الحكاية بتفاصيلها الدقيقة حين أُخبر كوميكو، لذلك لم أحاول. أو ربَّما لو قلتُ لكوميكو فسوف تنزعج من أنَّني جلست مع كريتا كانو طويلًا بعد انتهاء عملها، وأنَّها أخذتْ تحكي لي تلك الاعترافاتِ الشخصيَّة الغريبة. وهكذا أصبح موضوع كريتا كانو سرًّا آخرَ من أسراري الصغيرة.

ربَّما كانت كوميكو تُخفي عنّي أسرارًا كهذه هي أيضًا. ولكنْ حتى لو كانت لها أسرارُها، فلم أعد في موضعٍ يسمح لي بأن ألومَها. في الواقع كنتُ أنا أكثر ميلًا إلى السرِّيَّة، في حين أنَّ ما يدور في عقلها يجري على لسانها. كانت من النوع الذي يفكِّر بالشيء وهو يقوله. عكسي تمامًا.

ضايقتني هذه الأفكار، فمشيتُ صوب الحمَّام. كان الباب مفتوحًا لآخره، فوقفتُ أنظر إلى كوميكو من الخلف. كانت قد ارتدت منامةً زرقاء ووقفتْ أمام المرآة تنشِّف شعرَها بمنشفة.

«بخصوص موضوع الوظيفة، كنتُ أُفكِّر في الموضوع، وطلبتُ من بعض الأصدقاء أن يخبروني لو وجدوا شيئًا. وحاولتُ البحثَ بنفسي أيضًا. توجد وظائف فعلًا، ويمكنني أن أعمل حين أقرِّر ذلك. يمكنني أن أبدأ منذ الغد إنْ قرَّرت. المشكلة هي اتخاذُ القرار. لستُ متأكِّدًا بعد. لستُ متأكِّدًا إنْ كان من الصحيح أن أختار وظيفةً بطريقة اعتباطيَّة هكذا».

قالت وهي تنظر إلى نفسها في المرآة: «لهذا السبب قلتُ لك افعلْ ما تريده. لستَ مضطرًّا إلى إيجاد وظيفة على الفور. إنْ كنتَ قلقًا على أوضاعنا الماليَّة، فهي على ما يرام. وإنْ كنت منزعجًا لأنَّكَ بلا وظيفة، إنْ كان ثقيلًا عليك أن أعملَ وتظلَّ في البيت تدبِّر شؤونه، فابحثْ عن وظيفة موقَّتة، أيّ وظيفة. لا يهمّ».

«بطبيعة الحال ينبغي عليَّ أن أجد وظيفةً في نهاية المطاف. أعرف ذلك، وأنتِ تعرفين ذلك أيضًا. لا يمكنني أن أظلّ هكذا إلى الأبد. سأجد وظيفةً عاجلًا أو آجلًا. المسألة وما فيها أنَّني الآن لا أعرف الوظيفةَ التي ينبغي أن أعمل فيها. بعد أن تركتُ وظيفتي ظللتُ أفكِّر في أنَّني سأعمل في وظيفةٍ أخرى مرتبطة بالمحاماة أيضًا. لديَّ معارفُ في هذا المجال، لكنَّني حتى الآن لم أستطع أن أدخلَ جوَّ العمل. وكلَّما مرَّ الوقت قلَّ اهتمامي بالمحاماة. يزداد شعوري بأنَّها ليست الوظيفةَ الملائمةَ لي».

نظرتْ كوميكو إليّ في المرآة. فتابعتُ: «لكنّ معرفتي بما لا أريد أن أفعلَه لا تساعدني كثيرًا في اكتشاف ما أريد. نعم أستطيع أن أعمل في أيِّ وظيفة لو اضطُررتُ. لكنَّني لا أملك صورةً واضحة لذلك الشيء الذي أريده فعلًا. هذه هي مشكلتي الآن. لم أعثرْ على الصورة».

قالت وهي تضع المنشفةَ أرضًا وتستدير لتواجهني: «إنْ كنتَ قد ضجرتَ من المحاماة، فلا تعمل فيها. انسَ أمرَ اختبار القبول. ولا تُتعبْ أعصابَكَ في مسألة إيجاد وظيفة. وإنْ لم تستطع العثورَ على الصورة، فانتظر حتى تتشكَّل بنفسها. لا مشكلة».

هززتُ رأسي وقلت: «كنتُ فقط أودُّ أن أشرحَ لكِ ما أشعر به بالضبط».

«حسنًا».

عدتُ إلى المطبخ وغسلتُ كأسي، وجاءت كوميكو وجلستْ إلى الطاولة.

قالت: «أتدري مَنِ اتَّصل بي اليوم؟ أخي».

«أوه؟»

«إنَّه يفكِّر في ترشيح نفسه في الانتخابات. بل إنَّه اتَّخذ القرارَ فعلًا».

كانت هذه صدمةً لي، فلم أستطع أن أتفوَّهَ بحرف. ثم قلت: «الانتخابات؟! تقصدين.. البرلمان؟»

«نعم. الناس يطالبونه بترشيح نفسه لأخذ مقعد عمِّي عن نيغاتا».

«كنتُ أظنُّ أنَّ عمّك يريد ابنَه أن يخلفَه. ألم يكن من المقرَّر أن يستقيلَ من وظيفته في شركة دِنتسو أو أيًا ما كان اسمُها ثم يعود إلى نيغاتا؟»

أخذتْ كوميكو تنظِّف أذنيْها بعود قطن. «كان هذا هو المخطَّط، لكنَّ ابن عمِّي لا يريد. لديه أسرة في طوكيو، ويحبّ وظيفتَه. ليس مستعدًّا لأن يترك منصبًا مهمًّا كهذا في أكبر شركة إعلانيَّة في العالم وينتقلَ إلى نيغاتا كي يصبحَ عضوًا في البرلمان. الاعتراض الأكبر جاء من زوجته، فهي لا تريده أن يضحِّي بأسرته من أجل البرلمان».

أمضى الأخ الأكبر لوالد كوميكو أربعَ دورات أو خمسًا في مجلس النوَّاب ممثّلًا لمحافظة نِيغاتا. ومع أنَّه لا يملك وزنًا سياسيًّا كبيرًا، فإنَّ له سجلًا مثيرًا للإعجاب، وقد تقلَّد ذاتَ مرَّة منصبًا صغيرًا في الحكومة. لكنْ، بعد أن تقدَّم في السنِّ وأُصيب بمرضٍ في القلب، سيكون من المستحيل أن يصمد في الانتخابات القادمة، ولا بدَّ أن يحلَّ محلَّه مرشَّحٌ آخر لدائرته الانتخابيَّة. كان لعمّها هذا ابنان، لكنَّ الأكبر لم يكن مهتمًّا بالسياسة على الإطلاق، فأصبح الأخُ الأصغرُ هو الخيار المؤكَّد.

«الأهالي في نِيغاتا متلهِّفون على ترشيح أخي. يريدون شابًّا ذكيًّا مفعمًا بالحيويَّة. يريدون شخصًا يمكنه أن يمثِّلهم في دورات نيابيَّة عدَّة، وبمهارة تؤهِّله لاكتساب نفوذٍ سياسيٍّ في الحكومة. لقد أصبح أخي شخصًا معروفًا، وسوف يجتذب الناخبين الشباب. إنَّه الشخص المثاليّ. صحيحٌ أنَّه لا يستطيع أن يدخل ولو في حوارٍ مع الأهالي هناك، لكنَّ قاعدةَ الدعم التي يحظى بها قويَّةٌ وسوف تتكفَّل بهذا الأمر. إضافةً إلى ذلك، فلا مشكلة إن أراد العيشَ في طوكيو. كلُّ ما عليه أن يفعله هو الذهاب إلى نيغاتا في فترة الانتخابات».

لم أستطع أن أتصوَّر نوبورو واتايا عضوًا في البرلمان. سألتُها: «وأنتِ ما رأيك؟»

«لا علاقةَ لي بما يفعل. فليصبح عضوَ برلمان أو رائدَ فضاء إنْ شاء».

«ولكنْ لماذا طلب مشورتَكِ؟»

فقالت بنبرةٍ جافَّةٍ: «ماذا دهاك؟ لم يكن يطلب مشورتي طبعًا. أنت تعرف أنَّه لا يمكن أن يستشيرني. كان يُعْلِمني بالأمر فقط، بصفتي فردًا من الأسرة».

«آه فهمت. ولكنْ مع ذلك، ألن يواجه مشكلةً في ترشيح نفسه لأنَّه مطلَّق وأعزب؟»

«لا أدري. لا أعرف شيئًا عن السياسة أو الانتخابات أو غيرها. هذه الأمور لا تهمّني. في كلِّ الأحوال، أنا متأكِّدة أنَّه لن يتزوَّج مرَّةً أخرى أبدًا. لم يكن من المفترض أن يتزوَّج أساسًا. ليس هذا ما يريده من حياته. إنَّه يبحث عن شيءٍ آخر، شيءٍ مختلفٍ تمامًا عمَّا أريده أنا أو أنت».

«حقًّا؟»

وضعتْ كوميكو عودَي القطن في منديلٍ ألقت به في سلَّة المهملات، ثم رفعتْ رأسَها ونظرتْ في عينيّ: «ذاتَ مرَّةٍ رأيتُه يستمني. فتحتُ الباب ووجدته هناك يستمني».

«وما المشكلة؟ الكلّ يستمني».

«لا، أنت لا تعرف ما أقصده». ثم تنهَّدتْ وقالت: «حدث هذا بعد سنتين تقريبًا من وفاة أختي. ربَّما كان في الجامعة آنذاك، وكنتُ في الثامنة تقريبًا. كانت والدتي متردِّدة في التخلُّص من أغراض أختي، ثم قرَّرتِ الاحتفاظَ بها على أساس أنَّني قد أرتديها حين أكبر. فوضعتْها في صندوقٍ في الدولاب. أخرجها أخي وأخذ يتشمَّمها وهو يستمني».

لم أنبسْ ببنت شفة.

«كنتُ مجرَّد صبيَّةٍ صغيرةٍ آنذاك، ولم أكن أعرف شيئًا عن الجنس. حقيقةً لم أكن أعرف ما يفعله، لكنَّني أدركتُ أنَّه شيء غير سويّ، شيء لم يكن يفترض أن أراه، شيء أعمق ممَّا يبدو على السطح». وهزَّت رأسَها.

«وهل يعرف نوبورو واتايا أنَّكِ رأيتِه؟»

«طبعًا. نظر في عينيَّ ونظرتُ في عينيْه».

هززتُ رأسي. «وماذا عن ملابس أختك؟ هل ارتديتِها حين كبرتِ؟»

«كلَّا، طبعًا».

«إذن، تعتقدين أنَّه كان مغرمًا بأختك؟»

«لا أدري. لستُ متأكِّدة ما إذا كان يرغب فيها جنسيًّا، ولكنْ بالتأكيد هناك شيء فيه، وأظنّ أنَّه لم يستطع التخلُّص منه. هذا ما أقصده حين أقول إنَّه لم يكن من المفترض أن يتزوَّج أساسًا».

صمتتْ كوميكو، ولم يقل أحد منَّا شيئًا. بعد ذلك أكملتْ: «أعتقد أنَّ لديه مشكلات نفسيَّةً حقيقيَّة. كلُّنا طبعًا لدينا مشكلات نفسيَّة بدرجةٍ أو بأخرى، لكنَّ مشكلاته أسوأ بكثير من المشكلات التي قد تكون لديَّ أو لديك. مشكلاته أعمقُ وأكثرُ رسوخًا. ولا أظنُّه يرغب في أن يكتشف أيُّ شخصٍ هذه التشوُّهات أو نقاطَ الضعف أو أيًّا ما تكون. هل تفهم قصدي؟ أنا قلقة من هذه الانتخابات القادمة».

«قلقة؟ لماذا؟»

«لا أدري. مجرَّد شعور. على أيِّ حال، أنا متعبة، ولا

أستطيع أن أفكِّر أكثر. هيَّا ننام».

بينما كنتُ أنظِّفُ أسناني في الحمَّام أخذتُ أتفرَّس في وجهي في المرآة. مرَّ أكثرُ من شهريْن منذ أن تركتُ وظيفتي، وبصعوبةٍ رأيتُ «العالَمَ الخارجيّ». كنتُ أتنقَّل بين المحالِّ القريبة والمسبح العموميّ والبيت. وباستثناء غينزا وذلك الفندق في شيناغاوا، فلم أذهب إلى مكانٍ أبعد من مغسلة المحطَّة. وطوال هذين الشهريْن لم أكد أرى أحدًا. فباستثناء كوميكو، لم «أرَ» أحدًا سوى مالطا وكريتا كانو ومايو كاساهارا. عالمي أصبح ضيِّقًا، ساكنًا في مكانه. وكلَّما ضاق أكثر، وزادت درجة سكونه، بدا لي هذا العالمُ الذي يغلِّفني وكأنَّه ينضح بأشياءَ وأشخاصٍ لا يمكن وصفُهم إلَّا بالغرابة. لقد كانوا موجودين طوالَ الوقت كما يبدو، ينتظرون في الخفاء إلى أن أتوقَّف عن الحركة. وكلَّما جاء طائرُ الزنبرك إلى فنائي ليلفّ زنبركه، كان العالمُ من حولي يتهاوى إلى الفوضى.

غسلتُ فمي وظللتُ أنظر إلى وجهي بعض الوقت. قلتُ لنفسي: لا أستطيع العثورَ على الصورة. أنا في الثلاثين من عمري، ساكنٌ، ولا يمكنني أن أعثر على الصورة. حين خرجتُ من الحمَّام وجدتُ كوميكو نائمة.

11

الملازم ماميا يدخل المشهد
الذي جاء من طين دافئ
كولونيا

بعد ذلك بثلاثة أيّام، اتَّصل نوكوتارو ماميا. كانت الساعة السابعة والنصف صباحًا، وكنتُ أتناول الفطور مع كوميكو.

قال السيِّد ماميا بنبرة اعتذار حقيقيَّة: «أنا آسف جدًّا جدًّا على اتِّصالي في هذا الوقت المبكِّر. أرجو ألَّا أكون قد أيقظتُكَ من نومك».

فطمأنته بأنْ لا داعي للاعتذار، وأنَّني أصحو كلَّ صباح بُعيْد الساعة السادسة.

شكرني على البطاقة البريديَّة التي أرسلتُها، وقال إنَّه اتَّصل باكرًا كي يستطيع التحدُّثَ إليَّ قبل أن أذهب إلى العمل، وأنَّه سيكون ممتنًّا لو استطعتُ أن ألتقيه اليوم في استراحة غدائي. كان يريد أن يستقلَّ قطارَ المساء السريع إلى هيروشيما. قال إنَّه كان يودّ قضاء وقتٍ أطول هنا، لكنَّ شيئًا استجدَّ وهو مضطرٌّ إلى العودة بأسرع وقتٍ ممكن.

ذكرتُ له أنَّني عاطل عن العمل حاليًّا، وأنْ لا ارتباطات لديَّ طوال النهار، فيمكنني أن ألتقيه في أيِّ وقت يناسبه، صبحًا أو ظهرًا أو عصرًا أو أيّ وقت.

قال بتأدُّبٍ جمّ: «ولكنْ من المؤكَّد أنَّ لديك شيئًا ما تُخطِّط لفعله في وقتٍ ما من النهار».

أجبتُه بأنْ لا شيء في جدولي.

«في هذه الحالة إذن، هل لي أن أزورَكَ في بيتك هذا الصباح عند العاشرة؟»

«نعم، تفضَّلْ».

بعد أن أغلقتُ الخطَّ أدركتُ أنَّني قد نسيتُ إخباره كيف يصل إلى منزلنا من المحطَّة. قلتُ في نفسي إنَّه يعرف العنوان وسوف يجد البيتَ إنْ أراد.

سألتني كوميكو: «من هذا؟»

«الشخص الذي يوزِّع هدايا السيِّد هوندا. سوف يُحْضر هديَّتي هذا الصباح».

«صحيح؟» رشفتْ من قهوتها ووضعتْ زبدةً على خبزةٍ

محمَّصة. «هذا من كرم أخلاقه».

«نعم».

«بالمناسبة، ألا يُفترض بنا، أو بكَ على الأقلّ، أن تذهب لتقديم واجب العزاء في بيت السيِّد هوندا، فَتُشْعل عودَ بخور، أو شيئًا كهذا؟»

«فكرة جيِّدة. سأسأله عن ذلك».

أخذتْ كوميكو تستعدّ للخروج، فطلبتْ منِّي أن أغلق سحَّاب ردائها. كان رداءً ضيِّقًا فتطلَّب بعضَ الجهد. كانت تضع عطرًا رائعًا خلف أذنيْها. عطرًا ممتازًا لصباحٍ صيفيٍّ.

سألتُها: «كولونيا جديدة؟»

لم تُجب، وإنَّما نظرتْ في ساعتها ومدَّت يدَها لترتيب شعرها.

«تأخَّرتُ»، وأخذتْ حقيبتَها من على الطاولة.

*

كنتُ قد رتَّبتُ الغرفةَ الصغيرة التي تستخدمها كوميكو للعمل. وفيما أنا أُفرغ سلَّة المهملات رأيتُ شريطةً صفراء ألقتها فيها. كانت بارزةً من تحت ورقةٍ مكرمشة وبعض الرسائل الإعلانيَّة. ما شدَّني إلى الشريطة كان لونَها الأصفر اللامع. كانت من تلك الشرائط المستخدمة في لفّ الهدايا، حيث تكون العقدةُ مربوطةً على شكل زهرة. التقطتُها من سلَّة المهملات ونظرتُ فيها. كانت الشريطة ملقاةً مع ورق تغليف من محلّ «ماتسويا». وتحت الورق علبةٌ تحمل شعار «كريستيان ديور». داخل العلبة تجويفٌ على

شكل قارورة. يبدو من شكل العلبة أنَّها هديَّة غالية الثمن. أخذتُها معي إلى الحمَّام وفتحتُ الدولابَ الذي تضع فيه كوميكو أدواتِ التجميل. وجدتُ داخله قارورةَ كولونيا من «كريستيان ديور» غير مستخدمة، وشكلها يشبه تجويفَ العلبة. نزعتُ الغطاءَ الذهبيَّ وشممتُ القارورة. كان العطر نفسه الذي شممتُه خلف أذنَي كوميكو.

جلستُ على الأريكة أشرب قهوتي الصباحيَّة وأستجمع أفكاري. يبدو أنّ أحدًا قدَّم هديَّة إلى كوميكو. هديَّةً غالية. اشتراها من محلّ ماتسويا وغلَّفها مع شريطة. ولئن كان صاحبُ الهديَّة رجلًا، فلا بدَّ من أن يكون مقرَّبًا من كوميكو. الرجال لا يقدِّمون إلى النساء (لا سيَّما المتزوِّجات) كولونيا إلَّا إذا كانت علاقتُهم بهنَّ قويَّة. ولكنْ إنْ كانت صديقةً لها هي مَنْ أعطاها الهديَّة... ولكنْ هل تتاهدى النساء بالكولونيا؟ لا أدري. ما أعرفه هو أنْ لا يوجد سبب يجعل كوميكو تأخذ هديَّةً من أشخاص آخرين في هذا الوقت من السنة. فعيدُ ميلادها في أيَّار / مايو. وكذلك ذكرى زواجنا. لعلَّها اشترت لنفسها قارورةَ كولونيا ثم غلَّفَتْها بشريطة جميلة. ولكنْ لماذا؟

أطلقتُ تنهيدةً وأخذتُ أنظر في السقف.

هل ينبغي أن أسألَها عن الأمر مباشرةً؟ «هل أهداكِ شخصٌ ما تلك الكولونيا؟» وقد تُجيب قائلةً: «أوه، الكولونيا. إحدى زميلاتي في العمل كانت لديها مشكلةٌ شخصيَّة وساعدتُها فيها. حكاية طويلة، ولكنَّها كانت في مأزق. وأحضرتْ إليَّ الهديَّة من باب الشكر. عطر رائع، أليس كذلك؟ إنَّه غالي الثمن!»

هذا منطقيّ. إذن انتهى الأمر. لا داعي للسؤال، ولا داعي للقلق.

لكنَّني كنتُ قلقًا فعلًا. كان عليها أن تُخبرني. فإنْ وجدَتِ الوقتَ لكي تذهب إلى غرفتها، وتحلَّ الشريطةَ، وتنزعَ ورقَ التغليف، وتفتحَ العلبةَ، وترمي كلَّ ذلك في سلَّة المهملات، ثم تضعَ القارورةَ في دولاب أدوات التجميل، فقد كان في إمكانها أن تأتي وتقول: «انظرْ إلى هذه الهديَّة التي أعطتني إيَّاها إحدى زميلاتي». لكنَّها لم تقل شيئًا. ربَّما قالت في نفسها إنَّ الأمر لا يستحقّ الذكر. لكنّه الآن تدثَّر بالسرِّيَّة. وهذا ما كان يُزعجني.

أخذتُ أنظر إلى السقف طويلًا. حاولتُ أن أُفكِّر في شيء آخر، لكنّ عقلي أبى. ظللتُ أُفكِّر في كوميكو في اللحظة التي أغلقتُ فيها سحَّابَ ردائها. ظهرها الأبيض الأملس، والعطر خلف أذنيْها. ولأوَّل مرَّةٍ منذ أشهر شعرتُ برغبةٍ في التدخين. أردتُ أن أضع سيجارةً بين شفتيَّ، وأُشعلها، وأسحبَ الدخانَ إلى صدري. كان هذا سيهدِّئ أعصابي. ولكنْ لم تكن معي سجائر. وجدتُ سُكَّرة ليمون، وأخذتُ أمصُّها.

عند العاشرة إلَّا عشر دقائق، رنَّ الهاتف. قلتُ لنفسي لا بدَّ أنَّه الملازم ماميا. فليس من السهل إيجادُ بيتنا. حتى الناس الذين زارونا أكثرَ من مرَّة كانوا يتوهون أحيانًا. لكنَّ الاتِّصال لم يكن مِن الملازم ماميا. الصوتُ الذي جاءني عبر الهاتف كان صوتَ تلك المرأة الغامضة التي اتَّصلت بي في ذلك اليوم.

قالت: «آلو حبيبي. مرَّ وقت طويل. هل أعجبتْكَ المرَّة

الماضية؟ هل أثرتُ شهوتَكَ قليلًا؟ لماذا أغلقتَ الخطَّ في وجهي؟ وفي اللحظة التي كان الكلام فيها مشتعلًا!»

لجزءٍ من الثانية ظننتُها تتحدَّث عن احتلامي بكريتا كانو. لكنَّ تلك كانت قصَّةً أخرى. إنَّها تتحدَّث عن المرَّة التي اتَّصلت بي فيها بينما كنتُ أطبخ السباغيتي.

قلت لها: «آسف، لكنَّني مشغول جدًّا الآن. أنتظرُ زائرًا بعد عشر دقائق، وعليَّ تجهيزُ المكان».

قالت بنبرةٍ ساخرة: «تبدو مشغولًا جدًّا بالنسبة إلى شخص يُفترض أنَّه عاطل عن العمل». الأمر نفسه حدث في المرَّة الماضية، إذ تتغيَّر نبرتُها بين لحظةٍ وأخرى. «تطبخ سباغيتي، أو تنتظر زائرًا. ولكنْ لا بأس. كلّ ما نحتاج إليه عشر دقائق. دعنا نتحدَّث عشر دقائق، أنا وأنت فقط. يمكنك أن تغلق الخطّ حين يصل ضيفُك».

أردتُ أن أُغلق الخطّ من دون أن أقول كلمةً واحدة، لكنِّي لم أستطع. ربَّما ما زلتُ مغتاظًا من مسألة الكولونيا. وربَّما شعرتُ بحاجةٍ إلى أن أتحدَّث مع أحد، ولا يهمّ مَنْ يكون.

«اسمعي، لا فكرة لديَّ عمَّن تكونين». والتقطتُ قلمَ الرصاص من جانب الهاتف وأخذتُ أُقلِّبه بين أصابعي. «هل أنتِ متأكِّدة أنَّني أعرفُكِ؟»

«بالطبع. قلتُ لكَ في المرَّة الماضية. أعرفُكَ وتعرفني. لن أكذب في هذا. ولا وقت لديَّ كي أُضيِّعه في الاتِّصال بشخصٍ غريب. لا بدَّ أنَّ في ذاكرتك شيئًا معطوبًا».

«لا أظنّ. لكنْ، فعلًا ـ».

«كفى. كفَّ عن هذا التفكير الطويل. أنت تعرفني وأنا أعرفُكَ. المهمّ هو.. حسنًا، انظرْ إلى الأمر من هذه الزاوية. سأكون غايةً في اللطف معك، وليس عليك أن تفعل أيّ شيء. أليس هذا رائعًا؟ ليس عليك أن تفعل شيئًا، لا مسؤوليّات أبدًا، وأنا أفعل كلّ شيء. كلّ شيء. أليس هذا رائعًا؟ كفَّ إذن عن التفكير كثيرًا. كفَّ عن تعقيد كلّ شيء. فرِّغْ دماغَكَ. تظاهرْ بأنّك تستلقي على طينٍ ناعمٍ جميل في عصر يومٍ ربيعيٍّ دافئ».

بقيتُ صامتًا.

«أنت الآن نائم. تحلم. أنت مستلقٍ على طينٍ جميلٍ دافئ. انسَ زوجتَك. انسَ أنّكَ عاطل عن العمل. انسَ المستقبل. انسَ كلَّ شيء. كلُّنا من طينٍ دافئ، وكلُّنا نعود إليه. أخيرًا.. أوه، بالمناسبة سيِّد أوكادا، متى كانت آخر مرَّة مارستَ فيها الجنسَ مع زوجتك؟ هل تذكر؟ منذ وقت طويل، أليس كذلك؟ نعم بالتأكيد، ربَّما منذ أسبوعيْن».

قلت: «آسف، لقد وصل ضيفي».

«أكثر من أسبوعيْن، أليس كذلك؟ يبدو هكذا من صوتك. ثلاثة أسابيع ربَّما؟»

لم أقل شيئًا.

«حسنًا، لا بأس». كان صوتُها مثلَ مِكنسةٍ تكنس الغُبارَ المتراكم على ألواح ستارةٍ معدنيَّة. «هذا أمر بينك أنت وزوجتك. لكنَّني سأُعطيك كلَّ شيء تريده. في المقابل يا سيِّد أوكادا لستَ

ملزمًا بأيِّ شيء. هناك قريبًا منك عالمٌ لم تره من قبل. قلتُ لكَ إنَّ هناك عطبًا في ذاكرتك. لم تفهم حتى الآن».

ظللتُ صامتًا وأنا ممسكٌ بالسمَّاعة.

«انظرْ حولك. انظرْ حولك وأخْبرني ماذا ترى. ما الذي تراه؟»

وعندها قُرِع جرسُ الباب. ارتحتُ، فأغلقتُ الخطَّ من دون أن أقول شيئًا.

*

كان الملازم ماميا رجلًا كبيرًا في السنِّ، أصلعَ الرأس، فارعَ الطول، يرتدي نظَّارة ذات إطارٍ ذهبيٍّ. بشرتُه المسمرَّة وقوامُه العضليّ يوحيان بأنَّه مارس قدرًا من الأعمال اليدويَّة، من دون أيِّ زيادة في الوزن. في زاوية كلّ عين من عينيْه ثلاثةُ تجاعيد عميقة متناسقة تمامًا، كما لو أنَّه ينظر بنصف إغماضة تحاشيًا للضوء الشديد. يَصْعب تحديدُ عمره، لكنَّه لا يمكن أن يقلّ عن السبعين. تصوَّرتُه قويَّ البنية في عزِّ شبابه، وكان هذا واضحًا من مشيته المنتصبة وحركاته المنضبطة. سلوكه وحديثه يُبديان احترامًا رفيعًا، لكنَّهما لا يميلان إلى الرسميَّة بقدر ما يعطيان انطباعًا بالانضباط غير المتكلّف. بدا أنَّ الملازم ماميا رجل اعتاد اتِّخاذَ قراراته بنفسه وتحمّل المسؤوليَّة عنها. كان يرتدي بذلة رماديَّة فاتحة عاديَّة، وقميصًا أبيض، وربطةَ عنق مخطَّطة بالأسود والرماديّ. ويبدو أنّ بذلته العمليَّة هذه مصنوعة من قماش لا يُناسب ثقلُه صباحاتِ حزيران / يونيو الحارَّة الرطبة، لكنَّه لم

يذرفْ قطرةَ عرقٍ واحدة. كانت يدُه اليسرى اصطناعيَّة، يغطِّيها بقفَّاز خفيف بلونِ البذلة نفسه. ولـمَّا كانت يده مغلَّفةً بهذا القفاز الرمادي فقد بدت باردةً غيرَ حيَّة، مقارنةً بيده اليمنى المشعرة المسمرَّة التي تتدلَّى منها رزمةٌ ملفوفةٌ بقماش ومربوطة من أعلاها.

أدخلتُه إلى الصالة كي يجلس على الأريكة، وقدَّمتُ إليه كوبًا من الشاي الأخضر.

اعتذر لأنَّه لم يُحْضر بطاقتَه التعريفيَّة. «كنتُ أدرِّس الدراسات الاجتماعيَّة في مدرسة ثانويَّة ريفيَّة في هيروشيما، لكنَّني لم أعمل في وظيفةٍ أخرى منذ أن تقاعدتُ. أزرعُ بعض الخضروات كهواية، مجرَّد عمل زراعيّ بسيط. لذلك لا أحمل معي بطاقاتٍ تعريفيَّة، على الرَّغم من إدراكي لِما في ذلك من قلَّة ذوق».

لم تكن لديَّ، أنا أيضًا، بطاقةٌ تعريفيَّةٌ.

«اسمحْ لي أن أسألك سيِّد أوكادا، كم عمرك؟»

«ثلاثون سنة».

هزَّ رأسه. ثم رشف رشفةً من الشاي. لا أعرف ما الذي استنتجه حين قلتُ إنَّني في الثلاثين.

قال وكأنَّه يُغيِّر الموضوع: «بيتُك هادئ وجميل».

أخبرتُه أنَّني استأجرتُه من خالي بإيجار بسيط. وقلت إنَّنا في الوضع العاديّ لن نتمكَّن من تحمُّل إيجار بيتٍ في نصف حجم هذا البيت. كان يهزّ رأسَه وهو يُلقي نظرةً في المكان. تبعتُ

نظراته. **انظرْ حولك**. هكذا قالت المرأة. بهذه النظرة الواعية لما حولي أدركتُ شيئًا من البرود في الجوّ السائد في المكان.

قال الملازم ماميا: «مضى عليّ أسبوعان في طوكيو، وأنت آخر شخص أقدّم إليه هديّته. الآن يمكنني العودة إلى هيروشيما».

«كنتُ أفكّر في زيارة بيت السيّد هوندا، وربّما أُشعل عودَ بخورٍ لذكراه».

«فكرةٌ محمودة ولا شكّ، لكنَّ بيت السيّد هوندا (الذي أصبح قبرَه الآن) في مدينة آساكيهاوا بمحافظة هوكايدو. حضر أفرادُ عائلته من آساكيهاوا لأخذ أغراضه التي تركها في بيته في ميغورو، ورحلوا. لم يبق شيء».

«فهمت. إذن فقد كان السيّد هوندا يعيش وحيدًا في طوكيو، بعيدًا عن عائلته».

«صحيح. ابنُه الأكبر الذي يعيش في آساكيهاوا كان قلقًا من ترك أبيه يعيش وحيدًا في طوكيو، وكان يعرف أنَّ أحواله الصحّيّة لم تكن جيّدة. يبدو أنَّه حاول إقناعَ والده بالعودة والعيش معه، لكنَّ السيّد هوندا رفض».

سألتُه مصدومًا: «كان لديه ابن؟» لطالما تخيَّلتُ أنَّ السيّد هوندا كان وحيدًا تمامًا في هذا العالم. «أظنّ إذن أنَّ زوجتَه توفِّيتْ منذ فترة طويلة».

«في الحقيقة، هذه قصّة طويلة. انتحرت السيّدة هوندا انتحارًا عاطفيًّا مع رجلٍ آخر بعد الحرب. في عام 1950 م أو 1951 م كما أعتقد. لا أعرف تفاصيلَ الحادثة، ولم يقل السيّد هوندا

الكثيرَ عن ذلك قطّ، وبالطبع لم أكن لأسأله».

هززتُ رأسي.

«بعد ذلك، ربَّى السيِّد هوندا ابنَه وابنَته بمفرده. وحين كبرا انتقل إلى طوكيو بمفرده وبدأ عملَه في العِرافة. وهكذا تعرَّفتَ أنت إليه».

«وماذا كان يعمل في آساهيكاوا؟»

«كان شريكًا مع أخيه في مطبعة».

حاولتُ أن أتخيَّل السيِّد هوندا واقفًا أمام آلات الطباعة برداء العمل يدقِّق في البروفات، لكنَّه بالنسبة إليَّ لم يكن سوى رجل عجوز متَّسخ يرتدي كيمونو قديمًا قذرًا بحزامٍ يليق بمنامة، يجلس صيفًا وشتاءً واضعًا قدميْه في مدفأة ويعبث بعَضوَيْه على طاولةٍ خفيضة.

بحركاتٍ متقنة، استخدم الملازم ماميا يدَه اليمنى ليفكَّ الحزمةَ القماشيَّة التي أحضرها معه، فظهر منها صندوقٌ أشبه بصندوقِ حلوى صغير. كان مغلَّفًا بورقٍ بنِّيٍّ ومربوط بإحكام في عدَّة لفَّات. وضعه الملازم على الطاولة ودفعه ناحيتي.

«هذا هو التذكار الذي تركه لك السيِّد هوندا».

أخذتُه. كان خفيفًا يكاد لا يَزن شيئًا. ولم أستطع أن أتخيَّل ما في داخله.

سألتُه: «هل يمكنني أن أفتحه؟»

هزَّ الملازم ماميا رأسه نفيًا. «المعذرة، لكنَّ السيِّد هوندا طلب أن تَفتح الهديَّة حين تكون بمفردك».

أومأتُ إليه وأعدتُ الصندوق إلى الطاولة.

قال الملازم ماميا: «في الحقيقة. لقد وصلتني رسالةُ السيِّد هوندا قبل يومٍ بالضبط من وفاته. كان نصُّها أشبهَ بالآتي: «سوف أموت قريبًا جدًّا. ولا أشعر بأيِّ خوف من الموت. فقد انقضى نصيبي الذي منحتني إيَّاه السماءُ من الحياة. ولا يملك المرء إلَّا الخضوع لإرادة السماء. لكنَّ هناك شيئًا لم أُنجزه بعد. هناك أشياء في دولابي، أشياء أردتُ أن أقدِّمها إلى بعض الناس. ويبدو أنَّني لن أتمكَّن من إتمام هذه المهمَّة. لذلك سأكون ممتنًّا لك لو استطعتَ مساعدتي في توزيع التذكارات الموجودة في القائمة المرفقة. أُدركُ ما في طلبي هذا من وقاحة، لكنَّني أرجو أن تعتبره أمنيتي الأخيرة قبل الموت وأن تُتعِبَ نفسَكَ مرَّةً أخيرةً من أجلي». في الحقيقة كنتُ مصدومًا جدًّا حين قرأتُ الرسالة؛ فقد انقطع التواصلُ بيني وبين السيِّد هوندا منذ سنوات، ستَّ سنوات أو سبع. فكتبتُ ردًّا على رسالته فورًا، لكنَّ ردِّي تقاطَعَ مع وصول رسالة من ابن السيِّد هوندا يُخبرني بوفاته».

أخذ رشفةً من الشاي الأخضر، ثم واصل كلامَه: «السيِّد هوندا كان يعرف متى سيموت بالضبط. لا بدَّ من أنَّه بلغ شأنًا لا يمكن لمثلي أن يرجو الوصولَ إليه. وكما أشرتَ أنت في بطاقتك البريديَّة، فقد كان فيه شيء يؤثر في الناس بعمق. كنتُ قد شعرتُ بذلك منذ لقائنا الأوَّل في صيف العام 1938».

«أوه، هل كنتَ في الوحدة نفسها مع السيِّد هوندا في معركة نومونهان؟»

أجاب الملازم ماميا وهو يعضّ على شفته: «كلّا. كنّا في وحدتيْن مختلفتيْن، بل في فرقتيْن مختلفتيْن. لكنّنا عملنا معًا في عمليّة عسكريّة صغيرة سبقتْ معركةَ نومونهان. بعد ذلك أُصيب العريف هوندا في نومونهان وأُعيد إلى اليابان. لم أذهب أنا إلى نومونهان. فقدتُ يدي هذه». وهنا رفع الملازم ماميا يدَه اليسرى المقفَّزة وأكمل: «فقدتها حين تقدَّم السوفييت في آب / أغسطس 1945 م، في الشهر الذي انتهت فيه الحرب. أُصبتُ برصاصة في كتفي من رشّاش وسط معركةٍ مع وحدة دبّابات. سقطتُ على الأرض فاقدًا الوعيَ، فمرَّت دبّابةٌ سوفييتيّةٌ فوق يدي. أسروني، ونقلوني للعلاج في مستشفى في تشيتا، ثم إلى معتقلٍ في سيبيريا. وظللتُ هناك حتى العام 1949. قضيتُ في تلك القارَّة اثنتيْ عشرةَ سنةً، منذ أن أرسلوني إليها سنة 1937، ولم تطأ قدماي أرضًا يابانيّة طوال تلك السنوات. ظنَّت عائلتي أنّني قُتلت في الحرب، فجعلوا لي قبرًا في مقبرة القرية. قبل مغادرتي اليابان كنتُ مرتبطًا بفتاة بنيَّة الزواج بها، لكنّني حين عدتُ وجدتها قد تزوَّجت. اثنتا عشرة سنة فترةٌ طويلة».

هززتُ رأسي.

«المعذرة سيِّد أوكادا. لا بدَّ من أنّ هذا الحديث عن الماضي مملٌّ لشابٍّ مثلك. أريد أن أضيف شيئًا واحدًا فقط. وهو أنَّنا كنَّا شبابًا عاديِّين، مثلك. لم يخطر في بالي قطّ أن أصبح جنديًّا. كنتُ أريد أن أصبح معلِّمًا. لكنّني ما إن تخرَّجتُ من الكلِّيَّة حتى أرسلوا إليّ رسالةَ التجنيد وألقوا بي في دورة تدريبيّة للضبّاط، ثم انتهى بي الأمر في تلك البلاد اثنتي عشرة

سنة. لقد مضت حياتي مثل حلم». ثم أطبق الملازم ماميا فمه.

فقلتُ بعد ثوانٍ: «أودّ فعلًا أن أسمع منك كيف التقيتَ السيِّد هوندا إنْ لم يكن لديك مانع». كنتُ بالفعل أريد أن أعرف كيف كان السيِّد هوندا قبل أن أعرفه.

أطرق الملازم ماميا مفكّرًا، ويداه على ركبتيْه. ليس لأنَّه لم يكن يعرف ما ينبغي عليه فعله، لكنَّه كان يفكِّر وحسب.

«قد تكون القصَّة طويلة».

«لا مانع عندي».

«لم أخبر أحدًا بها من قبل. وأجزم أنَّ السيِّد هوندا كذلك لم يُخبر بها أحدًا. ذلك أنَّنا... قطعنا عهدًا... أن نحفظ هذا السرَّ بيننا. لكنَّ السيِّد هوندا مات، ولن يتضرَّر أحدٌ لو تكلَّمتُ».

وهكذا بدأ الملازم ماميا يحكي لي قصَّته.

12

قصّة الملازم ماميا الطويلة: الجزء الأوّل

«وضعوني في سفينةٍ إلى منشوريا في أوائل العام 1937. كنتُ في ذلك الوقت ملازمًا ثانيًا جديدًا، وعيَّنوني في القيادة العامَّة لجيش كوانتونغ في شينجينغ. ولمَّا كانت شهادتي الجامعيَّة في الجغرافيا، فقد وضعوني في فيلق المسح العسكريّ، المتخصِّص في رسم الخرائط. كان هذا الوضعُ مثاليًّا بصراحة؛ فالمهامّ الموكلة إليّ كانت أبسطَ مهامّ يمكن أن يرجوها المجنَّدُ في الجيش. علاوةً على ذلك كانت الأوضاعُ في منشوريا هادئة نسَبيًّا، أو مستقرَّة على الأقلّ. فالواقعة التي حدثتْ في الصين قبل ذلك نقلتْ مسرح العمليَّات من منشوريا إلى داخل الصين. وهكذا كانت قوّاتُ الانتشار في الصين هي التي تحارب آنذاك، أمَّا

جيش كوانتونغ فكان مرتاحًا. صحيح أنَّ عمليَّات تطهير المواقع من فلول العدوّ كانت ما تزال جاريةً ضدَّ القوَّات المناوئة لليابان، لكنَّها كانت محصورةً من الداخل، وكانت أسوأ مرحلة قد انقضت. كلّ ما كان ينبغي لجيش كوانتونغ فعلُه آنذاك هو حماية دولتنا الصنيعة «المستقلَّة»، دولة مانشوكو، مع مراقبة التخوم الشماليَّة. ومع أنَّ الأمور كانت هادئة، فإنَّنا كنَّا نخوض حربًا في نهاية المطاف، لذا استمرَّت المناورات. ولحسن الحظّ أنَّني لم أكن مضطرًّا للمشاركة فيها، فقد كانت تجري في ظروف رهيبة؛ إذ كانت درجاتُ الحرارة تهبط إلى ما دون الصفر بأربعين أو خمسين درجة. كان أيُّ تصرُّفٍ غير محسوب يعني الموت؛ فبعد كلّ مناورة يُرسَل مئاتُ المصابين بتقرُّحات الصقيع إلى المستشفى أو إلى إحدى العيون الساخنة للعلاج. لم تكن شينجينغ مدينةً كبيرة، لكنَّها كانت بالتأكيد مكانًا أجنبيًّا مليئًا بالعجائب، ولئن أراد المرءُ أن يستمتع هناك فسيجد فرصًا كثيرة. الضبَّاط العزَّاب الجدد أمثالي كانوا يعيشون معًا في بيت، لا في ثكنة. كان الأمر أشبهَ بامتداد لحياة الطلَّاب. هكذا أخذتُ الأمرَ ببساطة، وقلتُ لنفسي إنَّ خدمتي العسكريَّة لن تكون سيِّئةً إن انتهت على هذا الوضع، مع مرور يومٍ هادئ تلو آخر.

لكنَّه كان هدوءًا زائفًا، بطبيعة الحال. فخلف أطراف دائرتنا الصغيرة كانت الحربُ مستعرة. معظمُ اليابانيين كانوا يُدركون أنَّ حربنا مع الصين عبارةٌ عن وحلٍ لن نستطيع انتشالَ أنفسنا منه أبدًا. على الأقلّ أيُّ يابانيّ ذي نصيبٍ من عقل كان يُدرك ذلك. لم يكن المهمّ عدد المعارك التي انتصرنا فيها، فلم يكن بمقدور

اليابان أن تستمرّ في احتلال جزءٍ بعد جزءٍ من دولةٍ بهذه الضخامة. إذا فكَّرتَ في الأمر فستجده واضحًا وضوحَ الشمس. كما أنَّ أعداد القتلى والجرحى كان يتضاعف مع استمرار الحرب، والعلاقات مع الولايات المتَّحدة كانت تنتقل من سيِّئ إلى أسوأ. وحتى في اليابان نفسها كانت ظِلالُ الحرب تزداد قتامةً مع كلِّ يومٍ يمرّ. كانا عامَيْن قاتميْن جدًّا: 1937 و1938. لكنْ إنْ كنتَ ضابطًا في شينجينغ، تعيش تلك الحياةَ البسيطة، فسوف يخطر في بالك هذا السؤال: «حرب؟ أيّ حرب؟» فالحال أنَّنا كنَّا نخرج ونشرب ونلهو كلَّ ليلة، ونعرِّج على المقاهي حيثُ الفتياتُ الروسيَّاتُ البيضاوات.

وذاتَ يوم من أواخر نيسان / إبريل 1938، استدعاني ضابطٌ كبيرٌ من القيادة، وعرَّفني إلى زميلٍ بلباسٍ مدنيّ اسمُه ياماموتو. كان شعرُه قصيرًا، وله شارب. لم يكن طويلَ القامة، وأظنُّه كان في منتصف عقده الرابع. وكانت لديه ندبةٌ في قفاه تبدو كأنَّها أثرُ طعنة. قال لي الضابط: «السيِّد ياماموتو مواطنٌ مدنيّ، كلَّفه الجيشُ بالبحث في حياة المنغوليين وتقاليدهم في مانشوكو. بعد ذلك سوف يتوجَّه إلى سهوب هولونبوير، قرب حدود منغوليا الخارجيَّة، وسوف نمدُّه بحراسة مسلَّحة ترافقه. وسوف تكون واحدًا من أعضاء هذه المهمَّة. لم أصدِّقْ شيئًا ممَّا قاله. صحيح أنَّ هذا الياماموتو كان يرتدي لباسًا مدنيًّا، لكنَّ نظرةً واحدةً تكفي لمعرفة أنَّه جنديّ محترف. تلك النظرة في عينيْه، والطريقة التي يتحدَّث بها، ووقفته. كان الأمر واضحًا. استنتجتُ أنَّه ضابط رفيع أو ذو علاقة ما بالمخابرات، وكان في مهمَّة

تتطلَّب إخفاء هويَّته العسكريَّة. غير أنَّ ثمَّة شيئًا غير مريح في هذه المهمَّة.

كنَّا ثلاثةً مكلَّفين بمرافقة ياماموتو، وهذا عدد قليل جدًّا لا يكفي لحراسة مسلَّحة، مع أنَّ عددًا كبيرًا سوف يثير انتباهَ قوَّات منغوليا الخارجيَّة على الحدود. قد يحلو للمرء أن يعتبر الأمرَ مهمَّةً حسَّاسة كُلِّف بها رجال منتقون بعناية، لكنَّ الحقيقة كانت غيرَ ذلك تمامًا. كنتُ الضابطَ الوحيدَ، ولم تكن لديَّ أيُّ خبرةٍ سابقة في ساحات المعارك. والوحيد الذي كان بإمكاننا التعويلُ عليه في القتال رقيبٌ اسمُه هامانو. كنتُ أعرفه جنديًّا جُنِّد لمساعدة القيادة العامَّة. كان شخصًا قويًّا شقَّ طريقه إلى أن أصبح ضابطَ صفّ، ثم أبلى بلاءً حسنًا في معركة في الصين. كان ضخمَ الجثَّة مِقدامًا، وكنتُ واثقًا بأنَّه يسعنا الاعتماد عليه في الشدائد. لكنَّني لا أعرف لماذا كلَّفوا العريف هوندا معنا في هذه المهمَّة؛ فقد كان مثلي مستجدًّا ولا يملك أيَّ خبرة قتاليَّة. كان هادئًا رقيقًا ولا يبدو أنَّه سيكون ذا فائدة وقتَ القتال. والأعجب أنَّه كان من الفرقة السابعة، ما يعني أنَّ القيادة العامَّة استدعته خصِّيصًا من خارج نطاقها لكي يكون في هذه المهمَّة. إلى هذه الدرجة كان جنديًّا مميَّزًا، لكنَّني لم أدرك ذلك إلَّا لاحقًا.

جرى اختياري كي أكون الضابطَ الآمرَ في هذه المهمَّة لأنَّ مسؤوليَّتي الأساسيَّة كانت تتعلَّق بطوبوغرافيَّة الحدّ الغربيّ من مانشوكو في منطقة نهر كالكا. كان المطلوب منِّي أن أتأكَّد من أنَّ خرائطنا لهذه المحافظة مكتملة قدر الإمكان. كنتُ قد عاينتُ هذه المنطقة بالطائرة مرَّات عدَّة، فكانت الغاية من وجودي أن أساعد في

سير هذه المهمَّة بسلاسة. أمَّا الغاية الثانية فكانت جمعَ المزيد من التفاصيل الطوبوغرافيَّة عن المحافظة لزيادة مستوى الدقَّة في خرائطنا. عصفوران بحجر واحد. في الحقيقة كانت خرائطنا عن حدود هولونبوير مع منغوليا الخارجيَّة خرائطَ أوَّليَّة بسيطة، تكاد بشقّ النفس أن تكون تطويرًا للخرائط القديمة التي وضعتْها سلالةُ مانشو. فجيش كوانتونغ كان قد أجرى مسوحات عدَّة بعد إنشاء مانشوكو. كانوا يريدون خرائطَ أكثر دقَّة، لكنَّ المنطقة التي كان يتوجَّب مسحُها هائلة، ومنشوريا الغربيَّة ليست سوى صحراء ممتدَّة بلا نهاية. والحدود القوميَّة لا تعني الكثير في مثل هذه الصحراء الشاسعة. لقد سكن المنغوليُّون الرُحَّل هذا المكان آلافَ السنوات من دون أن يحتاجوا إلى الحدود، بل من دون أن يعرفوا معنى الحدود.

ولقد تأجَّل وضعُ خرائط أكثر دقَّةٍ بسبب الأوضاع السياسيَّة أيضًا؛ فلو أنَّنا وضعنا خريطةً رسميَّةً من طرفٍ واحد تعكس فكرتَنا نحن عن الحدود، لَنَجمتْ عن ذلك عواقبُ كبيرةٌ على المستوى الدوليّ. ذلك أنَّ أيّ انتهاك للحدود كان يثير حفيظةَ الاتِّحاد السوفييتيّ ومنغوليا الخارجيَّة (اللذيْن يتشاركان الحدودَ مع مانشوكو)، وسبق أن وقعتْ أحداثٌ داميةٌ على الحدود لهذه الأسباب. لم يكن الجيش آنذاك في مزاجٍ للدخول في حرب مع الاتِّحاد السوفييتيّ، فجميعُ قوَّاتنا استُنفِدتْ في الحرب مع الصين، ولا يمكن الاستغناءُ عن أيٍّ منها للدخول في حرب شاملة مع السَوفييت. لم تكن لدينا الفِرقُ العسكريَّة اللازمة لذلك، ولا الدبَّاباتُ أو المدفعيَّةُ أو الطائرات. كانت أولويَّتُنا المطلقة تأمينَ استقرار مانشوكو التي كانت ما تزال كيانًا سياسيًّا جديدًا. بالنسبة

إلى الجيش، كان وضعُ الحدود الشماليَّة والشماليَّة الغربيَّة أمرًا يَحتمل التأجيل. كانوا يسعوْن إلى تأخير ذلك بأن لا يجعلوا للأمر موعدًا محدَّدًا. بل إنَّ جيش كوانتونغ العظيم نفسه رضخ لهذا الرأي واتَّخذ موقفَ الانتظار حتى إشعارٍ آخر. ونتيجةً لذلك جعلوا الأشياءَ تعوم في بحرٍ من الضبابيَّة.

ولكنْ إن استجدَّ أمرٌ غير متوقَّع يفضي إلى الحرب (وهو ما حدث بالضبط في العام التالي في نومونهان)، فسوف نحتاج إلى خرائط كي نستطيع القتال؛ لا خرائط مدنيَّة عاديَّة، بل خرائط قتاليَّة حقيقيَّة. فحين تخوض حربًا لا بدّ لك من خرائط تستعين بها لمعرفة المكان الذي ستضع فيه معسكراتِكَ، وأفضل مكان تضع فيه مدفعيَّتك، وطول المدَّة التي تستغرقها قوَّاتُ المشاة كي تصل إلى هناك، والمكان الذي تستطيع التزوُّدَ منه بالماء، وكمِّيَّة العلف اللازمة لخيولك. تفاصيل كثيرة. لا يمكنك أن تخوض حربًا حديثةً من دون تلك الخرائط. وهذا ما جعل الكثير من عملنا يتقاطع مع عمل الاستخبارات العسكريَّة، فكنَّا كثيرًا ما نتبادل المعلومات مع قسم الاستخبارات في جيش كوانتونغ أو دائرة الاستخبارات العسكريَّة في هايلار. كان الكلّ يعرف بعضه بعضًا. إلَّا أنَّ هذا الياماموتو لم أره من قبل.

بعد خمسة أيَّام من الاستعداد غادرنا شينجينغ متَّجهين بالقطار إلى هايلار. ومن هناك أخذنا شاحنةً وقدناها عبر المنطقة التي يقع فيها المعبدُ البوذيُّ التبتيّ، ثم وصلنا إلى نقطة مراقبة الحدود لجيش مانشوكو قرب نهر كالكا. لا أذكر المسافةَ تحديدًا، لكنَّها كانت قرابة الثلاثمئة وعشرين كيلومترًا. كانت تلك

المنطقة صحراءَ مقفرةً، فلا يمكنك أن ترى شيئًا على مرمى البصر. تطلَّب منّي عملي أن أظلّ أقارن بين خريطتي والمواقع الفعليَّة، لكنِّي لم أرَ شيئًا يمكنني أن أُقارِنَ به؛ فلا معالمَ يمكن أن أستعينَ بها. كلُّ ما رأيته تلالٌ شعثاء معشوشبة تمتدّ وتمتدّ في الأفق، وغيومٌ تطفو في السماء. لم يكن بإمكاني أن أعرف أين نحن بالضبط على الخريطة. فما كان منّي إلّا أن رحتُ أخمِّن وفقًا للزمن الذي استغرقناه في القيادة.

في بعض الأحيان، حين يسير المرء بصمتٍ في أرض مقفرة تمامًا كهذه، يجتاحه ضربٌ من الهلوسة يُشْعِرُهُ بأنَّه يتكشَّف ببطء. فالفضاء المحيط شاسعٌ إلى حدٍّ صعوبةٍ تيقُّنِك من حضور كيانك في المكان. لا أدري إنْ كان ما أقولُه واضحًا. ما أريد قولَه هو أنَّ عقلك يتمدَّد ليشغل المساحة كلَّها، فيتبعثر إلى أن تفقد القدرةَ على ضبطه في مكانه. هذا ما حدث معي في وسط السهوب المنغوليَّة. يا له من مكان شاسع! بدا أقربَ إلى المحيط منه إلى الصحراء. كانت الشمس تصعد في الأفق الشرقيّ وتشقّ طريقَها في السماء الفارغة، ثم تغرق في الأفق الغربيّ. كان هذا هو التغيُّرَ الوحيدَ الذي يمكننا إدراكُه في ما يُحيط بنا. وفي حركة الشمس هذه كنتُ أشعر بشيء لا أستطيع أن أحدِّده أو أسمِّيه. شيء من الحُبّ الكونيّ الضخم.

عند النقطة الحدوديَّة لجيش مانشوكو، انتقلنا من الشاحنة إلى ظهور الخيل. كانوا قد جهَّزوا كلَّ شيء لنا: أربعَ أحصنة نركبها، وحصانيْن محمَّليْن بالطعام والماء والسلاح. في الواقع كنَّا مسلَّحين بسلاح خفيف، فكنتُ أنا والمدعوّ ياماموتو نحمل

مسدَّسيْن، أمَّا هامانو وهوندا فكان كلٌّ منهما يحمل بندقيَّة مشاة طراز 38 وقنبلتيْن يدويَّتيْن، بالإضافة إلى مسدَّس.

كان القائد الفِعليّ للمجموعة هو ياماموتو، إذ كان هو الذي يتَّخذ القرارات ويُصدر التعليمات. تقتضي القواعدُ العسكريَّةُ أن أكون أنا الضابطَ الآمرَ لأنَّه يُفترض به أن يكون مَدَنيًا، لكنَّ أحدًا منَّا لم يشكّ في أنَّه هو الشخصُ المسؤول. كان خليقًا بذلك، وعلى الرَّغم من أنَّني كنتُ ملازمًا ثانيًا إلَّا أنَّني لم أكن سوى زينةٍ لا تملك أيّ خبرة قتاليَّة. للعسكريين قدرةٌ على معرفة مَن يملك القوَّة الفعليَّة، فينصاعون لأمره. أضف إلى ذلك أنَّ رؤسائي أمروني باتِّباع تعليمات ياماموتو من دون سؤال. كان المطلوب أن أتجاوزَ القوانين والأنظمة المعتادةَ وأنصاعَ له.

تقدَّمنا إلى نهر كالكا وسرنا بمحاذاته جنوبًا. كان النهر منتفخًا بالثلوج الذائبة. ورأينا أسماكًا كبيرةً في الماء. ولمحنا من البعيد ذئابًا بين حينٍ وآخر. لعلَّها كانت كلابًا بريَّةً أكثر منها ذئابًا حقيقيَّة، لكنَّها كانت خطرةً في كلِّ الأحوال. لذلك كنَّا نتناوب في الحراسة كلَّ ليلة لحماية الخيول منها. رأينا الكثيرَ من الطيور أيضًا، وأغلبُها طيورٌ مهاجرة في طريق عودتها إلى سيبيريا. كنَّا نتناقش، أنا وياماموتو، في المعالم الطوبوغرافيَّة للمكان، فنتحقَّق من طريقنا بالمقارنة مع الخريطة، وندوِّن ملاحظاتٍ مفصَّلةً عن كلِّ شيء نراه. عدا هذه النقاشات العمليَّة لم يكد ياموموتو يتحدَّث إليَّ. كان يهمز خيلَه بصمت، ويتناول طعامَه منفردًا، ويخلد إلى النوم من دون أن يقول شيئًا. وقد تولَّد لديَّ انطباع أنَّ هذه ليست زيارتَه الأولى للمكان؛ فقد كانت لديه معرفةٌ دقيقةٌ

مدهشة بالمواقع والاتّجاهات وما إلى ذلك.

بعد أن سرنا جنوبًا مدَّة يومين من دون أيّ حادث يُذكر، انتحى بي ياماموتو جانبًا وقال لي إنَّنا سنخوض نهر كالكا قبل فجر اليوم التالي. وقع عليَّ كلامُه كالصاعقة؛ فالساحل المقابل كان أرضَ منغوليا الخارجيَّة. بل إنَّ الضفَّة التي نقف عليها كانت هي نفسُها أرضًا خطرةً بسبب النزاعات الحدوديَّة على المكان بين منغوليا الخارجيَّة ومانشوكو، ما أدَّى إلى اشتباكات مسلَّحة بين الطرفيْن. فإنْ أسرنا جنديًا من قوَّات منغوليا الخارجيَّة في هذا الجانب، فسيكون لدينا العذرُ بسبب النزاع الحدوديّ، مع أنَّ فرصة وجودهم خلال هذا الفصل ضعيفةٌ لصعوبة عبور النهر مع الثلوج الذائبة. أمَّا الضفَّة البعيدة فكانت حكايةً أخرى تمامًا؛ إذ إنَّ الدوريَّات المنغوليَّة كانت حاضرةً فيها بكلِّ تأكيد، وإنْ أُسرنا هناك فلا عذرَ لنا على الإطلاق، بل سيكون انتهاكًا واضحًا للحدود، وسيُثير مختلفَ الزوابع السياسيَّة. فقد يطلقون النارَ علينا مباشرةً، ولا يحقّ لحكومتنا أن تُبدي احتجاجَها. علاوةً على ذلك، فإنَّ رئيسي لم يُشِرْ مطلقًا إلى أنَّه يجوز لنا عبورُ الحدود. قيل لي طبعًا أن أنفِّذ أوامرَ ياماموتو، لكنَّني لم أكن لأعرف ما إنْ كان هذا القرار يشمل الانتهاكَ الصارخَ للحدود. أضف إلى ذلك أنَّ نهرَ كالكا كان فائضًا كما ذكرتُ، والتيَّار قويًا جدًّا لا يسمح بالعبور، ناهيك بأنَّ الماء كان باردًا إلى حدِّ التجمُّد. حتى القبائل المَرتحلة لم تكن تحبِّذ عبور النهر في هذا الوقت، فهي إمَّا تَعْبره في الشتاء حين يكون متجمِّدًا، أو في الصيف حين ينخفض التدفُّقُ وترتفع الحرارة.

حين أخبرتُ ياماموتو بذلك حدَّق فيَّ لحظةً، ثم هزَّ رأسَه عدَّة مرَّات. وقال بنبرةٍ متعاليةٍ بعضَ الشيء: «أتفهَّم قلقَكَ من انتهاك الحدود الدوليَّة. هذا طبيعيّ جدًّا لمثلك: ضابط لديه رجالٌ تحت إمرته، وعليه أن يفكِّر في مسؤوليَّة شأنٍ كهذا، ولا تريد أن تخاطرَ بحياة رجالك من دون سببٍ معقول. لكنَّني أريد منك أن تترك هذه المسائل لي. سوف أتحمَّل المسؤوليَّة كلَّها في هذا الأمر. لستُ مخوَّلًا بالمزيد من الشرح، لكنَّني حصلتُ على الضوء الأخضر من أعلى المستويات في الجيش. في ما يتعلَّق بعبور النهر، لا توجد أمامنا صعوباتٌ تقنيَّة. ثمَّة مكان مخبوء يمكن العبور منه؛ فجيشُ منغوليا الخارجيَّة وضع عدَّة أماكن كهذه في النهر. لا أظنَّكَ على علم بذلك. ولقد عبرتُ بنفسي هذا النهر مرَّات عديدةً من ذلك المكان. دخلتُ إلى منغوليا الخارجيَّة العامَ الماضي في الوقت نفسه وفي المكان نفسه. لا داعي لقلقك».

كان محقًّا في أمرٍ واحد. فجيشُ منغوليا الخارجيَّة (الذي كان يَعرف هذا المنطقة معرفةً دقيقة) أرسل وحداتٍ قتاليَّةً (قليلًا منها) إلى هذا الجانب من النهر خلال فصل الجليد الذائب. كانوا يريدون ضمانَ قدرتهم على إرسال وحدات كاملة حين يتطلَّب الأمر. ولئن كان يُمْكنهم العبورُ فعلًا، فهذا الرجل الذي اسمُه ياماموتو يمكنه أن يَعْبر هو أيضًا، ولن يكون من المستحيل لنا نحن أيضًا أن نَعْبر.

وقفنا عند أحد تلك المعابر التي بناها جيشُ منغوليا الخارجيَّة. كانت مُموَّهةً بعناية، فلا يمكن أن يكتشفها الشخصُ العاديّ. كان جسرًا من الألواح، مربوطًا بالحبال، يصل ما بين

أسفل الضفَّتيْن تحت الماء. فمجرَّدُ النزول الخفيف على مستوى الماء يَضمن عبورًا سهلًا لمركبات نقل القوَّات، والسيَّارات المصفَّحة وغيرها، ولا يُمْكن لطائرات الاستطلاع أن تراها من الأعلى. سرنا في طريقنا عبر النهر نحتمي بالحبال من قوَّة التيَّار. تقَدَّمَنا ياماموتو، كي يتأكَّدَ من عدم وجود دوريَّات منغوليَّة خارجيَّة في المنطقة، ثم تبعناه. تخدَّرتْ أقدامُنا في الماء البارد، لكنَّنا عانينا نحن وخيولُنا حتى وصلنا إلى الضفَّة البعيدة. كانت الأرض أعلى بكثير في ذلك الجانب؛ فحين وقفنا ننظر إلى الخلف رأينا أميالًا من الصحراء الممتدَّة التي جئنا منها. كان هذا أحدَ الأسباب التي جعلت الجيشَ السوفييتيّ في موضع تفوُّق دائم حين نشبتْ معركةُ نومونهان. فهذا الاختلاف في الارتفاع يؤدِّي إلى اختلافٍ هائلٍ في دقَّة المدفعيَّة. على أيِّ حال، أتذكَّر أنَّني اندهشتُ من اختلاف المنظر في جانبَي النهر. وأتذكَّر أيضًا طولَ المدَّة التي استغرقناها كي يعود الإحساسُ إلى أطرافنا بعد أن غُمرتْ بماء الثلج. بل إنَّني ظللتُ فترةً حتى استعدتُ صوتي. ولكنْ للأمانة، فإنَّ التوتُّر الذي شعرتُ به من وجودي داخل حدود العدوّ كان كافيًا لنسيان البرد.

سرنا مع النهر جنوبًا، إذ تدفَّق من أسفلنا يسارًا مثلَ أفعى تتلوَّى. بُعَيْد عبورنا نصحَنا ياماموتو بنزع شارات الرُتب العسكريَّة، ففعلنا. قلتُ في نفسي إنَّ هذه الأشياء تخلق المزيدَ من المتاعب في حال أُسِرْنا. ولهذا السبب نفسه نزعتُ حذائي العسكريّ وارتديتُ حذاءً طويلًا.

وحين وقفنا نجهِّز مكانَ مبيتنا، اقترب رجلٌ من بعيد وجيدًا

على حصانه. كان منغوليًا؛ فالمنغوليُّون يستخدمون سروجًا طويلةً جدًّا، ويَسْهل التعرُّفُ إليهم من بعيد. اختطف الرقيب همانو بندقيَّته حين رأى طيفَ الرجل يقترب، لكنَّ ياماموتو أمره ألَّا يُطلق النار، فأرخى همانو بندقيَّته ببطء من دون أن يقول كلمة. وقفنا نحن الأربعة ننتظر اقترابَ الرجل. كانت لديه بندقيَّة سوفْيتيَّة على ظهره، ومسدَّس «موزر» على خصره. شارباه طويلان يغطِّيان وجهه، ويعتمر قبَّعةً بطرَفيْن على الأذنيْن. كان ثوبه المتَّسخُ من النوع الذي يرتديه الرُّحَّل، لكنَّك ما تلبث أن تعرف من سلوكه أنَّه جنديّ محترف.

تحدَّث وهو يترجَّل من حصانه إلى ياماموتو بلغةٍ افترضتُ أنَّها المنغوليَّة. كنتُ أعرف شيئًا من الروسيَّة والصينيَّة، واللغة التي كانا يتحدَّثان بها لم تكن أيًّا منهما، فلا بدَّ من أن تكون المنغوليَّة. أجابه ياماموتو باللغة نفسها، وهذا ما جعلني أزداد يقينًا أنَّ ياماموتو كان ضابطَ مخابرات.

قال لي ياماموتو: «ملازم ماميا، سوف أذهب مع هذا الرجل. لا أعرف كم سيطول غيابي، لكنَّني أُريدكم أن تنتظروني هنا، مع الإبقاء على نوبات الحراسة دائمًا بالطبع. وإنْ لم أعد خلال ستّ وثلاثين ساعة، فعليك أن تُبلغ القيادة. أرسل رجلًا ليَعْبر النهرَ ويذهب إلى نقطة المراقبة لجيش مانشوكو». امتطى حصانَه، وذهب مع المنغوليّ باتِّجاه الغرب.

أنهينا نحن الثلاثة نَصْبَ الخيام وتناولنا عشاءً بسيطًا. بطبيعة الحال لم يكن بالإمكان أن نطبخ أو أن نُشعل نارًا. ففي تلك السهوب الشاسعة، التي لا شيء فيها يُخفي وجودَنا سوى الكثبانِ

المنخفضةِ على مدِّ البصر، فإنَّ أبسط دخانٍ سيقودنا إلى الأَسْر فورًا. لذلك نَصَبنا خيامَنا على مستوى منخفض، وتناولنا بعضَ البسكويت مع اللحم البارد المعلَّب. وسرعان ما لفَّنا الظلامُ حين غرقت الشمسُ تحت الأفق، وامتلأت السماءُ بعدد مذهلٍ من النجوم. تناهت إلى مسامعنا أصواتُ الذئاب ممزوجةً بعجيج النهر، بعد أن استلقينا لنرتاح من تعب اليوم.

قال لي الرقيب همانو: «يبدو أنَّنا اخترنا موقعًا صعبًا»، وكنتُ أتَّفقُ معه. بحلول ذلك الوقت كنَّا قد تعارفنا جيِّدًا، أنا والرقيب همانو والعريف هوندا. في العادة كان ضُبَّاط الصفّ يحتفظون بمسافةٍ مع الضابط الشابّ ويضحكون عليه، لكنَّ الوضع كان مختلفًا في حالتنا. فقد كان يحترم التعليم الذي تلقَّيْتُه في كلِّيَّة غير عسكريَّة، وكنت أحرص على تقدير خبرته القتاليَّة وأحكامه العمليَّة من دون أن أضع اعتبارًا للرتبة العسكريَّة. كما أنَّنا تبادلنا الأحاديث بسهولةٍ لأنَّه كان من ياماغوتشي، وأنا من منطقة في هيروشيما قريبةٍ من ياماغوتشي. حكى لي عن الحرب في الصين. كان مجرَّد جنديّ، لم يتحصَّل على تعليم أكثر من المدرسة الثانويَّة، ولكن كانت لديه تحفُّظاتٌ عن تلك الحرب الفوضويَّة التي لم تبدُ لها نهاية، وقد صرَّح لي بأفكاره هذه. قال: «لا مشكلة لديَّ في القتال. أنا جنديّ، ولا يهمّني إنْ متُّ في معركة من أجل بلدي لأنَّ هذه وظيفتي. لكنَّ هذه الحرب التي نخوضها الآن أيُّها الملازم. ليست صائبة. إنَّها ليست حربًا حقيقيَّة في ساحة معركةٍ تُواجِه فيها العدوَّ وتُقاتِلُ حتى النهاية. نحن نتقدَّم، ويهرب العدوّ من دون قتال. ثم يخلع الجنود الصينيُّون زيَّهم

العسكريّ ويختلطون بالأهالي، فلا تعرف أين عدوّك. وهكذا نقتل الكثيرَ من الأبرياء باسم تطهير المكان من «المتمرِّدين» أو «الفلول»، ونستولي على التموين. نضطرّ إلى سرقة طعامهم، لأنَّ خطَّ القتال يتحرّك قُدُمًا بسرعة فلا تواكبه إمداداتُنا. ونضطرّ إلى قتل الأسرى، إذ لا مكانَ لدينا نضعهم فيه ولا طعام نُطعمهم إيّاه. هذا خطأ أيُّها الملازم. لقد اقترفنا أشياءَ فظيعةً في نانكِنغ. وِحدتي نفسُها فعلتْ ذلك. لقد قذفنا عشراتِ الناس في بئر وأسقطنا عليهم القنابلَ اليدويَّة. وثمَّة أشياء فعلناها لا أستطيع مجرَّد الحديث عنها. أؤكِّد لك أيُّها الملازم أنَّ هذه الحرب ليس لها أيُّ مبرِّر صائب. مجرَّد طرفيْن يقتل أحدهما الآخر. أمَّا مَن يُداس عليهم فهم المزارعون المساكين، أولئك الذين لا يعرفون شيئًا في السياسة أو الأيديولوجيا. فلا شأن لهم بالحزب القوميّ ولا المارشال تشانغ ولا جيش الطريق الثامن (الجيش الأحمر). هم بخير ما داموا يجدون ما يأكلون. أعرف كيف يشعر هؤلاء الناس؛ فأنا ابنُ صيّاد فقير. يكدح هؤلاء من الصباح حتى المساء، فقط كي يبقوا على قيد الحياة. لا يمكنني أن أصدِّق أنَّ قتل هؤلاء الناس بلا سبب على الإطلاق سيعود بأيِّ خيرٍ على اليابان».

في المقابل لم يتحدَّث العريف هوندا عن نفسه كثيرًا. كان رجلًا صامتًا على أيِّ حال. كان يستمع إلينا ونحن نتحدَّث من دون أن يتدخَّل بقول شيء. لكنَّني حين أقول إنَّه كان «صامتًا»، فلا أقصد الإيحاءَ بشيء سوداويّ فيه. كل ما في الأمر أنَّه نادرًا ما يُبادر بالحديث. صحيح أنَّ هذا كان كثيرًا ما يجعلني أتساءل

فيمَ يفكِّر، ولكنْ لم يكن هناك ما يزعج فيه. بل إنَّ في سلوكه الهادئ شيئًا يبعث الارتياحَ في قلوب الناس. كان ساكنًا مطمئنًّا تمامًا. التعبير نفسه على وجهه لا يتغيَّر مهما حدث. عرفتُ أنَّه من آساهيكاوا، وأنَّه ابن صاحب مطبعةٍ صغيرة. كان أصغر منّي بعاميْن، وحين خرج من المدرسة انضمَّ إلى أخويْه ووالده في المطبعة. كان الأصغر بين ثلاثة إخوة، أكبرُهم قُتل في الصين قبل سنتيْن. كان يُحبّ القراءة، وكلَّما سنحت له الفرصةُ تجده في مكانٍ ما منطويًّا على نفسه يقرأ في كتابٍ حول شيء في البوذيَّة.

وكما ذكرتُ سابقًا، لم تكن لهوندا أيُّ خبرة قتاليَّة، لكنَّه أصبح جنديًّا متميِّزًا بعد سنةٍ من التدريب العسكريّ. دائمًا ما تجد جنديًّا أو اثنيْن على هذه الشاكلة في أيِّ فصيل عسكريٍّ، يُعْرفون بصبرهم وتحمُّلهم وتنفيذهم لواجباتهم من دون أيّ شكوى. بقوَّتهم البدنيَّة ونباهتهم الفكريَّة يفهمون مباشرةً ما تقوله لهم وينفِّذون الأمرِ على أكمل وجه. كان هوندا واحدًا من هؤلاء. ولأنَّه تدرَّب على الفروسيَّة، فقد كان أعلَمَنا بالخيول، وهو الذي كان يرعى خيولَنا الستّ. كان يفعل ذلك على نحو عجيب. في بعض الأحيان بدا لنا وكأنَّه يفهم كلَّ شيء تشعر به الخيل. قدَّر الرقيبُ همانو فورًا القدراتِ التي يمتلكها العريف هوندا وأوكله بمسؤوليَّاتٍ كثيرةٍ من دون أدنى تردُّد.

هكذا إذن كان بيننا مستوى مدهشٌ من التفاهم والانسجام عَلى الرَّغم من اختلاف خلفيَّاتنا العسكريَّة. ولأنَّنا لم نكن في وحدةٍ عسكريَّة اعتياديَّة، فإنَّ رسميَّات الجيش لم تَحْكمْنا. كنَّا نتعامل بعفويَّة وسلاسة، كما لو أنَّ القَدَر هو الذي جمعنا. وهذا

ما جعل الرقيب همانو يصرِّح لي بأشياءَ تقع في العادة خارج إطار ما يتحدَّث به الضابطُ وضابطُ الصفّ.

سألني ذاتَ مرَّة: «قل لي يا ملازم، ما رأيك في ياماموتو هذا؟»

«أراهن بأنَّه عميلُ مخابرات. مَنْ يتحدَّث المنغوليَّة بهذه الطلاقة لا بدَّ من أن يكون محترفًا. وهو يعرف المنطقة كما يعرف ظهرَ يده».

«هذا رأيي أنا أيضًا. في البداية قلتُ إنَّه قد يكون واحدًا من الفرسان قُطَّاع الطرق الذين لهم علاقاتٌ بكبار الضبَّاط، لكنَّني لا أظنّ ذلك الآن. أعرف أولئك الناس؛ فهم يهرفون طوال الوقت، ويختلقون نصفَ ما يقولونه لك، وردود أفعالهم متسرِّعة. أمَّا هذا الياماموتو فليس شخصًا خفيفًا. لديه جرأة. إنَّه ضابط رفيع.. رفيع جدًّا. أستطيع أن أشمّ رائحتهم من على بُعد ميل. لقد سمعتُ شيئًا عن وحدةٍ سرِّيَّة تعبويَّة يحاول الجيش تشكيلها مع المنغوليِّين المتدرِّبين على يد القوَّات السوفييتيَّة، وأنَّه أرسل بعض كبار ضبَّاطنا لإدارة العمليَّة. قد تكون له علاقةٌ بالأمر».

كان العريف هوندا في نوبة الحراسة على مسافةٍ منَّا، حاملًا بندقيَّته. وكانت بندقيَّتي البروانغ على مقربةٍ منِّي كي أجدَها فورًا إنِ استدعتِ الحاجة. أمَّا الرقيب همانو فقد نزع حذاءَه الطويل وأخذ يدلِّك قدميْه.

تابع همانو: «أنا أخمِّن طبعًا. ذلك المنغوليّ الذي رأيناه قد يكون ضابطًا معاديًا للسوفييت في جيش منغوليا الخارجيَّة يحاول

التواصلَ سرًّا مع الجيش اليابانيّ».

«ربَّما. ولكنْ عليك أن تكون حذرًا في كلامك، وإلّا قطعوا رأسَك».

«لا يا ملازم، لستُ أحمق. هذا الكلام بيننا فقط». ابتسم لي ابتسامةً كبيرة، ثم تحوَّلتْ ملامحُه إلى الجدِّيَّة. «لكنْ إنْ كان في ما قلته شيء من الحقيقة، فهو عملٌ خطير. قد يؤدِّي هذا إلى حرب».

هززتُ رأسي موافقًا. كان من المفترض أن تكون منغوليا الخارجيَّة دولةً مستقلَّةً، لكنَّها كانت في الواقع دولةً تابعةً تأتمر بأمر الاتِّحاد السوفييتيّ. بعبارةٍ أخرى، لم تكن تختلف عن مانشوكو التابعة بدورها لليابان، لكنْ من المعروف أنَّ بها جماعةً مناوئةً للسوفييت، وقد استطاع أفرادٌ منهم أن يُثيروا عددًا من التمرُّدات عبر تواصلهم سرًّا مع الجيش اليابانيّ في مانشوكو. أمَّا نواةُ تلك الجماعة المتمرّدة فكانت تضمُّ رجالًا من الجيش المنغوليّ الذين كرهوا أن تكون اليدُ العُليا في البلاد للجيش السوفييتيّ، وعددًا من الإقطاعيِّين الذين عارضوا فرضَ الإدارة المركزيَّة للزراعة، إلى جانب رجال دين من طائفة اللاما التي يبلغ عددُ أفرادها أكثر من مئة ألف. والقوَّة الخارجيَّة الوحيدة التي كان يمكن أن تلجأ إليها هذه الجماعةُ للمساعدة هي الجيشُ اليابانيّ في مانشوكو. ويبدو أنَّهم شعروا بألفةٍ معنا، نحن اليابانيِّين، بوصفنا آسيويِّين مثلهم، أكثر من الروس. ولقد تكشَّفتْ خططٌ لانتفاضةٍ كبيرة في العاصمة أولان باتور في العام السابق (1937)، ما قاد إلى حملة تطهيرٍ واسعة. أُعدم آلافُ العسكريِّين

ورجال الدين اللاميِّين بتهمة معاداة الثورة والتخابر مع الجيش الياباني، لكنَّ مشاعر العداء للسوفييت استمرَّت في الاشتعال في مكانٍ أو آخر. لذلك ليس من الغريب أن يَعْبر ضابطُ مخابرات يابانيٌّ نهرَ كالكا ويتواصل مع ضابط معادٍ للسوفييت من جيش منغوليا الخارجيَّة. من أجل ذلك عمد الجيشُ إلى وضع دوريَّات مراقبة مستمرَّة، وأُعلن حظر الدخول إلى منطقة تمتدّ من عشرة إلى عشرين كيلومترًا من حدود مانشوكو، لكنَّ هذه منطقة شاسعة تَصْعب مراقبتُها، ولا يمكنهم أن يحرسوا كلَّ شبرٍ منها.

لكنْ حتى لو نجح التمرُّد، فمن الواضح أنَّ الجيش السوفييتيّ سيتدخَّل فورًا لسحق أيّ تحرُّك ضدَّ الثورة، وفي هذه الحالة سوف يَطْلب المنشقُّون مساعدةَ الجيش اليابانيّ، ما سيمنح جيش كوانتونغ اليابانيّ عُذرًا للتدخُّل. فالاستيلاء على منغوليا الخارجيَّة يعني غرز سكِّين في جوف المخطَّط السوفييتيّ في سيبيريا. ربَّما كانت القيادة الإمبراطوريَّة في طوكيو تحاول تجنُّب هذه التصعيدات، لكنَّ القيادة العامَّة الطموحة في جيش كوانتونغ لم تكن لتضيِّع هذه الفرصة. والنتيجة لن تكون مجرَّد نزاع حدوديّ، بل حربًا شاملة بين الاتِّحاد السوفييتيّ واليابان. وإن نشبت هذه الحرب على الحدود السوفييتيَّة ـ المنشوريَّة، فقد يردّ هتلر بغزو بولندا أو تشيكوسلوفاكيا. وهذا ما كان يشير إليه الرقيب همانو في حديثه عن احتمال الحرب.

طلعت الشمسُ صباحَ اليوم التالي، ولم يعد ياماموتو. كنتُ الأخيرَ في نوبة الحراسة، فاستعرتُ بندقيَّة الرقيب همانو، وجلستُ على كثيب رمليّ عالٍ إلى حدٍّ ما، وأخذتُ أرقبُ السماءَ

الشرقيَّة. الفجرُ في منغوليا كان رائعًا. ففي لحظةٍ يصبح الأُفق خطًّا باهتًا معلَّقًا في الظلام، ثم ينسحب الخطّ عاليًا، أعلى فأعلى. كان الأمر يبدو كما لو أنَّ يدًا عملاقةً امتدَّت من السماء وأخذتْ ترفع ستارَ الليل رويدًا رويدًا من على وجه الأرض. كان منظرًا مدهشًا، أضخمَ من أيِّ شيء يمكنني استيعابُه بحدود إمكاناتي البشريَّة. وبينما أنا جالسٌ أراقب، سيطر عليَّ الشعورُ بأنَّ حياتي نفسها كانت تنحسر إلى اللاشيء. فهنا لا شيء يقترب من تفاهة المساعي البشريَّة. الحدث نفسُه ظلَّ يتكرَّر مئات الملايين، بل مئات المليارات من المرَّات، من عصرٍ يسبق وجودَ أيِّ شيء يشبه الحياة على الأرض. نسيتُ أنَّني كنتُ هناك للحراسة، وأخذتُ أرقب طلوعَ النهار، وأنا مفتون.

بعد أن ظهرت الشمس فوق الأفق، أشعلتُ سيجارة، وأخذت رشفةَ ماءٍ من مطَّارتي، وتبوَّلت. ثم أخذتُ أفكِّر في اليابان. تصوَّرتُ قريتي في أوائل أيَّار / مايو، بشذى الأزهار، وخرير النهر، وأكوام السُحُب. الأصدقاء القدامى. العائلة. حلاوةُ الرزِّ المنفوش في ورق السنديان. لستُ مغرمًا بالحلويَّات، لكنَّني ما زلتُ أذكر كيف كنت أشتهي كعكة الرزّ «الموتشي» في ذلك الصباح. كنتُ مستعدًّا لدفع راتب ستَّة أشهر من أجل واحدة منها. حين فكَّرتُ في اليابان بدأتُ أشعر بأنَّني تُركتُ وحيدًا على حافَّة العالم. لماذا كان علينا أن نخاطر بحيواتنا كي نقاتل في هذا المكان القاحل الذي لا أهمِّيَّة عسكريَّة أو صناعيَّة له، في هذه الأرض الشاسعة التي لا تحيا فيها سوى الحشائش الرقيقة والحشرات اللاسعة؟ صحيح أنَّني مستعدٌّ للقتال والموت من أجل

بلدي، ولكنْ لا معنى على الإطلاق لأن أُضحّي بحياتي الوحيدة من أجل هذه الأرض الجرداء التي لا يمكن أن تنمو فيها سنبلةٌ واحدة.

*

عاد ياماموتو في فجر اليوم التالي. وكنتُ أنا الأخير في نوبة الحراسة أيضًا. كان النهر من خلفي، وأنا أحدّق غربًا، فسمعتُ صوتًا يشبه الصهيلَ من خلفي. استدرتُ بسرعة لكنَّني لم أَرَ شيئًا. أخذت أحدّق في الجهة التي جاء منها الصوت، شاهرًا مسدَّسي. بلعتُ ريقي، وكان صوتُ حنجرتي في حدِّ ذاته كافيًا لكي أشعر بالفزع. أخذتْ سبّابتي ترتعش فوق الزِّناد، فلم يسبقْ لي أن أطلقتُ النارَ على أحدٍ من قبل.

بعد بضع ثوانٍ، ظهر حصانٌ يتهادى فوق قمَّة كثيبٍ رمليّ، وفوقه ياماموتو. نظرتُ سريعًا في المكان وسبَّابتي ما تزال على الزناد، فلم يظهر أحد آخر، لا المغوليُّ الذي ذهب معه ولا أيُّ قوَّات من العدوّ. القمر كبيرٌ معلَّق في السماء الشرقيَّة مثل صخرةٍ مشؤومة. بدا أنَّ ذراع ياماموتو اليسرى مُصابة؛ فالمنديل الملفوف عليها كان ملطَّخًا بالدم. أيقظتُ العريف هوندا كي يهتمّ بالحصان، فقد كان يرغي مهتاجًا ويتنفَّس بصعوبة. لا بدَّ من أنَّه جرى مسافةً طويلة بسرعة عالية. أخذ همانو نوبةَ الحراسة بدلًا منِّي، وأحضرتُ عدَّة الإسعافات الأوَّليَّة كي أعالج جرحَ ياماموتو.

قال ياماموتو: «الرصاصة عبرتْ من جسدي، وتوقَّف النزيف». كان محقًّا، فالرصاصة اخترقت اللحمَ ولم تُصِبَ

العظمَ. أزلتُ المنديل وطهَّرتُ الجرحَ بالكحول، ثم لففتُ عليه رباطًا جديدًا. لم يرفّ له جفن وأنا أفعل ذلك كلَّه، لكنَّ شفته العليا اكتست طبقةً رقيقةً من العرق. شرب جرعةً طويلةً من مطارته، وأشعل سيجارة، وأخذ نَفَسًا منها بمتعة واضحة. ثم أخرج بندقيَّته البراوننغ ووضعها تحت ذراعه، ثم نزع المشطَ وأدخل برشاقةٍ ثلاثَ طلقات بيدٍ واحدة. قال: «علينا أن نغادر هذا المكان فورًا، ملازم ماميا. نعبر النهر ونتوجَّه إلى نقطة المراقبة لجيش مانشوكو».

فكَّكنا الخيامَ بسرعة، من دون كلام، وامتطينا الخيولَ ثم توجَّهنا إلى المعبر. لم أسأل ياماموتو أيَّ سؤال عن كيفيَّة إصابته أو هويَّة مَنْ أطلق عليه النارَ. لم أكن في موضعٍ يسمح لي بالسؤال، وإنْ سألتُ فلا أظنُّه كان سيُخبرني. في ذلكَ الوقت كان تفكيري منصبًّا على الخروج من أرض العدوّ بأسرع ما يمكن، وعبورِ نهر كالكا، والوصولِ إلى ضفَّة الأمان النسبيّ على الناحية الأخرى.

سرنا في صمت، ونحن نحثّ خيولَنا على عبور السهل المعشوشب. لم ينطق أحدُنا بكلمة، لكنَّنا جميعًا كنَّا نفكِّر في الشيء نفسه: هل سنستطيع عبورَ النهر؟ لو أنَّ دوريَّةً من منغوليا الخارجيَّة وصلتْ إلى الجسر قبلنا، فسوف ينتهي أمرُنا. لا يمكن بأيِّ حال من الأحوال أن ننتصر في المعركة. أذكر جيِّدًا العرقَ المتصبِّب تحت إبطي. لم يجفّ لحظةً واحدة.

قال لي ياماموتو بعد صمتٍ طويل: «قل لي يا ملازم ماميا، هل أُصبتَ برصاصةٍ من قبل؟»

«كلّا».

«هل أطلقتَ النارَ على أحد؟»

«كلّا».

لم أعرف أيّ انطباع تركتْه إجاباتيَ لديْه، ولا غرضه من ذيْنك السؤالَيْن.

قال وهو يضع يدَه على سرجه: «في هذا السرج مُسْتَنَدٌ لا بدَّ أن يصلَ إلى القيادة. وإنْ تعذَّر إيصالُه فلا بدَّ من إتلافه ـ حرقًا أو دفنًا، لا يهمّ، ولكن لا ينبغي أبدًا، تحت أيِّ ظرف من الظروف، أن يقع في أيدي العدوّ. **تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف**. هذه أولويَّتنا القصوى الآن. أريد أن أتأكَّد من أنَّك تفهم هذا. الأمر مهمّ جدًّا جدًّا».

«مفهوم».

نظر ياماموتو في عينيَّ مباشرةً. «إن وَقَعَ المحظور، فأوَّلُ ما ينبغي عليك فعلُه هو إطلاقُ النار عليَّ. من دون تردُّد. إنِ استطعتُ أن أفعل ذلك بنفسي، فسوف أفعل. ولكنْ مع إصابتي هذه، قد لا أستطيع. في تلك الحالة، ينبغي عليك أنتَ أن تُطلق النار عليَّ. طلقة قاتلة».

أومأتُ في صمت.

*

حين وصلنا إلى المعبر، قُبيل الغروب، تبيَّن أنَّ الخوف الذي كان يعتريني طوال الوقت له أساسٌ قويٌّ. فقد كانت هناك مفرزةٌ صغيرةٌ من قوَّات منغوليا الخارجيَّة. تسلَّقنا أنا وياماموتو واحدًا

من الكثبان العالية وتبادلنا النظرَ إلى القوّات من المنظار. كانوا ثمانيةَ رجال. عددٌ ليس كبيرًا، لكنَّ سلاحَهم كان ثقيلًا بالنسبة إلى دوريَّة حدوديَّة. كان أحدُهم يحمل رشَّاشًا خفيفًا، وهناك رشَّاش ثقيل منصوب على مرتفع. أحاطوا الرشَّاش بأكياس رمليَّة، ووجَّهوه نحو النهر. من الواضح أنَّهم اتَّخذوا مواقعَهم لِمَنْعِنا من العبور إلى الضفَّة الأخرى. فقد نصبوا خيامَهم عند النهر وربطوا خيولَهم العشر على مقربة. بدا كما لو أنَّهم يعتزمون البقاءَ هناك إلى أن يقبضوا علينا. سألت ياماموتو: «أليس هناك معبر آخر يمكننا استخدامُه؟»

رفع ياماموتو عينيْه عن المنظار ونظر إليَّ، ثم هزَّ رأسَه. «يوجد معبر آخر، لكنَّه بعيد جدًّا. على مسافة يوميْن بالخيل. لا نملك كلَّ هذا الوقت. كلُّ ما يمكننا فعلُه هو العبور من هنا، بأيِّ طريقة».

«تقصد أن نعبر في الليل؟»

«بالضبط. هذا هو الحلّ الوحيد. نترك الخيول هنا، ونُجْهِز على الحارس، بينما يكون البقيَّة نائمين. لا تقلق، فالنهر سيَحْجُب معظمَ الأصوات. سأتولَّى أنا أمر الحارس. وحتى ذلك الوقت ليس لدينا ما نفعله، لذلك من الأفضل أن ننام قليلًا ونرتاح ما دامت الفرصةُ سانحة».

قرَّرنا أن تبدأ عمليَّة العبور عند الثالثة صباحًا. أَنزل العريفُ هوندا جميعَ الأحمال من على ظهور الخيول، ثم ساقها إلى مكانٍ بعيدٍ وأطلقها. حفرنا حفرةً عميقةً ودفنَّا فيها الزائدَ من ذخيرتنا

وطعامنا. فكلُّ ما سيحمله الواحدُ منَّا مطارة، وزوَّادةُ يوم، ومسدَّس، وبضعُ رصاصات. لو وقعنا في يد الدوريَّة المنغوليَّة فلن نتمكَّن أبدًا من الانتصار عليهم مهما حملنا من ذخيرة. والآن لم يبقَ لنا إلَّا أن نأخذ ما يتيسَّر لنا من نوم؛ فإنْ نجحنا في العبور فلن نحظى بفرصة النوم إلَّا بعد وقت طويل. العريف هوندا سيتولَّى الحراسة أوَّلًا، ثم يأخذ مكانَه الرقيب همانو.

تمطَّى یاماموتو في الخيمة، وغطَّ في النوم مباشرةً. بدا أنَّه لم ينم طوال غيابه. رأيتُ عند وسادته حقيبةً جلديَّةً وضع فيها المستندَ المهمّ. وسرعان ما نام همانو بعده أيضًا. كنَّا جميعًا مرهقين، لكنَّ التوتُّر منعني من النوم. استلقيتُ طويلًا، أشتهي النومَ لولا ما خُيِّل إليَّ من مشهد قتلنا للحارس ثم تعرُّضِنا لوابل الرشَّاش ونحن نَعْبر النهر. كانت راحتاي تتصبَّبان عرقًا، وجبيني ينبض. لم أكن واثقًا بأنَّني سأتصرَّف بما يليق بضابط حين يستدعي الأمر. زحفتُ إلى خارج الخيمة كي أجالسَ العريف هوندا في نوبة الحراسة.

«أتعلم يا هوندا، قد نموت هنا».

«يصعب التكهُّن».

لم ينطق أحدُنا بكلمة بعض الوقت، لكنَّ شيئًا في جوابه كدَّرني. نبرتُه تحمل شيئًا من الشكّ. لم أكن صاحبَ حدسٍ قويّ، لكنَّني كنتُ أعرف أنَّ جوابه الغامض يعمد إلى إخفاء شيء ما. قرَّرت أن أستجوبه. «إن كان هناك شيء تودّ أن تقوله لي، فلا تتردَّد. قد تكون هذه آخرَ مرَّة نتحدَّث فيها. تكلَّمْ».

خبط هوندا الرملَ تحت قدميْه، وهو يعضّ شَفته السفلى. كان من الواضح أنَّه يُصارع مشاعرَ متضاربة. ثم قال بعد برهة وهو ينظر في عينيّ: «ملازم. من بيننا نحن الأربعة، ستكون أنتَ أطولَنا عُمرًا. ستعيش أطولَ ممَّا تتخيَّل. وسوف تموت في اليابان».

جاء دوري الآن كي أنظر إليه. فتابع: «قد تستغرب كيف أعرف ذلك. لكنَّه شيء لا أستطيع أنا نفسي أن أُفسِّره. إنَّني أعرف وحسب».

«هل أنت روحانيّ أو شيء كهذا؟»

«ربَّما، رغم أنَّ هذه الكلمة لا تَصِفُ ما أشعرُ به بالضبط. شعور عظيم. وكما قلت، أنا أعرف وحسب».

«هل يحدث لكَ هذا دائمًا؟»

«دائمًا. رغم أنِّي أخفيتُه منذ أن كبُرت وأدركتُ ما يحدث. لكنَّها مسألةُ حياة وموت أيُّها الملازم، وأنت الذي تسألني عنه، لذلك أقول لك الحقيقة».

«وماذا عن بقيَّة الناس؟ هل تعرف ما سيحدث لهم؟»

هزَّ رأسه. «أعرف بعضَ الأشياء. ولا أعرف بعضَها الآخر. ولكنْ ربَّما من الأفضل لك ألَّا تعرف، أيُّها الملازم. قد يبدو من الغطرسة أن يتحدَّث مَنْ هو مثلي عن أشياءَ كهذه لخرِّيجٍ جامعيٍّ مثلك، لكنَّ القَدَرَ شيء تَنْظر إليه بعد أن يمضي، وليس شيئًا تراه مسبَّقًا. لديَّ قدرٌ من الخبرة في ما يتعلَّق بهذه الأمور. أمَّا أنت فلا».

«ولكنْ على أيِّ حال، تقول إنَّني لن أموتَ هنا؟»

اغترف من الرمل وتركه ينساب من بين أصابعه. «هذا ما أستطيع قولَه، أيُّها الملازم. لن تموت في هذه القارَّة».

كنتُ أودُّ الاستفاضة في الحديث في هذا الموضوع، لكنَّه رفض أن يقول المزيد. بدا أنَّه غارقٌ في أفكاره أو تأمُّلاته. كان يحمل بندقيَّته، ويحدِّق في السهوب الشاسعة. لا شيء ممَّا قلتُه وصل إليه. عدتُ إلى خيمتي تحت الكثيب، واستلقيتُ إلى جانب الرقيب همانو، وأغمضتُ عينيّ. هذه المرَّة النوم هو الذي داهمني. نومٌ عميقٌ شدَّني من كاحليَّ إلى أعماق البحر.

13

قصَّة الملازم ماميا الطويلة:
الجزء الثاني

ما أيقظني من نومي كان قرقعةَ صِمام الأمان في بندقيَّة. لا يمكن لأيِّ جنديٍّ في المعركة أن يفوتَه هذا الصوت، وإنْ كان غارقًا في نوم عميق. إنَّه.. كيف أشرحُ ذلك؟ صوتٌ خاصّ، باردٌ وثقيلٌ كالموت نفسه. بفعل الغريزة تقريبًا، التقطتُ بندقيَّتي البراوننغ قرب مخدَّتي. وعندها، ضرب حذاءٌ جبهتي، ففقدتُ البصرَ لحظةً. وبعد أن استعدتُ أنفاسي، فتحتُ عينيّ بما يكفي لأرى الرجل الذي ركلني بالتأكيد. كان راكعًا يلتقط بندقيَّتي. رفعتُ رأسي ببطء، فوجدتُ فوهتَيْ بندقيَّتَيْن في وجهي. وخلف البندقيَّتَيْن جنديَّان منغوليَّان.

كنتُ متأكّدًا من أنّني نمتُ في خيمة. لكنَّ الخيمة اختفت، ولا يوجد فوقي سوى السماء المرصّعة بالنجوم. كان هناك جنديٌّ منغوليٌّ آخر يوجِّه رشّاشه الخفيف إلى رأس ياماموتو الذي كان مستلقيًا إلى جانبي. كان ساكنًا تمامًا، كما لو أنّه يحتفظ بطاقته لأنَّه يعلم أنْ لا طائلَ من المقاومة. جميعُ المنغوليّين كانوا يرتدون معاطفَ طويلة وخوذات. اثنان منهم يصوِّبان كشّافيْن كبيرَيْن عليَّ وعلى ياماموتو. للوهلة الأولى لم أستوعب ما يحدث؛ فقد كنتُ أغطُّ في نومٍ عميق والصدمةُ كانت هائلة. لكنَّ منظر الجنود المنغوليّين ووجهَ ياماموتو لم يتركا مجالًا للشكّ: لقد اكتُشفتْ خيامُنا قبل أن تَسنحَ لنا فرصةُ عبور النهر.

ثم تذكَّرت أن أتساءل عمّا حدث لهوندا وهمانو. أدرتُ رأسي ببطء، محاولًا أن أنظر حولي، لكنّي لم أجدهما. فإمّا أنّهما قُتلا، وإمّا أنّهما تمكّنا من الفرار.

أمّا هؤلاء فلا بدَّ من أنّهم رجالُ الدوريّة التي رأيناها سابقًا عند المعبر. كان عددهم قليلًا، وكانوا مجهَّزيْن برشّاش خفيف وبنادق. أمّا المسؤول فيهم فكان ضابطَ صفٍّ متينَ القوام، وهو الوحيد الذي يرتدي حذاءً عسكريًا. كان هو الذي ركلني. انحنى والتقط الحقيبةَ الجلديَّة التي كان يحتفظ بها ياماموتو عند رأسه. فتحها، ونظر داخلها، ثم قلبها وأخذ يهزّها. كلُّ ما سقط منها كان علبةَ سجائر. لم أكد أُصدّق. فقد رأيتُ بأمِّ عيني ياماموتو يضع المستنَد في الحقيبة. كان قد أخذها من السرج، ووضعها في الحقيبة، ثم وضع الحقيبةَ عند وسادته. بذل ياماموتو جهدًا كي يبقى هادئًا، لكنّني كنتُ أرى تعابيرَه تتغيَّر من لحظةٍ لأخرى.

من الواضح أنَّه لم يكن يعرف ما حدث للمستنَد. ولكنْ أيًّا يكن الأمر، فلا بدَّ من أنَّ اختفاءه بعث الارتياحَ في نفسه. فكما قال لي سابقًا، كانت أولويَّتنا القصوى هي ألَّا يقع هذا المستنَد أبدًا في أيدي العدوّ.

ألقى الجنودُ بأغراضنا على الأرض وفتَّشوها تفتيشًا دقيقًا، لكنَّهم لم يعثروا على شيء مهمّ. ثم جرَّدونا من ملابسنا وفتَّشوا جيوبَنا. شقُّوا ملابسَنا وصرَّاتنا، لكنَّهم لم يجدوا أيّ أوراق. أخذوا سجائرنا وأقلامنا ومحافظنا ودفاترنا وساعاتنا، واختلسوها لأنفسهم. ثم بدأوا يجرِّبون أحذيتنا، وكلَّما وجدوا حذاءً على مقاسهم أخذوه. احتدَّ الجدالُ بينهم حول توزيع الأغراض، لكنَّ ضابطَ الصفّ تجاهلهم. أعتقد أنَّه كان طبيعيًّا بين المنغوليِّين أن يأخذوا الغنائم من الأسرى والقتلى. أمَّا ضابط الصفّ فلم يأخذ سوى ساعة ياماموتو، وترك بقيَّة الأشياء لرجاله يتشاجرون حولها. وأمَّا بقيَّة أغراضنا، من مسدَّسات وذخيرة وخرائط وبوصلات ومناظير، فقد وُضعتْ في كيسٍ قماشيٍّ، كي تُرسل إلى قيادة أولان باتور بكلِّ تأكيد.

بعد ذلك قيَّدونا ونحن عاريان بحبلٍ رفيعٍ قويّ. حين اقترب الجنودُ المنغوليُّون منَّا وجدنا رائحتَهم تُشبه رائحةَ الإسطبل الذي لم يُنظَّف فترةً طويلةً، طويلة. أمَّا لباسهم فكان مهترئًا قذرًا، عليه ما عليه من ترابٍ وطينٍ وبقع طعام، إلى درجة أنَّه لم يعد من المَمكن معرفةُ لونه الأصليّ. أحذيتُهم مليئة بالثقوب، وتكاد فعليًّا تنخلع من أقدامهم. ليس غريبًا، إذن، أنَّهم أرادوا أحذيَتَنا. كانت سيماهم وحشيَّةً؛ بأسنان كريهة، وشعرٍ طويلٍ أشعث. كانوا أقرب

إلى قُطّاع الطرق منهم إلى الجنود، لكنَّ أسلحَتهم السوفييتيَّة وشاراتهم العسكريَّة هي التي تنبئ بأنَّهم جنود نظاميُّون في جيش جمهوريَّة منغوليا الشعبيَّة. بالنسبة إليَّ طبعًا كان انضباطُهم وروحُهم العسكريَّة متدنِّيَيْن. المنغوليُّون جنودٌ أشدّاء، ولهم قدرة طويلة على الاحتمال، لكنَّهم ليسوا من النوع المناسب للحروب الحديثة.

كان البرد قارسًا في الليل. كنتُ أرى السحبَ البيضاء وهي تخرج معَ أنفاس الجنود المنغوليِّين ثم تختفي في الظلام، فأشعر كما لو أنَّني دخلتُ في أجواء كابوسٍ شخصٍ آخر عن طريق الخطأ. لم أستوعب أنَّ ذلك كان يحدث فعلًا. كان كابوسًا بكلِّ تأكيد، لكنَّني لم أُدرك إلَّا فيما بعد أنَّها كانت بداية كابوسٍ هائل.

بُعيْد قليل، ظهر أحدُ الجنود المنغوليِّين من الظلام يجرُّ شيئًا ثقيلًا. ألقى به على الأرض إلى جانبنا وهو يبتسم. كانت جثَّة همانو. القدمان حافيتان، فلا بدَّ من أنَّ أحدهم أخذ حذاءه. بدأوا يجرِّدونه من ملابسه، ويفحصون كلَّ ما يجدونه في جيوبه. امتدَّت الأيدي إلى ساعته، ومحفظته، وسجائره. وزَّعوا السجائر فيما بينهم ودخَّنوها بينما هم يتفحَّصون المحفظة. وجدوا بضع عملات ورقيَّة مانشوكيَّة، وصورةَ امرأةٍ ربَّما كانت والدةَ همانو. قال الضابط المسؤول شيئًا ثم أخذ المال. أمَّا الصورة فأُلقيت على الأرض.

يبدو أنَّ جنديًّا منغوليًّا تسلَّل خلف همانو وجزَّ عنقَه حيث كان في نوبة الحراسة. لقد فعلوا بنا ما كنَّا نخطِّط لأنْ نفعله بهم. كان الدم الأحمر الفاتح يتدفَّق من جرح الجثَّة المتَّسع، لكنَّه قليل

بالقياس إلى حجم الجرح. لا بدَّ من أنَّ معظم الدم كان قد أُريق. أخرج أحدُ الجنود سكِّينًا من غمدٍ على حزامه، يصل طولُ نصلها المقوَّس إلى نحو خمسة عشر سنتيمترًا. لوَّح بها في وجهي. لم أرَ في حياتي سكِّينًا بهذا الشكل. يبدو أنَّها صُنعتْ لغرضٍ محدَّد. قام الجنديّ بحركة جزّ العنق بالسكِّين وأطلق صفيرًا من بين أسنانه. ضحك بعضُهم. بدا أنَّ السكِّين من أغراضه الشخصيَّة، لا من سلاح الحكومة. كلٌّ واحد منهم كان يحمل رمحًا طويلًا على خصره، ما عدا هذا الذي يحمل سكِّينًا مقوَّسة، ويبدو أنَّه استخدمها لقتل همانو. وبعد أن لوَّح بها بضع مرَّات، أعادها إلى غمدها.

ألقى ياماموتو نظرةً نحوي، دون أيّ كلمة. لم تدم أكثر من لحظة، لكنَّني عرفتُ فورًا ما كان يريد قوله: هل تعتقد أنَّ العريف هوندا تمكَّن من الهرب؟ فطوال ذلك الارتباك والفزع، كنتُ أُفكِّر في الشيء نفسه: أين العريف هوندا؟ إنْ نجا من هذه الهجمة المباغتة، فقد تكون لدينا فرصة، ربَّما فرصةٌ ضئيلة، إذ ما الذي قد يستطيع أن يفعله هوندا بمفرده؟ لكنّ الفرصة، وإن كانت ضئيلةً، أفضلُ من انعدامها.

بقينا مقيَّدين طوال الليل، مستلقين على الرمال. وظلَّ معنا جنديَّان يحرساننا: أحدُهما يحمل الرشَّاش الخفيف، والآخر يحمل بندقيَّة. أمَّا الباقون فقد جلسوا على مبعدة، يدخِّنون ويتحدَّثون ويضحكون، وقد استرخوا الآن كما يبدو بعد القبض علينا. لم ننبسْ أنا وياماموتو ببنت شفة، بينما درجةُ الحرارة عند الفجر وصلتْ إلى حدّ التجمُّد في ذلك المكان، مع أنَّنا في أيَّار

/ مايو. خطر لي أنَّنا سوف نتجمَّد حتى الموت ونحن عاريان. لكنَّ البرد نفسه لم يكن شيئًا ذا بال إذا ما قارنَّاه بالفزع الذي شعرتُ به. لم تكن لديَّ أدنى فكرة عمَّا سيفعلونه بنا. كان أولئك الرجال مجرَّد أفرادِ دوريَّة، وربَّما لم يكونوا مخوَّلين تقريرَ مصيرنا. لذلك كان عليهم أن ينتظروا الأوامر، ما يعني أنَّنا قد لا نُقتل الآن. أمَّا لاحقًا، فلا سبيل إلى معرفة ما سوف يحدث. كان ياماموتو على الأرجح جاسوسًا؛ ولمَّا كانوا قد قبضوا عليَّ معه، فمن الطبيعي أن يعتبروني شريكًا له. على أيِّ حال، لن نجتاز هذا الأمرُ بسهولة.

بُعَيْد الفجر جاءنا صوتٌ من السماء البعيدة يبدو مثل أزيزِ طائرة. ثم لاح لي جسدُ الطائرة الفضِّيَّة. كانت طائرةَ استطلاع سوفييتيَّة الصنع، تحمل شعارَ منغوليا الخارجيَّة. حامت حولنا الطائرةُ عدَّة مرَّات، ولوَّح لها الجنودُ جميعهم، فخفضتْ جناحَها عائدة، ثم هبطتْ في مكان مفتوح بالقرب منَّا وارتفعتْ سُحبُ الرمال. كانت الأرض صلبة هنا، ولا توجد أيّ عوائق، ما يجعل إقلاعَ الطائرات وهبوطَها أمرًا سهلًا نسبيًّا. خطر لي أنَّهم ربَّما استخدموا هذا المكان نفسه لهذا الغرض مرَّات عديدة من قبل. امتطى أحدُ الجنود حصانَه وتوجَّه ناحية الطائرة يجرّ وراءه حصانَيْن مسرَّجَيْن.

وحين عادوا كان على ظهر الحصانَيْن رجلان يبدوان من الضبَّاط الرفيعين. كان أحدُهما روسيًّا، والآخرُ منغوليًّا. استنتجتُ بأنَّ الدوريَّة أبلغت قيادَتَها عبر جهاز اللاسلكي، فحضر الضابطان من أولان باتور للتحقيق معنا. لا شكَّ في أنَّهما ضابطا

مخابرات. كنتُ قد سمعتُ أنَّ جهاز الإدارة السياسيَّة السوفيتيَّة (GPU) كان يعمل من خلف الأضواء في عمليَّات الاعتقال التي وقعتْ في العام الماضي لقمع النشطاء المعارضين. كان الضابطان حَليقَيْن ويرتديان زيًّا ناصعًا. أمَّا الروسيّ فكان يرتدي معطفًا واقيًا من المطر، وحزامًا. حذاؤه يلمع ببريقٍ ناصع. كان رجلًا رفيعَ القوام لكنَّه ليس طويلًا جدًّا قياسًا بالروس عادةً، ولعلَّه في أوائل الثلاثينيَّات من عمره. عريض الجبهة، دقيق الأنف، بشرتُه تميل إلى اللون الورديّ الشاحب، وكان يرتدي نظَّارةً سِلكيَّةَ الإطار. ولكنْ، في المجمل، لم يكن وجهه من النوع الذي يترك أيَّ انطباعٍ لديك. وإلى جانبه بدا الضابطُ المنغوليُّ القصيرُ، بقوامه المتين وبشرته الداكنة، مثل دبٍّ صغير.

انتحى الرجلان بضابط الصفّ، وأخذوا يتحدَّثون بعض الوقت. خمَّنتُ بأنَّهما يريدان تقريرًا مفصَّلًا عمَّا حدث. أحضر ضابطُ الصفّ الكيسَ الذي يحتوي أغراضَنا المُصادرة، وأطْلع الرجلَيْن عليها. فأخذ الروسي يتفحَّص كلّ شيء بعنايةٍ شديدة، ثم أعادها إلى الكيس. قال شيئًا للمنغوليّ الذي تحدَّث بدوره إلى ضابط الصفّ، ثم أخرج الروسيُّ حافظةَ سجائر من جيب صدره وفتحها للرجلَيْن. ظلُّوا يتحدَّثون ويدخِّنون. وبينما كان الروسيُّ يتحدَّث رأيتُه عدَّة مرَّات يضرب راحتَه اليسرى بقبضته اليمنى. بدا مستاءً إلى حدٍّ ما. أمَّا الضابط المنغوليّ فقد شبك ذراعيْه وهو عَابسُ الوجه، في حين كان ضابطُ الصفّ يهزّ رأسَه بين الفينة والأخرى.

وفي الأخير، خبَّ الضابطُ الروسيُّ إلى المكان الذي كنَّا

فيه. «تريدان سيجارة؟» ذكرتُ سابقًا أنَّني درستُ اللغةَ الروسيَّة في الكلِّيَّة وكان يمكنني أن أتحدَّث بها جيِّدًا، لكنَّني تظاهرتُ بأنِّي لم أفهم ما يقول، تجنُّبًا لأيّ تعقيدات. فقال ياماموتو بالروسيَّة: «لا، شكرًا». كان يُجيدها.

قال ضابطُ الجيش السوفييتيّ: «ممتاز. إنْ كان بإمكاننا التحدُّث بالروسيَّة فسوف ننتهي بسرعة». نزع قفَّازيْه ووضعهما في جيب معطفه، فبدا خاتمٌ ذهبيٌّ صغير في يده اليسرى. «تَعْلم بلا شكّ أنَّنا نبحث عن شيء معيَّن. نفتِّش عنه في كلِّ مكان. ونعلم أنَّه بحوزتك. لا تسألني كيف نعرف، لكنَّنا نعرف. غير أنَّه غير موجود معك الآن، والمنطق يقول إنَّك خبَّأته بالتأكيد قبل القبض عليكم. لم تنقله إلى هناك». وأشار بيده نحو نهر كالكا. «لم يَعْبر أيٌّ منكم النهرَ. والرسالة لا بدَّ من أنَّها موجودةٌ في هذا الجانب، مُخبَّأة في مكانٍ ما. هل فهمتَ ما قلتُه حتى الآن؟»

أومأ ياماموتو: «نعم، ولكن لا علم لنا بأيِّ رسالة».

قال الروسيّ بلا أدنى تعبير في وجهه: «حسنًا. في هذه الحالة لديَّ سؤال صغير لك. ما الذي كان يفعله رجالُكَ هنا؟ أنت تعرف أنَّ هذه الأرض تابعةٌ لجمهوريَّة منغوليا الشعبيَّة. ما الغرض من دخولكم أرضًا ليست أرضَكم؟ أُريد أن أسمع جوابك».

قال ياماموتو: «نصنع الخرائط. أنا موظَّف في شركة خرائط، وهذا الرجل والآخر الذي قتلوه كانا معي لحمايتي. كنَّا نعرف أنَّ هذا الجانب من النهر تابعٌ لكم، ونعتذر عن عبورنا الحدودَ، لكنَّنا

لا نعتبر أنفسَنا قد قمنا بانتهاكِ حدوديٍّ. كلُّ ما في الأمر أنّنا أردنا رؤيةَ تضاريس المكان من على الهضبة المرتفعة في هذا الجانب».

لوى الضابطُ الروسيُّ شفتيْه في ابتسامة، في غير رضا. ثم قال ببطء: «نعتذر؟ نعم، بالتأكيد. أردتم رؤيةَ التضاريس من الهضبة. نعم أكيد. الرؤية أفضل دائمًا من الأعلى. هذا منطقيّ جدًّا».

صمت الروسيُّ برهةً، وأخذ يحدِّق في السحب. ثم أعاد نظرتَه إلى ياماموتو، وهزّ رأسَه ببطء، وتنهَّد. «ليتني أستطيع أن أصدِّقَ ما تقوله! لكان الأمرُ أسهلَ بكثيرٍ لنا جميعًا! ليت بإمكاني أن أربِّتَ على كتفك وأقول «نعم نعم فهمت. هيَّا عُد الآن إلى بيتك وكن أكثرَ حذرًا في المرَّة القادمة». حقًّا كنتُ أتمنَّى لو أمكنني أن أفعل ذلك. ولكنْ للأسف، لا أستطيع. فأنا أعرفَ من تكون. وأعرف ما تقوم به هنا. لدينا أصدقاء في هايلار، مثلما لديك أصدقاء في أولان باتور».

أخرج قفَّازيْه من جيْبه، وطواهما مرَّةً أخرى ثم أعادهما. «بصراحة، ليس لديّ أيُّ دافع شخصيٍّ لإيذائك أو قتلك. إنْ أعطيتني الرسالة، فلن يكون لي أيُّ شأنٍ بك. سأُطلق سراحَكَ من هذا المكان على مسؤوليَّتي. ويمكنك عبورُ النهر والعودةُ إلى بلادك. أعدك بذلك، بشرفي. وأيّ شيء آخر حدث فسوف نعتبره شأنًا داخليًّا ولا علاقة لك به».

أخيرًا بدأ ضوءُ الشمس الآتي من الشرق يدفِّئني. لا نسمات

في الهواء، وبضعُ سحبٍ بيضاء تطفو في السماء.

تبع ذلك صمتٌ طويل، طويل. لم ينطق أحد بكلمة. لا الضابطُ الروسيُّ، ولا الضابطُ المنغوليّ، ولا رجالُ الدوريَّة، ولا ياماموتو. احتفظ الجميعُ بصمته. بدا ياماموتو مستسلمًا للموت منذ لحظة القبض علينا، ولم يظهر على وجهه أيُّ تعبير على الإطلاق.

قال الروسيُّ ببطء، وهو يقطِّع عباراتِه كأنَّه يتحدَّث إلى أطفال: «يبدو مؤكَّدًا.. أنَّكما.. سوف.. تموتان هنا. وسوف تكون ميتةً فظيعة. هؤلاء...». وهنا نظر الروسيُّ ناحية الجنود المنغوليِّين. نظر إليَّ أضخمُهم حجمًا، ذلك الذي يحمل الرشَّاش، بابتسامةٍ تكشف عن أسنانه الناتئة. «هؤلاء يحبُّون قتلَ الناس بطرقٍ ذات صعوبة كبيرة وخيال واسع. إنَّهم يهوون ذلك. فمنذ أيَّام جنكيز خان، دأب المغولُ على الاستمتاع باختراع طرق قاسية لقتل الناس. ونحن الروس نعرف ذلك جيِّدًا عن تجربة. يدرِّسوننا ذلك في حصص التاريخ. ندرس ما فعله المغولُ حين غزوا روسيا. قتلوا الملايين، بلا أيّ سبب. أسروا مئات الأرستقراطيِّين الروس وقتلوهم جميعًا. هل تعرف هذه القصَّة؟ قطعوا ألواحًا كبيرة سميكة، ووضعوا الروسَ تحتها، ثم أقاموا مأدبةً فوق الألواح، فسحقوهم حتى الموت. البشر العاديُّون لا يمكن أن يفكِّروا في القيام بذلك، ألا توافقني الرأي؟ تطلَّب الأمرُ وقتًا وقدرًا هائلًا من التجهيز. مَن غيرهم يتجشَّم كلَّ ذلك العناء؟ لكنَّهم فعلوها. ولماذا؟ لأنَّ الأمر كان مثارَ متعةٍ لهم. وما يزالون يستمتعون بهذه الأشياء. لقد رأيتُهم بنفسي ذاتَ مرَّة. كنتُ

أعتقد أنَّني رأيتُ أشياء فظيعةً في حياتي، لكنَّني في تلك الليلة فقدتُ شهيَّتي للطعام. هل تفهم ما أقوله؟ أم إنَّني أتحدَّث بسرعة؟»

هزَّ ياماموتو رأسه.

«ممتاز». توقَّف الروسيّ قليلًا وازدرد ريقه. «بالطبع ستكون هذه هي المرَّة الثانية بالنسبة إليّ. وربَّما ستعود إليَّ شهيَّتي في موعد العشاء. لكنَّني أفضِّل تجنُّب أيّ قتل غير ضروريّ إنْ أمكن».

شبك يديْه وراء ظهره، ونظر عاليًا إلى السماء برهةً. ثم أخرج قفَّازيْه ونظر ناحية الطائرة. «جوٌّ بديع. الربيع. ما يزال باردًا قليلًا، لكنَّه مناسب. إنْ زادت الحرارة عن ذلك جاء البعوض. بعوضٌ رهيب. نعم، الربيع أفضل بكثير من الصيف». أخرج حافظةَ السجائر مرَّةً أخرى، ووضع واحدةً بين شفتيْه ثم أشعلها بعود ثقاب. وأخذ يعبّ رئتيْه بالدخان ببطء، ثم يزفره مرَّةً أخرى. «سأسألك من جديد. أما زلتَ مُصرًّا على كلامك؟ ألا تعرف شيئًا عن الرسالة؟»

لم يقل ياماموتو سوى كلمة واحدة: «نْيِت».

فقال الروسيّ: «حسنًا. حسنًا»، ثم قال شيئًا بالمنغوليَّة للضابط المنغوليّ. أومأ الرجلُ وصاح بأمرٍ للجنود. حملوا أخشابًا غيرَ مستوية وبدأوا في شحذها برماحهم، وسرعان ما حوَّلوها إلى أربعة أوتاد». باعدوا بينها ثم دقُّوها في الأرض بصخور فصنعوا مربَّعًا. استغرق إعدادُ ذلك عشرين دقيقةً تقريبًا،

لكنّني لم أعرف لأيِّ غرضٍ نصبوها.

قال الروسيُّ: «الذبحُ المتقن بالنسبة إليهم مثلُ الوجبة الكاملة. فكلَّما طال إعدادُها، زادَ استمتاعُهم. القتل وحده ليس مشكلة: طلقة من مسدَّس وانتهى الأمر. لكنَّ هذا لن يكون ـ»، ومرَّر رؤوسَ أصابعه ببطء على ذقنه الناعمة ثم أكمل: «لن يكون ممتعًا جدًّا».

فكُّوا وثاقَ ياماموتو واقتادوه إلى المربَّع، فربطوا ذراعيْه وساقيْه بالأوتاد الأربعة. كان مطروحًا على الأرض عاريًا تمامًا، وعلى جسمه جروحٌ لم تبرأ بعد.

قال الضابطُ الروسيُّ: «كما تعلم، هؤلاء رعاة. وللرعاة في خِرافهم مآربُ شتَّى: فهم يأكلون لحمَها، ويجزُّون صوفَها، ويسلخون جلدَها. الخروف بالنسبة إليهم هو الحيوانُ الكامل. يقضون أيَّامهم مع الخِراف، بل يقضون حيواتهم كلَّها معها. ويعرفون جيِّدًا كيف يسلخونها بمهارةٍ مدهشة. يستخدمون الجلدَ للخيام وصنعِ الملابس. هل رأيتهم من قبل يسلخون خروفًا؟»

فقال ياماموتو: «اقتلني، ولننتهِ من هذا».

فرك الروسيُّ راحتيْه ببطء، وهو يومئ لياماموتو. «لا تقلق. بالتأكيد سنقتلك. لا داعي للقلق بهذا الخصوص. ولسنا في عجلةٍ من أمرنا. فنحن هنا في هذا الفضاء الشاسع، ولا شيء تراه على مدِّ بصرك. لا شيء سوى الوقت، الكثيرِ من الوقت. ولديَّ الكثيرُ ممَّا أودّ أن أقولَه لك. إليكَ طريقةَ السلخ. لكلِّ مجموعةٍ شخصٌ مختصّ، محترف، يعرف كلَّ ما يتعلَّق بسلخ الجلد.

شخصٌ فائقُ المهارة. طريقة سلخِه عملٌ فنِّيّ. يقوم بذلك في غمضة عين، بسرعةٍ وإتقانٍ شديدَيْن إلى لدرجة أنَّ المخلوق الذي يُسلخ حيًّا لا يلاحِظُ ما يحدث». وأخرج حافظةَ السجائر من جيب صدره مرَّةً أخرى، ونقلها إلى يده اليسرى ثم أخذ ينقر عليها بأصابع يده اليمنى. «ولكنْ بالطبع، عدمُ ملاحظة شيء كهذا أمر مفروغ منه. فالمسلوخ حيًّا يواجه ألمًا فظيعًا. ألمًا لا يمكن تخيُّله. ويتطلَّب الأمر وقتًا طويلًا كي يَحْضر الموتُ. النزيفُ الهائل هو الذي يأتي بالموت أخيرًا. لكنَّ هذا يستغرق وقتًا».

فرقع أصابعَه، فتقدَّم الضابطُ المنغوليُّ. أخرج من جيب معطفه سكِّينًا مغمَّدة. شكلُها يُشبه السكِّينَ التي استخدمها ذلك الجنديُّ الذي لوَّح لي بها. سحب السكِّينَ من غمدها ورفعها عاليًا، فالتمع نصلُها تحت الشمس بضوءٍ أبيض شاحب.

قال الضابطُ الروسيُّ: «هذا الرجل واحد من أولئك المحترفين الذين حدَّثتُكَ عنهم. أريدك أن تنظر إلى سكِّينه. انظرْ مليًّا. سكِّين خاصَّة جدًّا، مصمَّمةٌ للسلخ، ومتقنةُ الصنع. النصلُ رفيعٌ وحادٌّ مثل الموسى. والمهارة التي يعمل بها هؤلاء الناس لإنجاز المهمَّة مهارة فائقة. لا تنسَ أنَّهم يسلخون الحيوانات منذ آلاف السنين. لذلك يستطيعون أن يسلخوا جلدَ الإنسان كما يقشِّرُ المرءُ الخوخَ. بإتقان، دون أيّ خدش. هل أتكلَّم بسرعة؟»

لم يقل ياماموتو شيئًا.

«يعملون على جزء صغير كلَّ مرَّة. ولا بدَّ من أن يعملوا ببطء لكي ينزعوا الجلدَ على نحوٍ نظيف، من دون أيِّ خدوش.

إنْ شعرتَ أثناء ذلك بأنَّك تريد قولَ شيء، أخبرْني رجاءً. عندها لن يكون ثمَّة داعٍ لأن تموت. هذا الرجل فعل ذلك عدَّة مرَّات، ولم يفشلْ مرَّةً واحدةً في إجبار الشخص على الكلام. ضع هذا في اعتبارك. فكلَّما بكَّرنا في التوقُّف، كان ذلك أفضلَ لنا كِلَيْنا».

نظر الضابطُ المنغوليُّ الشبيهُ بالدبّ إلى ياماموتو وهو يبتسم، ممسكًا بسكِّينه. ما زلتُ حتى هذا اليوم أذكر ابتسامتَه. أراها في منامي. ولم أستطع أن أنساها قطّ. وما إنْ أطلق ابتسامته تلك حتى شرع في مهمَّته. ثبَّت رجالُه ياماموتو في الأرض بأيديهم ورُكبهم، بينما راح هو يسلخ جلدَ ياماموتو بعنايةٍ فائقة. كان الأمر فعلًا أشبه بتقشير خوخة. لم أتحمَّل مشاهدةَ ذلك، وأغمضتُ عينيّ، فضربني أحدُ الجنود بعقب بندقيَّته. ظلّ يضربني بها إلى أن فتحتُ عينيَّ. لكنَّ الأمر لم يعد يهمّ؛ فسواء فتحتُ عينيَّ أمْ أغلقتُهما كنتُ أسمع صوتَ ياماموتو. كان يتحمَّل الألم من دون أن تصدر عنه آهة. كان ذلك في البداية. لكنَّه ما لبث أن بدأ يصرخ. لم أسمع من قبلُ صراخًا كهذا. كانت صرخاتٍ من عالم غير عالمنا. بدأ الرجل في سلخ كتف ياماموتو، ثم أخذ ينزع جلدَ ذراعه اليمنى من الأعلى للأسفل، ببطءٍ، وبعناية، تكاد تصل إلى مستوى الحبّ. فعلًا كما قال الضابطُ الروسيُّ، كان شيئًا أشبهَ بالعمل الفنِّيّ. فلولا تلك الصرخات لا يمكن أن يتخيَّل المرءُ أن يكون الأمرُ مؤلمًا. لكنَّ الصرخات كانت تكشف ذلك الألمَ الرهيب.

لم يمضِ وقت طويل حتى نُزع جلدُ الذراع اليمنى كلّه في صحيفةٍ رقيقةٍ واحدة. قدَّمها السالخُ إلى الرجل الواقف إلى

جانبه، فنشرها على رؤوس أصابعه ثم مرَّرها إلى الآخرين كي ينظروا. في أثناء ذلك كان الدمُ يقطر من الجلد. بعدها، تحوَّل الضابطُ إلى ذراع ياماموتو اليسرى، وأعاد الكرَّة. ثم سلخ ساقيْه، وقطع عضوَه وخصيتيْه، وأذنيْه. ثم سلخ الرأسَ والوجهَ وكلَّ ما تبقَّى. فقد ياماموتو وعيْه، ثم استعاده، وفقده مرَّةً أخرى. كانت الصرخات تتوقَّف كلَّما غاب عن الوعي، ثم تستمرّ حين يعود. لكنَّ صوتَه كان يضعف شيئًا فشيئًا، حتى اختفى. طوال ذلك الوقت كان الضابطُ الروسيُّ يرسم أشكالًا لا معنى لها على الأرض بكعب حذائه. أمَّا الجنود فكانوا يتابعون عمليَّةَ السلخ في صمت. ظلَّت وجوهُهم خاليةً من أيِّ تعبير، لا قرف، ولا حماس، ولا صدمة. كانت وجوهُهم وهم ينظرون إلى جلد ياماموتو وهو يُسلخ قطعةً قطعةً مثلَ وجه المرء حين يتمشَّى ثم يقف لينظر في موقعِ بناء.

في أثناء ذلك اكتفيتُ بالتقيُّؤ. مرَّةً تلو الأخرى. حتى بعدَ أن لم يبقَ شيءٌ في جوفي كي أستفرغَه، كنتُ أواصل التقيُّؤ. في النهاية رفع الضابطُ المنغوليُّ الشبيهُ بالدبِّ جلدَ ياماموتو الذي نزعه بعناية. بل إنَّ الحلمتيْن نفسَهما كانتا سليمتيْن. لم أرَ في حياتي حتى هذا اليوم شيئًا بهذه الفظاعة. أخذ أحدُهم منه الجلدَ ونشره كي يجفّ، كما يجفِّفُ المرءُ ملاءةً. لم يبقَ من ياماموتو سوى جثَّة، كتلةٍ حمراء من اللحم نُزع عنها كلُّ أثر للجلد. أمَّا المَنظر الأكثر إيلامًا فكان منظرَ الوجه. مُقلتان بيضاوان كبيرتان، تحدِّقان من كتلة لحمٍ حمراء. الأسنان مكشوفة، والفم مفتوح على وسعه كأنَّه يصرخ. فوقه ثقبان صغيران هما كلُّ ما تبقَّى بعد

نزع الأنف. والأرض من تحته بحرٌ من الدم.

بصق الضابطُ الروسيُّ على الأرض ونظر إليَّ. ثم أخرج من جيْبه منديلًا ومسح فمه. قال وهو يُعيد المنديلَ إلى جيْبه: «يبدو أنَّ الرجل فعلًا لم يكن يعرف شيئًا». بدا صوتُه أخفضَ الآن ممَّا سبق. «لو كان يعلم شيئًا، لتكلَّم. خسارة. ولكنْ على أيِّ حال، فقد كان محترفًا، ومصيرُه أن يموت ميتةً بشعةً عاجلًا أو آجلًا. آه، لا مفرَّ من ذلك. وإن كان هو لا يعرف شيئًا، فلا يمكن أن تعرف أنت أيَّ شيء».

وضع سيجارةً بين شفتيْه وأشعل ثقابًا. «هذا يعني أنَّه لم تعد لنا حاجةٌ بك. ولا فائدةَ من تعذيبك لاستخراج المعلومات. ولا فائدةَ من الاحتفاظ بك أسيرًا. نريد التخلُّص من هذا الموضوع بسرِّيَّة تامَّة. فقد يتعقَّد الأمر لو وصل إلى أولان باتور. الحلّ الأفضل هو أن نطلق رصاصةً على رأسك الآن وهنا، ثم ندفنك أو نحرقك ونُلقي برمادك في النهر. ستكون هذه نهايةً بسيطةً للموضوع. أليس كذلك؟» ثبَّت عينيْه على عينيَّ. واصلتُ التظاهر بأنِّي لا أفهم كلامه. «يبدو أنَّك لا تفهم الروسيَّة. وإنَّها مضيعة للوقت أن أشرح لك الأمر. كأنَّني أتحدَّث إلى نفسي. لا بأس، اسمعني إذن. على أيِّ حال لديَّ خبرٌ سارٌّ لك. لقد قرَّرت ألَّا أقتلك. اعتبرْ هذا تعبيرًا بسيطًا عن ندمي على قتلي صديقك عبثًا رغمًا عنِّي. يكفي ما حدث من قتلٍ هذا اليوم. مرَّة واحدة في اليوم تكفي وزيادة. لذلك لن أقتلك، بل سأمنحك فرصةً للنجاة. وإنْ سارت الأمور على ما يرام، فمن يدري، ربَّما نخرج من هذا الوضع حيًّا. طبعًا الاحتمالُ ضعيف. بل ربَّما منعدم. لكنَّ

الفرصة تبقى فرصة. على الأقلّ هذا أفضل بكثير من سلخك حيًّا. أليس كذلك؟»

رفع يده واستدعى الضابطَ المنغوليّ. كان هذا يغسل سكّينه بعناية كبيرة من مطارته، ثم يسنّها على شاحذة. أمّا الجنود فقد نشروا جلدَ یاماموتو ووقفوا بجانبه يناقشون أمرًا. بدا أنّهم يتحدّثون عن الجوانب الأكمل في الطريقة التي اتّبعها السالخ. أعاد الضابطُ المنغوليُّ سكّينه إلى غمدها، ثم وضعها في جيب معطفه قبل أن يقترب منّا. نظر في وجهي لحظةً، ثم التفت إلى زميله. تحدّث الروسيُّ ببعض العبارات المنغوليّة القصيرة، وهزّ المنغوليُّ رأسه من دون أيّ تعبير على وجهه. ثم أحضر جنديٌّ حصانَيْن لهما.

قال لي الروسيّ: «سنعود الآن إلى أولان باتور. أكره أن أعود خالي الوفاض، ولكنْ لا مفرّ. نكسب شيئًا ونخسر شيئًا. أرجو أن تعود إليّ شهيّتي عند العشاء، لكنّي أشكُّ في ذلك».

وهكذا امتطيا حصانَيْهما وابتعدا. أقلعت الطائرة، وأصبحتْ مجرَّدَ بقعةٍ فضّيّةٍ في السماء الغربيّة، ثم اختفت تمامًا، فتركتني وحيدًا مع الجنود المنغوليّين وخيولهم.

وضعوني على حصان وقيّدوني بالسرج، ثم سرنا شمالًا منتظمين في صفّ. ظلَّ الجنديّ الذي أمامي يغنّي لحنًا رتيبًا بصَوتٍ يكاد لا يُسمع. ما عدا ذلك لم يكن هناك صوت سوى حوافر الخيل وهي تخبّ في الرمل. لم أعرف إلى أين سيأخذوني أو ماذا سيفعلون بي. كلُّ ما عرفته هو أنّني كنتُ بالنسبة إليهم

متاعًا زائدًا لا قيمةَ له. أخذتُ أكرِّر كلمات الضابطُ الروسيُّ في رأسي، مرَّةً بعد مرَّة. قال إنَّه لن يقتلني. لن يقتلني، لكنَّ فرصي في النجاة شبهُ معدومة. ما معنى ذلك؟ كان كلامُه غامضًا جدًّا. لعلَّهم سوف يستخدمونني في لعبة وحشيَّة. لا أظنّهم يُطلقون سراحي هكذا ببساطة؛ فقد كانوا يريدون الاستمتاع بأدواتهم وطرقهم الجهنَّميَّة.

لكنَّهم على الأقلّ لم يقتلوني. على الأقلّ لم يسلخوا جلدي حيًّا مثل ياماموتو. ربَّما لن أستطيع أن أنجو من القتل في النهاية، ولكنْ ليس بتلك الطريقة. ما زلت حيًّا، ما زلت أتنفَّس. وإنْ صدق الضابطُ الروسيُّ، فلن أُقتل فورًا. كلَّما طالت المدَّةُ بيني وبين الموت، ازدادت فرصتي للنجاة. قد تكون فرصةً ضئيلة، لكنِّي لا أملك سوى التشبُّث بها.

فجأةً عادت كلماتُ العريف هوندا إلى الحياة في عقلي مجدَّدًا. نبوءتُه الغريبة بأنَّني لن أموت في هذه القارَّة. حتى وأنا هناك مقيَّد بالسرج، وجلدُ ظهري العاري يحترق تحت شمس الصحراء، كنتُ أتلذَّذ بكلِّ حرفٍ قاله لي، مرَّةً تلو أخرى. سمحتُ لنفسي بالمكوث في تعابيره، في نَغَم كلامه، وصوتِ كلِّ حرفٍ ينطقه. وهكذا عزمتُ على تصديقه من كلِّ قلبي. لا، لن أستلقي هنا وأموتَ هكذا! سوف أخرج من هنا حيًّا! ستطأ قدماي أرضَ بلادي مرَّةً أخرى!

سرنا على الخيْل شمالًا مدَّة ساعتيْن أو أكثر، حتى توقَّفنا قرب تلَّةٍ تعبُّديَّة لاميَّة. تُعدُّ تلك العلاماتُ الحجريَّةُ التي تُسمَّى «أوبو» آلهةً حارسةً للمسافرين، وعلاماتٍ إرشاديَّةً مفيدةً في

الصحراء. ترجَّلوا وفكُّوا وثاقي، ثم اقتادني اثنان منهم مسافةً قصيرة. قلتُ لنفسي سيقتلونني هنا. كانت هنالك بئر محفورة، يُحيط بفوَّهتها إفريزٌ حجريٌّ طوله ثلاثُ أقدام. جعلوني أجثو إلى جانبه، ثم أمسكوا برقبتي من الخلف وأجبروني على النظر داخل البئر. لم أرَ شيئًا في تلك العتمة. وجد ضابطُ الصفِّ صخرةً بحجم قبضة اليد، فألقى بها في البئر. بعد برهة جاء صوت جافّ لصخرةٍ تضرب الرمل. من الواضح أنَّ البئر كانت جافَّة. لعلَّها كانت بئرًا في الصحراء سابقًا، ثم جفَّت منذ زمن بسبب انتقال المياه الجوفيَّة. وبقياس المدَّة التي استغرقها وصولُ الصخرة إلى القاع، أدركتُ أنَّ البئر عميقة.

نظر إليَّ ضابطُ الصفِّ بابتسامة عريضة. ثم استلَّ مسدَّسًا آليًا كبيرًا من جرابٍ جلديٍّ في حزامه. فكَّ صمَّامَ الأمان ووضع رصاصةً في مخزن المسدَّس بقرقعةٍ عالية. بعدها وضع فوهةَ المسدَّس على رأسي.

تركه فترةً طويلةً من دون أن يضغط الزناد. ثم أخفض المسدَّس ببطء، ورفع يدَه اليسرى، مشيرًا إلى البئر. نظرتُ إلى المسدَّس في يده وأنا ألعق شفتيَّ الجافَّتيْن. كان يحاول أن يقول لي: اخترْ لك مصيرًا من اثنيْن؛ إمَّا أن أُطلقَ النار عليك وينتهي الأمر، أو تقفزَ في البئر. ولأنَّ البئر عميقةٌ فقد أموت لو سقطتُ بطريقة خاطئة، أو أموت موتًا بطيئًا في قاع تلك الحفرة المظلمة. وأخيرًا أدركتُ ما كان يعنيه الضابطُ الروسيُّ. أشار ضابطُ الصفِّ المنغوليّ إلى الساعة التي أخذها من ياماموتو ورفع خمسة أصابع. كانت أمامي خمسُ ثوانٍ كي أتَّخذ قراري. وحين وصل

إلى ثلاثة، خطوت نحو إفريز البئر، وقفزتُ. لم يكن أمامي خيار آخر. كنتُ أتمنَّى أن أتشبَّث بالجدار ثم أنزل إلى القاع، لكنَّه لم يمنحني وقتًا لذلك. أفلتت يداي الجدارَ، فهويتُ.

بدا أنَّ الأمر استغرق وقتًا طويلًا حتى ارتطمتُ بالقاع. في الواقع لا يمكن أن يزيد عن بضع ثوان، لكنَّني أذكر أنَّني فكَّرتُ بأشياء كثيرة جدًّا في طريقي إلى القاع. فكَّرتُ في بلدتي البعيدة. فكَّرتُ في الفتاة التي ضاجعتُها مرَّةً واحدةً قبل أن يرسلوني إلى هنا. فكَّرتُ في والديَّ. وأذكر أنَّني شعرتُ بالامتنان لأنَّ لي أختًا أصغر، لا أخًا. فحتى لو قُتلتُ ستكون لوالديَّ ابنةٌ لن يأخذَها الجيش. فكَّرتُ في كعك الرزِّ الملفوف في ورق السنديان. ثم ارتطمتُ بالقاع وفقدتُ الوعيَ لحظةً. أحسستُ كما لو أنَّ الهواء الذي بداخلي قد انفجر من جسدي. لقد ارتطمتُ بقاع البئر مثل كيسٍ رمليٍّ.

أعتقد أنَّني فقدتُ الوعي من وقع الضربة، لحظة واحدة. وحين استعدتُ وعيي شعرتُ بشيء يُشبه الرذاذ. ظننتُه مطرًا أوَّل الأمر، لكنَّني كنتُ مُخطئًا. كان بولًا. كان الجنودُ المنغوليُّون جميعهم يتبوَّلون عليَّ وأنا في قاع البئر. نظرتُ إلى الأعلى فرأيتُ أطيافهم بعيدًا، يأخذون دورهم في التبوُّل. كان ثمَّة شيء غير واقعي في هذا المشهد، كما لو أنَّه هلوسة ناتجة عن مخدِّرٍ ما. لكنَّه كان حقيقيًّا. كنتُ بالفعل في قاع البئر، وكانوا يرشُّونني ببولٍ حقيقيٍّ. وفور أن انتهوا، أضاء أحدُهم مصباحًا يدويًّا باتِّجاهي. سمعتُهم يضحكون. ثم اختفوا من حافَّة البئر. بعد ذلك، حلَّ صمتٌ عميق.

قرَّرتُ أن أبقى مستلقيًا على بطني لبعض الوقت، خشية أن يعودوا. انقضت عشرون دقيقةً ثم ثلاثون (تخمينًا بالطبع فلم أكن أحمل ساعةً)، لكنَّهم لم يعودوا. بدا أنَّهم رحلوا وتركوني. وهكذا تُركتُ وحيدًا في قاع بئر في وسط الصحراء. وحين تأكَّدتُ أنَّهم لن يعودوا، قرَّرتُ أن أتفحَّص جسدي بحثًا عن أيِّ إصابات. لم يكن ذلك سهلًا في تلك العتمة. فلم أكن أستطيع رؤيةَ جسدي. لم أستطع أن أُحدِّد حالَته بعينيّ، فلم يبقَ لي إلَّا اللمس، لكنَّني لم أكن واثقًا من دقَّة إحساسي في الظلام. كنتُ أشعر أنَّني مخدوع، موهوم. كان شعورًا غريبًا جدًّا.

ومع ذلك فقد بدأتُ أدرك حالتي شيئًا فشيئًا، بالتركيز في التفاصيل. أوَّلُ ما أدركتُه هو أنَّني كنتُ محظوظًا إلى أقصى الحدود. فقاعُ البئر كانت ناعمةً نسبيًّا ورمليَّة. ولو كانت غيرَ ذلك لتكسّر كلُّ عظمٍ في جسدي. أخذتُ نَفَسًا طويلًا عميقًا، وحاولتُ أن أتحرَّك. حاولتُ أوَّلًا أن أُحرِّك أصابعي. فاستجابتْ، وإنْ بضُعف. ثم حاولتُ أن أرفع نفسي للجلوس، لكنَّني لم أستطع. بدا كما لو أنَّ جسدي فقد كلَّ إحساس. كان عقلي واعيًا، لكنَّ خللًا قد أصاب التواصلَ بين عقلي وجسدي: يقرِّر عقلي أن أفعل شيئًا، لكنَّني لا أستطيع تحويلَ تلك الفكرة إلى فعلٍ عضليٍّ. استسلمتُ، واستلقيتُ بعضَ الوقت هناك صامتًا في الظلام.

لا أعرف كم بقيتُ هناك ساكنًا، لكنَّ إحساسي بدأ يعود شيئًا فشيئًا. وحين استعدتُ إحساسي، بدأتُ أحسّ بالألم. كان ألمًا شديدًا. لا بدَّ من أنَّ ساقي كُسرتْ. وربَّما انخلعتْ كتفي، أو انكسرتْ لو كان حظِّي سيئًا.

ظللتُ في مكاني ساكنًا، متألِّمًا. وما لبثت دموعي أن انهمرتْ. دموعُ الألم، ودموعُ اليأس. يا لها من وحدة تامَّة، وشعور بالعجز! لا أظنّكَ تستطيع أبدًا أن تفهم معنى أن تُترَكَ في بئرٍ عميقة، في وسط الصحراء، على حافَّة العالم، يغمرك الألمُ الشديدُ في ظلمةٍ تامَّة. وبلغ بي الأمر أنْ ندمتُ على أنَّ المنغوليّ لم يُطلق النارَ ويُنهي الأمر. لو أنَّني قُتلت هناك فسوف يعرفون على الأقلّ بموتي. أمَّا إنْ مُتُّ هنا، فسوف يكون موتًا وحيدًا تمامًا، موتًا لا يهتمّ به أحد، موتًا صامتًا.

بين الفينة والأخرى كنتُ أسمع صوتَ الريح. كانت، وهي تنتقل على صفحة الأرض، تُصدر صوتًا غريبًا عند فوهة البئر، كصوت امرأةٍ تئنُّ باكيةً في عالم معزول. بين عالمي وذاك العالم قناةٌ ضيِّقةٌ تصلهما الواحد بالآخر، ومنها وصلني صوتُ المرأة على الرَّغم من أنَّه كان يجيء في انقطاعاتٍ طويلةٍ غير منتظمة. ها أنا قد تُركتُ وحيدًا في صمتٍ عميق، وعتمةٍ أعمق.

مددتُ يدي أتحسَّس الأرضَ من حولي، وأنا أتحمَّل الألم. كان قاعُ البئر منبسطًا، غير عريض، قد يصل إلى خمس أقدام أو أكثر بقليل. وبينما كنتُ أتلمَّس ما حولي، وقعتْ يدي فجأةً على شيءٍ صلبٍ وحادّ. فزعتُ، فسحبتُ يدي، لكنّي ما لبثتُ أن أعدتها ببطءٍ وعنايةٍ إلى ذلك الشيء. مرَّة أخرى اشتبكتْ أصابعي بذلك الشيء الحادّ. لأوَّل وهلة حسبتُه غصنَ شجرة، لكنَّني سرعان ما أدركت أنَّني ألمسُ عظامًا. ليست عظامَ بشر، بل عظام حيوان صغير انتثرتْ هناك إمَّا بمرور الزمن أو نتيجةً لسقوطي فوقها. وباستثناء ذلك لم يكن ثمَّة شيء في القاع سوى الرمل، ناعمًا جافًّا.

بعد ذلك مرَّرتُ راحتي على الجدار. بدا أنَّه مصنوع من أحجار رفيعة منبسطة. ورغم الحرارة التي تصل إليها صفحةُ الصحراء نهارًا، إلَّا أنَّها لا تصل إلى هذا العالم السفليّ. فقد كانت الأحجار غايةً في البرودة. مرَّرتُ يدي أكثر، أتفحَّص الفجوات بين الأحجار. لو أنَّني أستطيع أن أثبِّت قدمي هناك، فقد أتمكَّن من التسلُّق. لكنَّ الفجوات كانت ضيِّقة جدًّا، كما أنَّ التسلُّق في حالتي المضعضعة تلك كان أمرًا مستحيلًا.

بجهدٍ جهيد اقتربتُ من الجدار ورفعتُ نفسي للجلوس. كانت كلُّ حركة تجعل ساقي وكتفي تنبضان كما لو غُرزتْ فيهما مئةُ إبرةٍ سميكة. ظللتُ فترةً كلَّما سحبتُ نَفَسًا شعرتُ كأنَّ جسدي سوف يتشقَّق. لمستُ كتفي فأدركتُ أنَّها منتفخةٌ وساخنة.

*

لستُ أدري كم مضى من الوقت بعد ذلك. لكنَّ شيئًا حدث لم أكن لأتخيَّله. جاءني ضوءُ الشمس من فتحة البئر مثلَ كشفٍ سماويٍّ. في تلك اللحظة رأيتُ كلَّ ما حولي. كان الضوء الساطع يملأ البئرَ تمامًا. طوفان من الضوء. ولفرط سطوعه كاد يخنقني. في لحظةٍ واحدة انقشع الظلامُ والبرد، وكسا شعاعُ الشمس الدافئ جسمي العاري. حتى الألمُ الذي كنتُ أعانيه بدا أنَّه خفَّ بضوء الشمس الذي أضاء عظامَ الحيوان بجانبي. تلك العظام التي كانت تستحقّ أن تكون نذيرَ شؤمٍ لمصيري الوشيك بدَت تحت ضوء الشمس أقربَ إلى النديم. حتى الجدرانُ الحجريَّة التي تُحيط بي أصبحتُ أراها بوضوح. كان ضوءُ الشمس هو الذي يجعلني أنسى خوفي وألمي ويأسي. جلستُ

هناك تحت ذاك الضوء الساطع في ذهول. ثم اختفى الضوءُ فجأةً، كما جاء فجأةً، وحلَّت العتمةُ من جديد. كان ذلك الفاصل قصيرًا جدًّا، لا يتعدَّى عشرَ أو خمسَ عشرة ثانية. بلا شكّ لم يكن لأشعَّة الشمس أن تدوم فترة أطول داخل البئر وهي تنتقل من زاوية إلى أخرى. لقد انحسر طوفانُ الضوء حتى من قبل أن أستوعبَ معناه.

بعد انقشاع الضوء وجدتُ نفسي في ظلمةٍ أعمق من السابق. لم أستطع مجرَّد التحرُّك. لا ماء، ولا طعام، ولا شيء يغطِّي جسدي. مضت فترةُ العصر الطويلة، ثم حلَّ الليل، وهبطت الحرارة. لم أكن أستطيع النوم. كان جسدي يشتهي النوم، لكنَّ البرد يقرسني كألف شوكةٍ صغيرة. شعرتُ كما لو أنَّ مادَّة حياتي تتصلَّب وتموت جزءًا جزءًا. من فوقي كانت النجومُ متجمِّدةً في السماء. عددٌ مهولٌ منها. حدَّقتُ فيها، وهي تزحف ببطء. كانت حركتُها تساعدني على التأكُّد من أنَّ الوقت يمضي. نمتُ قليلًا، فأيقظني البرد والألم، ونمتُ مرَّةً أخرى، واستيقظت.

جاء الصباح في نهاية المطاف. من فوهة البئر الدائريَّة بدأتْ أضواءُ النجوم تتلاشى. ولكنْ حتى بعد طلوع الفجر، لم تختفِ النجومُ تمامًا. كانت لفرط شحوبها تكاد لا تُرى لكنَّها باقية في مكانها. ولكي أروي ظمأي، لعقتُ الندى الذي تعلَّق بالجدار. كان قدرًا ضئيلًا من الماء طبعًا، لكنَّه كان بالنسبة إليَّ نعمة سماويَّة. عندها تذكَّرتُ أنَّني لم آكل أو أشرب شيئًا يومًا كاملًا، لكنَّني لم أُحسّ بجوع.

بقيتُ في مكاني، في قاع الحفرة. هذا ما كان في وسعي

فعلُه. لم أستطع مجرَّد التفكير؛ فشعوري بالوحدة واليأس كان عظيمًا. جلستُ لا أفعل شيئًا، ولا أُفكِّر في شيء. لكنَّني من دون وعي كنتُ أنتظر شعاعَ النور، طوفانَ الشمس الساطع الذي انصبَّ إلى قاع البئر برهةً من اليوم. لا بدَّ من أنَّها ظاهرة تَحْدث قرب الظهيرة، حين تكون الشمس في أعلى موقع لها في السماء وتُنزل أشعَّتها على الأرض بزاويةٍ عموديَّة. انتظرتُ مجيءَ الضوء ولا شيء غيره. لم يكن لديَّ شيء آخر أنتظره.

بدا أنَّ وقتًا طويلًا قد مضى. لا أدري متى نمت، لكنَّني استفقتُ حين شعرتُ بحضور شيء، وكان الضوء هناك. أدركتُ أنَّ الضوء يغطِّيني مرَّةً أخرى. ومن دون تفكير، بسطتُ يديَّ ورحتُ أنهل الشمسَ في راحتيّ. كان الضوء أقوى هذه المرَّة، واستمرَّ فترةً أطول. هذا ما شعرتُ به على الأقلّ. وهناك تحت الضوء، انسكبتْ دموعي. شعرتُ كأنَّ كلَّ السوائل في جسمي قد تستحيل دموعًا تنهمر من عينيّ، وأنَّ جسدي نفسَه قد يذوب. لو أنَّ هذا يحدث بنعمةٍ من هذا الضياء الساحر، فالموت نفسُه لن يكون مخيفًا. والحقّ أنّي شعرتُ بأنَّني أُريد الموت. تملَّكني حينها إحساسٌ رائعٌ بالتوحُّد، إحساسٌ طاغ بالاتِّحاد. بلى، هذا ما كان فعلًا: المعنى الحقيقيّ للحياة إنَّما تَمَثَّلَ في ذلك الضوء الذي استمرَّ بضعَ ثوانٍ، وشعرتُ بأنَّه ينبغي لي أن أموتَ في ذلك الوقت والمكان.

- وبطبيعة الحال ذهب الضوءُ قبل أن يحدث أيُّ شيء. كنتُ ما أزال في قاع البئر التعيسة. واستعاد البردُ والعتمةُ قبضتيْهما عليَّ، كما لو أنَّهما يُنْكران مجيءَ الضوء. جلستُ منكفئًا فترةً

طويلةً في مكاني، ووجهي مغتسل بالدموع. لم أستطع أن أفعل أو أُفكّر في أيّ شيء على الإطلاق، كما لو أنَّ قوّةً هائلةً ضعضعتني، حتى لم أعد قادرًا على الإحساس بوجودي البدنيّ. كنتُ جثّة جافّة، أو قشرةَ حشرةٍ طَرَحتها. ولكنْ عادت نبوءةُ العريف هوندا إلى فضاء عقلي من جديد: لن أموتَ في هذه القارَّة. الآن، وقد جاء الضوءُ وغاب، وجدتُ نفسي قادرًا على تصديق نبوءته. ذلك أنّني في المكان الذي كان ينبغي أن أموتَ فيه، وفي الوقت الذي كان ينبغي أن أموتَ فيه، لم أستطع إلى الموت سبيلًا. لا أقول إنّني لن أموت، بل لم أستطع. هل تفهم ما أقوله، سيِّد أوكادا؟ لا أعرف أيّ نعمةٍ إلٰهيَّةٍ وُهبتُها في تلك اللحظة، لكنَّها غابت إلى الأبد.

*

عندها، نظر الملازم ماميا في ساعته، ثم قال: «وكما ترى، فأنا هنا أمامك». هزَّ رأسه وكأنَّه يحاول أن يطرد خيوط الذاكرة. «تمامًا كما قال السيِّد هوندا. لم أمت هناك، وأصبحتُ أطولَ الرفاق الأربعة عُمرًا».

هززتُ رأسي.

«أرجو أن تغفر لي حديثي الطويلَ هذا. لا بدَّ من أنَّ الاستماع إلى رجل عجوز يثرثر عن ماضيه أمر مضجر». عدَّل الملازمُ جلسَته على الأريكة ثم قال: «يا إلٰهي، سيفوتني القطارُ لو بقيتُ هنا وقتًا أطول».

فأسرعتُ لصدّه عن ذلك. «أرجوكَ لا تُنْهِ قصَّتك هنا. ما

الذي حدث بعد ذلك؟ أريد أن أعرف البقيَّة».

نظر إليَّ لحظة.

«أنا متأخِّر فعلًا. ما رأيُكَ أن تمشي معي إلى محطَّة الحافلات؟ يمكنني أن أعطيكِ ملخَّصًا سريعًا في الطريق».

خرجتُ معه ومشينا إلى محطَّة الحافلات.

«في صباح اليوم الثالث، أنقذني العريف هوندا. كان قد شعر بأنَّ المنغوليِّين سيأتون في تلك الليلة، فانسلَّ من الخيمة واختبأ طوال الوقت. وكان قد أخذ معه الرسالةَ من حقيبة ياماموتو. فعل هذا لأنَّ أولويَّتنا القصوى كانت ألَّا تقع الرسالةُ في أيدي العدوّ، مهما كلَّفنا الأمرُ من تضحيات. لا شكَّ أنَّك تسأل نفسَكَ: إذْ كان قد عرف بقدوم المنغوليِّين، فلماذا فرَّ وحدَه بدلًا من إيقاظنا كي نهرب جميعًا؟ الحقيقة أنَّه لم يكن لدينا أيُّ أمل في الانتصار عليهم. لقد عرفوا أنَّنا هناك، وكانت أرضَهم، وكانوا يفوقوننا عددًا وسلاحًا. ما كان أسهلَ عليهم أن يعثروا علينا ويقتلونا ويأخذوا الرسالة؛ لذلك لم يكن أمام العريف هوندا خيار سوى أن يهرب وحده. بطبيعة الحال لو تصرَّف هكذا في أرض المعركة فسوف يُعتبر فارًّا من القتال، ولكنْ في مهمَّةٍ خاصَّةٍ كتلك كان الأهمّ هو المكر.

«رأى كلَّ ما حدث. شاهدهم وهم يسلخون ياماموتو. ورأى الجنودَ المنغوليِّين وهم يأخذونني. ولكنْ لم يعد لديه حصان، فلم يستطع أن يتبعَنا إلَّا سيرًا على الأقدام. أخرج المؤنَ الإضافيَّة التي دفنَّاها في الصحراء، ودفن مكانَها الرسالة، ثم جاء لينقذَني.

لكنَّ العثور عليَّ في تلك البئر استلزم جهدًا خرافيًّا؛ فلم يكن يعرف ولو الاتِّجاهَ الذي أخذوني فيه».

سألتُه: «إذن كيف وجد البئر؟»

«لا أدري. لم يوضح لي هذا الأمر. كان يعرف وحسب. وحين وجدني قَطَعَ ثيابَه وصنع منها حبلًا طويلًا. بحلول ذلك الوقت كنتُ فاقدَ الوعي تقريبًا، ما صعَّب عليه سحبي إلى الأعلى. بعد ذلك استطاع العثورَ على حصان ووضعني عليه، ثم سار بي بين الكثبان وعَبَرْنا النهرَ إلى أن وصلنا إلى نقطة جيش مانشوكو. وهناك عالجوا جراحي وأرسلوني في شاحنة إلى القيادة العامَّة. ثم أخذوني إلى المستشفى في هايلار».

«وماذا عن المستند أو الرسالة أو أيًّا ما كان ذلك؟»

«لعلَّها ما تزال هناك، ترقد تحت الأرض قرب نهر كالكا. لم يكن من الممكن أن نعودَ أنا والعريف هوندا إلى هناك ونستخرجَها، ولم يكن لدينا أيُّ سببٍ يدعونا إلى ذلك. فقد استنتجنا أنَّ ذلك الشيء لم يكن من المفترض أن يوجد من الأساس. وهكذا اتَّفقنا على قصَّة واحدة نقولها في التحقيقات العسكريَّة. قرَّرنا الإصرارَ على أنَّنا لم نسمعْ شيئًا عن أيِّ مستند، وإلَّا كانوا سيحمِّلونا مسؤوليَّة عدمَ إحضاره من هناك. أدخلونا غرفتيْن منفصلتيْن تحت حراسة مشدَّدة، فيما بدا أنَّه من أجل العلاج الطبِّيّ، ثم أخذوا يستجوبوننا كلَّ يوم. كان كبارُ الضبَّاط يأتون ويطلبون منَّا أن نُعيد القصَّة مرَّةً تلو الأخرى. كانت أسئلتُهم دقيقةً، وشديدةَ الذكاء. ولكنْ يبدو أنَّهم صدَّقونا. رويتُ لهم

بالتفصيل كلَّ ما مررتُ به، مع الحرص على حذف أيِّ شيء يتعلق بالمستند. وما إنْ دوَّنوا كلَّ شيء حتى قالوا لي إنَّ هذا الأمر غايةٌ في السرِّيَّة ولن يُذكر في سجلَّات الجيش، ولا ينبغي لي أن أذكره لأيِّ شخص، وإنْ فعلتُ فسوف أُعاقَبُ عقابًا شديدًا. بعد أسبوعيْن أعادوني إلى وظيفتي الأصليَّة، وأعتقد أنَّ هذا ما حدث للعريف هوندا كذلك».

قلتُ له: «بقي شيء واحد ما يزال غامضًا بالنسبة إليَّ. لماذا أحضروا السيِّد هوندا من وحدته من أجل هذه المهمَّة؟»

«لم يذكر لي شيئًا عن هذا قطّ. لعلَّه كان مأمورًا ألَّا يُخبر أحدًا، وربَّما هو نفسه اعتقد أنَّه من الأفضل لي ألَّا أعرف. ولكنْ بالحكم من حواراتي معه، أظنّ أنَّه كانت هناك علاقة شخصيَّة تربطه بذاك الرجل الذي اسمه ياماموتو، شيء يتعلَّق بقدراته الخاصَّة. كنتُ قد سمعتُ مرارًا أنَّ في الجيش وحدةً مكلَّفةً بدراسة الغيبيَّات. ويُقال إنَّهم جمعوا أشخاصًا ذوي قدرات متعلِّقة بالروح أو بالتحريك النفسيّ من كلِّ أنحاء البلاد، وأجْروا تجاربَ عليهم. وأعتقد أنَّ السيِّد هوندا التقى ياماموتو في هذا السياق. على أيِّ حال، لولا تلك القدرات لما استطاع السيِّد هوندا أن يعثر عليَّ في البئر ثم يقودَني إلى الموقع المحدَّد لجيش مانشوكو. لم تكن معه خريطة ولا بوصلة، لكنَّه استطاع أن يقودنا إلى هناك مباشرةً من دون أدنى حيرة أو تردُّد. المنطقيّ أن تعتبرَ هذا مستحيلًا. كنتُ رسَّامَ خرائط، وكنتُ أعرف جغرافيا المكان جيِّدًا، لكنَّني ما كنتُ لأستطيع أن أفعلَ ما فعله. لعلَّ هذه القوى التي كان السيِّد هوندا يمتلكها هي التي جعلتْ ياماموتو يطلبه».

وصلنا إلى محطّة الحافلات، وانتظرنا.

قال الملازم ماميا: «ستظلّ بعضُ الأشياء ألغازًا بالطبع. هناك أشياء كثيرة ما زلتُ لا أفهمها. وما زلت أسأل نفسي مَن يكون ذلك الضابطُ المنغوليُّ الذي التقانا في الصحراء. وما الذي كان سيحدث لو أنّنا استطعنا إحضارَ المستند إلى القيادة؟ لماذا لم يتركنا ياماموتو على الضفّة اليمنى ويعبر النهرَ وحده؟ كان سيتحرّك بحرّيّة أكبر. ربّما كان يريدنا أن نكون فخًّا للقوّات المنغوليّة، بينما يستطيع هو الهرب لوحده. ممكن. وربّما أدرك العريفُ هوندا هذا من البداية، وهذا ما جعله يقف في مكانه بينما كان المنغوليُّون يقتلون ياماموتو.

«على أيِّ حال، لم نجد أنا والعريف هوندا فرصةً للّقاء مرّةً أخرى إلّا بعد فترة طويلة جدًّا. فقد فرّقوا بيننا فور وصولنا إلى هايلار، ولم يُسمح لأيٍّ منّا بالحديث مع الآخر أو بمجرّد رؤيته. كنتُ أريد أن أشكره مرّةً أخيرة، لكنّهم لم يمكّنوني من ذلك. بعدها أُصيب في معركة نومونهان وأُعيدَ إلى اليابان، في حين بقيتُ أنا في منشوريا حتى نهاية الحرب، ثم أُرسلتُ إلى سيبيريا. لم أجده إلّا بعد سنوات، بعد أن أعادوني من الخدمة العسكريّة في سيبيريا. تقابلنا بضع مرّات، وتبادلنا الرسائل. لكنّه بدا غيرَ راغبٍ في الحديث عمّا جرى لنا عند نهر كالكا، وفي الحقيقة لم أكن توّاقًا جدًّا إلى مناقشة الأمر، فقد كانت تلك التجربة صعبةً جدًّا لنا كِلَيْنا. وهكذا تشاركنا في هذه الذكرى بعدم الخوض فيها. هل لكلامي معنى؟

«لقد أصبحت القصّةُ طويلةً جدًّا، ولكنْ ما أردتُ إيصاله

إليك هو شعوري بأنّ الحياة الحقيقيَّة ربَّما انتهت بالنسبة إليَّ في تلك البئر في صحراء منغوليا الخارجيَّة. إنَّني أشعر كما لو أنّني، في ذلك الضوء الساطع الذي غمرني لعشر ثوانٍ أو يزيد كلَّ يومٍ في قاع البئر، أحرقتُ مادَّة حياتي إلى أن تلاشت تمامًا. إلى هذه الدرجة كان ذلك الضوء أمرًا غامضًا بالنسبة إليَّ. لا يمكنني أن أشرح الأمرَ جيِّدًا، لكنَّني بصراحة وبساطة توقَّفتُ منذ تلك اللحظة عن الشعور بشيء في صميم قلبي، مهما كانت التجربةُ التي أمرُّ بها. حتى في مواجهة الدبَّابات السوفييتيَّة المرعبة، وحتى حين فقدتُ يدي، وحتى في معسكرات الأسر السوفييتيَّة، لم أشعر سوى بشيءٍ من الخَدَر. قد يبدو غريبًا أن أقول ما سأقوله، ولكنْ لا شيءَ من ذلك كان يهمّني. ثمَّة شيء في داخلي قد مات أصلًا. لعلَّه، مثلما شعرتُ آنذاك، كان ينبغي أن أموتَ في ذلك الضوء. أن أتلاشى وحسب. كان ذلك وقتَ موتي. لكنَّني لم أمت، كما توقَّع السيِّد هوندا. أو ربَّما لم أستطع أن أموتَ هناك.

«عدتُ إلى اليابان، وقد فقدتُ يدي واثنتيْ عشرة سنةً من حياتي. ولمَّا وصلتُ إلى هيروشيما كان والداي وأختي قد توفُّوا جميعهم. فقد دفع والداي بأختي الصغيرة إلى العمل في مصنع، وكانت هناك حين سقطت القنبلة. كان أبي في طريقه إلى رؤيتها آنذاك، ففقد حياتَه هو الآخر. ولم تحتمل أمّي الصدمة وظلَّت على فراش الموت إلى أن تُوفِّيتْ عام 1947. وكما ذكرتُ سابقًا فإنَّ الفتاة التي كنتُ مرتبطًا بها تزوَّجتْ من رجل آخر، وأنجبتْ طفليْن. في المقبرة وجدت قبري. لم يبق شيء لي. شعرتُ بخواءٍ

تامٌّ، وأدركتُ أنَّه ما كان ينبغي لي أن أعود. ومنذ ذلك الوقت لا أذكر كيف كانت حياتي. أصبحت معلِّمًا للدراسات الاجتماعيَّة، ودرَّستُ الجغرافيا والتاريخ في مدرسةٍ ثانويَّةٍ، لكنَّني لم أكن حيًّا بالمعنى الحقيقيّ للكلمة. كنتُ فقط أؤدِّي المهامّ اليوميَّة المطلوبة منِّي، واحدةً تلو أخرى. لم يكن لي صديق حقيقيّ واحد، ولا روابط إنسانيَّة بتلاميذي. لم أحبّ أحدًا. ولم أعد أعرف ما يعنيه أن تحبّ شخصًا آخر. كنتُ أغمض عينيّ وأرى ياماموتو يُسلخ حيًّا. لطالما حلمتُ بذلك المشهد. مرَّةً تلو المرَّة أراهم ينزعون جلده ويحوِّلونه إلى كتلة من اللحم. كنتُ أسمع صرخاتِهِ التي تفطر القلب. حلمتُ أيضًا بنفسي وأنا أتعفَّن حيًّا شيئًا فشيئًا في قاع البئر. خُيِّل إليّ أحيانًا أنَّ هذا ما حدث فعلًا، وأنَّ حياتي هنا مجرَّدُ حلم.

«حين قال لي السيِّد هوندا عند نهر كالكا إنَّني لن أموت في تلك القارَّة، كنتُ غايةً في الابتهاج. لم تكن مسألة تصديق أو غير تصديق؛ فقد كنتُ أريد التعلُّق بشيء آنذاك. أيّ شيء. أظنُّ أنَّ السيِّد هوندا عرف ذلك وقال ما قاله ليُريحني. لكنَّني لم أعرف البهجة بعد ذلك. فحين عدتُ إلى اليابان عشتُ مثل قوقعة فارغة. العيشُ على هذا النحو ليس عيشًا حقيقيًّا، بصرف النظر عن عدد السنوات التي يستمرّ فيها. فقلبُ القوقعة الفارغة ولحمها لا يَلِدانِ إلَّا حياةَ قوقعةٍ فارغة. هذا ما أرجو أن أكون قد أوضحتُه لك يا سيِّد أوكادا».

قلت: «هل تقصد أنَّك لم تتزوَّج قطّ بعد عودتك إلى اليابان؟»

«بالطبع لم أتزوَّج. لا زوجة لي ولا والدان ولا أشقَّاء. أنا وحيد تمامًا».

سألتُه بعد أن ترددتُ لحظة: «هل تشعر بالأسف لأنَّك سمعتَ نبوءة السيِّد هوندا؟»

كان هو مَنْ تردَّد الآن. بعد لحظة صمت، نظر في عينيَّ مباشرةً. «ربَّما. ربَّما ما كان ينبغي له أن يقول لي ما قاله. ربَّما ما كان ينبغي أن أسمعَها. فكما قال السيِّد هوندا آنذاك، القدر شيءٌ تنظر إليه بعد أن يمضي، وليس شيئًا تراه مسبَّقًا. أؤمن بهذا، لكنَّه الآن لا يشكِّل لي فرقًا. كلّ ما أفعله هو تأدية واجبي بمواصلة العيش».

جاءت الحافلة، وودَّعني الملازم ماميا بانحناءة عميقة ثم اعتذر عن أخذه كثيرًا من وقتي الثمين. «حسنًا، سأذهب الآن. وشكرًا لك على كلّ شيء. على كلّ حال أنا سعيد لأنَّني استطعتُ أن أسلِّمك الغرضَ الذي تركه السيِّد هوندا. وهذا يعني أنَّ مهمَّتي انتهت أخيرًا. يمكنني أن أعود إلى بيتي مرتاحَ البال». استخدم يديْه كلتيْهما، اليمنى والاصطناعيَّة، ليضع العملاتِ المعدنيَّة المطلوبة في صندوق الأجرة.

وقفتُ هنالك أنظر إلى الباص وهو يختفي بعد العطفة. بعد ذهابه شعرتُ بخواءٍ غريبٍ داخليّ، شعور بالعجز يشبه ما يشعر به الطفلُ الصغيرُ إذا ما تُرك وحيدًا في حيّ لا يعرفه.

عدتُ إلى البيت وجلستُ على الأريكة كي أفتحَ المظروف الذي تركه لي السيِّد هوندا. تفصَّد العرقُ منِّي وأنا أُزيل طبقةً تلو

الأخرى من ورق التغليف، إلى أن وجدتُ علبةً كرتونيَّة صلبة. كانت علبةَ هدايا فاخرة من ماركة «كَتي سارك»، لكنَّ وزنها الخفيف جدًّا لا يُنبئ عن وجود قنِّينة وسكي داخلها. فتحتُها، فلم أجد شيئًا. كانت فارغةً تمامًا. كلُّ ما تركه السيِّد هوندا لي علبةٌ فارغة.

الكتاب الثاني

الطائر نبيًّا

تمُّوز / يوليو إلى تشرين الأول/أكتوبر 1984

1

محسوسٌ قدر الإمكان
شهيَّةٌ للأدب

لم تعد كوميكو تلك الليلة. بقيتُ مستيقظًا حتى منتصف الليل أقرأ وأستمع إلى الموسيقى، وأنتظرها، غير أنّي في نهاية الأمر استسلمتُ وخلدتُ إلى النوم. نمتُ والمصابيحُ مُضاءة، وحين استيقظتُ كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحًا. ضوء النهار يسطع من النافذة، بينما كان يتناهى إليَّ تغريدُ الطيور من خلف الستارة الرفيعة. لا أثر لزوجتي. ما تزال الوسادةُ البيضاءُ في مكانها، عاليةً منفوشة. حسب ما أراه لم يرقد فوقها رأسٌ هذه الليلة. منامتها المغسولة المطويَّة جيِّدًا ما تزال على الطاولة. أنا الذي غسلتُها، وأنا الذي طويتُها. أطفأتُ المصباحَ في جانب

السرير وأخذت نَفَسًا عميقًا، وكأنَّني أحاول أن أنظِّم دَفْق الوقت.

أخذتُ جولةً في البيت وأنا ما أزال بمنامتي. ذهبتُ أوَّلًا إلى المطبخ، ثم تفقَّدتُ الصالة ونظرتُ في غرفة كوميكو. تفحَّصتُ الحمَّامَ أيضًا، وكي أتأكَّد أكثر فتَّشتُ الخزانات. لا أثر لها في أيِّ مكان. بدا البيت خافتًا أكثر من المعتاد، وشعرتُ كما لو أنَّني بسبب تحرُّكي هنا وهناك كنتُ المسؤول عن إرباك هذا التناسق الهادئ في المكان، بلا داعٍ.

لم يعد ثمَّة ما أفعله. ذهبتُ إلى المطبخ. ملأتُ الإبريق وأشعلتُ الغاز. وحين غلى الماء، أعددتُ قهوةً وجلستُ إلى الطاولة أرشفُها. ثم حمَّصتُ خبزًا وتناولتُ سلطةَ بطاطا أخرجتُها من الثلَّاجة. كانت هذه أوَّلَ مرَّة أتناول فيها الإفطارَ وحدي، منذ سنوات. فباستثناء مرَّة واحدة في رحلة عمل، لم نفوِّت قطّ وجبةَ الإفطار معًا منذ أن تزوَّجنا. نعم كنَّا كثيرًا ما نفوِّت وجبةَ الغداء معًا، وأحيانًا وجبةَ العشاء، أمَّا الإفطار فلا. كان أشبهَ بطقسٍ من الطقوس. فأيًّا كان الوقت الذي نمنا فيه، فلا بدَّ من أن نستيقظ باكرًا بما يكفي لكي نجهِّز وجبة صباحيَّةً جيِّدة، ونأخذ وقتَنا للاستمتاع بها معًا.

لكنَّ كوميكو اختفت في ذلك اليوم. تناولتُ قهوتي وخبزي بمفردي، في صمت. وكلُّ ما يمكنني أن أنظر إليه كرسيٌّ فارغ. أخذتُ أنظر وآكل وأفكِّر في الكولونيا التي كانت تضعها في اليوم السابق. فكَّرتُ في الرجل الذي ربَّما أعطاها إيَّاها. تخيَّلتُها على فراشٍ معه في مكانٍ ما، يطوِّقان بعضهما بعضًا. رأيتُ يديْه تداعبان جسَدها العاري. رأيتُ ظهَرها الخزفيّ كما كنتُ أراه كلَّ

صباح؛ تلك البشرةَ الناعمةَ من تحت السحَّاب.

بدا للقهوة طعمُ الصابون. كيف هذا؟ أحسستُ بطعمٍ كريهٍ بُعيْد الرشفة الأولى. لا أدري ما إذا كانت مشاعري تتلاعب بحواسّي، لكنَّ الطعم عاد مع الرشفة الثانية. أفرغتُ الكوبَ في المغسلة وملأتُ المزيدَ من القهوة في كوب نظيف. طعمُ الصابون مرَّةً أخرى. غريب جدًّا. كنتُ قد غسلتُ القِدْرَ جيِّدًا، والماء لا مشكلة فيه. لكنَّ الطعم (أو الرائحة) واضحٌ جدًّا. لا يمكن أن يكون إلَّا صابونًا، أو كريمًا مرطِّبًا. سكبتُ القهوةَ وشرعتُ أغلي ماءً جديدًا، لكنَّ الأمر لم يكن يستحقّ العناء. ملأتُ كوبًا من الماء وشربتُه. في كلِّ الأحوال لم أكن أرغب في القهوة كثيرًا.

*

انتظرتُ حتى التاسعة والنصف، ثم اتَّصلتُ بمكتب كوميكو. جاءني صوت امرأة.

«هل يمكنني التحدُّث إلى كوميكو أوكادا؟»

«المعذرة، لكنْ يبدو أنَّها لم تصل بعد».

شكرتُها وأغلقتُ الخطّ. ثم بدأتُ أكوي القمصان، كعادتي حين أشعر بالقلق. ولمَّا انتهت القمصان، ربطتُ الجرائدَ والمجلَّات القديمة، ومسحتُ المغسلة وأرفف الخزانات، ونظَّفتُ الحمَّام وحوضَ الاستحمام. لمَّعتُ المرايا والنوافذ، وفككتُ مصابيحَ السقف ونظَّفتُ زجاجَها. ثم نزعتُ غطاءَ الفراش وألقيتُ به في الغسَّالة، ثم وضعتُ غطاءً جديدًا.

عاودتُ الاتِّصالَ بمكتب كوميكو عند الحادية عشرة.

فأجابتني الفتاة نفسُها بأنَّ كوميكو لم تحضر إلى المكتب.

«هل أبلغتْكم أنَّها لن تحضر اليوم؟»

فقالت من دون أيِّ مشاعر: «على حدِّ علمي لا». كانت تقرِّر الحقائقَ لا أكثر.

لا بدَّ من أنَّ هنالك مشكلة ما دامت كوميكو لم تصل إلى المكتب حتى الحادية عشرة. معظم مؤسَّسات النشر لديها ساعاتُ عملٍ غير منتظمة، إلَّا مؤسَّسة كوميكو. فلأنَّهم يُصْدرون مجلَّات تهتمّ بالصحَّة والتغذية، ينبغي عليهم أن يتعاملوا مع الكُتَّاب والمزارعين والأطبَّاء ومُنتجي الأغذية، من ذلك النوع الذي يذهب للعمل باكرًا ويعود في وقتٍ متأخِّر من المساء. لذلك تحرص كوميكو وزملاؤها على بدء العمل في التاسعة صباحًا والانتهاء في الخامسة مساءً، إلَّا إذا استجدّ ما يستدعي التأخُّر.

بعد أن أغلقتُ الخطَّ، ذهبتُ إلى غرفة النوم ونظرتُ في خزانة ملابسها. لو أنَّ كوميكو هربتْ، لأخذتْ معها ملابَسها بالتأكيد. تفحَّصتُ الفساتين والبلوزات والتنانير المعلَّقة هناك. لم أكن أعرف كلَّ قطعة من ملابسها بالطبع. بل إنَّني لم أكن أعرف كلَّ قطعةٍ من ملابسي **أنا**. لكنَّني كثيرًا ما كنتُ آخذ ملابسها إلى الغسيل وأستلمها بعد ذلك، فكانت لديَّ فكرةٌ جيّدةٌ عن ملابسها التي تلبسها أكثر ممَّا تلبس غيرها. وكما أرى أمامي، فكلّ شيء فيَ مكانه.

كما أنَّه لم تكن لديها فرصةٌ كي تأخذ الكثيرَ من الملابس معها. حاولتُ أن أتذكَّر بدقَّة قدر الإمكان خروجَها من البيت في

اليوم السابق: الملابس التي كانت ترتديها، والحقيبة التي تحملها. كلُّ ما كان معها حقيبةٌ نسائيَّة عادةً ما تأخذها معها، تحتوي دفاترَ وأدواتِ تجميل ومحفظةً وأقلامًا ومنديلًا ومحارم. لا تكفي أبدًا لوضع غيارات للملابس. تفحَّصتُ أدراجَها. ثمَّة إكسسوارات، وجواربُ طويلة، ونظَّاراتٌ شمسيَّة، وملابسُ داخليَّة، وقمصان قطنيَّة. كلّ شيء في مكانه، مرتَّب في صفوف منظَّمة. لو اختفى أيّ شيء من هناك، فمن المستحيل أن أعرف. بالطبع كان يمكنها أن تضع ملابسَ داخليَّة أو جوارب في حقيبتها، ولكنْ لِمَ العناء؟ يمكنها أن تشتريها من أيِّ مكان.

عدتُ إلى الحمَّام لأُلقي نظرةً أخرى. لا أثر لأيِّ شيء على غير حاله. إكسسوارات وعبوات كثيرة لأدوات التجميل. فتحتُ زجاجةَ كولونيا الكريستيان ديور، وأخذتُ شمَّةً أخرى. الرائحة نفسُها، عبق الزهر الأبيض. يلائم هذا الصباحَ الصيفيَّ تمامًا. ومرَّةً أخرى أخذتُ أفكِّر في أذنيْها وظهرِها البضّ.

ذهبتُ إلى الصالة وتمدَّدتُ على الأريكة. أغمضتُ عينيّ وأخذتُ أنصت. لا صوت يمكنني سماعُه إلَّا صوت الساعة وهي تزفّ الوقت. لا أصوات سيَّارات أو تغريد طيور. لا أعرف ما الذي يمكنني أن أفعله الآن. قرَّرتُ أن أتَّصل بمكتبها مرَّةً أخرى، ووصلتُ إلى حدِّ رفع السمَّاعة والضغط على الأرقام الأولى. لكنَّ فكرةَ أن أتحدَّث ثانيةً إلى الفتاة نفسها كانت أكثرَ ممَّا يمكنني احتمالُه، فأنزلتُ السمَّاعة. لم يعد في وسعي شيءٌ آخر. ليس لي سوى الانتظار. لعلَّ كوميكو تركتني، لسببٍ لا أعرفه، ولكنَّه احتمال. ولكنْ إنْ كان هذا صحيحًا، فهي ليست من ذلك النوع

الذي يرحل من دون أن يقول شيئًا. من طبيعتها أن تبذل قصارى جهدها لتوضيح الأسباب بدقَّة. في هذا الموضوع تحديدًا أنا متيقِّن تمامًا.

ربَّما وقع لها حادثٌ ما. ربَّما دهستْها سيَّارة وهُرع بها إلى المستشفى. لعلَّها غائبةٌ عن الوعي الآن وتخضع لنقل دم. خفق قلبي من هذا الخاطر، لكنَّني كنتُ أعرف أنَّها تحمل معها رخصةَ السياقة وبطاقاتها الائتمانيَّة ودفتر العناوين. فلو حدث لها مكروه كانت الشرطة ستتَّصل بي.

ذهبتُ للجلوس في الشرفة والنظر إلى الحديقة، لكنَّني لم أكن أنظر إلى شيء. حاولتُ أن أُفكِّر، لكنَّني لم أستطع أن أركِّز على شيء بعيْنه. كلُّ ما كان يَرِدُ إلى عقلي، مرَّةً تلو المرَّة، ظهرُ كوميكو وأنا أرفع لها سحَّابَ فستانها؛ ظهرُها ورائحةُ الكولونيا من خلف أذنيْها.

بُعَيْد الساعة الواحدة رنَّ الهاتف. نهضتُ من على الأريكة والتقطتُ السمَّاعة.

جاءني صوتُ امرأة: «المعذرة، هل هذا منزل السيِّد أوكادا؟» كانت مالطا كانو.

«نعم».

«اسمي مالطا كانو. أتَّصلُ بك بخصوص القطّ».

قلتُ في حيرة: «القطّ؟» كنتُ قد نسيتُ أمرَه تمامًا. تذكَّرتُ الآن بالطبع، لكنَّ الأمر بدا كما لو أنَّه من زمن بعيد.

«القطّ الذي كانت السيِّدة أوكادا تبحث عنه».

«نعم، نعم».

غرقتْ مالطا كانو في صمت، وكأنَّها تقيس شيئًا ما. ربَّما نبرة صوتي استنفرتها. تنحنحتُ ونقلتُ السمَّاعة إلى أذني الأخرى.

بعد لحظة صمتٍ قصيرة، قالت مالطا كانو: «عليَّ أن أُخبركَ يا سيِّد أوكادا، أعتقد أنَّ القطّ لن يُعثر عليه أبدًا. يُحزنني أن أقول ذلك، ولكنَّ أفضلَ ما يمكنك فعلُه الآن هو تقبُّل هذه الحقيقة. لقد رحل القطّ إلى الأبد. القطّ لن يعود أبدًا، إلَّا إنْ حدث تغيُّر كبير».

سألتُها: «تغيُّر كبير؟» لكنَّها لم تردّ.

ظلّت مالطا كانو صامتةً برهةً. انتظرتُ أن تقول شيئًا، لكنِّي لم أسمع أدنى نَفَسٍ منها. ولمَّا بدأتُ أشكّ في وجود عطلٍ في الهاتف، بدأتْ تتحدَّث.

«ربَّما سيبدو ما أقولُه قلَّةَ ذوقٍ يا سيِّد أوكادا، ولكنْ بعيدًا عن موضوع القطّ، ألا يوجد شيء آخر يمكنني أن أساعدَك فيه؟»

لم أستطع أن أجيبَها فورًا. مِلتُ على الجدار والسمَّاعةُ ما تزال في يدي. استغرق منِّي الأمرُ بعضَ الوقت كي تخرج الكلمات. «ما تزال الأمور غير واضحة بالنسبة إليَّ. لستُ متأكِّدًا من أيِّ شيء. أحاول أن أفهم الأمر، لكنَّني أعتقد أنَّ زوجتي تركتني». أخبرتُها أنَّ كوميكو لم تعد إلى البيت منذ الليلة الماضية، ولم تذهب إلى العمل.

بدا وكأنَّها تفكِّر في ما قلتُه. «لا بدَّ من أنَّك شديد القلق.

في الوقت الحاليّ لا يوجد شيء يمكنني قولُه، لكنَّ الأمور سوف تتَّضح قريبًا. كلّ ما يمكنك فعلُه الآن هو الانتظار. سيكون صعبًا بالتأكيد، ولكنْ لكلِّ شيء أوانُه. مثل المدّ والجزر. لا نملك أن نغيِّرهما. حين يكون وقت الانتظار، لا بدَّ من أن تنتظر».

«اسمعي، آنسة كانو. أنا ممتنٌّ للجهد الذي بذلتِهِ بخصوص القطّ، لكنْ لا مزاج لديَّ الآن لهذه التعميمات المهدِّئة. أشعرُ بالضياع. ضياع فعلًا. ثمَّة مكروه سيحدث، أشعرُ بهذا. لكنِّي لا أعرف ما الذي ينبغي عليَّ فعلُه. لا توجد لديَّ أدنى فكرة عمَّا يجب أن أفعلَه. أهذا واضح؟ بل إنِّي لا أعرف ما الذي ينبغي عليَّ فعلُه بعد هذه المكالمة. ما أحتاجُ إليه الآن هو الحقائق. حقائق ملموسة. لا يهمّ إنْ كانت حقائقَ تافهةً أو بسيطة. سأقبل أيّ حقائق. هل كلامي واضح؟ أريد شيئًا أستطيع أن أراه وألمسَه».

على الهاتف تناهى إلى مسامعي صوتُ شيء يسقط على الأرض. شيء غير ثقيل (ربَّما لؤلؤة) يسقط على أرضيَّة خشبيَّة. وتبع ذلك صوتُ فَركٍ، كما لو أنَّ أحدهم يضرب ورقةً شفَّافةً يمسكها بأطراف أصابعه. كان يبدو أنَّ هذه الحركات تَحْدث في مكانٍ غير قريب ولا بعيد عن الهاتف، لكنَّ مالطا كانو لم تكن تعبأ بها.

قالت بصوتٍ لا تعبير فيه: «فهمت. شيء ملموس».

«بالضبط. شيء ملموس قدر الإمكان».

«انتظر مكالمةً هاتفيَّة».

«كلُّ ما أفعلُه الآن هو انتظار مكالمة هاتفيَّة».

«ستصلك مكالمةٌ هاتفيَّة قريبًا من شخص يبدأ اسمه بحرف الألف».

«وهل يعرف هذا الشخص شيئًا عن كوميكو؟»

«لا أستطيع أن أجيبك عن هذا. إنَّني أُخبرك لأنَّك وافقتَ على أخذ أيِّ حقائق ممكنة. وهنا حقيقة أخرى: قريبًا سيظهر نصفُ قمر ويستمرّ عدَّة أيَّام».

«نصف قمر؟ تقصدين القمر في السماء؟»

«نعم، سيِّد أوكادا، القمر في السماء. على أيِّ حال، كلّ ما يمكنك فعله هو الانتظار. في الانتظار يكمن كلُّ شيء. مع السلامة. سأكلِّمك مرَّةً أخرى قريبًا». وأغلقتِ الخطّ.

*

أحضرتُ دفتر العناوين من طاولتي وفتحتُه على حرف الألف. هناك أربعة أسماء بالضبط مكتوبة بخطِّ يد كوميكو الأنيق. أوَّلُهم أبي، أوكادا. بعد ذلك صديق قديم من أيَّام الكلِّيَّة اسمُه أونودا، ثم طبيبُ أسنان اسمُه أوتسوكا، ثم محلّ أومورا لبيع الكحول.

يمكنني أن أضرب صفحًا عن محل أومورا؛ فهو على بعد عشر دقائق مشيًا من البيت، ونحن لا نتعامل معه إلَّا نادرًا حين نطلب صندوقَ بيرةٍ للتوصيل. طبيب الأسنان أيضًا غير مهمّ. ذهبتُ إليه قبل سنتيْن لعلاج سنِّي، لكنَّ كوميكو لم تذهب إليه قطّ. في الحقيقة لم تزر كوميكو أيَّ طبيب أسنان منذ أن تزوَّجنا.

أمَّا صديقي أونودا فلم أره منذ سنوات. بعد التخرُّج عمل في مصرف، ثم نُقل إلى فرع سابورو في السنة الثانية، وظلّ يسكن في هوكايدو منذ ذلك الوقت. أصبح الآن واحدًا من الذين أتبادل معهم معايدات السنة الجديدة، لا أكثر. ولا أذكر إنْ كان قد التقى كوميكو.

لم يبقَ إلَّا والدي، ولكنْ لا يمكن أن تكون لكوميكو علاقةٌ خاصَّة به. لقد تزوَّج ثانيةً بعد وفاة أمي، ولم أره أو أتواصل معه منذ ذلك الحين، منذ سنوات. بل إنَّ كوميكو لم تقابله أساسًا.

وأنا أقلِّب في دفتر العناوين أدركتُ أنَّني وكوميكو لا نتواصل مع الآخرين إلَّا لمامًا. فباستثناء بعض اللقاءات المفيدة مع الزملاء، لم تكن لنا أيُّ علاقات تقريبًا منذ أن تزوَّجنا. كنَّا نعيش حياةً منطوية، أنا وكوميكو فقط.

قرَّرتُ أن أطبخ سباغيتي للغداء من جديد. لم أكن جائعًا، لكنِّي لم أحتمل فكرةَ الجلوس على الأريكة وانتظار رنين الهاتف. عليَّ أن أتحرَّك، أن أعمل لإنجاز شيء. وضعتُ ماءً في القدر، وأشعلتُ الغاز، وأخذتُ أجهِّز صلصة الطماطم وأنا أستمع إلى الإذاعة. كانت سوناتة معزوفة على الكمان لباخ. الأداء نفسه كان رائعًا، لكنَّ شيئًا أزعجني فيه. لا أدري إنْ كانت المشكلة في عازف الكمان أم في مزاجي، لكنَّني أغلقتُ المذياع ورحتُ أطبخ في صمت. سخَّنتُ زيت الزيتون، وأضفتُ بعضَ الثوم وقِطع البصل. فلمَّا احمرَّت أضفتُ إليها الطماطم التي قطَّعتُها. كان تقطيعُ الأشياء وقليها هكذا جيِّدًا؛ فقد منحني إحساسًا ملموسًا بالإنجاز. أعجبتني الأصواتُ والروائح.

فلما غلى الماء وضعتُ الملحَ وحُفنةً من السپاغيتي، وأدرتُ منبِّهَ الفرن على عشر دقائق، ثم غسلتُ الأطباق. لم أشعر برغبة في الأكل حتى حين أصبح صحنُ السپاغيتي أمامي جاهزًا. بصعوبةٍ استطعتُ أن أُنهي نصفَه، فرميتُ النصفَ الآخر. أمّا ما تبقّى من الصلصة فقد وضعتُها في وعاء صغير وأدخلته الثلّاجة. لم تكنّ لديَّ شهيَّةٌ للأكل أصلًا.

كأنّي أتذكّر قصّةً قرأتُها قبل فترة طويلة عن رجل ظلَّ يأكل وهو ينتظر شيئًا يحدث. وبعد تفكير أدركتُ أنَّها كانت في رواية **وداعًا للسلاح** لهيمنغوي. تمكَّن البطل (نسيتُ اسمَه الآن) من الفرار من إيطاليا إلى سويسرا بالقارب. وفيما كان ينتظر في هذه البلدة السويسريَّة أن تضع زوجته مولودها، ظلَّ يروح ويغدو إلى المقهى كي يشرب أو يأكل شيئًا. لا أذكر أيَّ شيء عن حبكة الرواية، لكنَّ ما ثبت في ذاكرتي هو هذا الجزءُ القريبُ من النهاية، وفيه يتنقَّلُ البطلُ من وجبةٍ إلى أخرى وهو ينتظر مولد طفله في بلدٍ أجنبيٍّ. يبدو لي أنَّ السبب الذي يجعلني أتذكَّر هذه القصَّة بمثل هذا الوضوح هو مقدارُ الواقعيَّة الكثيفة فيها. فيبدو لي أشدَّ واقعيَّة، من وجهة نظر أدبيَّة، أن يؤدِّي اضطرابُ البطل إلى تدفُّق غير طبيعيّ في شهيَّته بدلًا من حرمانه إيَّاها.

ولكنْ على عكس **وداعًا للسلاح**، فقد فقدتُ شهيَّتي تمامًا وأنا أراقب عقارب الساعة في هذا البيت الهادئ، في انتظار حدوث شيء ما. وسرعان ما خطر لي أنَّ فقداني شهيَّتي قد يُعزى إلى انعدام هذا النوع من الواقعيَّة الأدبيَّة في شخصيَّتي. هكذا شعرتُ بأنَّني جزءٌ من روايةٍ رديئة، وبأنَّ شخصًا يُعاقبني لأنَّني غير

واقعيّ على الإطلاق. وربّما كان هذا صحيحًا.

*

رنَّ الهاتف أخيرًا، قُبَيْل الثانية ظهرًا.

جاءني صوتُ رجل غير مألوف: «هل هذا منزل السيّد أوكادا؟» صوتُ شابٍّ، خفيضٌ وناعم.

أجبتُ بصوت متوتّر بعضَ الشيء: «نعم».

«القطعة 2، رقم 26؟»

«صحيح».

«نتَّصل بك من محلّ أومورا. شكرًا لكم على تعاملكم المستمرّ معنا. كنتُ على وشك المغادرة لتحصيل المبالغ، وأردتُ أن أتأكّد إنْ كان الوقت مناسبًا لكم».

«مَبالغ؟»

«نعم، سيِّدي. حسب ما هو مسجَّلٌ عندي ثمَّة مبالغُ مستحقَّة لصندوقَيْ بيرة وصندوق عصير».

قلتُ وأنا أحاول أن أُنهي هذا الحوار: «آه، لا بأس. سأكون موجودًا في المنزل بعض الوقت».

بعد أن أغلقتُ الخطَّ رحتُ أسأل نفسي إنْ كان في تلك المحادثة أيُّ معلومات بخصوص كوميكو. ولكنْ مهما قلَّبتَ المحادثةَ من شتَّى الأوجه لم أَرَ فيها سوى مكالمةٍ عمليَّةٍ قصيرةٍ منَ دكّان. المؤكَّد أنّني طلبتُ منهم صندوقَيْ بيرة وصندوقَ عصير، وأوصلوها إليّ. بعد نصف ساعة وصل الشابّ، ودفعتُ ثمنَ البيرة والعصير. ابتسم الشابّ وهو يعبّئ وصلَ الاستلام.

«بالمناسبة سيّد أوكادا، هل سمعتَ عن الحادث الذي وقع صباح اليوم عند المحطّة؟ حوالى التاسعة والنصف».

فقلتُ مأخوذًا: «حادث؟ مَن كان في الحادث؟»

«فتاة صغيرة دهستْها سيّارةٌ عائدةٌ إلى الخلف. يُقال إنَّ إصابتها بليغة. وصلتُ إلى هناك بُعَيْد وقوع الحادث. من المؤلم أن ترى شيئًا كهذا في أوّل الصباح. يُرعبني الأطفالُ الصغار؛ فلا يمكنك أن تراهم من مرآة السيّارة. هل تعرف المغسلة التي عند المحطّة؟ وقع الحادثُ أمامها. هناك يوقفُ الناسُ درّاجاتهم، وهناك صناديق كثيرة بعضها فوق بعض. لا يمكن أن ترى شيئًا».

وما إنْ غادر حتى شعرتُ بأنّه لا يمكنني البقاءُ في المنزل دقيقةً أخرى. فجأةً بدا المكان ساخنًا فاسد الهواء، معتمًا وضيّقًا. انتعلتُ حذائي وخرجتُ بأسرع ما يمكن. بل إنّي لم أُقفل البابَ، وتركت النوافذَ مفتوحة ومصباحَ المطبخ مُضاءً. أخذتُ أتجوّل في الحيّ وأنا أمصُّ سكّرة ليمون. وبينما كنتُ أُعيد كلمات البائع الشابّ في رأسي تذكّرتُ أنّني تركت بعض الملابس عند مغسلة المحطّة. بلوزة كوميكو وتنّورتها. كان الإيصال في البيت، لكنّني إنْ ذهبت وسألت عن الملابس فقد يُعطيني إيّاها.

بدا الحيُّ مختلفًا بعضَ الشيء. للناس الذين مررتُ بهم نظرةٌ غير طبيعيّة، بل تكاد تكون مصطنعة. تفحّصتُ الوجوهَ وجهًا وجهًا، وأخذتُ أسأل نفسي: تُرى أيّ نوع من الناس هؤلاء؟ أيَّ بيوت يسكنونها؟ أيّ عائلات يعيلونها؟ أيّ حياة يعيشونها؟ أتُراهم

يضاجعون نساءً غيرَ زوجاتهم، أو رجالًا غيرَ أزواجهنَّ؟ أتراهم سعداء؟ هل يعرفون كيف تبدو نظرتُهم غيرَ طبيعيَّة، ومصطنعة؟

ما تزال علاماتُ الحادث الذي وقع صباحًا واضحةً عند المغسلة. فعلى الأرض خطوطٌ رسمتْها الشرطةُ، وعلى مقربة منها متسوِّقون يناقشون الحادثَ بتعابير ارتياعٍ على وجوههم. في الداخل كانت المغسلة كما هي. جهازُ الموسيقى الأسود نفسه، ونوعُ الموسيقى نفسه، وفي الخلف مكيِّفُ هواءٍ قديم يهدر، فيما تتصاعد سحبُ البخار من المكواة إلى السقف. كانت الأغنية هي «تيّار المدّ». روبرت ماكسويل، قيثارة. قلت في نفسي ليتني أستطيع الذهابَ إلى البحر. تخيَّلتُ رائحة الشاطئ وأصواتَ الموج وهو يتكسّر على الساحل. النوارسَ. علبَ البيرة الباردة.

قلت لصاحب المغسلة إنَّني نسيت الإيصال. «متأكِّد أنَّني أحضرتُ الملابس يوم الجمعة أو السبت الماضي. بلوزة، وتنُّورة».

قال وهو يقلِّب في صفحات دفتره: «أوكادا.. أوكادا.. نعم، ها هي. بلوزة واحدة، وتنُّورة واحدة. لكنَّ السيِّدة أوكادا استلمتْهما».

قلت مأخوذًا: «استلمتهما؟»

«صباحَ الأمس. أتذكَّر جيِّدًا أنَّني أعطيتُها الملابسَ بنفسي. أظنّ أنَّها كانت في طريقها إلى العمل. وأحضرتِ الإيصالَ معها».

لم أعرف بِمَ أُجيبه. أخذتُ أحدِّق فيه.

«اسأل المدام. لقد استلمتْهما، بالتأكيد». أخذ سيجارةً من علبة فوق صندوق المحاسبة، ووضعها بين شفتيْه ثم أشعلها بولّاعة.

«صباح الأمس؟ أم في المساء؟»

«صباحًا بالتأكيد. الثامنة صباحًا. كانت زوجتك أوّل زبونة. لا يمكن أن أنسى شيئًا كهذا. يعتدل مزاجُكَ حين يكون أوّل زبائنك امرأة شابّة، أليس كذلك؟»

لم أستطع أن أصطنع ولو مجرّد ابتسامةٍ له. والصوتُ الذي خرج منّي لم يبدُ صوتي. «حسنًا، وضح الأمر إذن. المعذرة، لم أكن أعرف أنّها استلمتهما».

هزَّ رأسه ونظر إليّ، ثم أطفأ سيجارته التي لم يسحب منها سوى نفسيْن أو ثلاثة، ثم عاد إلى مِكْواته. بدا أنّه يهمّ بقول شيء لي، لكنّه في النهاية قرّر أنْ لا يقوله. في المقابل، كنتُ أريد أن أسأله عن أشياء. تُرى كيف بدت كوميكو حين جاءت إلى المغسلة؟ ماذا كانت تحمل في يدها؟ لكنّني كنتُ مضطربًا وشديدَ العطش. أكثرُ ما كنتُ أريده هو أن أجلسَ في مكانٍ ما وأشربَ مشروبًا باردًا. شعرتُ بأنَّ هذا هو السبيل الوحيد لكي أستطيع التفكير في أيِّ شيء.

ذهبتُ مباشرةً إلى المقهى القريب وطلبتُ كأسًا من الشاي المثلَّج. كان المكان باردًا في الداخل، وكنتُ الزبون الوحيد. ثمّة سمّاعات صغيرةٍ على الجدار تتهادى منها نسخةٌ أوركستراليّةٌ من أغنية البيتلز، **ثمانية أيّام في الأسبوع**. تخيَّلتُ الشاطئ مرَّةً

أخرى. رأيتُ نفسي حافي القدميْن أمشي عند حافَّة الماء. الرمل ساخن جدًّا، والريح تحمل رائحةَ البحر الثقيلة. تنفَّستُ عميقًا ورنوتُ إلى السماء. مددتُ يديّ مفتوحتيْن إلى الأعلى، فشعرت بشمس الصيف تحرقهما. وسرعان ما جاءت موجةٌ باردةٌ تغسل قدميّ.

ما فعلتْه كوميكو غريبٌ من كلِّ النواحي. غريبٌ أن تستلم ملابسَها وهي في الطريق إلى العمل. فأوّلًا، لماذا تأخذ معها الملابسَ وهي تعرف أنَّها ستحشر نفسَها في المترو المزدحم، بملابس مكويَّة في علّاقات؟ ثم تعود بها من العمل إلى المنزل مرَّةً أخرى! ولماذا تأخذ ملابسَ مكويّةً سوف تتحوَّل بالتأكيد إلى كتلة تجاعيد في المترو؟ كانت كوميكو تهتمّ بهذه الأشياء كثيرًا ولا أتخيَّلها تُقْدم على فعلٍ عديمِ المنطق هكذا. فكلّ ما كان عليها أن تفعله هو أن تستلمَ الملابسَ وهي عائدةٌ من العمل، أو أن تطلب إليّ ـ إنْ كانت ستتأخَّر ـ أن أستلمها. ليس هناك إلَّا تفسير واحد، وهو أنَّها كانت تعرف أنَّها لن تعود إلى البيت. لقد ذهبتْ إلى مكانٍ ما، ومعها البلوزة والتنُّورة. بهذه الطريقة يكون لديها غيار واحد على الأقلِّ، ثم تستطيع أن تشتري ما تحتاج إليه. كانت تحمل معها بطاقاتِها الائتمانيَّة وبطاقتها البنكيَّة. يمكنها الذهاب إلى أيّ مكانٍ تريده.

ولا بدَّ من أنَّها كانت مع شخصٍ ما.. مع رجل. لا يوجد سببٌ آخر يدعوها إلى ترك البيت.

الأمر خطير. لقد اختفت كوميكو، وتركتْ كلَّ ملابسها وأحذيتها. كانت دائمًا ما تستمتع بشراء الملابس، وتُفْرد لها عنايةً

كبيرة. أن تترك البيتَ بملابس قليلة كتلك، فهذا يتطلَّب إرادةً قويَّة. لكنَّها، كما يبدو لي، لم تتردَّد في ترك البيت وليس معها إلَّا بلوزة وتنُّورة. لا، لا. ربَّما كانت الملابسُ آخرَ ما فكَّرت فيه.

استلقيتُ في مقعدي، بنصف إنصاتٍ إلى تلك الموسيقى المنقَّحة في الخلفيَّة، فتخيَّلتُ كوميكو تركب قطارًا مكتظًّا وهي تُمسك بملابسها في علَّاقاتها وتغليفها البلاستيكيّ. تذكَّرتُ لونَ الفستان الذي كانت ترتديه، ورائحةَ الكولونيا خلف أذنيْها، ونعومةَ ظهرها الرائعة. لا بدَّ من أنَّني كنتُ مرهقًا جدًّا، إذ شعرتُ بأنَّني إنْ أغمضتُ عينيَّ فسأسبح في مكانٍ آخر. سينتهي بي الأمرُ في مكانٍ غير هذا.

2

لا أخبار سعيدة في هذا الفصل

غادرتُ المقهى، وأخذت أهيم على وجهي. شعرتُ بالمرض والحمَّى لفرط الحرارة في هذه الظهيرة، لكنّني ذهبتُ إلى كلِّ مكان عدا البيت. كانت فكرةُ جلوسي وحيدًا أنتظر مكالمةً هاتفيَّة قد لا تأتي أبدًا فكرةً خانقة.

كلّ ما خطر لي آنذاك هو أن أذهب للقاء مايو كاساهارا. هكذا سرتُ إلى البيت، وتسلَّقت الجدار، ومشيتُ في الزقاق نحو بيتها. فلمَّا وصلتُ استندتُ على سور البيت الخالي في الجهة الأخرى من الزقاق، ورحتُ أُحدِّق في الحديقة وتمثالِ الطائر. بالتأكيد ستراني مايو لو وقفتُ هنا. فهي غالبًا ما تكون في البيت تراقب الزقاقَ من غرفتها، أو تتشمَّس في الفناء، عدا أحيانٍ قليلة

تذهب فيها إلى العمل لدى شركة الباروكات.

لكنّني لم أرَ أثرًا لمايو كاساهارا. ما من سحابةٍ في السماء، وضوءُ الشمس يحرق قفاي. رائحة العشب الثقيلة تتصاعد من الأرض وتستبيح صدري. حدَّقتُ في تمثال الطائر وحاولتُ التفكير في ما قاله لي عمّي عن مصائر مَن سكنوا هذا البيت. لكنْ كلُّ ما استطعتُ أن أفكِّر فيه هو البحر، والبرد، والزرقة. أخذتُ عدَّة أنفاس عميقة، طويلة. نظرتُ في ساعتي. كنتُ على وشك أن أفقد الأمل وأعود أدراجي، لكنْ مايو كاساهارا خرجتْ أخيرًا. كانت تمشي بتؤدةٍ في الفِناء ناحيتي، بسروال قصير وقميصٍ أزرق مزركش ونعالٍ صيفيّ. وقفت أمامي، فبدا لي أنَّها تبتسم من خلف نظّارتها الشمسيَّة.

«مرحبًا، سيِّد طائر الزنبرك. هل وجدتَ القطّ، نوبورو واتايا؟»

«ليس بعد. ما الذي أخَّركِ في الخروج اليوم؟»

وضعتْ يديْها في جيبَي سروالها، ونظرتْ حولها في اهتمام. «يا سيِّد طائر الزنبرك، ربَّما لديَّ وقتُ فراغ طويل، لكنِّي لا أعيش كي أحرسَ هذا الزقاق صباحَ مساء. لديَّ بعضُ الأشياء التي تَشْغلني. ولكن على أيِّ حال، أنا آسفة. هل انتظرتَ طويلًا؟»

«لا، ليس كثيرًا. لكنَّ الحرَّ شديد هنا».

تفرَّستْ مايو كاساهارا في وجهي، وعقدتْ حاجبيْها. «ما بكَ سيِّد طائر الزنبرك؟ تبدو في حالة مريعة، كما لو أنك أُخرجتَ

توًا من حفرةٍ في الأرض. ما رأيك أن تستريح هنا في الظلّ قليلًا؟»

أخذتْ يدي وقادتني إلى فِنائها. حرّكتْ كرسيًّا قماشيًّا إلى ظلّ شجرة بلّوطٍ، وأجلستني عليه. تحت تلك الفروع السميكة كانت ظلالٌ باردةٌ لها رائحة الحياة.

«لا داعي للقلق. كالعادة، لا يوجد أحد هنا. خذ وقتك، كفّ عن التفكير واسترخِ».

«لديَّ طلب».

«قل».

«أريدكِ أن تُجري مكالمةً هاتفيَّةً».

أخرجتُ دفترَ ملاحظات وقلمًا، وكتبتُ رقمَ مكتب كوميكو. ثم نزعتُ الصفحةَ وأعطيتُها إيَّاها. كانت الورقة دافئةً، رطبةً من العرق. «كلّ ما أريده منك هو أن تتَّصلي بهذا الرقم وتسألي إنْ كانت كوميكو أوكادا موجودة، وإنْ لم تكن موجودة فاسأليهم إنْ كانت قد ذهبتْ إلى العمل بالأمس؟»

أخذتْ مايو كاساهارا الورقةَ ونظرتْ إليها بشفتيْن مزمومتيْن، ثم نظرتْ إليَّ. «حسنًا، اتركْ الأمرَ لي. لا تفكِّر في شيء الآن واسترِحْ. ممنوعٌ أن تتحرَّك. سأعود بعد قليل».

ما إن ذهبتْ حتى تمدَّدتُ وأغمضتُ عينيّ كما أمرتني. كان العرق يتفصَّد من رأسي حتى قدميّ، وأشعر بنبضٍ في أعماق رأسي، وبأنَّ هناك كتلة من الأسلاك في معدتي. وبين وهلةٍ وأخرى تنتابني حالةٌ من الغثيان. كان الحيّ صامتًا تمامًا. فجأةً

خطر لي أنَّني لم أسمع طائرَ الزنبرك منذ فترة. ترى متى سمعتُه آخرَ مرَّة؟ ربَّما قبل أربعة أيَّام أو خمسة. لكنَّني لستُ متأكِّدًا. فحين لاحظتُ الأمر كانت قد مرَّت فترةٌ يصعب تحديدُها. لعلَّه كان طائرًا مهاجرًا. صحيح، فلم نسمعه إلَّا قبل شهر. وكان كلّ يومٍ يلفّ زنبرك عالمنا الصغير. كان هذا موسَم طائر الزنبرك.

عادت مايو كاساهارا بعد عشر دقائق، وناولتني كأسًا كبيرةً قرقع الثلجُ بداخلها حين أخذتُها. بدا لي أنَّ الصوت يأتيني من عالم بعيدٍ. بوَّابات عديدة تربط ذلك العالَم بالمكان الذي أجلس فيه، ولم أسمع الصوت إلَّا لأنَّ البوَّابات كانت مفتوحةً في تلك اللحظة. على أنَّ هذا كان أمرًا موقَّتًا؛ فإنْ أُغلقتْ بوَّابة واحدة فقط، فلن يصل الصوتُ إليَّ. قالت مايو: «اشربْ. هذا عصير ليمون في ماء، سوف يهدِّئك».

شربتُ نصفَ الكأس ثم أعدتُها إليها. عَبَرَ الماءُ البارد حلقي إلى أحشائي، فأخذتني نوبةُ غثيان شديدة. كتلة الأسلاك المتفسِّخة في معدتي بدأتْ تضطرب وتصعد إلى قاع حلقي. أغمضتُ عينيّ في انتظار أن ينتهي هذا الإحساس. فلمَّا أغمضتهما رأيتُ كوميكو تصعد القطار، وهي تمسك بالبلوزة والتنُّورة. قلتُ في نفسي لعلَّه من الأفضل أن أتقيَّأ. لكنَّني لم أفعل. أخذتُ عدَّة أنفاس عميقة إلى أن تضاءل ذلك الإحساس واختفى تمامًا.

قالت مايو كاساهارا: «هل أنت بخير؟»

«نعم».

«اتَّصلتُ بالرقم. قلتُ لهم إنَّني قريبتُها. لا مشكلة، صحّ؟»

«أها».

«كوميكو أوكادا تكون زوجةَ السيِّد طائر الزنبرك، أليس كذلك؟»

«آها».

«قالوا إنَّها لم تأتِ للعمل، لا اليوم ولا الأمس. رحلتْ هكذا، من دون أن تقول شيئًا. لديهم مشكلة حقيقيَّة الآن. يقولون إنَّها ليست من النوع الذي يفعل ذلك».

«هذا صحيح. ليس ذلك من طبعها».

«أوَلَمْ تعد منذ الأمس؟»

هززتُ رأسي نفيًا.

«مسكين سيِّد طائر الزنبرك». بدا من صوتها أنَّها ترأف بحالي فعلًا. وضعتْ يدَها على جبيني وقالت: «هل من شيء يمكنني أن أفعله؟»

«ليس الآن. ولكنْ شكرًا».

«هل تمانع لو سألتُك المزيد؟ أم تُفضِّل ألَّا أسأل؟»

«اسألي. لكنْ لا أدري إنْ كانت لديَّ الإجابة».

«هل هربتْ زوجتُكَ مع رجل؟»

«لستُ متأكِّدًا. ربَّما. هذا احتمال».

«بعد كلّ هذه السنوات، كيف لا تكون متأكِّدًا؟»

معها حقّ. كيف يمكن ألَّا أكون متأكِّدًا؟

قالت مرَّةً أخرى: «مسكين سيِّد طائر الزنبرك. ليتني أستطيع

أن أقول شيئًا يساعدك، لكنّني لا أعرف شيئًا عن الحياة الزوجيّة».

نهضتُ عن الكرسيّ. غير أنَّ الجهد الذي بذلتُه في ذلك كان أكبرَ بكثير ممّا تصوَّرت. «شكرًا على كلِّ شيء. ساعدتِني كثيرًا. عليَّ أن أذهب الآن. ينبغي أن أكون في البيت، فربَّما تعود. أو ربَّما يتَّصل شخص ما».

«ما إنْ تصل إلى البيت، استحمَّ. افعلْ هذا قبل أيِّ شيء. ثم البسْ ثيابًا نظيفة، واحلقْ ذقنَك».

«أحلق؟» مررتُ يدي على ذقني، فأدركتُ أنّي نسيتُ أن أحلقَ بالفعل. لم يخطرْ هذا في بالي طوال الصباح.

قالت مايو كاساهارا وهي تنظر في عينيَّ: «هذه الأشياء الصغيرة مهمَّة، سيِّد طائر الزنبرك. اذهبْ إلى البيت وانظرْ في المرآة جيِّدًا».

«سأفعل».

«أيمكنني أن أزورَكَ لاحقًا؟»

قلت: «نعم»، ثم هززتُ رأسي. «سيساعدني وجودُكِ».

هزَّت مايو كاساهارا رأسَها في صمت.

*

حين وصلتُ إلى البيت نظرتُ إلى وجهي في المرآة. فعلًا، كان منظري مروِّعًا. نزعتُ ملابسي، واستحممتُ، وحلقتُ ذقني، ونظَّفتُ أسناني، ووضعتُ مرطِّبَ ما بعد الحلاقة على وجهي، ثم نظرتُ في المرآة مرَّةً أخرى. يبدو أنَّ منظري الآن أفضلُ بقليل.

اختفى الشعورُ بالغثيان، غير أنَّ رأسي ما زال يدور قليلًا.

ارتديْتُ بنطالًا قصيرًا وقميصًا، ثم جلستُ في الشرفة مستندًا إلى عمودٍ أنظر في الحديقة ريثما يجفّ شعري. حاولتُ أن أرتِّب الأحداثَ التي وقعتْ في الأيَّام الأخيرة. أوَّلًا، اتِّصال الملازم ماميا. كان ذلك صباحَ الأمس؟ نعم، لا شكَّ في ذلك، صباحَ الأمس. قبل ذلك مغادرةُ كوميكو البيت. قبلها رفعتُ سحَّابَ فستانها. بعد ذلك وجدتُ علبةَ الكولونيا. ثم جاء الملازم ماميا وقصَّ عليَّ حكاياتِه العجيبة: كيف أَسَرَتْه قوَّاتُ منغوليا الخارجيَّة وألقتْه في البئرَ؛ ثم ترك لي تذكارًا من السيِّد هوندا، علبةً فارغة. ثم لم تأتِ كوميكو إلى المنزل. كانت قد استلمت ملابسَها من المغسلة صباحًا ثم اختفت، من دون أن تقول شيئًا للشركة التي تعمل فيها. إذن هذا كلّ ما حدث بالأمس.

لم أكد أصدِّق أنَّ كلّ هذا حدث في يوم واحد. هذا كثير جدًّا على يوم واحد. وبينما كنتُ أفكِّر مليًّا في ذلك، بدأتُ أشعر بالنعاس الشديد. لم يكن هذا نعاسًا عاديًّا. كان نوعًا شديدًا، عنيفًا. كان النوم ينزع وعيي مثلما ينزع المرءُ ملابسَه. ذهبتُ إلى غرفة النوم من دون تفكير، ونزعتُ ملابسي ما عدا الداخليَّة، واستلقيتُ على السرير. حاولتُ أن أنظر في الساعة التي بجانب السرير، لكنَّني لم أستطع مجرَّد الالتفات. أغمضتُ عينيَّ ورحتُ فورًا في نومٍ عميقٍ، عميق.

*

رأيتُ في منامي أنِّي أرفع سحَّاب فستان كوميكو. رأيتُ ظهرَها الأبيضَ الأملس. ولمَّا وصلتُ بالسحَّاب إلى الأعلى

أدركتُ أنَّها لم تكن كوميكو، بل كريتا كانو. كنَّا وحيدَيْن في الغرفة.

الغرفة نفسها التي كنَّا فيها في الحلم السابق، غرفة في الجناح الفندقيّ نفسه. على الطاولة زجاجةُ كَتي سارك وكأسان. إلى جانبها دلو مليئةٌ بالثلج. كان أحدُهم يَعْبر الممرّ في الخارج، ويتحدَّث بصوتٍ عال. لم أتبيَّن ما كان يقوله، إذ بدا أنَّه يتحدَّث لغة أجنبيَّة. ثُريَّا غير مُضاءة معلَّقة في السقف. أمَّا الضوء الوحيد في هذه الغرفة المعتمة فكان من مصابيحَ مثبَّتةٍ في الجدار. ومرَّةً أخرى كانت هناك ستائرُ سميكة تغطِّي النوافذ.

كانت كريتا كانو ترتدي فستانًا صيفيًّا من فساتين كوميكو، أزرقَ شاحبًا، مزخرفًا بأشكال طيور. كانت التنُّورة تصل إلى ما فوق ركبتَيْها. وكالعادة، كان مكياجُها على طريقة جاكلين كيندي. على معصمها الأيسر سِواران.

سألتُها: «من أين لكِ هذا الفستان؟ أهو فستانُكِ؟»

نظرتْ إليَّ وهزَّت رأسها، فتحرَّكتْ أطرافُ شعرها على نحوٍ جميل. «لا، ليس فستاني. استعرتُه، ولكنْ لا تقلقْ سيِّد أوكادا، لن يسبِّب ذلك أيَّ مشكلة لأحد».

«أين نحن؟»

لم تُجِبْ. ومثل المرَّة السابقة، كنتُ أجلس على حافَّة السرير. كنتُ أرتدي بذلةً، وربطةَ عنقي المنقَّطة.

«لا تشغل بالَكَ سيِّد أوكادا. لا شيء يدعو إلى القلق. كلّ شيء على ما يرام».

وكالمرَّة السابقة أيضًا، فتحتْ سحَّاب بنطالي، وأخرجت شيئي، ووضعتْهُ في فمها. الأمر المختلف هذه المرَّة هو أنَّها لم تخلع ملابسَها. كانت ترتدي ملابسَ كوميكو طوال الوقت. حاولتُ أن أتحرَّك، لكنَّني شعرتُ كما لو أنَّني مُقيَّد بخيوط غير مرئيَّة. وأحسستُ بشيئي ينتصب في فمها.

رأيتُ جفونَها المستعارة وأطرافَ شعرها تتحرَّك. والسواران يُصْدران صوتًا جافًا حين يحتكَّان بعضهما ببعض. كان لسانُها طويلًا ناعمًا، وكأنَّه يلفُّني تمامًا. فلمَّا أوشكتُ على القذف، ابتعدتْ فجأةً وبدأتْ تنزع عنِّي ملابسي ببطء. نزعتْ سترتي، وربطةَ العنق، والبنطال، والقميص، والملابسَ الداخليَّة، ثم جعلتني أستلقي على السرير. لكنَّها ظلَّت بملابسها. جلستْ على السرير، وأمسكت بيدي، فأدخلتْها من تحت فستانها. لم تكن ترتدي ملابسَ داخليَّة، فأحسستُ بدفء فَرْجها. كان عميقًا، دافئًا، ومبتلًّا جدًّا. كانت أصابعي مغروسةً داخلها.

«ألن يأتي نوبورو واتايا في أيِّ لحظة الآن؟ ألستِ في انتظاره؟»

لكنَّها لم تُجِبْ، بل مرَّرتْ أصابعَها على جبيني. «لا تشغلْ بالك سيِّد أوكادا. سنتولَّى كلَّ هذه الأمور. اتركْ كلَّ شيء علينا».

«عليكم؟» لكنَّها لم تُجِبْ.

وعندها اعتلتني كريتا كانو، وبيدها أدخلتني فيها. وما إنْ أصبحتُ داخلها، حتى بدأتْ تدوِّر فخذيْها بحركةٍ بطيئة. وفيما

هي تتحرَّك، كانت أطرافُ فستانها الأزرق تداعب معدتي وفخذيَّ. هكذا اعتلتني كريتا كانو بعد أن رفعتْ فستانَها وفرشَتْه حولها، فأصبحت مثل حبّة فطرٍ ناعمة ضخمة انبجستْ من بين الأوراق الميّتة على الأرض وتفتَّحتْ تحت جنح الليل. كان فرجُها دافئًا، وفي الوقت نفسه باردًا. كأنَّما كان يحاول أن يغلّفني، أن يشدّني إليه، لكنَّه في الوقت نفسه يدفعني بعيدًا. ازداد انتصابي، وأحسستُ بأنِّي سأتفجَّر لفرط الشهوة. كان ذلك إحساسًا غريبًا جدًّا، أبعدَ من مجرَّد المتعة الجنسيَّة. فقد أحسستُ كما لو أنَّ شيئًا بداخلها، شيئًا مميَّزًا بداخلها، يشقّ طريقَه عبر شيئي إلى داخلي.

كريتا كانو مغمضةُ العينيْن، ووجهُها مرفوع قليلًا، ترهز بهدوء كما لو كانت تحلم. رأيتُ صدرها يرتفع ويهبط من وراء فستانها مع كلِّ شهيق وزفير. ثمَّة خصلاتٌ من شعرها تعلَّقتْ بجبينها. تخيَّلتُ نفسي أسبح وحيدًا وسطَ بحر شاسع. أغمضتُ عينيَّ لأنصتَ إلى أصوات الأمواج وهي تضرب وجهي. كان ماء البحر الفاتر يغسلني من رأسي حتى قدمي. كنتُ أحسّ بتدفُّق التيَّار، إذ يحملني بعيدًا. قرَّرتُ أن أفعل ما قالته كريتا، ولا أُفكِّر في شيء. أغمضتُ عينيَّ، وأرخيتُ أطرافي، وسلَّمتُ نفسي للتيَّار.

فجأةً لاحظتُ أنَّ الغرفة صارت مظلمة. حاولتُ أن أنظر حولي لكنَّني لم أتبيَّن شيئًا. أُطفئتْ جميعُ الأنوار، وما من شيء أراه إلَّا طيفًا باهتًا من فستان كريتا كانو الأزرق وهي ترهز فوقي. قالت: «انسَ». لكنَّه لم يكن صوتَ كريتا كانو. «انسَ كلَّ شيء.

أنت نائم. أنت تحلم. تستلقي الآن على طين دافئ جميل. كلّنا من طين دافئ، وكلّنا نعود إليه».

كان صوتَ المرأة في الهاتف. تلك المرأة الغامضة أصبحت الآن هي التي تعتليني. وهي أيضًا ترتدي فستانَ كوميكو. لقد بدَّلتْ مكانَها مع كريتا كانو من دون وعي منّي. حاولتُ أن أقول شيئًا. لم أعرف ما أريد أقوله، لكنَّني على الأقلّ حاولت. كنتُ في حيرة شديدة، وصوتي يخونني، فكلّ ما استطعتُ أن أُخرجه من فمي دَفعةٌ من الهواء الساخن. فتحتُ عينيَّ عن آخرهما وحاولتُ أن أرى وجهَ المرأة التي تعتليني، لكنَّ الغرفة كانت مظلمة. لم تقل المرأة شيئًا، وإنّما بدأتْ تُحرِّك فخذيْها على نحوٍ أكثر شبقًا. كان جسمُها الناعم (والذي كان في حدّ ذاته نشوةً جنسيَّة) يغلّف انتصابي بحركة جذبٍ لطيفة. ومن خلفها سمعتُ (أو خُيِّل إليَّ أنَّني سمعتُ) صوتَ أحد يدير مقبضَ الباب. مرَّ ضوءٌ أبيض سريع في المكان. لعلَّ دلو الثلج المعدنيَّة عَكَست الضوءَ القادمَ من الممرّ، أو ربَّما كان الضوء التماعَ نصلٍ حادّ. لكنَّني لم أستطع أن أُفكّر أكثر. لم يعد في إمكاني أن أفعل سوى شيء واحد. قذفتُ.

*

اغتسلتُ، وغسلتُ ملابسي الداخليَّة لأُنظّفَها من المنيّ. هذا ما كان ينقصني! لماذا أحتلم في هذا الوقت العصيب من حياتي؟

مرَّةً أخرى ارتديتُ ثيابًا نظيفة، وعدتُ إلى الجلوس في الشرفة والنظر إلى الحديقة. كان ضوءُ الشمس يتراقص على كلّ شيء حولي، تغربله أوراقُ الشجر. بعد هطول المطر عدَّة أيّام

نَمَت حشائشُ خضراء كثيرة هنا وهناك، فمنحت الحديقةَ لونًا خفيفًا من الحطام والركود.

كريتا كانو مرَّةً أخرى. احتلامان اثنان في فترة قصيرة، وفي كلٍّ منهما كريتا كانو. لم أُفكِّر مرَّةً واحدة في أن أضاجعَها. لم تخطر لي قطّ مشاعرُ الرغبة فيها. ومع ذلك في المرَّتيْن كلْتَيْهما كنَّا معًا في تلك الغرفة نمارس الجنس. تُرى ما السبب؟ ومَن تكون امرأةُ الهاتف التي أخذتْ مكانها؟ كانت تعرفني، ويُفترض أنَّني أعرفها أيضًا. استرجعتُ جميعَ النساء اللائي مارستُ الجنس معهنَّ في حياتي، ولكنْ لا يمكن أن تكون أيٌّ منهنَّ امرأةَ الهاتف. ومع ذلك، فثمَّة ما يبدو مألوفًا فيها. وهذا ما كان يُغيظني. كان هناك ما يشبه الذكرى التي تحاول أن تشقّ طريقَها. أشعر بها تضرب في زوايا رأسي. كلُّ ما أحتاج إليه إشارة. فإن سحبت ذلك الخيط الصغير سوف يتكشَّف كلّ شيء. كان اللغز في انتظاري، لكنَّني لم أستطع أن أعثر على ذلك الخيط.

كففتُ عن محاولة التفكير. انسَ. كلّ شيء. أنت نائم. أنت تحلم. تستلقي الآن على طين دافئ جميل. كلُّنا من طين دافئ، وكلُّنا نعود إليه».

*

دقَّت ساعةُ السادسة، وما من مكالمةٍ هاتفيَّة. جاءت مايو كاساهارا. قالت إنَّها ترغب في رشفة بيرةٍ لا أكثر، فأحضرتُ علبةً باردةً من الثلَّاجة وشربتُها معها. كنتُ في الحقيقة جائعًا، فأعددتُ لنفسي شطيرةً من لحم الخنزير مع قطعة خسٍّ. فلمَّا رأتني مايو أتناولها رغبتْ هي الأخرى في شطيرةٍ مثلها، فأعددتُ

واحدة لها وأخذنا نأكل في صمتٍ ونرشف بيرتنا. كنتُ أحدِّق في ساعة الحائط طوال الوقت.

«ألا تملك تلفازًا في بيتك؟»

«كلَّا».

عضَّت شفتَها وقالت: «كنتُ متأكِّدة. أَلَا تُحبّ التلفاز؟»

«لا أكرهه. لكنَّ حياتي تسير على ما يرام من دونه».

سكتتْ مايو كاساهارا برهةً، ثم قالت: «كم مضى على زواجك يا سيِّد طائر الزنبرك؟»

«ستّ سنوات».

«واستطعتَ أن تقضي ستّ سنوات من دون تلفاز؟»

«نعم. في أوَّل الأمر لم نكن نملك ما يكفي من المال لشراء تلفاز، لكنَّنا بعد ذلك اعتدنا أن نعيش من دونه. الحياة أكثر هدوءًا هكذا».

«لا بدَّ من أنَّكما كنتما سعيدَيْن».

«ما الذي يجعلكِ تقولين هذا؟»

تغضَّن وجهُها ثم قالت: «بصراحة، لا أستطيع أن أعيش يومًا واحدًا من دون تلفاز».

«لأنَّكِ غير سعيدة؟»

لم تُجِب عن سؤالي. «لكنَّ كوميكو رحلتْ، ولا بدَّ من أنَّك لم تعدْ سعيدًا سيِّد طائر الزنبرك».

«بالضبط». أومأتُ إليها موافقًا، وشربتُ بيرتي.

وضعتْ مايو سيجارةً بين شفتيْها، وأشعلتْ عودَ ثقابٍ بحركة متمرِّسة، ثم قالت: «والآن، سيِّد طائر الزنبرك، أريد منكَ أن تُخبرني الحقيقة بكلِّ صراحة. هل تراني قبيحة؟»

وضعتُ كأسَ البيرة على الطاولة، ونظرتُ إلى وجهها. كنتُ طوال الوقت أُفكِّر في أشياء أخرى وأنا أتكلَّم معها. كانت ترتدي قميصًا أسود فضفاضًا، يكشف عن نهدَيْها الصغيريْن.

«ليس فيكِ شيء من قبح بالتأكيد. لِمَ هذا السؤال؟»

«كان حبيبي دائمًا ما يقول إنَّني قبيحة، وإنَّني أكاد لا أملك نهدَيْن».

«أهو الفتى الذي حطَّم الدرَّاجة؟»

«نعم. إنَّه هو».

رأيتُها تنفث دخانَ سيجارتها بهدوء. «من عادة الفتيان في هذه السنِّ أن يقولوا مثلَ هذه الأشياء. فهم لا يعرفون كيف يعبِّرون عن مشاعرهم، لذلك يفعلون ويقولون عكسَ ما يشعرون به. يجرحون الآخرين بلا سبب، ويجرحون أنفسَهم كذلك. على أيِّ حال، لستِ قبيحةً أبدًا. بل إنَّك جميلة جدًّا، وهذه ليست مجاملة».

فكَّرتْ مايو كاساهارا بما قلتُه برهةً. نفضتْ رمادَ سيجارتها في علبة البيرة الفارغة، ثم قالت: «هل زوجة طائر الزنبرك جميلة؟»

«همم، يَصعُب عليَّ تحديدُ ذلك. هي جميلة في عين البعض، وليست جميلةً في عين البعض الآخر. إنَّها مسألة ذوق».

«أها». وأخذت تنقر على كأسها كما لو كانت متململة.

«أين حبيبُكِ صاحبُ الدرَّاجة؟ ألم يعد يأتي لرؤيتك؟»

قالت وهي تلمس الندبةَ عند عيْنها اليُسرى: «كلّا. وبالتأكيد لن أراه ثانيةً. متأكّدة مئتيْن في المئة. أقطعُ إصبع قدمي الصغير لو جاء مرَّةً أخرى، لكنِّي على العموم لا أودُّ أن أتحدَّث عن ذلك. هناك أشياء لا تحدث إنْ تكلَّمتَ عنها. تفهم قصدي، أليس كذلك سيِّد طائر الزنبرك؟»

«أظنّ ذلك». ثم ألقيتُ نظرةً سريعةً على الهاتف. كان فوق الطاولة، غارقًا في صمته. مثلَ كائن بحريٍّ في قاع البحر يتظاهر بأنَّه لا يتحرَّك فيما هو ينتظر فريسَته.

«سأخبركَ بكلِّ شيء عنه يومًا ما. حين أكونُ راغبةً في الكلام، ولكنْ ليس الآن».

نظرتْ إلى ساعتها وقالت: «عليَّ العودة إلى البيت. شكرًا على البيرة».

أوصلتُها إلى جدار الحديقة. كان القمر شبهَ مكتمل، يصبّ نورَه المبرغل فوق الأرض. ذكَّرني منظرُ البدر باقتراب دورة كوميكو الشهريَّة. ولكنْ ربَّما لم يعد لي شأنٌ بهذا. شعرتُ بوخزٍ حادٍّ في صدري من هذا الخاطر. باغتني هذا الألمُ الشديد؛ فهو يُشبه الحزن.

قالت مايو كاساهارا بعد أن وضعتْ يدَها على الجدار: «قل لي سيِّد طائر الزنبرك، أنت تحبّ كوميكو، أليس كذلك؟»

«أعتقد أنَّني أُحبّها».

«رغم أنَّها ربَّما هربتْ مع عشيقها؟ إذا قالت لك إنَّها تودّ الرجوع إليك، فهل ستَقْبَل؟»

تنهَّدتُ، ثم قلت: «هذا سؤال صعب. ينبغي التفكيرُ فيه حين يحدث الأمرُ فعلًا».

قالت مايو وهي تطقّ بلسانها: «آسفة لتدخُّلي في ما لا يعنيني. لا تغضبْ. إنَّني أحاول أن أفهم وأتعلَّم، لا أكثر. أريد أن أفهم ما يدعو الزوجةَ إلى الهروب. هناك أشياء كثيرة أجهلها».

«لستُ غاضبًا». ثم ألقيتُ نظرةً أخرى إلى البدر.

«حسنًا سيِّد طائر الزنبرك. كُنْ بخير. أرجو أن تعود زوجتُكَ وأن يسير كلُّ شيء على ما يرام».

تحرَّكتْ مايو بخفَّةٍ مذهلة، فتسلَّقت الجدارَ ومضت في عتمة الليل.

*

عدتُ إلى وحدتي مرَّةً أخرى بعد ذهاب مايو كاساهارا. جلستُ في الشرفة أُفكِّر في أسئلتها. لو أنَّ كوميكو رحلتْ مع عشيقها، فهل أقبل أن تعودَ إليَّ ثانيةً؟ لست أدري. فعلًا لم أكن أدري. ثمَّة أشياء كثيرة كنتُ أجهلها.

رنَّ الهاتف فجأةً، فانطلقتْ يدي تلتقط السمَّاعة. كان صوت امرأة. قالت: «أنا مالطا كانو. أرجو أن تعذرني على اتِّصالاتي المتكرِّرة سيِّد أوكادا، لكنَّني كنتُ أودّ أن أتأكَّد إنْ كانت لديك أيَّة مخطَّطات ليوم الغد».

قلتُ لها أنْ لا مخطَّطات لديَّ. لم يكن من طبعي التخطيط.

«في هذه الحالة إذن، أيمكنني أن أقابلك عصرَ الغد؟»

«هل للأمر علاقةٌ بكوميكو؟»

قالت مالطا كانو وهي تختار ألفاظَها بعناية: «أعتقد ذلك. وعلى الأرجح سيكون معنا نوبورو واتايا».

كادت السمَّاعة أن تسقط من يدي حين سمعتُ ما قالته. «تقصدين أنَّنا نحن الثلاثة سنلتقي ونتحدَّث؟»

«نعم. هذا ما أقصده. الوضع الحاليّ يحتِّم ذلك. المعذرة، لكنَّني لا أستطيع أن أذكر أيَّ تفاصيل أخرى على الهاتف».

«أها. لا بأس إذن».

«هل يُناسبكَ أن نلتقي عند الساعة الواحدة؟ في المكان نفسه. مقهى فندق شينغاوا پاسِفِك».

فقلتُ مؤكِّدًا: «نعم، الساعة الواحدة في مقهى فندق شينغاوا پاسِفِك». وأغلقتُ الخطّ.

*

اتَّصلت بي مايو كاساهارا عند الساعة العاشرة. لم يكن لديها شيء محدَّد تقوله، لكنَّها شعرت بالرغبة في التحدُّث مع شخصٍ ما. تكلَّمنا في مواضيع عابرة بعض الوقت، وفي النهاية قالت: «هل من أخبار سعيدة منذ أن تركتك؟»

«لا أخبار سعيدة. أبدًا».

3

نوبورو واتايا يتحدَّث
حكاية القرود في جزيرة الخراء

وصلتُ إلى المقهى قبل الموعد بعشر دقائق، لكنَّ نوبورو واتايا ومالطا كانو كانا قد وصلا قبلي وجلسا إلى طاولةٍ في انتظاري. ورغم ازدحام المكان بسبب وقت الغداء، فإنَّني لمحتُهما مباشرةً. إذْ لا أشخاص كثيرين يرتدون قبَّعات حُمْرًا في الصيفيَّات المشمسة. لا بدَّ من أنَّها القبَّعة التي كانت ترتديها يومَ التقيتُها، إلَّا إذا كانت تملك مجموعةَ قبَّعاتٍ من هذا اللون والشكل. كانت ملابسها بسيطةً وأنيقةً كالسابق: معطفًا قصير الكمَّيْن، وتحته قميصٌ قطنيّ. كلاهما ناصعُ البياض من دون أيّ تجاعيد. لا إكسسوارات، ولا مكياج. لا يوجد ما يتعارض مع

هذه البساطة سوى القبَّعة الحمراء، غير أنَّها نزعتْها حين اتَّخذتُ مقعدي إلى الطاولة كأنَّما كانت تنتظر وصولي لتفعل ذلك. وضعتِ القبَّعة على الطاولة، وإلى جانبها حقيبة جلديَّة صفراء صغيرة. يبدو أنَّها طلبتْ زجاجةَ مياه غازيَّة، لكنَّها لم تَقْربها، مثل آخر مرَّة. لا أدري لماذا يبدو هذا الماءُ غيرَ مرتاح في زجاجته الطويلة، كأنَّه لا يملك إلَّا أن يصدر فقَّاعاتِهِ الصغيرة.

أمَّا نوبورو واتايا فكان يرتدي نظَّارة شمسيَّة خضراء. وما إنْ جلستُ، حتى خلعها وأخذ يحدِّق فيها برهةً، ثم ارتداها مرَّةً أخرى. يلبس معطفًا قطنيًّا أزرق، وتحته قميص أبيض يبدو جديدًا. أمامه كأس شاي مثلَّج، لكنَّه لم يَقْربه هو أيضًا حتى الآن.

طلبتُ قهوةً ورشفتُ رشفةً من ماء مثلَّج. لم يتحدَّث أحد منَّا. بل إنَّ نوبورو واتايا لم يبدُ أنَّه لاحظ وصولي. وضعتُ يدي على الطاولة وأخذتُ أدوِّرها بضع مرَّات، كي أتأكَّد من أنَّني لم أصبح رجلًا خفيًّا هكذا فجأة. جاء النادل ووضع كوبًا أمامي، وصبَّ القهوةَ فيه. وما إنْ ذهب حتى تنحنحتْ مالطا كانو كما لو أنَّها تجرِّب ميكروفونًا، لكنَّها لم تقل شيئًا.

أوَّل من تحدَّث كان نوبورو واتايا. «ليس عندي وقت طويل. دعونا ندخل في الموضوع ونختصر قدرَ الإمكان». كان يبدو كما لو أنَّه يوجِّه كلامه إلى طاسة السكَّر فوق الطاولة، لكنَّه بطبيعة الحال كان يقصدني. طاسة السكَّر كانت مجرَّد وسيطٍ يستطيع أن يوجِّه إليَّ الكلامَ من خلاله.

قلتُ بأسلوب مباشر: «نختصر ماذا بالضبط؟»

أخيرًا نزع نوبورو واتايا نظّارته، وطواها ثم وضعها على الطاولة، ونظر في عينيّ. لقد مضت أكثرُ من ثلاث سنوات على آخر لقاءٍ بيننا، لكنّني لم أشعر بهذا الفاصل الزمنيّ، إذ كان وجهُه يظهر أمامي طوال الوقت في وسائل الإعلام. ثمّة نوع من المعلومات يشبه الدخان؛ إذ يصل إلى عينيْك وعقلك سواء أردت ذلك أم لم ترد، دونما أيّ اعتبار لرغبتك.

ولأنّني مجبر الآن على رؤية نوبورو واتايا وجهًا لوجه، فلم أملكْ إلّا أن ألاحظ كيف غيّرتْ هذه السنواتُ الثلاث الانطباعَ الذي يتركه وجهُه على الآخرين. فنظرتُه الباهتة الجامدة قد توارت، وحلّ محلّها شيء مُصطنع، مصقول. لقد استطاع أن يجد لنفسه قناعًا جديدًا أكثر تكلُّفًا، قناعًا مُتقنًا بالتأكيد. بل ربّما بدّل جلدَه تمامًا. وسواء أكان قناعًا أمْ جلدًا، فعليّ الاعتراف (حتى أنا لا بدّ من أن أعترف) بأنّ له قوّة جاذبيّة من نوعٍ ما. وفجأةً أدركتُ الأمر؛ فالنظر إلى وجهه يشبه النظرَ إلى التلفاز. كان يتحدّث بالطريقة التي يتحدّث بها الناسُ على التلفاز، ويتحرّك كما يتحرّكون. كانت هناك دائمًا طبقة زجاجيّة بيننا. كنتُ في هذه الجهة، وهو في الجهة الأخرى.

«متأكّدٌ أنّك تعرف جيّدًا أنّنا جئنا اليوم هنا لنتحدّث بخصوص كوميكو. كوميكو وأنت. عن مستقبلكما. عمّا ستفعلانه».

قلتُ وأنا أرفع كوبَ القهوة أرشف منه: «سنفعله؟ هل لك أن توضح أكثر؟»

نظر إليّ نظرةً غريبةً بعينيْن خاليتيْن من أيّ تعبير. «أوضِّح أكثر؟ لقد اتَّخذتْ كوميكو لنفسها عشيقًا. هجرتْكَ. بطبيعة الحال لا أظنّك تعتقد أنَّ أيًا من أطراف هذا الوضع الحاليّ يريد له الاستمرار. لن يكون هذا من صالح أحد».

«اتَّخذتْ عشيقًا؟»

قرَّرتْ مالطا كانو أن تتدخَّل هنا. «لحظة من فضلك. في نقاشٍ مثل هذا ينبغي اختيارُ الألفاظ الملائمة. سيِّد واتايا وسيِّد أوكادا، من المهمّ أن نمضي في الأمر بنظام».

فقال نوبورو واتايا من دون أيّ حسٍّ بالحياة في صوته: «لا أرى ذلك. لا يوجد نظام في هذا الأمر. أيّ نوعٍ من النظام تقصدين؟ ليس لهذا النقاش أيّ نظام».

قلتُ لمالطا كانو: «دعيه يتحدَّث أوَّلًا. ويمكننا أن نفرض النظامَ الملائمَ لاحقًا، على افتراض وجود نظام».

نظرتْ إليَّ بضع ثوان بشفتيْن مزمومتيْن قليلًا، وأومأتْ. «لا بأس. سيِّد واتايا أوَّلًا، تفضَّل».

«هناك رجل آخر في حياة كوميكو. وقد هربتْ معه الآن. هذا واضح. ما يعني أنْ لا منطق في استمرار زواجهما. ومن حسن الحظِّ أنَّهما لم يُنجبا. وبالنظر إلى الظروف الحاليَّة فلا يوجد ما يدعو إلى نقل ملكيَّة أو أموال. يمكن تسويةُ الأمور بسرعة. كلّ ما عليها فعله هو أن تسحب اسمَها من سجلِّ أسرتك، وعليك أن توقِّع وتختم بضع استمارات قانونيَّة، وينتهي الأمر. وسأقول شيئًا لتجنُّب أيّ سوء فهم. ما أقوله الآن هو

الرأي النهائيّ لعائلة واتايا».

شبكتُ ذراعيّ ورحتُ أفكِّر في كلامه برهةً. «لديَّ بضعة أسئلة. أوَّلًا، كيف عرفتَ أنَّ في حياة كوميكو رجلًا آخر؟»

«هي التي أخبرتني».

لم يكن لديَّ ردّ. وضعتُ يديَّ على الطاولة والتزمتُ الصمت. لا أكاد أصدِّق أن تلجأ كوميكو إلى نوبورو واتايا في مسألةٍ خاصَّةٍ كهذه.

«اتَّصلتْ بي الأسبوع الماضي وقالت إنَّ لديها موضوعًا تريد أن تناقشني فيه. التقينا وتحدَّثنا، وجهًا لوجه. وفي هذا اللقاء أخبرتني أنَّها على علاقةٍ برجل آخر».

لأوَّل مرَّةٍ منذ أشهر أشعر برغبةٍ في التدخين. لم تكن معي سجائر بالطبع. لكنَّني رشفتُ من قهوتي، وأعدتُ الكوبَ فوق صحنه بصوت عالٍ.

«ثم تركَت البيت».

«هكذا إذن. فما دمتَ قد قلت ذلك، فلا بدَّ من أن يكون صحيحًا! كوميكو على علاقة برجل آخر، ولجأتْ إليكَ لطلب النصيحة. يصعب عليَّ أن أُصدِّق هذا، لكنَّني أيضًا لا أتخيَّل أنْ تكذب عليَّ في مسألة كهذه».

قال نوبورو واتايا، بلمحة ابتسامة على شفتيْه: «لا، بالطبع لا أكذب».

«إذن هل هذا كلُّ ما لديك؟ كوميكو هجرتني من أجل رجلٍ آخر، وعليَّ أن أوافق على الطلاق؟»

ردَّ نوبورو واتايا بإيماءةٍ صغيرة، كأنَّما يحاول أن يوفِّر طاقته. «تُدرك ولا شكَّ أنَّني لم أكن ميَّالًا إلى زواج كوميكو منك أصلًا. لم أتدخَّل في الأمر، مفترضًا أنَّه لا يعنيني، لكنَّني الآن أكاد أتمنَّى لو تدخَّلتُ». أخذ رشفةً من الماء ثم أعاد كأسَه إلى الطاولة. وتابع يقول: «من أوَّل يوم التقَيْتُكَ فيه أدركتُ أنَّه لا أمل في أن تصل إلى شيء ذات يوم. لم أجد فيك أيَّ علامةٍ واعدة، لا شيء فيك يُشير إلى أنَّك ستحقِّق شيئًا ذا قيمة أو أن تجعل من نفسك إنسانًا محترمًا. لا شيء. كنتُ أعرف أنَّك لا تستطيع إنجاز شيء، وأنَّك لن تصل في أيِّ شيءٍ إلى نهايته. كنتُ على حقٍّ. مضى على زواجك من أختي ستّ سنوات، فماذا فعلت طوال هذا الوقت؟ لا شيء، صحيح؟ كلّ ما حقَّقته في هذه السنوات الطوال هو أنَّك تركتَ وظيفتك ودمَّرت حياة كوميكو. والآن أنت عاطل ولا هدف لك للمستقبل. لا شيء في رأسك هذا سوى الصخر والقمامة. لا أفهم أبدًا كيف ارتبطتْ كوميكو بشخصٍ مثلك. لعلَّها اعتقدت أنَّ الصخور والقمامة التي في رأسك جديرةٌ بالاهتمام. ولكنْ في نهاية المطاف تبقى القمامةُ قمامةً والصخورُ صخورًا. منذ البداية لم تكن اختيارًا صحيحًا لها. لا أقول إنَّ كوميكو كاملة، فهي أيضًا لها طباعٌ غريبة منذ طفولتها، لسببٍ أو لآخر؛ وربَّما هذا ما جعلها تنجذب إليك. لكنَّ هذا كلّه قد ولَّى. على أيِّ حال، الأفضل أن ننتهي من هذا الأمر بأسرع ما يمكن. سنهتمّ أنا والداي بأمر كوميكو. ونُريدك أن تبتعد. ولا تحاول أن تجدها. لم يعد لك شأن بها. تدخُّلك في الأمر سيزيد الطِّينَ بِلَّةً. أفضلُ ما يمكن أن تفعله هو أن تبدأ

حياةً جديدةً في مكان جديد. حياة تناسبك أكثر. سيكون هذا أفضلَ خيارٍ لك ولنا».

ولكي يشير نوبورو واتايا إلى أنَّه انتهى من كلامه، ازدرد ما بقي من الماء في كأسه، وطلب من النادل أن يُحضر له كأسًا أخرى.

سألتُه: «هل لديك شيء آخر؟»

هذه المرَّة أجاب بهزَّةٍ خفيفة من رأسه.

فقلتُ لمالطا كانو: «في هذه الحالة إذن، ما النظام الملائم لهذا النقاش؟»

أخرجتْ مالطا من حقيبتها منديلًا صغيرًا أبيض اللون ومسحت به أطراف فمها. ثم التقطتْ قبّعتها الحمراء من الطاولة ووضعتها فوق الحقيبة.

«أعلمُ أنَّ هذا كلَّه صادمٌ بالنسبة إليك سيّد أوكادا. من ناحيتي أجد الأمر مؤلمًا جدًّا أن أتحدَّث فيه معك وجهًا لوجه».

ألقى نوبورو واتايا نظرةً سريعةً إلى ساعته كي يتأكَّد من أنَّ العالم ما يزال يتحرَّك وأنَّ وقته الثمين يضيع.

«يبدو أنَّه ينبغي عليَّ الآن أن أتحدَّث بصراحة واختصارٍ قدرَ الإمكان. لقد جاءتني السيِّدة أوكادا أوَّلًا، لطلب النصح».

فقاطعها نوبورو واتايا: «بناءً على نصيحتي. فقد جاءتني كوميكو للحديث عن قطّها، وأنا من عرَّفها بالسيِّدة كانو».

سألتُ مالطا كانو: «هل كان هذا قبل أن أقابلَكِ أم بعد ذلك؟»

«قبل ذلك».

«في هذه الحالة إذن، لكي نضع الأحداثَ في ترتيبها الصحيح، سار الأمرُ كالتالي. كوميكو عرفتْكِ من خلال نوبورو واتايا، ثم التقتْكِ للحديث عن القطّ الضائع. وبعدها، لسببٍ لا أعرفه حتى الآن، أخفَتْ عنّي حقيقةَ أنَّها التقتْكِ، ورتَّبتْ لي لقاءً معك، والتقينا في هذا المكان نفسه. هل هذا صحيح؟»

«هذا تقريبًا صحيح. أوَّلُ حديث لي مع السيِّدة أوكادا كان بخصوص القطّ. لكنَّني شعرتُ بأنَّ هناك شيئًا آخر، لذلك طلبت أن أقابلك. بعد ذلك كان ضروريًّا أن ألتقي السيِّدة أوكادا مرَّةً أخرى وأسألها عن أمور خاصَّةٍ أعمق».

«وعندها أخبرتْكِ أنَّها على علاقةٍ برجل».

«نعم. باختصار، هذا ما حدث. ولستُ في موقعٍ يسمح لي بالخوض في أيِّ تفاصيل».

أطلقتُ تنهيدةً. أعرف أنَّها بلا جدوى، لكنَّه شيء كان ينبغي أن أفعله. «إذن، كوميكو كانت على علاقة بهذا الشخص منذ مدَّة؟»

«منذ شهريْن ونصف الشهر تقريبًا».

«منذ شهريْن ونصف الشهر. كيف يمكن أن تستمرّ علاقتُهما شهريْن ونصف الشهر من دون أن ألاحظَ شيئًا؟»

«لأنَّك لم تشكّ في زوجتَكِ قطُّ سيِّد أوكادا».

هززتُ رأسي موافقًا. «صحيح. لم يخطرْ لي هذا قطّ. لم

أتخيَّل أن تكذب عليَّ كوميكو هكذا. وإلى الآن لا أستطيعُ تصديقَ الأمر».

«بصرف النظر عن النتائج، فإنَّ الثقة المطلقة بشخصٍ آخر هي واحدةٌ من أنبل الخصائص التي يمكن أن يمتلكَها المرء».

قال نوبورو واتايا: «ليس من السهل امتلاكُها».

جاء النادل وملأ كوبي بالقهوة. كانت امرأةٌ عند الطاولة المجاورة تضحك بصوتٍ عالٍ.

قلتُ لنوبورو واتايا: «حسنًا إذن، ما الغرض النهائيّ من هذا اللقاء؟ لِمَ نحن الثلاثة هنا؟ كي أوافق على الطلاق؟ أم أنَّ هناك هدفًا خفيًّا أكبر؟ ثمَّة نوع من المنطق في ما قلتَه سابقًا، لكنَّ الأجزاء المهمَّة ما تزال غامضة. تقول إنَّ لكوميكو عشيقًا وإنَّها تركت البيت. أين ذهبتْ إذن؟ وماذا تفعل؟ هل هي بمفردها أم معه؟ ولماذا لم تتواصل معي؟ لو أنَّها على علاقةٍ فعلًا برجلٍ آخر فقد قُضي الأمر. لكنَّني لن أصدِّق إلَّا إذا سمعتُ هذا منها شخصيًّا. هل تفهم؟ الوحيد الذي لكلامه قيمةٌ هنا كوميكو، وأنا. نحن الذين ينبغي أن نتحدَّث ونقرِّر. لا شأن لك بالأمر».

أزاح نوبورو واتايا كأسَ الشاي المثلَّج الذي لم يَقْربه. «نحن هنا لكي نُعْلِمكَ بما حدث. طلبتُ من السيِّدة كانو أن تكون هنا لأنَّني ارتأيتُ أنَّه من الأفضل حضور طرف ثالث. أنا لا أعرف مَن يكون الرجل الذي في حياة كوميكو، ولا أعرف أين هي الآن. كوميكو امرأة ناضجة، ولها أن تفعلَ ما يحلو لها. لكنْ حتى لو كنتُ أعرفُ مكانَها، فبالتأكيد لن أُخبرك. لم تتواصلْ

معك لأنَّها لا تريد التحدُّث إليك».

«ومع ذلك أرادت التحدَّث إليك أنت. تُرى هل أخبرتْكَ بكلِّ شيء؟ حسب علمي علاقتُها بكَ سطحيَّة».

«لو كانت علاقتُها بكَ أنت قويَّة، فلماذا ضاجعتْ رجلًا آخر؟»

سَعَلتْ مالطا كانو قليلًا.

أكمل نوبورو واتايا: «أخبرتني كوميكو أنَّها على علاقةٍ برجل آخر. وقالت إنَّها تريد إنهاءَ علاقتها بك تمامًا. نصحتُها بالطلاق، فقالت إنَّها ستفكِّر في الأمر».

«هل هذا كلّ شيء؟»

«وما الذي بقي غير هذا؟»

«لا أصدِّق أنَّ كوميكو قد تلجأ إليكَ أنتَ في مسألة مهمَّةٍ كهذه. أنت آخرُ شخص يمكنها أن تستشيره في موضوعٍ كهذا. إمَّا أن تحلّ الأمرَ بنفسها وإمَّا أنْ تتحدَّث إليَّ. لا بدَّ من أنَّها قالت لك شيئًا آخر. فهي إنْ اضطرَّت إلى الحديث معك، فلا بدَّ من أن يكون الأمر بخصوص شيء آخر».

رسم نوبورو واتايا ابتسامة شاحبةً جدًّا على شفتيْه، ابتسامةً باردةً مثل قمرٍ فضِّيٍّ يحوم في سماء الفجر. ثم قال بصوت خافت لكنَّه مسموع: «هذا ما يقصدونه حين يتحدَّثون عن السماح للحقيقة بأن تنكشف».

«السماح للحقيقة بأن تنكشف». قلتُها محاولًا أن أستطعمها.

«بالتأكيد تفهم ما أقصده. زوجتُكَ تضاجع رجلًا آخر.

تهجرك، فتحاول أنتَ أن تُلْقي باللوم على شخصٍ آخر. لم أسمع في حياتي شيئًا بهذا الحمق. اسمعْ، لم آتِ إلى هنا إلّا لأنّني مضطرّ إلى ذلك. الموضوع بالنسبة إليَّ مضيعةٌ للوقت، كما لو أنّني أُلقي بوقتي في المجاري».

لمَّا انتهى من كلامه خيَّم الصمتُ على الطاولة.

سألتُه: «أتعرف حكايةَ القرود في جزيرة الخراء؟»

هزَّ رأسه دون أيّ ملمحٍ لاهتمام. «لم أسمعْ بها قطّ».

في مكانٍ بعيد، بعيد جدًّا، ثمَّة جزيرةُ خراء. جزيرة لا اسم لها. لا تستحقّ حتى أن يكون لها اسم. جزيرةٌ خراء ذات شكلٍ خراء. في هذه الجزيرة الخراء تنمو أشجارٌ لها شكلُ خراء أيضًا. تنتج هذه الأشجار جوزَ هندٍ له رائحةٌ خراء. والقرود الخراء تعيش في الأشجار، وتحبّ أن تأكل جوزَ الهند ذا الرائحة الخراء، فتُخرج بعد ذلك أسوأ خراءٍ في العالم. يتساقط الخراءُ على الأرض فيصبح أكوامَ خراء، ما يجعل الأشجار التي تنمو فوقها خراءً أكثر. حلقةٌ مفرغة».

ازدردتُ ما بقي من قهوتي ثم واصلتُ كلامي. «حين جلستُ هنا أنظر إليكَ تذكَّرتُ فجأةً حكاية الجزيرة الخراء. ما أقصده هو أنَّ ثمَّة نوعًا من الخرائيَّة، من النتانة، من الظلام، يظلّ يتكاثر ذاتيًا في حلقةٍ خاصَّةٍ به. وبمجرَّد أن يجتاز مرحلةً ما، لا يعود بالإمكان إيقافُه، حتى إن أراد الشخصُ نفسُه أن يوقفه».

لم يظهر أيُّ تعبير على وجه نوبورو واتايا. صحيح أنَّ ابتسامته اختفت، لكنَّه لم يُبْدِ أيَّ ملمحٍ من ملامح الانزعاج. كلُّ

ما كنتُ أراه تجعيدة صغيرة بين حاجبيْه، ولا أذكر إنْ كانت موجودةً من قبلُ أم لا.

تابعتُ حديثي: «هل تفهم ما أقصده سيِّد واتايا؟ أنا أعرف تمامًا أيَّ نوع من الرجال أنت. تقول إنَّني مثلُ القمامة أو الصخور. وتظنّ أنَّ بإمكانك تحطيمي متى شئتَ. لكنَّ الأمر ليس بهذه البساطة. بالنسبة إليك، بالقيم التي تحملها، قد لا أساوي في نظركَ أكثرَ من قُمامة وصخور. لكنَّني لستُ غبيًّا كما تعتقد. أعرف تمامًا ما الذي تخبِّئه تحت قناع التلفاز الناعم الذي ترتديه. أعرفُ سرَّكَ. كوميكو تعرفه، وأنا أعرفه. كلانا يعرف ما تخبِّئه. بإمكاني أن أفضحَكَ إنْ أردت. قد يستغرق الأمرُ بعضَ الوقت، لكنَّني أستطيع ذلك. قد أكون شخصًا نَكِرة، لكنَّني على الأقلِّ لستُ جمادًا مَهيضًا. أنا إنسان حيٌّ أتنفَّس، فإنْ صفعني أحدُهم أردّ له الصفعة. تذكَّرْ هذا جيِّدًا».

ظلَّ نوبورو واتايا يحدِّق بي بوجهٍ يخلو من أيِّ تعبير. وجهٍ كصخرةٍ تسبح في الفضاء. ما قلتُه له كان محضَ وَعيدٍ كاذب. لم أكن أعرف سرَّ نوبورو واتايا. لم يكن من الصعب معرفة أنَّ لديه شيئًا مخبَّأً في أعماقه، لكنَّني لم أكن لأعرفَ هذا الشيء. غير أنَّ كلامي ضرب على وترٍ حسَّاس، كما يبدو. كنتُ أرى الأثرَ على وجهه. لم يردَّ عليَّ كما يردُّ على خصومه في التلفاز. لم يهزأْ بكلامي، أو يحاولْ أن يدفعني إلى قول شيءٍ خطأ، أو يجدْ مدخِلًا ذكيًّا لتفنيد رأيي. ظلَّ جالسًا في صمت، من دون حركة.

ثم فجأةً بدأ شيء غريب جدًّا يظهر على وجهه. شيئًا فشيئًا بدأ يتحوَّل وجهُه إلى اللون الأحمر، على نحوٍ شديدِ الغرابة. فقد

احمرَّت أجزاءٌ من وجهه احمرارًا شديدًا، في حين لم تحمرّ أجزاءٌ أخرى إلَّا قليلًا، أمَّا البقية فقد غطّاها الشحوب. ذكَّرني هذا بغابةٍ خريفيَّةٍ مبقَّعة بالألوان تنمو فيها الأشجارُ الخضراء ذاتُ الأوراق المتساقطة في مزيجٍ لا تحكمه إلَّا الفوضى.

في النهاية نهض نوبورو واتايا من دون أن يقول شيئًا، وأخرج نظَّارتَه من جيبه فارتداها. ما تزال البقعُ الحمراءُ تغطّي وجهه. بل بدا أنَّها أصبحتْ دائمةً لا تزول. أمَّا مالطا كانو فظلَّت في مكانها، لا تنبس ببنت شفة. رسمتُ على وجهي تعبيرَ اللامبالاة، في حين همَّ نوبورو واتايا بقول شيء لي، لكنَّه غيَّر رأيه في نهاية الأمر. هكذا ابتعد عن الطاولة واختفى في الزحام.

*

ظللنا صامتَيْن، أنا ومالطا كانو، فترةً بعد ذهاب نوبورو واتايا. كنتُ مرهقًا. جاء النادل وسألني إنْ كنتُ أريد المزيدَ من القهوة، فقلتُ لا. التقطتْ مالطا كانو قبَّعتها الحمراء من على الطاولة وأخذتْ تحدِّق فيها بضع دقائق قبل أن تضعها على الكرسيّ الذي بجانبها.

أحسستُ بمرارة في فمي، وحاولتُ التخلُّص من هذا الإحساس بشرب الماء، لكنَّه لم يُجْدِ نفعًا.

بعد صمت قصير، تحدَّثتْ مالطا كانو. «أحيانًا نحتاج إلى إطلاق مشاعرنا، كي لا يركد التدفُّق في داخلنا. أنا متأكِّدة من أنَّك تشعر بتحسُّن الآن بعد أن قلتَ ما كنتَ تريد قوله».

«قليلًا. لكنَّه لم يحلّ شيئًا. لم يأتِ بخلاصةٍ للأمر».

«أنتَ لا تحبّ السيِّد واتايا، أليس كذلك سيِّد أوكادا؟»

«كلَّما تحدثتُ إليه أشعر بخواءٍ غريبٍ داخلي. وكلُّ شيء في المكان يبدو فارغًا، أجوف. لا أعرف سببًا لذلك، ولا أستطيع تفسير الأمر لكِ تفسيرًا دقيقًا. وبسببٍ من هذا الشعور أقول وأفعل أشياءَ ليست من طبعي. بعد ذلك أندم عليها. ليتني لا أراه ثانيةً».

هزَّت مالطا كانو رأسها. «السوء الحظّ، سوف يتطلَّب الأمر منك أن تلتقي السيِّد واتايا عدَّة مرَّات. لا يمكنكَ أن تتجنَّب ذلك».

قد تكون محقَّة؛ فلم يكن في وسعي أن أُخرجَه من حياتي بسهولة. رفعتُ كأسي لأشربَ قليلًا من الماء. تُرى من أين جاء ذلك الإحساسُ الكريهُ بالمرارة؟

قلتُ لها: «بقي عندي سؤال واحد. مع أيِّ طرفٍ أنتِ؟ مع نوبورو واتايا أم معي؟»

وضعتْ مالطا كانو مرفقيْها على الطاولة وشبكتْ راحتيْها أمام وجهها. «لا أحد. لا أطرافَ في هذه القضيَّة. فعلًا لا أطراف. سيِّد أوكادا، هذا الأمر ليس من ذلك النوع الذي له جهةٌ عُليا وسُفلى، ويُمنى ويُسرى، وأماميَّة وخلفيَّة».

«وكأنَّه من تعاليم الزن. تعاليم لافتة من حيث كونها نظامًا فكريًّا، لكنَّها عديمةُ الجدوى في التفسير».

هزَّت رأسها. باعدتْ بين راحتيْها قليلًا، فأمالتهما بحيث تُشيران ناحيتي. كانتا راحتيْن صغيرتيْن جميلتيْن. «أعلم أنَّ ما

أقوله لا يبدو أنَّه يحوي كثيرًا من المنطق. ولا ألومُكَ إنْ غضبتَ. لكنَّني لو أخبرتُكَ أيّ شيء الآن، فلن يفيد ذلك في شيء. بل سيفسد الأمور. عليك أن تنتصر بقوَّتك. بيديْك».

قلتُ وأنا أبتسم: «مثل وثائقيّات عالم الحيوان. تُضرب، فتردّ الضربة».

«بالضبط». بعد ذلك، التقطتْ مالطا كانو حقيبتَها وقبَّعَتها بحرصٍ شديد، حرص مَنْ يسترجع أغراضَ فقيدٍ لم يمضِ على وفاته وقتٌ طويل. وحين اعتمرتْ قبَّعتَها لاح منها تعبيرٌ غريب لكنَّه محسوس، مفادُه أنَّ وحدةً من وحدات الزمن قد انقضت.

*

بعد أن غادرتْ مالطا كانو ظللتُ في مكاني جالسًا بمفردي، من غير أن أفكّر بشيء محدَّد. لم أكن أعرف إلى أين أذهب، أو ماذا أفعل لو نهضتُ من مكاني. ولكنْ بطبيعة الحال لم يكن في وسعي أن أجلس هناك إلى الأبد. بعد مرور عشرين دقيقةً على هذا الحال، دفعتُ فاتورتَنا نحن الثلاثة وغادرتُ المقهى. لم يدفع أحد منهما.

4

ضاعت النعمة الإلهيَّة
عاهرةُ العقل

حين وصلتُ إلى البيت وجدتُ رسالةً طويلةً في انتظاري، من الملازم ماميا. كُتب اسمي وعنواني على الظرف بالحروف الأنيقة البارزة كما في الرسالة السابقة. بدَّلتُ ثيابي، وغسلتُ وجهي، ثم ذهبتُ إلى المطبخ وشربتُ كأسَيْن من الماء البارد. فلمَّا التقطتُ أنفاسي فتحتُ الرسالة.

سوَّد الملازم ماميا عشرَ صفحات طوال بحروف صغيرة. قلَّبتُ الصفحات ثم أعدتُها إلى الظرف؛ فلفرط تعبي لم أكن قادرًا على قراءة رسالةٍ طويلةٍ كهذه. لم أستعدْ بعدُ ما يكفي من

التركيز؛ إذ حين مرَّرتُ عينيَّ على الصفحات رأيتُ الحروف وقد أصبحت سربًا من الحشرات الزرقاء الغريبة. كما أنَّ صوت نوبورو واتايا كان ما يزال يتردَّد صداه في عقلي.

تمدَّدتُ على الأريكة وأغمضتُ عينيَّ فترةً طويلة، لا أفكِّر في شيء. لم يكن من الصعب عليّ، وأنا على تلك الحال، ألَّا أفكِّر في شيء. فكلُّ ما أفعله لكي أمتنع عن التفكير في شيء بعيْنه هو أن أفكِّر في أشياء كثيرة تباعًا. أفكِّر في شيءٍ ما لحظةً، ثم أُلقي به في الفراغ.

كانت الساعة تقترب من الخامسة عصرًا حين قرَّرتُ أخيرًا أن أقرأ رسالةَ الملازم ماميا. ذهبتُ إلى الشرفة، وجلستُ متَّكئًا على عمود، وأخرجتُ الرسالة.

الصفحة الأولى من الرسالة كانت مليئةً بحشو الكلام من تحايا مطوَّلة، وشكرٍ على استقباله في منزلي، واعتذارٍ عن إطالته في سرد قصصه. من المؤكَّد أنَّ الملازم ماميا يُجيد آدابَ الكلام والمجاملات الاجتماعيَّة؛ فهو ينتمي إلى عصرٍ كانت تُعتبر فيه هذه الآدابُ جزءًا رئيسًا من الحياة اليوميَّة. نقَّلتُ بصري بين هذه العبارات، ثم انتقلتُ إلى الصفحة الثانية.

أرجو المعذرة على الإطالة في هذه الأمور التمهيديَّة؛ فغرضي الوحيد من كتابة هذه الرسالة (وأنا أعرف تمامَ المعرفة أنَّني بذلك إنَّما أُجشِّمكم مشقَّةً زائدة) هو إبلاغُكم بأنَّ الأحداث التي ذكرتُها لكم مؤخَّرًا لا هي من نسج خيالي ولا هي ذكرياتُ عجوزٍ مطعونٍ في صحَّتها، بل هي الحقيقة الكاملة الصافية بكلِّ

تفاصيلها. وكما تعلمون، فقد وضعتِ الحربُ أوزارَها قبل فترةٍ مديدة، والذاكرة بطبيعتها تتدهور مع انقضاء السنوات. تشيخُ الذكرياتُ والأفكار، مثل البشر، غير أنَّ ثمَّة أفكارًا لا تشيخ البتَّة، وذكرياتٍ لا يمكن أن تتلاشى.

اعلمْ يا سيِّد أوكادا أنَّني حتى يومنا هذا لم أخبرْ أحدًا بهذه الأشياء سواك. فمعظم الناس لن ترى في حكاياتي سوى تلفيقاتٍ لا يمكن تصديقُها. أغلبُ الناس يضربون صفحًا عمَّا يقع خارج حدود فهمهم، ويعدُّونه من ضروب العبث الذي لا يستحقّ مجرَّد التفكير فيه. أنا نفسي أتمنَّى لو كانت حكاياتي في واقع الأمر مجرَّد تلفيقاتٍ غريبة. لقد عشتُ طوال هذه السنوات أتعلَّق بالأمل الواهي في أن تكون حكاياتي أضغاثَ أحلامٍ أو أوهام. جاهدتُ نفسي كثيرًا كي أُقنعَها بأنَّ تلك الأشياء لمْ تحدثْ قطّ. لكنَّني كلَّما حاولتُ أنْ أصرفها، عادت أقوى وأوضحَ من سابق عهدها. لقد تجذَّرتْ هذه الذكرياتُ في عقلي وأخذتْ تنهش في لحمي، كخلايا السرطان.

فإلى الآن أذكر كلَّ تفصيل صغير بوضوح رهيب، كما لو أنَّني أتذكَّر أحداثًا وقعتْ بالأمس. أستطيع أن أمسك الرملَ والعشبَ بيديّ، وأشمّ رائحتهما. أستطيع أن أرى أشكالَ السحب في السماء. أستطيع أن أشعر بالريح الجافَّة الرمليَّة وهي تضرب وجنتيّ. على أنَّ ما حدث لي في حياتي لاحقًا يبدو ضربًا من الوهم، في الحدِّ الفاصل بين الحلم والحقيقة.

إنّ جذور حياتي (تلك التي يمكنني القولُ بصدقٍ إنَّها لي وحدي) قد تجمَّدتْ أو احترقتْ هناك على سهوب منغوليا

الخارجيَّة، حيث تمتدّ الأرضُ منبسطةً على مدِّ البصر. بعد ذلك فقدتُ يدي في تلك المعركة الضارية مع وحدة الدبَّابات السوفييتيَّة التي هاجمتنا وراء الحدود. لقد ذقتُ صعابًا لا تخطر ببال في معسكر العمل السيبيريّ في مَوات الشتاء. بعدها أُعِدتُ إلى البلاد، وعملتُ ثلاثين سنةً معلِّمًا للدراسات الاجتماعيَّة في مدرسةٍ ثانويَّة ريفيَّة. عشتُ منذ ذلك الوقت وحيدًا، أحرثُ الأرض. غير أنَّ تلك الشهور والسنوات لا تبدو لي أكثر من وهم، كما لو أنَّها لم تحدثْ قطّ. تقفز ذاكرتي فجأةً فوق صَدَفة الزمن الفارغة وتُعيدني إلى أحراش هولونبوير.

أمَّا الذي كلَّفني حياتي، وأحالها إلى صَدفةٍ فارغة، فهو شيء في الضوء الذي رأيتُه في قاع البئر. ضوء الشمس الشديد الذي وصل إلى عمق البئر عشرَ ثوانٍ أو عشرين ثانية. كان يأتي فجأةً، ويختفي فجأةً. لكنَّني في ذلك السيل الضوئيّ الخاطف رأيتُ شيئًا (رأيتُه مرَّةً واحدة) لم أره مرَّةً أخرى في حياتي. فلمَّا رأيتُه لم أعد كما كنت.

ما الذي تُراه حدث هناك؟ وما معنى ما حدث؟ حتى بعد مرور أربعين سنة لا أستطيع أن أُجيب عن هذه الأسئلة بأيِّ درجة من التأكيد. لهذا السبب فإنّ ما أنا مُقْدمٌ على قوله لا يعدو أن يكون فرضيَّةً، أو تفسيرًا أوَّليًّا اجترحتُه لنفسي من دون أيِّ قاعدة منطقيَّة. غير أنِّي أعتقد أنَّ فرضيَّتي هذه هي أقربُ ما يمكن الوصول إليه في ما يتعلَّق بحقيقةِ ما شهدتُه هناك.

ألقت بي قوَّاتُ منغوليا الخارجيَّة في بئر معتمة عميقة في وسط السهوب، وكُسرتْ ساقي وكتفي، ولم يكن معي أيُّ طعام

أو ماء. كنتُ ببساطة أنتظر الموت. قبل ذلك، كنتُ قد شاهدتُ أمامي رجلًا يُسلخ حيًّا. في ظلِّ تلك الظروف، أعتقدُ أنَّ وعيي وصل إلى مرحلة من التركيز استطعتُ معها أن أهبط إلى ما يُمكن تسميتُه جوهرَ الوعي حين ظهر شعاعُ الضوء. على أيِّ حال، فقد رأيتُ شكلَ شيءٍ ما هناك. كلّ شيء حولي كان مغلَّفًا بالضوء، وأنا في المنتصف تمامًا من سيل الضوء هذا. عيناي لا تُبصران شيئًا. يغلِّفني الضوءُ تمامًا. لكنَّ شيئًا ما يبدأ في الظهور هناك. في وسط ذلك العمى العابر، ثمَّة شيء يحاول أن يتشكَّل. شيءٌ ما. شيءٌ فيه حياة. يبدأ في الظهور أسودَ اللون في الضوء، كالظلِّ في حالة الكسوف. لكنَّني لا أستطيع أن أتبيَّن شكلَه. يحاول أن يقتربَ منِّي، أن يجودَ عليَّ بشيءٍ أشبهَ بالنعمة الإلٰهيَّة. أنتظره، وأنا أرتعش. لكنَّه لا يأتي، إمَّا لأنَّه عَدَلَ عن ذلك، أو لأنَّ الوقت لا يكفي. وقُبَيْل أن يكتمل شكلُه، يتحلَّل ويذوب مرَّةً أخرى في الضوء. ثم يتلاشى الضوءُ نفسُه. ينتهي الوقت المخصَّص للضوء بالعبور إلى قاع البئر.

حدث هذا يومَيْن متتاليَيْن. الشيء نفسُه بالضبط. بدأ شيءٌ ما في التشكُّل في ذلك الضوء الطاغي، ثم تلاشى قبل أن يصلَ إلى اكتماله. كنتُ في قاع البئر أتضوَّر جوعًا وعطشًا. لكنَّ هذا لم يكن أهمَّ ما في الأمر. فأكثرُ ما عانيتُه في البئر كان عذابَ العجز عن رؤية ذلك الشيء الذي يظهر في الضوء. إنَّه جوعُ الرغبة في رؤية شيء لا بدَّ من أن أراه، والظمأ إلى معرفة ما لا بدَّ لي من أن أعرفه. لو أنَّني استطعتُ أن أراه لما همَّني لو متّ هناك فورًا. هذا ما شعرتُ به فعلًا. كنتُ مستعدًّا للتضحية بأيِّ

شيء كي أرى ذلك الشيءَ مكتملًا.

لكنَّ هذا الشكلِ انتُزِع منِّي إلى الأبد في نهاية المطاف. انتهت النعمةُ قبل أن أُمنح إيَّاها. وكما ذكرتُ سابقًا، فالحياة التي عشتُها بعد خروجي من تلك البئر لم تكن سوى صَدَفةٍ فارغةٍ جوفاء. لهذا السبب تطوَّعتُ للذهاب إلى الجبهة حين غزا الجيشُ السوفييتيّ منشوريا قُبَيْل انتهاء الحرب. وفي المعسكر السيبيريّ أيضًا بذلتُ جهدي كي أكون في أصعب الظروف وأتعسها. على أنَّني لم أستطع أن أموت، مهما بذلتُ وحاولتُ. لقد صدق العريف هوندا حين قال إنَّني منذورٌ للعودة إلى اليابان حيًّا والعيش طويلًا. أذكر شدَّة فرحي بذلك حين سمعتُه أوَّلَ مرَّة. لكنَّه أصبح لعنةً، كما تبيَّن لاحقًا. فالمسألة لم تكن أنَّني لن أموت، بل لن أستطيع أن أموت. صدق العريف هوندا مرَّةً أخرى حين قال إنَّ من الأفضل لي ألَّا أعرف.

حين فقدتُ الكشفَ والنعمة، فقدتُ حياتي. لقد ماتت تلك الأشياءُ الحيَّة التي كانت ذات مرَّة تسكن داخلي، فكانت بذلك ذاتَ قيمة. لم يبقَ شيء منها. أُحرقتْ كلّها في ذلك الضوء الكثيف. تلك الحرارة التي أطلقها الكشفُ أو النعمة سَفَعتْ جوهرَ الحياة الذي كان يجعلني ما أنا عليه. بطبيعة الحال كنتُ أفتقر إلى القوَّة التي تجعلني أقاوم تلك الحرارة. لذلك لا أشعر بالخوف من الموت. بل إنَّ موتي الجسديّ سيكون بالنسبة إليَّ شكلًا من أشكال الخلاص. سوف يُحرِّرني إلى الأبد من هذا السجن المبؤوس منه، من ألمِ أنْ أكون أنا.

هأنذا قد أثقلتُ عليكَ بحكاية طويلة مرَّةً أخرى، فاغفرْ لي.

لكنَّ ما أُريد أن أقوله لك يا سيِّد أوكادا هو أنَّني فقدتُ حياتي في لحظة بعيْنها، وظللتُ أحيا هذه السنوات الأربعين بحياةٍ مفقودة. ولمَّا أصبحتُ في هذا الموقف فقد خلصتُ إلى أنَّ الحياة شيءٌ أضيقُ ممَّا قد يدركه الغارقون في اضطرابها. فالضوءُ إنَّما يسقطُ على فِعل الحياة لحظةً قصيرة، ربَّما ثوانيَ معدودات. فإنْ تلاشى من دون أن يستطيع المرء أن يُمسك بالكشف المقدَّم إليه، فما من فرصةٍ أخرى. وقد يتعيَّن عليه أن يعيش ما تبقَّى من حياته في غيابات الوحدة والألم. في ذلك العالم المظلم لا يعود في إمكان المرء أن يتطلَّع إلى أيِّ شيء. وكلّ ما يمسكه بين يديْه لا يعدو أن يكون جثَّةً ذاويةً لِما كان يُمكن أن يكون.

على أيِّ حال، فأنا مَدينٌ للفرصة السعيدة التي جعلتني ألتقيكَ وأقصَّ عليك حكايتي، سيِّد أوكادا. لا أعرف إنْ كانت ستفيدك ذات يوم، لكنَّني حين قلتُها لك شعرتُ بأنَّني اكتسبتُ نوعًا من الخلاص. فرغم ما في الخلاص من هشاشة وضعف، فإنّ أيّ شكلٍ من أشكال الخلاص ثروة بالنسبة إليّ. ولا أملك إلَّا أن أشعر بالقَدَر وقد مدَّ خيوطَه الرفيعَة في حقيقةِ أنَّ السيِّد هوندا هو الذي قادني إلى الخلاص. أرجو أن تتذكَّر يا سيِّد أوكادا بأنَّ ثمَّة شخصًا هنا يهديك خالص أمنيانه بحياة سعيدة.

قرأتُ الرسالةَ مرَّةً أخرى، بعناية، ثم أعدتُها إلى الظرف.

حرَّكتْ رسالةُ الملازم ماميا وجداني على نحو غريب، غير أنَّها لم تفرز لعقلي سوى صورٍ ضبابيَّة بعيدة. كان الملازم ماميا بالنسبة إليَّ رجلًا جديرًا بالثقة والقبول، وكنتُ على استعدادٍ لتصديقِ ما قال إنَّها حقائق، بيْد أنَّ مفهوم الحقيقة أو الواقع لم

تكن له قوَّةٌ كبيرةٌ لإقناعي آنذاك. وأكثر ما أثَّر فيَّ من رسالته كان خيبةَ الأمل التي انتشرتْ في ثنايا حروفه. خيبة الأمل من عجزه عن شرحِ أيِّ شيء شرحًا مُرضِيًا.

مضيتُ إلى المطبخ لشرب الماء، ثم أخذتُ أجول في أرجاء البيت. في غرفة النوم جلستُ على السرير أنظر إلى فساتين كوميكو المصفوفة في الخزانة. تُرى، ما الهدف من حياتي حتى اليوم؟ هكذا أدركتُ ما كان يتحدَّث عنه نوبورو واتايا. صحيح أنَّني غضبتُ من كلامه حين قاله، لكنَّني أعترف الآن أنَّه كان على حقّ. قال: «مضى على زواجك من أختي ستُّ سنوات، فماذا فعلتَ طوال هذا الوقت؟ لا شيء، صحيح؟ كلّ ما حقَّقته في هذه السنوات الطوال هو أنَّك تركتَ وظيفتَكَ ودمَّرت حياةَ كوميكو. والآن أنت عاطل ولا هدف لك للمستقبل. لا شيء في رأسك هذا سوى الصخر والقمامة». لم يكن لي خيار إلَّا أن أعترف بصحَّة ما قاله. فلو شئنا الموضوعيَّة، فإنَّني لم أحقِّق شيئًا ذا قيمة طوال هذه السنوات الستّ، وما في رأسي أشبهُ فعلًا بالقمامة والصخور. كنتُ صِفرًا، كما قال بالضبط.

ولكنْ، هل صحيحٌ أنَّني دمَّرتُ حياةَ كوميكو؟

ظللتُ فترةً أنظر إلى فساتين كوميكو وبلوزاتها وتنانيرها. كانت هذه هي الأطياف التي تركتْها كوميكو خلفها، ولا تملك من دون صاحبتها إلَّا أن تبقى هكذا مترهِّلة. ذهبتُ إلى الحمَّام، وأخذتُ قنِّينةَ الكولونيا التي أهداها إيَّاها أحدهُم. فتحتُها، وشممتُها. هي نفسها الرائحة التي كانت خلف أذنيْ كوميكو ذلك الصباحَ الذي غادرتْ فيه. صببتُ محتوى القنِّينة كلّه في المغسلة،

ببطء. وفيما كان السائل يتدفَّق تعلَّقت بالمغسلة رائحةُ أزهار قويَّة (هو الاسم نفسه الذي كنتُ أحاول أن أتذكَّره)، فحرَّكتْ في داخلي ذكرياتٍ عنيفة. وفي غمرة هذه الرائحة القويَّة غسلتُ وجهي، وفركتُ أسناني، ثم قرَّرتُ الذهابَ إلى بيت مايو كاساهارا.

*

كالعادة وقفتُ في الزقاق خلف بيت مياواكي، في انتظار أن تراني مايو كاساهارا. لكنَّ الأمر لم ينجح هذه المرَّة. استندتُ إلى السور، وأخذتُ أمصُّ سكَّرة ليمون وأنظر إلى تمثال الطائر، وأُفكِّر في رسالة الملازم ماميا. ولكنْ سرعان ما بدأ الظلامُ يحلّ. وبعد أن انقضت نصفُ ساعة تقريبًا يئستُ. لا بدَّ من أن تكون مايو كاساهارا خارج البيت.

قفلتُ عائدًا نحو بيتي، وتسلَّقتُ الجدار. وجدتُ البيت وقد امتلأ بعتمة الأماسي الصيفيَّة، تلك العتمة الشاحبة الصامتة. وكانت كريتا كانو هناك. خطر لي أنَّني أحلم، لكنَّني ما زلتُ في الواقع. كان ما يزال في الهواء أثرٌ رقيقٌ للكولونيا التي سكبتُها، وكانت هي تجلس على الأريكة ويداها فوق ركبتيْها. اقتربتُ منها، لكنَّها لم تتحرَّك قيد أنملة، كما لو أنَّ الزمن نفسَه قد توقَّف داخلها. أشعلتُ الضوء، وجلستُ على الكرسيّ المقابل لها.

قالت أخيرًا: «لم يكن البابُ موصدًا. فدخلت».

«لا بأس. عادةً ما أتركُ البابَ غير موصد حين أخرج».

كانت ترتدي بلوزةً بيضاء مخرَّمة، وتنُّورة أرجوانيَّة مكشكشة،

وقرطيْن كبيريْن. على معصمها الأيسر سواران كبيران، ما إنْ رأيتُهما حتى صُعقت. كانا مطابقَيْن تمامًا للسواريْن اللذين رأيتُهما عليها في الحلم. شعرُها ومكياجها على طريقتها المعتادة. الشعر مثبَّت في مكانه تمامًا كما لو أنَّها جاءت للتوِّ من صالون تجميل.

«الوقت قصير. عليّ العودة إلى البيت فورًا، لكنَّني حرصتُ على أن أتحدَّث معك سيِّد أوكادا. أعتقد أنَّكَ قابلتَ أختي والسيِّد واتايا اليوم».

«بالتأكيد. لكنَّها لم تكن مقابلةً ممتعة».

«أليس هناك شيء تودّ أن تسألني عنه في ما يتعلَّق بذلك؟»

الكلّ يسألني أسئلة عجيبة غريبة.

«أريد أن أعرف أكثر عن نوبورو واتايا. شيء في داخلي يقول إنَّني يجب أن أعرف المزيد عنه».

هزَّت رأسَها وقالت: «أنا نفسي أودُّ معرفةَ المزيد عن السيِّد واتايا. أعتقد أنَّ أختي أخبرتك أنَّه اعتدى عليَّ، قبل فترة طويلة. لا أملك الوقتَ الآن للحديث في هذا الموضوع، لكنَّني سأفعل في مناسبةٍ أخرى. على أيِّ حال، كان شيئًا فُعِلَ بي غصبًا عن إرادتي. كان من المرتَّب أن تكون لي علاقةٌ معه، وهذا ما لا يجعل الأمر اغتصابًا بالمعنى المعروف. لكنَّه انتهكني، وهذا ما غيَّر بداخلي أشياءَ كثيرةً. في النهاية، استطعتُ أن أتجاوز هذه التجربة. لقد مكَّنتْني (بمساعدة مالطا كانو طبعًا) من الوصول بنفسي إلى مستوًى أعلى مختلفٍ تمامًا. أيًا ما كانت النتائجُ النهائيَّة، تبقى الحقيقة أنَّ نوبورو واتايا اعتدى عليَّ وانتهكني. ما

فعله كان خطأ، وخطيرًا. كان يمكن أن أنتهي تمامًا. هل تفهم قصدي؟»

لم أفهم ما تقصده.

«بالطبع كانت لي علاقةٌ بك أيضًا، سيِّد أوكادا، لكنَّها علاقة سارت على النحو الصحيح لهدف صحيح. لم أُنتهكْ فيها».

نظرتُ فيها برهةً، كأنَّما أُحدِّق في جدارٍ ذي بقع ملوَّنة. «كانت لكِ علاقةٌ بي؟»

«نعم. المرَّة الأولى استخدمتُ فيها فمي فقط، لكن في المرَّة الثانية كانت علاقةً كاملة. في الغرفة نفسها. لا بدَّ أنَّك تتذكَّر. لم يكن لدينا وقت طويل في المرَّة الأولى، وكان علينا أن نُسرع. لكنْ في المرَّة الثانية كان لدينا وقت أطول».

كان من المستحيل أن أُجيب.

«كنتُ أرتدي فستانَ زوجتك في المرَّة الثانية. الفستان الأزرق. وكنتُ أرتدي سواريْن كهذيْن على معصمي الأيسر. أليس كذلك؟» ومدَّت معصمَها نحوي.

هززتُ رأسي.

«بطبيعة الحال لم نمارسْ هذا على أرض الواقع. أنت حين قذفتَ لم تقذفْ داخلي، جسديًّا، بل في داخل وعيك. هل فهمتَني؟ كان وعيًا مُصطنعًا. لكنَّنا نحن الاثنيْن نتشارك في هذا الوعي بأنَّنا مارسنا الجنس».

«وما الفائدة من فعل شيءٍ كهذا؟»

«لكي تعرف أكثر، وبعمقٍ أكثر».

تنهَّدت. كان هذا جنونًا، لكنَّها وصفت المشهدَ الذي رأيتُه في الحلم بدقَّةٍ مدهشة. مرَّرتُ إصبعي حول فمي، وحدَّقتُ في السوارَيْن.

قلتُ بصوتٍ جافّ: «لعلِّي لستُ ذكيًّا جدًّا، لكنَّني فعلًا لم أفهم كلَّ ما قلتِه لي».

«في حلمك الثاني، وبينما كنتُ أمارسُ الجنسَ معك، جاءت امرأة أخرى وحلَّت محلِّي. أليس كذلك؟ لا أعرف من تكون. ولكنْ لعلَّ المغزى ممَّا حدث رسالةٌ أو إشارةٌ إليك، سيِّد أوكادا. هذا ما أردتُ أن أقوله لك».

لزمتُ الصمت.

«لا ينبغي أن تشعر بالذنْب لأنَّك مارستَ الجنسَ معي. فأنا كما تعلم يا سيِّد أوكادا، فتاةُ ليل. كنتُ عاهرةَ جسدٍ، وأصبحتُ عاهرةَ عقل. الأشياء تمرّ من خلالي».

عندها نهضتْ كريتا كانو عن كرسيِّها، وجلستْ على ركبتَيْها أمامي، ولفَّت يدي براحتيها. كانت يداها ناعمتَيْن، دافئتَيْن، وصغيرتَيْن جدًّا. «ضُمَّني أرجوك، سيِّد أوكادا. الآن».

وقفنا، ولففتُها بذراعيَّ. لم أكن أدري أيجدر بي فعلُ ذلك أمْ لا. لكنِّي لم أرَ في ضمِّ كريتا كانو آنذاك خطأً أرتكبه. لم يكن لديَّ تفسيرٌ لذلك، لكنَّ هذا ما شعرتُ به. أحطتُ بذراعيّ جسدَها الرشيق كأنَّني في حصَّتي الأولى من دورة تعليم الرقص. كانت امرأة ضئيلة الحجم، فقِمَّة رأسها تكاد لا تصل إلى ذقني. كان نهداها على بطني، ووجنتاها فوق صدري. ورغم أنَّها لم

تنبس ببنت شفة طوال ذلك الوقت، فإنَّها كانت تبكي. أحسستُ بدفء أدمعها على قميصي. نظرتُ إليها فرأيتُ شعرها يرتعش. بدا الأمر مثل حلم، لكنَّه لم يكن حلمًا.

ظللنا على تلك الحال فترةً طويلة، ثم انسحبتْ عنِّي وكأنَّها تذكَّرت فجأةً شيئًا ما. نظرتْ إليّ.

«شكرًا لك سيِّد أوكادا. سأذهب إلى البيت الآن». كانت تبكي بحرقة قبل قليل، لكنَّ مكياجها لم يتأثَّر. ثمَّة حسٌّ واقعيّ غاب فجأة.

سألتُها: «هل ستكونين في أحلامي مرَّةً أخرى؟»

قالت وهي تهزّ رأسَها برفق: «لا أدري. أنا نفسي لا أملك الإجابة. ولكنْ أرجوكَ ثِقْ بي. أيًا كان ما سوف يحدث، فلا تشعرْ بالخوف أو الحذر منِّي. هل تعدني بذلك سيِّد أوكادا؟»

أجبتُها بإيماءةٍ من رأسي.

وما لبثتْ أن غادرتْ إلى بيتها.

كانت حلكةُ الليل أعمقَ من المعتاد. قميصي مبتلٌّ تمامًا. لم أستطع أن أنام، وبقيتُ مستيقظًا حتى الفجر. لم أشعر بالنعاس، لكنَّ الحقيقة أنَّني كنتُ خائفًا من النوم. كنتُ أشعر بأنَّني إنْ نمتُ ستحيط بي الرمالُ المتحرِّكةُ وتحملني إلى عالم آخر لا أستطيع أن أعود منه. بقيتُ على الأريكة حتى الصباح، أشرب البراندي وأُفكِّر في قصَّة كريتا كانو. فحتى بعد انقضاء الليل ما يزال حضورُ كريتا كانو وعطرُ كريستيان ديور باقيًا في المكان مثلَ أطيافِ أسيرة.

5

صُورٌ لبلداتٍ بعيدة
نصف قمر دائم
سُلّم في مكانه

رنَّ الهاتف ما إنْ أوشكتُ على النوم. حاولتُ أن أتجاهله، لكنَّه واصل رنينه بعناد كأنَّه قرأ أفكاري. عشر رنَّات، عشرون رنَّة، لن يتوقَّف. فتحتُ عينًا ونظرتُ إلى الساعة. كانت لتوِّها قد جاوزت السادسةَ صباحًا، وضوءُ النهار واضح خلف النافذة. قد يكون الاتِّصال من كوميكو. نهضتُ من السرير وذهبتُ إلى الصالة، والتقطتُ السمَّاعة.

«ألو». لكنَّ المتَّصل لم يقل شيئًا. كان هناك أحدٌ ما على

الطرف الآخر، لكنَّه لم يتحدَّث. لزمتُ الصمت أنا أيضًا. حاولتُ أن أركِّز، فاستطعتُ أن أتبيَّن صوتَ أنفاس.

«من يتكلَّم؟» لكن الصمت استمرّ.

«إنْ كنتِ التي تتَّصلين دائمًا، فمن فضلِكِ أجِّلي الموضوع. لا أحاديثَ جنسيَّةً قبل الإفطار، أرجوك».

فصاحت مايو كاساهارا: «التي تتَّصل دائمًا؟ مع مَنْ تتحدَّث في الجنس؟»

«لا أحد».

«أهي المرأة التي كنتَ تحتضنها ليلةَ الأمس؟ هل تتحدَّث معها في الجنس على الهاتف؟»

«لا، ليست هي».

«قل لي سيِّد طائر الزنبرك، كم امرأةً لديك، غير زوجتك؟»

«هذه قصَّة طويلة. على كلٍّ، الساعة الآن السادسة صباحًا وأنا لم أنم جيِّدًا. إذن فقد جئتِ إلى بيتي البارحة».

«ورأيتُكَ معها. تحتضنها».

«مجرَّدْ حَضْن عاديّ. كيف لي أن أصفَه لكِ؟ شيء مثل الاحتفال».

«لستَ مضطرًّا إلى التبرير. لستُ زوجتَكَ. ولا شأن لي بالأمر، لكنْ سأقول لك شيئًا: لديك مشكلة».

«قد تكونين على حقّ».

«أعلمُ أنَّكَ تمرُّ بأزمة، لكنِّي لا أملك إلَّا أن أُفكِّر بأنَّكَ سبَّبتَها لنفسك. لديك مشكلة أساسيَّة، وهي التي تجذب إليك

المتاعبَ مثل المغناطيس. وأيُّ امرأةٍ لديها شيء من العقل ستهرب منك».

«ربَّما معك حقّ».

لزمتْ مايو كاساهارا الصمتَ قليلًا، ثم تنحنحتْ وقالت: «جئتَ بالأمس إلى الزقاق، صحيح؟ وقفتَ طويلًا خلف بيتي، مثلَ لصٍّ غير محترف... لا تقلقْ، أنا رأيتك».

«لماذا لم تخرجي إذن؟»

«الفتيات لا يرغبن في الخروج دائمًا، سيِّد طائر الزنبرك. في بعض الأحيان تشعر الفتاةُ برغبة في أن تكون شرِّيرة. فإنْ كان الشابّ سينتظر، فلينتظرْ».

نخرتُ.

«لكنَّني مع ذلك ندمتُ. لذلك دفعتُ نفسي للمجيء إلى بيتك لاحقًا، كالحمقاء».

«وكنتُ أحتضن تلك المرأة».

«نعم. ولكنْ أليست مخبولةً بعضَ الشيء؟ لم يعد أحد يلبس تلك الملابس. ومكياجها! وكأنَّها قادمةٌ من زمن آخر. يجدر بها أن تفحص عقلها».

«لا تقلقي. ليست مخبولة. الناس تختلف في أذواقها».

«بلى، يمكن أن يختلف الناس في أذواقهم، لكنَّ الناس الطبيعيِّين لا يصلون إلى هذا المستوى من أجل الذوق فقط. كأنَّها.. كأنَّها خرجتْ من مجلَّة قديمة. كلّ شيء فيها، من رأسها حتى قدميْها».

لم أردّ.

«قل لي سيِّد طائر الزنبرك. هل نمتَ معها؟»

تردَّدتُ لحظةً، ثم قلتُ: «لا».

«حقًّا؟»

«نعم. ليس بيني وبينها ذلك النوعُ من العلاقة الجسديَّة».

«إذن لماذا كنتَ تحتضنُها؟»

«النساء يرغبن في ذلك أحيانًا. يحتجن إلى حضن».

«ربَّما. لكنَّ فكرةً كالتي قلتَها قد تكون خطرةً قليلًا».

«صحيح».

«ما اسمُها؟»

«كريتا كانو».

صمتتْ مايو كاساهارا. ثم قالت أخيرًا: «تمزح، صحيح؟»

«لا، لا أمزح. واسمُ أختها مالطا كانو».

«مالطا؟ لا يمكن أن يكون اسمَها الحقيقيّ».

«لا. إنَّه اسم المهنة».

«هل هما فريقٌ كوميديٌّ؟ أمْ أنَّ لهما علاقةً بالبحر المتوسِّط؟»

«في الواقع ثمَّة علاقة لهما فعلًا بالبحر المتوسِّط».

«وهل تلبس أختُها مثل الناس الطبيعيِّين؟»

«إلى حدٍّ كبير. ملابسها اعتياديَّة أكثر من ملابس كريتا على الأقلّ. لكنَّها دائمًا ما ترتدي قبَّعةً حمراء».

«لديَّ إحساس بأنَّها هي الأخرى ليست طبيعيَّةً تمامًا. لماذا تتعرَّف دائمًا إلى أشخاص غريبي الأطوار هكذا؟»

«هذه فعلًا قصَّة طويلة. إن استقرَّت الأمورُ فقد أحكيها لكِ، ولكنْ ليس الآن. رأسي مشتَّت الآن، والأشياء من حولي مشتَّتة أكثر».

قالت بنبرة تشكُّكٍ في صوتها: «نعم، تمام. على أيِّ حال، زوجتُك لم تعد بعد، صحيح؟»

«لا، لم تعد».

«أتدري سيِّد طائر الزنبرك، أنت رجل ناضج. لِمَ لا تستخدم عقلَكَ قليلًا؟ لو أنَّ زوجتك غيَّرتْ رأيَها وعادت البارحة لرأتك تحتضن تلك المرأة. فما الذي سيحدث؟»

«صحيح، هذا احتمال».

«ولو أنَّها هي التي اتَّصلت بكَ الآن بدلًا منِّي، وبدأتَ كلامَكَ بالحديث عن مكالمة جنسيَّة، فما الذي ستفكِّر فيه عنك؟»

«معكِ حقّ».

قالت وهي تتنهَّد: «كما قلتُ لك، لديك مشكلة».

«صحيح. لديَّ مشكلة فعلًا».

«لا توافق على كلِّ شيء أقوله! لن تحلَّ شيئًا بالاعتراف بأخطائك. سواء اعترفتَ بها أمْ لم تعترف، تبقى أخطاء».

قلت: «صحيح». وقد كان كلامُها صحيحًا فعلًا.

فقالت: «لم أعد أحتمل! على أيِّ حال، قل لي، ماذا كنت

تريد البارحة؟ حين جئتَ إلى بيتي كنتَ تريد شيئًا، أليس كذلك؟»

«أوه، لا، انسي الأمر».

«أنسى الأمر؟»

«نعم. في النهاية... انسي الأمر».

«بعبارةٍ أخرى، أعطتْكَ حضنًا، فلم تعد بحاجة إليَّ».

«لا، ليس هكذا. كلُّ ما الأمر أنَّ ـ».

لكنَّ مايو كاساهارا أغلقت الخطّ. مايو كاساهارا، مالطا كانو، كريتا كانو، امرأة الهاتف، كوميكو. كانت مايو كاساهارا على حقٍّ؛ فلديَّ نساءٌ كثيرات من حولي هذه الأيَّام. وكلّ واحدة لها مشكلتُها المستغلقة. لكنَّني لم أستطع أن أُفكِّر لفرط التعب. لا بدَّ من أن أنام. وثمَّة شيء عليَّ أن أفعله حين أستيقظ. لذا عدت إلى السرير ونمت.

*

حين استيقظتُ أخذتُ حقيبةَ ظَهْرٍ من الدُّرج. هي الحقيبة التي نحتفظ بها لحالات الزلازل والطوارئ التي قد تتطلَّب إخلاءً فوريًّا. في داخل الحقيبة قارورةُ ماء، وبسكويت، ومصباح، وقدَّاحة. كانت كوميكو قد ابتاعتها حين انتقلنا إلى هذا البيت، تحسُّبًا لِمَا يُعرف بـ «الزلزال الكبير». غير أنَّ القارورة كانت فارغة، والبسكويت مشبّع بالرطوبة، وبطَّاريَّات المصباح نافدة. مَلأتُ القارورةَ بالماء، ورميتُ البسكويت، ووضعتُ بطَّاريَّات جديدة في المصباح. ثم ذهبتُ إلى محلّ خردوات واشتريتُ واحدًا من السلالم الحبليَّة التي تُستخدم للنجاة في حالة الحريق.

فكَّرتُ في ما قد أحتاج إليه أيضًا، لكنْ لم يخطر شيء في بالي. باستثناء سكاكر الليمون. بعد ذلك مررتُ بأرجاء البيت وأغلقتُ النوافذ وأطفأتُ الأضواء. تأكَّدتُ من أنَّ باب البيت موصد، ثم غيَّرتُ رأيي: فقد يأتي أحد يبحث عنِّي وأنا في الخارج. وقد تعود كوميكو. ثم إنَّه لا يوجد شيء يستحقّ السرقة في البيت. تركتُ رسالةً على طاولة المطبخ: «خرجتُ لبعض الوقت. سأعود. ت».

تساءلتُ في خاطري كيف ستشعر كوميكو حين ترى الرسالة. كرمشتُها وكتبتُ رسالةً جديدة. «اضطررتُ إلى الخروج لغرضٍ مهمّ. سأعود قريبًا. أرجو انتظاري. ت».

عبرتُ الفناء من خلال الشرفة وأنا بسروالٍ قطنيّ فضفاض وقميصٍ قصير الكمَّيْن، أحملُ حقيبةَ الظهر. كلّ ما حولي يشي بالصيف الخالص، من دون شروط أو تحفُّظات. وهجُ الشمس، ورائحةُ النسمات، وزرقةُ السماء، وشكلُ السحاب، وطنينُ حشرات السيكادا. كلُّ شيء كان يُعلن عن قدوم الصيف. تسلَّقتُ الجدار ومضيتُ في الزقاق.

ذاتَ مرَّة في طفولتي هربتُ من البيت في صباح صيفيّ مثل هذا الصباح. لا أذكر السبب الذي دعاني إلى الهروب. لعلِّي كنتُ غاضبًا من والديَّ. حينها خرجتُ من البيت حاملًا حقيبةً على ظهري، وكلَّ ما أملك من نقود. قلتُ لأمّي إنَّني ذاهب للتمشية مع بعض الأصدقاء، وأقنعتُها بإعداد وجبةِ غداءٍ لي. كانت هناك مرتفعاتٌ تصلح للتمشية قرب منزلنا، وعادةً ما كان الأطفال يتسلَّقونها من دون إشراف الكبار. وبمجرَّد أن تركتُ

البيت استقللتُ الحافلة وذهبتُ إلى آخر محطّة في المسار. كانت هذه البلدة بالنسبة إليّ بلدةً غريبةً وبعيدة. فانتقلتُ منها بحافلةٍ أخرى إلى بلدةٍ غريبةٍ أخرى أبعد منها. ومن دون أن أعرف اسم البلدة، ترجّلتُ من الحافلة وأخذتُ أجول في الشوارع. لم يكن هناك شيء مميَّز في هذه البلدة. لعلّها كانت تضجّ بالحياة أكثر من الحيّ الذي كنتُ أسكن فيه، وأكثر تهدُّمًا بقليل. كان فيها شارعٌ تصطفُّ على جانبيْه المحالّ، ومحطّة قطار، وبضعةُ مصانع صغيرة. ثمّة نهر صغير يجري في البلدة، وفي مقابله دارُ سينما. عرفتُ من اللافتة أنّها تَعْرض فيلمًا غربيًّا. عند الظهر جلستُ على مقعد حديقةٍ وتناولتُ غدائي. بقيتُ في البلدة إلى أوّل الليل. ولمّا بدأت الشمسُ تهوي للمغيب، هوى قلبي معها. قلت في نفسي هذه آخرُ فرصةٍ لك للعودة. فإنْ حلّ الظلام قد لا تستطيع أن تغادر هذا المكان أبدًا. هكذا عدتُ إلى البيت على الحافلات التي أخذتني إلى تلك البلدة. وصلتُ قبل السابعة مساءً، ولم يلاحظ أحد أنّني هربت. ظنّ والداي أنّني كنتُ في المرتفعات مع رفاقي.

كنتُ قد نسيتُ هذه الحادثة تمامًا. لكنّني لمّا تسلّقتُ الجدار بحقيبة الظهر، عاد إليّ الشعورُ نفسُه. تلك الوحدة التي لا يمكن وصفُها، وأنا أقف بمفردي وسط شوارع غير مألوفة، وأُناس غير مألوفين، وبيوت غير مألوفة، أنظر إلى شمس العصر وهي تفقد ضَوءها شيئًا فشيئًا. ثم خطرتْ لي كوميكو، التي اختفت في مكانٍ ما ولم تأخذ معها سوى حقيبتها وبلوزتها وتنّورتها من المغسلة. لقد فاتتها الفرصةُ الأخيرةُ للعودة. ولعلّها الآن تقف بمفردها في

بلدة غريبة بعيدة. لا أقوى على التفكير فيها على هذا النحو.

ولكنْ لا، لا يمكن أن تكون بمفردها. لا بدَّ من أنَّها مع رجل. هذا هو التفسير المنطقيّ الوحيد. فتوقَّفتُ عن التفكير في كوميكو.

*

مضيت في الزقاق.

كان العشب قد فقد خُضرَته الحيَّة التي كانت باديةً عليه أثناء أمطار الربيع، واكتسى الآن مظهرًا باهتًا يليق بعشب الصيف. تتقافز الجنادبُ هنا وهناك وأنا أمشي فوق العشب، وفي بعض الأحيان تتقافز ضفادع أيضًا. لقد أصبح الزقاقُ عالمَ هذه المخلوقات الصغيرة، وأنا مَن يتطفَّل عليه.

لمَّا وصلتُ إلى بيت مياواكي الخالي، فتحتُ البوَّابة ودخلتُ من دون تردُّد. مضيت بين العشب العالي إلى منتصف الفناء، واجتزتُ تمثالَ الطائر الذي ظلَّ يحدِّق في السماء، ثم مشيتُ إلى جانب البيت، على أمل أن لا تكون مايو كاساهارا قد لمحتني.

أوَّل ما فعلتُه حين وصلتُ إلى البئر أنِّي أزلتُ الأحجارَ من فوهتها، ثم أزلتُ أحدَ اللوحيْن الخشبيَّيْن. ولكي أتأكَّد من أنَّ البئر ما تزال خاليةً من الماء، فقد ألقيتُ حصاةً، كما فعلتُ في المرَّة السابقة، فاصطدمت الحصاةُ بقاع البئر. لم يكن بها ماء. خلعتُ الحقيبة، وأخرجتُ سلَّم الحبال، وربطتُ طرفَه بجذع شجرةٍ قريبة. ثم شددتُ بأقوى ما يمكنني لأتأكَّد من إحكام ربطه. الحرص ضروريٌّ في هذه الأمور. فلو ارتخى السلّم أو

انفكَّت عقدتُه، فقد لا أستطيع العودةَ إلى السطح أبدًا.

أمسكتُ بالحبل وبدأتُ أرخي السلَّم في البئر. أدخلتُ السلَّم كاملًا، لكنَّني لم أشعر أنَّه بلغ القاع. لا يمكن أن يكون السلَّم قصيرًا؛ فقد اشتريتُ أطولَ سلَّم لديهم. لكنَّ البئر عميقة. أشعلتُ المصباح ووجَّهتُه داخل البئر، لكنَّني لم أستطع أن أرى إنْ بلغ السلَّمُ قاعَها. لم تصل أشعَّةُ الضوء إلَّا إلى هذا الحدّ، ثم ابتلعها الظلام.

جلستُ على حافَّة البئر أُنصت. كانت بضعةُ سيكادات تصيح في الأشجار، كما لو أنَّها تتنافس أيُّها أعلى صوتًا وأوسع رئةً. لكنَّني لم أسمع أيّ طيور. فتذكَّرتُ طائرَ الزنبرك بشيءٍ من الإعجاب. لعلَّه لم يرغب في مبارزة السيكادات فطار بعيدًا عنها.

فتحتُ راحتيَّ نحو الشمس، فشعرتُ فورًا بالدفء فيهما، كأنَّ الضوء يتسرَّب في الجلد، فينتشر في خطوط البصمات. بسط الضوءُ سطوته على كلِّ شيء هنا؛ فكلُّ شيء كان يغتسل بالضوء، يتوهَّج بلون الصيف البرَّاق. بل حتى الأشياء غير الملموسة، كالزمن والذاكرة، لم تُحرمْ من نعمة ضوء الصيف. ألقيتُ بسكَّرة ليمونٍ في فمي، وجلستُ هناك إلى أن ذابت. ثم شددتُ السلَّم بقوَّة مرَّةً أخرى لأتيقَّن من إحكامه.

كان النزول من سلَّم الحبل مرهقًا أكثر ممَّا كنتُ أتوقَّع. كان الحبل مزيجًا من القطن والنايلون، متينًا متماسكًا بلا شكّ، لكنَّ خطواتي عليه لم تكن ثابتة. كان قاعُ حذائي المطَّاطيّ ينزلق كلَّما حاولتُ أن أنزل بوزني على السلالم. كان لا بدَّ من إحكام

قبضتيَّ على الحبل حتى بدأتْ راحتاي تؤلماني. فرحتُ أنزل ببطءٍ وحذر، درجةً درجة. لكنَّني مهما نزلتُ بعيدًا لم أبلغ القاع، وبدا أنْ لا نهايةَ للنزول. ذكَّرتُ نفسي بصوت الحصاة وهي تصطدم بالقاع. إذن كان للبئر قاع! لكنَّ نزولي عبر هذا السلّم هو الذي يستغرق وقتًا طويلًا.

فلمَّا أحصيتُ عشرين درجةً، اجتاحتني موجةٌ من الرعب. جاءت فجأةً، مثلَ صدمة كهربائيَّة، فتجمَّدتُ في مكاني. عضلاتي تحجَّرتْ، وكلُّ مسامّ جسدي كانت تنضح عرقًا، وبدأتْ ساقاي ترتعشان. لا يمكن أن تكون هذه البئرُ عميقةً هكذا. نحن في وسط طوكيو، وهذا المكان خلف البيت الذي أسكنه. حبستُ أنفاسي ورحتُ أنصت، لكنَّني لم أسمع شيئًا. كانت خفقاتُ قلبي تدوِّي في أذنيَّ بقوَّةٍ حتى إنَّني لم أستطع أن أسمع صوتَ السيكادات التي تصيح فوقي. أخذتُ نَفَسًا عميقًا. أنا الآن في الدرجة العشرين، لا أستطيع الاستمرار في النزول إلى الأسفل ولا الصعود إلى الأعلى. كان الهواء في البئر يزداد برودةً، وينضح برائحة التراب. كان عالمًا منفصلًا ها هنا، عالمًا مقطوعًا من السطح الذي تُشْرق عليه الشمسُ بجبروتها. نظرتُ إلى فوهة البئر فوقي، وقد أصبحتْ ضئيلةً. كانت فتحةُ البئر الدائريَّة مقسومةً بالنصف، فقد تركتُ أحد اللوحيْن في مكانه. من مكاني بدت الفتحةُ مثلَ نصف قمرٍ يسبح في سماء الليل. «سيظهر نصفُ قمر ويستمرّ عدَّة أيَّام». هذا ما قالته مالطا كانو. لقد تنبَّأتْ بما سيحدث.

هذا ما كان ينقصني! حين خطر لي هذا الخاطر شعرتُ بشيءٍ

من قوَّتي يُغادر جسدي. تراخت عضلاتي، وانطلقتْ زفرةٌ صلبة من داخلي.

حاولتُ أن أستدعي دفعةً أخيرة من قوّتي، فبدأتُ أنزل ثانية. قلتُ لنفسي سأنزل قليلًا. قليلًا فقط. لا تقلق، يوجد قاع. وفي الدرجة الثالثة والعشرين، وصلتُ إليها. لامستْ قدمي التراب في قاع البئر.

*

أوّلُ ما فعلته في الظلام أن تحسَّستُ قاعَ البئر بطرف حذائي، وأنا ما زلتُ ممسكًا بالحبل مخافةَ أن يكون هناك ما يضطرّني إلى الابتعاد عنه. وبعد أن تأكَّدتُ من عدم وجود ماء أو شيء مُريب، نزلتُ على الأرض. ثم أنزلتُ حقيبتي، وتحسَّستُ بيدي موضعَ السحَّاب فأخرجتُ المصباح. منحني وهجُ الضوء أوَّل نظرة واضحة إلى المكان. لم يكن قاعُ البئر شديد الصلابة ولا شديد الرخاوة. ولحسن الحظّ كانت الأرض جافَّة. ثمَّة صخور منتشرة ربَّما ألقاها الناس. والشيء الآخر الذي وجدتُه هناك صُرَّةٌ قديمةٌ مجعَّدة. فلمَّا سقط الضوء عليها تذكَّرتُ سطحَ القمر كما رأيتُه على التلفاز أوَّل مرَّة منذ سنوات.

كان جدار البئر الإسمنتيّ ناعمًا، فارغًا إلَّا من بعض كُتَلٍ تُشبه الطحالب نَمَتْ هنا وهناك. بدا الجدارُ الإسطوانيّ مثلَ مدخنة لها فتحةٌ في الأعلى على شكل نصف قمرٍ مضيء. حين نظرتُ إلى الأعلى أدركتُ عمقَ البئر. سحبتُ السلَّم سحبةً أخرى، فبدا في يديَّ صلبًا ومُطمْئنًا. ما دام في مكانه سيمكنني أن أعود إلى السطح متى شئت. بعد ذلك أخذتُ نَفَسًا عميقًا. لم

يكن هناك ما يعكّر الهواء سوى رائحة عفنٍ خفيفة. كان الهواء هو ما يقلقني أكثرَ من غيره؛ ففي العادة يكون الهواء في قاع البئر راكدًا، ويمكن أن تكون في الآبار الجافَّة غازاتٌ سامَّة تنبعث من الأرض. كنتُ قد قرأت قبل فترة طويلة في الجريدة عن حفَّار آبار مات من أثر غاز الميثان في قاع بئر.

تنفَّستُ، ثم جلستُ على أرضيَّة البئر وأسندتُ ظهري إلى الجدار. أغمضتُ عينيَّ وتركتُ جسدي يعتاد المكان. قلتُ في نفسي: حسنًا، ها أنذا، في قاع بئر.

6

ميراث

حول قنديل البحر

شيءُ أشبه بحسٍّ الانفصال

جلستُ في الظلام. وهناك، من فوقي بعيدًا، كان نصفُ القمر المضيء، الذي يحدِّده غطاءُ البئر، يطفو كأنَّه علامةٌ على شيء. غير أنَّ شيئًا من ذلك الضوء لم يتسرَّب إلى قاع البئر.

مع الوقت اعتادت عيناي الظلام، وسرعان ما تبيَّنتُ شكلَ يديَّ حين أُقرِّبها من وجهي. وأمَّا الأشياء الأخرى من حولي فقد بدأتْ أشكالها الباهتة تتكشَّف شيئًا فشيئًا، مثل حيوانات صغيرة فَزعة تتخلَّص من حذرها ببطءٍ شديد. لكنْ مهما اعتادت عيناي

الظلام، فالظلام يبقى ظلامًا. وأيًّا ما كان الشيء الذي أحاول التركيزَ فيه، فإنَّه سرعان ما يفقد شكلَه ويشقّ طريقه بصمتٍ في العتمة. قد يجوز أن نُسمِّيه «الظلام الباهت»، لكنَّ فيه رغم ذلك كثافةً خاصَّةً به، تنطوي في بعض الأحيان على ظلمةٍ أكثر فائدةً ومعنى من الظلمة الكاملة. ففي هذا الظلام الباهت يمكنك أن تُبصر شيئًا. وفي الوقت نفسه، لست تُبصر.

في هذا الظلام العجيب بدأتْ ذكرياتي تكتسب قوَّةً لم تكن لها من قبل. والصور المتشظِّية التي استدعتْها داخلي كانت واضحةً بكلِّ تفاصيلها، حتى خُيِّل إليَّ أنَّني أستطيع إمساكَها بيديّ. أغمضتُ عينيّ، واستحضرتُ لقائي الأوَّل بكوميكو قبل ثماني سنوات.

*

كان لقاؤنا الأوَّل في قاعة الانتظار بمستشفى الجامعة في كاندا. كنتُ في تلك الفترة أذهب إلى المستشفى كلَّ يوم لمقابلة عميلٍ ثريٍّ لأمرٍ يتعلَّق بميراثه. وكانت كوميكو تذهب إلى هناك يوميًّا بين محاضراتها كي تعتني بأُمِّها التي أُصيبت بقرحةٍ في الإثنيْ عشر. كانت ترتدي بنطالًا من الجينز أو تنُّورةً قصيرةً وسترة، وتعقص شعرَها كذيل حصان. في بعض الأحيان كانت ترتدي معطفًا، بحسب ما يكون عليه الجوُّ في بداية تشرين الثاني/ نوفمبر. كانت تحمل حقيبةً، ودائمًا ما تحمل معها بضعةَ كتبٍ جامعيَّة، بالإضافة إلى شيء يشبه كرَّاسة الرسم.

في عصر اليوم الأوَّل لي هناك، كانت كوميكو تجلس على الأريكة تشبك ساقيْها، وتنتعل حذاءً أسود ذا كعب خفيض، وتقرأ

في كتاب. جلستُ قبالتها، أنظر في ساعتي كلَّ خمس دقائق حتى يحين موعدُ مقابلتي مع العميل، إذ طلب تقديمَ الموعد ساعةً ونصفَ الساعة لسببٍ لا أعلمه. لم ترفع كوميكو عينيْها عن الكتاب. كانت ساقاها غاية في الجمال، وقد أنعشني هذا بطريقةٍ ما. وجدتُ نفسي أتساءل كيف يشعرُ من يملك وجهًا جميلًا كهذا (أو شديدَ الذكاء على الأقلِّ) وساقيْن رائعتيْن.

وبعد أن تصادفنا في قاعة الانتظار مرَّات عدَّة، تبادلنا بعضَ العبارات، وكنَّا نتبادل المجلَّات التي ننتهي من قراءتها أو نتناول الفواكهَ من هديَّةٍ أحضرها أحدُهم إلى والدتها. كان قد تملَّكنا السأم، ونحتاج إلى الحديث مع شخصٍ من عمرنا.

شيء ما نشأ داخلنا منذ الوهلة الأولى. لعلَّه لم يكن من تلك المشاعر القويَّة التي تعصف بشخصيْن يلتقيان للمرَّة الأولى مثل صعقةٍ كهربائيَّة، لكنَّه شعور أهدأ وألطف، مثل ضوءيْن صغيريْن يسافران معًا في ظلمة شاسعة، ويقتربان بعضهما من بعض في الطريق على نحو غير ملحوظ. شيئًا فشيئًا لم أعد أشعر أنِّي التقيتُ شخصًا جديدًا، بقدر ما شعرتُ بأنِّي صادفتُ صديقًا عزيزًا لم أَرَه منذ زمن.

وهكذا لم تعد تلك الحواراتُ الصغيرة في المستشفى تُرضيني. وكنتُ أرجو أن ألتقيها في مكانٍ آخر، حيث يمكننا أن نتحدَّث فعلًا. وأخيرًا، قرَّرتُ أن أطلب منها موعدًا.

قلتُ لها: «أعتقد أنَّنا بحاجة إلى تغيير جوٍّ. لنخرجْ من هنا ونذهب إلى أيِّ مكان لا يوجد فيه مرضى أو عُملاء».

فكَّرتْ كوميكو قليلًا ثم قالت: «حديقة الأسماك؟»

هكذا أصبحتْ حديقةُ الأسماك مكانَ موعدنا الأوَّل. أحضرتُ كوميكو إلى والدتها بعضَ الملابس في صباح ذلك الأحد، وقابلتني في قاعة الانتظار. كان يومًا صحوًا دافئًا، وكانت كوميكو ترتدي فستانًا أبيضَ بسيطًا تحت سترةٍ زرقاء شاحبة. لطالما بهرتني كوميكو بحُسن هندامها. فقد كانت تختار أبسط الملابس، لكنَّها ـ بلفَّةٍ في الكُمَّيْن أو حَنيةٍ في الياقة ـ تجعل من تلك الملابس شيئًا رائعًا. كانت هذه مَلَكَة لديها. وقد لاحظتُ أنَّها تعتني بملابسها عنايةً تقترب من الحبِّ، وكلَّما مشيتُ إلى جانبها وجدتُ نفسي أحدِّق فيها بإعجاب. لا تجاعيدَ في ملابسها، والطيَّاتُ مصطفَّةٌ بإتقان، وكلُّ شيء أبيض تلبسه يبدو جديدًا ناصعَ البياض. حذاؤها يخلو من بقع أو تآكل. فلمَّا رأيتُ ذلك تخيَّلتُ دُرْجَ ملابسها وقد وُضعتْ فيه الملابسُ مطويَّةً ومصفوفةً بعناية، وخزانتَها وقد عُلِّقتْ فيها التنانيرُ والفساتينُ بأكياسها البلاستيكيَّة. (وهذا بالضبط ما وجدتُه بعد زواجنا).

قضيْنا عصرَنا الأوَّل في حديقة الأسماك في حديقة أوينو للحيوانات. كان الجوّ جميلًا في ذلك اليوم، فقلتُ في نفسي لعلَّه من الأفضل أن نتجوَّل في أرجاء الحديقة نفسها، فألمحتُ إلى ذلك في القطار، لكنَّها أوضحتْ رغبتَها في الذهاب إلى حديقة الأسماك. لا بأس ما دام هذا ما تريده. في حديقة الأسماك كان هناك عرض خاصٌّ لقناديل البحر، فرأيناها من أوَّلها إلى آخرها، نتفحَّص تلك العيِّنات النادرة التي أُحضرتْ من شتَّى أنحاء العالم. كانت تسبح في أحواضها مرتعشة، منها ما يشبه القطنةَ الصغيرةَ

بحجم عقلة الإصبع، ومنها الوحوش العملاقة التي يصل قطرُها إلى أكثر من ثلاث أقدام. لم يكن المكان مزدحمًا، أخذًا في الاعتبار أنَّه كان يومَ أحد. في الواقع كنَّا في الجانب الفارغ؛ ففي يومٍ صحوٍ كهذا يفضِّل الجميع أن يذهبوا ناحيةَ الأفيال والزِرافات، لا قناديلِ البحر.

كنتُ في الواقع أكره قناديلَ البحر، لكنِّي لم أقل شيئًا لكوميكو. فقد تعرَّضتُ للسعاتٍ كثيرةٍ منها في صغري حين كنتُ أسبح في البحر. وذات مرَّة كنتُ أسبح بمفردي بعيدًا، فوجدتُ نفسي أمام سربٍ من القناديل التي سرعان ما أحاطت بي. لم أنسَ قطّ ملمَسها الهلاميَّ البارد على جسدي. اجتاحتني موجةُ رعب في وسط هذه الدوَّامة من قناديل البحر، وشعرتُ كما لو أنَّني أُجرّ إلى ظلمةٍ لا قاع لها. لا أدري لماذا لم تلسعني، لكنَّني في غمرة ارتباكي ابتلعتُ الكثير من ماء البحر. هذا ما جعلني أرغب في تجاوز عرض القناديل، والذهاب إلى رؤية الأسماك العاديَّة، كالتونة أو الفلاوندر.

أمَّا كوميكو فكانت مندهشة، تقف أمام كلّ حوضٍ تُطيل النظرَ كما لو أنَّها فقدت الإحساسَ بالزمن. وتقول: «انظرْ إلى هذا. لم أكن أعرف أنَّ هناك قناديل ورديَّة هكذا. وانظرْ ما أجملها حين تسبح. تظلّ تُراوح هكذا إلى أن تصل إلى كلّ محيط في العالم. أليست رائعة؟»

«آه، بلى». لكنَّني كلَّما أجبرتُ نفسي على مواصلة النظر معها، شعرتُ بضيق في صدري. وما لبثتُ أن توقَّفتُ عن الردّ عليها، فكنتُ أعدّ الفكَّة في جيبي مرَّةً تلو الأخرى، أو أمسح

أطرافَ فمي بمنديلي. هكذا ظللتُ أرجو أن نصل إلى آخر أحواض القناديل، لكنَّها لم تنتهِ. من الواضح أنَّ لقناديل البحر تنوُّعًا هائلًا. استطعتُ أن أتحمَّل نصفَ ساعة، لكنَّ التوتُّر كان يُحيل رأسي إلى شيء أشبه بالهريس. فلمَّا لم أعد أطيق الاحتمال، تركتُ جانب كوميكو وانهرتُ فوق مقعد قريب. هرعتْ إليَّ وكانت قلقة جدًّا، فسألتْني إنْ كنتُ مريضًا. أجبتُها بصراحة أنَّ النظر إلى القناديل يُصيبني بالدوار.

حدَّقتْ في عينيّ ووجهُها يشي بارتعاب. «صحيح. هذا واضح في عينيْك. لقد غاب التركيز منهما. غير معقول! من مجرَّد النظر إلى القناديل؟!» قادتني من ذراعي خارج حديقة الأسماك إلى ضوء الشمس.

بقيتُ عشر دقائق آخذ أنفاسًا طويلةً بطيئة، إلى أن عدتُ إلى حالتي الطبيعيَّة. كانت شمسُ الخريف القويَّة تعكس شعاعَها الجميل في كلِّ مكان، فيما تحفحف الأوراقُ الجافَّة على أشجار الجينكو كلَّما هبَّ النسيم. بعد دقائق سألتني كوميكو: «كيف تشعر الآن؟ أنت فعلًا غريب. ما دمتَ تكره القناديل هكذا فلِمَ لَمْ تُخبرْني منذ البداية بدلًا من انتظار إصابتكَ بالدوار؟»

كانت السماء صافية، والريح مُنعشة، وتعابير الفرح مرسومة على وجوهِ مَن يقضون يوم الأحد في الحديقة. فتاةٌ جميلة رفيعة هناك تقود كلبًا ضخمًا طويل الشعر، ورجلٌ بقبَّعته يُراقب حفيدته على الأرجوحة. أزواجٌ وعشَّاق يجلسون على المقاعد، مثلنا. وهناك بعيدًا، شخص يتدرَّب على السلّم الموسيقيّ في آلة الساكسوفون.

سألتُها: «لِمَ تُحبِّين قناديل البحر إلى هذا الحدّ؟»

«لا أدري. ربَّما أراها جميلة. لكنَّ شيئًا حدث لي وأنا أنظر فيها. ما نراه أمامنا ما هو إلَّا جزء ضئيل من العالم. نظنُّ دائمًا أنَّ هذا هو العالم، لكنَّ هذا ليس صحيحًا على الإطلاق. العالم الحقيقيّ مكان أكثر عمقًا وظلمةً من هذا، ومعظمُه تعيش فيه قناديلُ البحر وأشياءُ أخرى. نحن ننسى، لا أكثر. ألا تتَّفق معي؟ ثلثا سطح الأرض بحارٌ ومحيطات، وكلُّ ما نراه منها بالعيْن المجرَّدة هو السطح: الجلد. نكاد لا نعرف شيئًا عمَّا يقع تحت الجلد».

مشينا طويلًا بعد ذلك. وعند الساعة الخامسة قالت كوميكو إنَّ عليها العودةَ إلى المستشفى، فأوصلتُها. ولمَّا افترقنا قالت: «شكرًا على هذا اليوم الجميل». كانت ثمَّة التماعةٌ هادئةٌ في ابتسامتها لم تكن موجودةً من قبل. حين رأيتُها أدركتُ أنَّني استطعتُ الاقترابَ منها أكثر هذا اليوم، والفضل يعود إلى قناديل البحر، بلا شكّ.

*

استمرَّت لقاءاتُنا بعد ذلك. خرجتْ أُمُّها من المستشفى، ولم أعد أذهب إلى هناك للعمل على وصيَّة عميلي، لكنَّنا كنَّا نلتقي مرَّةً كلّ أسبوع، نذهب إلى السينما أو المسرح، أو نمشي. كنَّا نقترب بعضنا من بعض أكثر مع كلِّ لقاءٍ، وكنتُ أستمتع برفقتها، فإنْ تلامَسنا شعرتُ برفرفةٍ في صدري. ولذلك كنتُ كثيرًا ما أجد صعوبةً في العمل حين تقترب نهايةُ الأسبوع. كنتُ واثقًا من إعجابها بي، وإلَّا لم تكن لتقابلني هكذا كلَّ نهاية أسبوع.

غير أنّي لم أكن على عجلةٍ من أمري لتعميق علاقتي بكوميكو. فقد شعرتُ بشيءٍ من الحيرة لديها. لم أكن أعرف طبيعةَ تلك الحيرة، لكنَّها كانت تتكشَّف بين الحين والآخر في كلامها أو أفعالها. قد أسألها عن شيءٍ ما، فتشهق شهقةً قصيرةً قبل أن تُجيب. هو ذلك التردُّد الخفيف، شيء كالظلّ أشعر به في ذلك الجزء من الثانية.

حلَّ الشتاء، ثم رأسُ السنة الجديدة، واستمرَّت لقاءاتُنا الأسبوعيَّة. لم أسألها قطّ عن ذلك الشيء، ولم تقل هي شيئًا. كنَّا نلتقي، نذهب إلى مكانٍ ما نتناول الطعام ونتحدَّث في أشياء عابرة.

وذات يوم انتهزتُ الفرصة وسألتها. «الديك حبيبٌ بالتأكيد، صحيح؟» نظرتْ إليَّ لحظةً ثم قالت: «من قال هذا؟»

«مجرَّد حدس». كنَّا ساعتهَا نمشي في حدائق شنجوكو الملكيَّة وقد هجرها الناسُ في الشتاء.

«أيّ نوع من الحدس؟»

«لا أدري. لديَّ إحساس بأنَّ ثمَّة شيئًا تريدين أن تقوليه لي. يجدر بكِ أن تقوليه إنْ كان ذلك ممكنًا».

ارتعشتْ تعابيرُ وجهها قليلًا، على نحوٍ لا يكاد يُلاحظ. ربَّما مرَّت بلحظة حيرة، غير أنَّ النتيجة التي خلصتْ إليها لم يكن بها أيُّ شكّ. قالت: «شكرًا لسؤالك، لكنْ ليس لديَّ أيُّ شيء أخصُّه بالحديث».

«لكنَّكِ لم تُجيبي على سؤالي».

«عن الحبيب؟»

«نعم». توقَّفتْ كوميكو عن المشي، ثم نزعتْ قفَّازيْها ووضعتهما في جيب معطفها، ووضعت يدي العارية في يديْها. كانت يدها دافئةً ناعمة. وحين ضغطتُ يدَها أنا أيضًا بدا لي أنَّ أنفاسَها أصبحتْ أصغر وأكثر بياضًا.

قالت: «هل يمكننا الذهاب إلى شقَّتكَ الآن؟»

فقلت وقد باغتني السؤال: «أكيد. لكنَّها شقَّة متواضعة».

كنتُ أسكن آنذاك في أساغايا، في شقَّة من غرفة واحدة ومطبخ صغير ودورة مياه، ومكان استحمام بحجم كشك هاتف. كانت الشقَّة في الطابق الثاني على الجهة الجنوبيَّة، تُطلّ على فناء تخزين لشركة بناء. كان هذا هو الشيء الإيجابيّ الوحيد في الشقَّة، فقد جلسنا أنا وكوميكو طويلًا أمام ضوء الشمس مستندَيْن إلى الجدار.

مارسنا الجنسَ للمرَّة الأولى في ذلك اليوم. كنت واثقًا بأنَّها كانت تريد ذلك؛ فهي التي أغوتني. لا أقول إنَّها قالت أو فعلتْ ما يُغوي صراحةً، لكنَّني حين وضعتُ ذراعي حول جسدها العاري أيقنتُ أنَّها كانت تريد لذلك أن يحدث. كان جسدُها ناعمًا، طيِّعًا لم يقاومني.

كانت تلك أوَّل تجربةٍ في الجنس لكوميكو. ظلَّت وقتًا طويلًا بعدهِا صامتةً. حاولتُ مرَّات عدَّة أن أتحدَّث إليها، لكنَّها لم تردّ. استحمَّت، ثم ارتدت ملابسَها، وعادت إلى الجلوس في ضوء الشمس. لم أكن أعرف ما يجدر بي قولُه، لكنَّني انضممتُ

إليها في رقعة الضوء من دون أن أقول شيئًا. هكذا التصقنا بالجدار نراقب الشمسَ وهي تتحرَّك. حين حلَّ المساء، قالت كوميكو إنَّها ستذهب، فأوصلتُها إلى بيتها.

في القطار سألتُها ثانية: «متأكِّدة أنَّه لا يوجد لديكِ ما تريدين إخباري إيَّاه؟» هزَّت رأسَها وتمتمتْ: «لا تشغلْ بالك».

لم أسألها مرَّةً أخرى. لقد اختارت كوميكو أن تمارس الجنسَ معي بإرادتها، فإنْ كان هناك ما لا تستطيع أن تقولَه الآن، فربَّما ستقوله لاحقًا بمرور الوقت.

واصلنا مواعيدَنا الأسبوعيَّة بعد ذلك، وقد أصبح جزءٌ منها يَشْمل ممارسةَ الجنس في شقَّتي. بدأتْ كوميكو تتحدَّث عن نفسها أكثر فأكثر حين نحتضن بعضنا بعضًا: عن الأشياء التي مرَّت بها، عن الأفكار والمشاعر التي تولَّدتْ لديها من تلك الأشياء. وهكذا بدأتُ أفهم العالم بعيْن كوميكو، ووجدتُ نفسي قادرًا أيضًا على الحديث إلى كوميكو عن العالم بعيني أنا. وقعتُ في غرامها، وقالت إنَّها لا تريد أن تتركني أبدًا. وانتظرنا حتى تخرَّجتْ، ثم تزوَّجنا.

كنَّا سعيدَيْن في حياتنا الزوجيَّة، لا يُعكِّرها شيء. ومع ذلك فقد كانت هنالك أوقات أحسستُ فيها بأنَّ ثمَّة منطقةً داخل كوميكو لم أستطع أن أنفذَ إليها، إذْ تغرق في الصمت في منتصف أحاديثنا العاديَّة (أو أكثرها إثارة) ومن دون سابق إنذار. يحدث هذا فجأةً، دونما سببٍ على الإطلاق (أو على الأقلِّ من دون سببٍ أراه). كان الأمر أشبهَ بالمشي في طريق، ثم السقوط فجأةً

في حفرة. لم تكن لحظاتُ صمتها تطول، لكنَّها بعد ذلك تبدو لبعض الوقت كما لو أنَّها لم تكن هناك.

حين أولجتُ في كوميكو أوَّل مرَّة، شعرتُ بتردُّدٍ غريب. كان من الطبيعيّ أن تشعر كوميكو بالألم وحده في ممارستها الأولى هذه، وقد كان جسمُها متخشِّبًا فعلًا من الألم. لكنَّ هذا لم يكن السببَ الوحيد وراء التردُّد الذي شعرتُ به. فقد كان ثمَّة شيء هناك، فكرةٌ غريبةٌ مفادُها أنَّ الجسد الذي كنت أُمسكُ به بين ذراعيَّ لم يكن جسَد المرأة التي كانت إلى جانبي قبل لحظات في حوارٍ حميم. كأنَّما بضغطة زرٍّ استُبدل بجسدها جسدٌ آخر. كنتُ حين أحضنُها أظلّ أداعب ظهرَها، وكان لملمس ظهرها الصغير الناعم تأثيرٌ فيَّ أشبهُ بالتنويم المغناطيسيّ. ومع ذلك، وفي الوقت نفسه، كنتُ أشعر بأنَّ ظهرها بعيدٌ عنِّي. طوال الوقت الذي كانت فيه بين ذراعيّ أكاد أقسم أنَّها كانت في مكانٍ آخر، تفكِّر في شيء آخر، ولم يكن الجسدُ الذي أحتضنه سوى بديل موقَّت. لعلَّ هذا هو السبب في أنَّني أخذتُ وقتًا طويلًا حتى قذفتُ، رغم أنِّي كنتُ منتصبًا تمامًا.

أحسستُ بهذا في المرَّة الأولى فقط. بعد ذلك شعرتُ بأنَّها أصبحتْ أقرب، وأنَّ استجاباتها الجسديَّة كانت أكثر حساسيَّةً بكثير. أقنعتُ نفسي بأنَّ ذلك الإحساس الأوَّليّ انتابني لأنَّها كانت أوَّلَ تجربةٍ لها.

*

أثناء بحثي في ذكرياتي، وجدتُني أمدّ يدي إلى السلّم المعلّق فأشدّه لأتأكَّد من أنَّه لن يرتخي. لم أستطع أن أطرد الخوف من

أنَّه قد ينفكّ في أيِّ لحظة. وكلَّما خطرت لي هذه الفكرة اضطربتُ، هناك في الأسفل المظلم. بل كنتُ أستطيع أن أسمع دقّات قلبي. وبعد أن تأكّدت من السلّم مرّات عدّة (لعلّها عشرين أو ثلاثين) بدأتُ أستعيد هدوئي. يبدو أنّني أحكمتُ ربطَ السلّم في الشجرة، ولن ينفكّ هكذا ببساطة.

نظرتُ في ساعتي. كانت عقاربُها المضيئة تُشير إلى قُبَيْل الثالثة عصرًا. الثالثة. ألقيتُ نظرةً إلى الأعلى. كان لوحُ نصف القمر ما يزال هناك عائمًا، وسطحُ الأرض قد اجتاحه ضوءُ الشمس. صوّرتُ لنفسي ينبوعًا يتلامع تحت ضوء الشمس، وأوراقَ شجرٍ خضراء تتمايل في النسيم. كان الضوء مهيمنًا على كلِّ شيء، أمّا هنا في الأسفل، فلا شيء سوى هذه الظلمة. كلّ ما عليك فعلُه هو النزول قليلًا على سلّمٍ من الحبال، فتصل إلى هذه العتمة العميقة.

شددتُ السلّم مرّةً أخرى للتأكُّد من ثباته، ثم أسندتُ رأسي إلى الجدار وأغمضتُ عينيّ. في النهاية غلبني النعاس، مثلَ تيّارٍ يرتفع شيئًا فشيئًا.

7

ذكريات وحوار عن الحمل
تجربة عمليَّة في الألم

حين صحوتُ كان رأسُ البئر أو نصفُ القمر قد اكتسى زرقةَ المساء الداكنة. عقارب الساعة تُشير إلى السابعة والنصف مساءً، أيّ إنَّني نمتُ هنا أربعَ ساعاتٍ ونصف الساعة.

أصبح الهواء في قاع البئر باردًا. حين نزلتُ كنتُ في حالة استثارة عصبيَّة قصوى منعتني من التفكير في درجة الحرارة. أمَّا الآن فقد بدأ جلدي يتفاعل مع الهواء البارد. فركتُ ذراعيّ كي أدفّئهما، فأدركتُ أنَّه كان عليَّ إحضارُ شيء أرتديه فوق القميص. لم يخطر في بالي أنَّ الحرارة قد تختلف بين قاع البئر والسطح.

ها قد لفَّني الظلامُ التامّ، ومهما شددتُ على عينيّ فلا يمكن أن أرى شيئًا. لم أكن قادرًا ولو على تحديد موضع يديّ. تحسَّستُ الجدار حيث يوجد السلّم، وشددتُه. ما يزال ثابتًا. شعرتُ بأنَّ حركة يدي تُسبِّب تحوُّلًا في الظلام، لكنَّه قد يكون محضَ توهُّمٍ لا غير.

غريبٌ جدًّا ألَّا أستطيع رؤيةَ جسدي بعينيّ، رغم معرفتي بأنَّه موجود. غير أنَّ قناعتي بحقيقة أنَّني موجود راحت تقلّ وأنا ثابت في مكاني في الظلام. بهذه الطريقة كان في إمكان أذني أن تتأكَّد من وجود صوتي، وفي إمكان يدي أن تتأكَّد من وجود وجهي، وفي إمكان وجهي أن يتأكَّد من وجود يدي.

لكنْ رغم هذه المحاولات فإنَّ جسدي بدأ يفقد كثافتَه ووزنَه، كالرمل تذروه المياهُ شيئًا فشيئًا. شعرتُ كما لو أنَّ شدّ حبلٍ يدور في داخلي. مبارزة كان فيها عقلي يسحب جسمي ببطءٍ إلى منطقته. كان الظلامُ يربك التوازنَ القائم بين العقل والجسد. واجتاحتني فكرةُ أنَّ جسدي ما هو إلَّا قشرة أوَّليَّة نشأتْ بإعادة ترتيب للعلامات المعروفة بالكروموسومات. فلو أُعيد ترتيبُ هذه العلامات مرَّةً أخرى، سأجد نفسي داخل جسدٍ مختلف تمامًا. تذكَّرتُ ما قالته كريتا كانو عن نفسها: «عاهرة العقل». لم أعد أجد صعوبةً في تقبُّل هذا الوصف. نعم، كان من الممكن أن نمارس الجنسَ في عقلنا، وأن أقذفَ في الواقع. في الظلمة الحالكة فعلًا، كلُّ الأشياء الغريبة تُصبح ممكنة.

نفضتُ هذه الأفكار عن رأسي، وجاهدتُ كي أُعيد عقلي إلى داخل جسمي.

في الظلام، ضغطتُ رؤوسَ أصابع يدي على رؤوس أصابع اليد الأخرى، الإبهامَ على الإبهام، والسبَّابةَ على السبَّابة. هكذا تحقَّقتْ أصابعُ اليد اليمنى من وجود اليد اليسرى، والعكس بالعكس. بعد ذلك أخذتُ عدَّة أنفاس عميقة بطيئة. حسنًا إذن، يكفي التفكيرُ في العقل. فكِّرْ في الواقع. فكِّرْ في العالم الحقيقيّ، عالم الجسد. هذا هو السبب في وجودي هنا: كي أُفكِّر في الواقع. وأفضل طريقة للتفكير في الواقع هو أن أهرب منه قدر المستطاع، كأن أنزلَ إلى قاع بئر مثلًا. «وحين ينبغي عليك أن تنزل، ابحثْ عن أعمق بئر وانزلْ حتى تبلغ قاعَها». هكذا قال السيِّد هوندا. استندتُ إلى الجدار، وسحبتُ الهواءَ العفن إلى رئتيّ.

*

لم نُقِم حفلَ زفاف. أوَّلًا، لم يكن لدينا ما يكفي من المال، كما أنَّنا لم نشعر بأنَّنا نُدين لوالدِيْنا بحفلٍ كهذا. كان بدءُ حياتنا بالطريقة التي نَقْدر عليها أهمَّ بكثير من الحفل. هكذا ذهبنا إلى مكتب التسجيل باكرًا صباح يوم الأحد، وأيقظْنا الموظَّف المناوب بقرع الجرس في نافذة الأحد، وسلَّمناه ورقةَ تسجيل الزواج. بعد ذلك ذهبنا إلى مطعم فرنسيٍّ راقٍ لا يمكننا في العادة أن نحتمل أسعارَه، فطلبنا زجاجةَ نبيذ، وتناولنا وجبةً كاملة مع الحلويات. كان هذا كافيًا بالنسبة إلينا.

في ذلك الوقت لم تكن لدينا أيُّ مدَّخرات (صحيح أنَّ أمِّي تركت لي بعضَ المال، لكنَّني قرَّرتُ ألَّا أستخدمه إلَّا في حالات الضرورة القصوى)، ولا أثاث. لم يكن لدينا مستقبل واضح

أيضًا. كنتُ أعمل في شركة محاماة من دون شهادة الممارسة، فلم يكن ثمَّة شيء أتطلَّع إلى تحقيقه. وكانت كوميكو تعمل في دار نشرٍ صغيرة غير معروفة. كان يُمْكنها لو أرادت أن تحصلَ على وظيفة أفضل بكثير من خلال أبيها بعد تخرُّجها، لكنَّها كرهتْ فكرةَ اللجوء إليه وفضَّلتْ أن تبحث عن وظيفةٍ بنفسها. ومع كلّ ذلك لم نكن مستاءيْن من شيء. كنَّا سعيدَيْن بقدرتنا على تدبير أمورنا من دون تدخُّل من أحد.

لم يكن سهلًا على أيٍّ منَّا أن يبدأ من الصفر. كنتُ أميل إلى العزلة، تلك التي نعهدها عند الأطفال وحدهم. فحين أحاول أن أُنجز شيئًا مهمًّا، أحبّ أن أُنجزه بنفسي. كنتُ أرى أنَّ الاضطرار إلى التحقُّق من الأمور مع أشخاصٍ آخرين ومحاولة إقناعهم محضُ مضيعةٍ للوقت والجهد، بينما من الأسهل عليَّ أن أعمل وحدي في صمت. أمَّا كوميكو، فبعد أن فقدتْ شقيقتَها صدَّت أسرتها ونشأتْ كأنَّها وحيدة. لم تلجأ إليهم قطّ تطلب نصحَهم. من هذه الناحية كنَّا متشابهَيْن جدًّا.

لكنَّنا شيئًا فشيئًا تعلَّمنا أن نكرِّس جهدَنا وتفكيرَنا لهذا الكيان الجديد الذي نُسمِّيه «بيتنا». هكذا تدرَّبنا على التفكير والشعور بالأشياء معًا. كنَّا نجتهد في التعامل مع ما يحدث لكلٍّ منَّا معًا بوصفه يخصّنا نحن الاثنيْن. ينجح الأمرُ أحيانًا، ولا ينجح في أحيان أخرى، لكنَّنا استمتعنا بهذه التجربة، بناجاحاتها وإخفاقاتها. حتى الصدامات العنيفة كنَّا ننساها مع أوَّل عناق.

*

في السنة الثالثة من زواجنا حملتْ كوميكو. كانت صدمةً

كبيرةً لنا، أو لي أنا على الأقلّ؛ فقد كنَّا نُولي حرصًا كبيرًا على موانع الحمل. لا بدَّ من أنَّها كانت لحظةَ إهمال. صحيح أنَّه لا يمكننا تحديدُ تلك اللحظة بالضبط، ولكنْ لا يوجد سبب آخر. في كلِّ الأحوال لم نكن قادرَيْن ماديًّا على رعاية طفل. كانت كوميكو قد بدأتْ لتوِّها ترسِّخ قدميْها في وظيفتها، وكانت تريد أن تحتفظ بها قدر المستطاع. فالشركات الصغيرة مثل شركتها لم تكن لتمنح موظَّفاتِها إجازاتِ وضع. وإنْ أرادت امرأةٌ أن تُنجب فلم يكن لها من خيار سوى أن تستقيل. فإن استقالت كوميكو، سيكون علينا أن نعيش براتبي فقط، لفترةٍ من الزمن على الأقلّ، لكنَّ هذا لم يكن ممكنًا.

قالت كوميكو بصوتٍ لا تعبيرَ فيه يومَ أبلغها الطبيبُ بحملها: «أظنّ أنَّ علينا التخلِّي عن الأمر هذه المرَّة».

ربَّما كانت محقَّة. فمهما نظرت إلى الأمر كانت هذه هي النتيجة المعقولة. كنَّا صغيرَيْن، غير جاهزيْن للأبوَّة والأمومة. كان كلٌّ منَّا بحاجةٍ إلى وقتٍ لنا. كان علينا أن نؤسِّس حياتنا، تلك هي الأولويَّة. والوقت أمامنا طويل في المستقبل للإنجاب.

*

لكنَّني في الواقع لم أكن أُريد لكوميكو أن تَجهض. حدث أن «حمَّلتُ فتاةً» في سنتي الجامعيَّة الثانية، وكنتُ قد التقيتُها في المكان الذي أعمل فيه بدوام جزئيّ. كانت شابَّة لطيفة أصغر منِّي بسنة، واستلطفنا بعضنا بعضًا. كنَّا بالتأكيد معجبيْن واحدنا بالآخر، لكنَّنا لم نأخذ هذه العلاقة على محمل الجدِّ، ولا كان هناك أيُّ أمل في أن تتطوَّر علاقتُنا إلى مرحلة جادَّة. كنَّا شابَّيْن

وحيدَيْن في حاجةٍ إلى حضن دافئ.

لم يكن هنالك من شكٍّ في سبب حملها. كنتُ دائمًا أستخدم الواقي، لكنَّني نسيتُ أن أشتري واقيات جديدة ذاتَ يوم بعد أن نفدتْ. تردَّدتِ الفتاةُ قليلًا ثم قالت: «آه لا بأس. أعتقد أنَّني لست في حالة إخصابٍ اليوم على أيِّ حال». لكنّ هذه المرَّة كانت كافيةً لتَحْمل.

لم أكد أُصدِّق بأني «حمَّلتُ فتاة»، لكنَّني كنتُ أعرف أنَّ الإجهاض هو الخيار الوحيد. دبَّرتُ مبلغ العمليَّة بصعوبة وذهبتُ معها إلى العيادة. استقللنا قطارًا إلى بلدة صغيرة في تشيبا حيث أوصلتْها صديقةٌ لها بطبيبةٍ هناك. نزلنا في محطَّة لم أسمع بها من قبل، ورأيتُ آلافَ البيوت الصغيرة، كلّها على قالب واحد، متراصَّة، تمتدّ على تلال واسعة على مدِّ البصر. كان هذا تطوُّرًا جديدًا حدث في السنوات الأخيرة للشباب العاملين في الشركات، ممَّن لم يكن في مقدورهم تحمُّلُ كلفة السكن في طوكيو. المحطَّة نفسها كانت جديدة، وفي قبالتها حقولُ رزّ ضخمة ممتدَّة، أكبر من أيِّ شيء رأيتُه في حياتي. أمَّا الشوارع فكانت تصطفّ على جانبيْها مكاتبُ العقارات.

في العيادة وجدنا قاعةَ الانتظار تعجّ بالحوامل ذوات البطون الكبيرة، معظمُهنَّ ربَّما في السنة الرابعة أو الخامسة من الزواج وقد قرَّرن الإنجابَ والاستقرارَ في بيوتهنَّ المُشتراة حديثًا في الضواحي. كنتُ الشابَّ الوحيد في القاعة، والحوامل كلُّهنَّ يرمقنني باهتمام شديد، ومن دون أيِّ ملمحٍ للتعاطف. فمن نظرة سريعة يمكن أيًّا كان أن يعرف أنَّني طالبٌ جامعيّ حمَّل حبيبتَه

بالخطأ، وجاء معها إلى هنا للإجهاض.

بعد العمليَّة استقللنا القطار عائدَيْن إلى طوكيو. ولأنَّنا متَّجهان إلى المدينة في آخر النهار، فقد كان القطار شبه فارغ. اعتذرتُ لها، فقد كان إهمالي هو الذي تسبَّب في كلِّ هذا.

قالت: «لا تقسُ على نفسك. على الأقلِّ رافقتَني إلى العيادة ودفعتَ أجرَ العمليَّة».

سرعان ما توقَّفت لقاءاتُنا، فلم أعرف ما حدث لها بعد ذلك. غير أنَّ مشاعري ظلَّت مضطربةً فترةً طويلةً بعد الإجهاض، وحتى بعد أن باعدتْ بيننا المسافات. كلَّما تذكَّرت ذلك اليوم خطرتْ لي صورة الحوامل اللائي يملأن قاعةَ الانتظار ويرمقنني شزرًا، فأقولُ في نفسي ما كان ينبغي لي أن أحمّلها.

في طريق العودة ونحن في القطار، حكت لي الفتاةُ كلَّ التفاصيل التي جعلتْ عمليَّةَ الإجهاض سهلةً جدًّا، لكي تهدِّئ من روعي، تهدِّئ من روعي أنا. «الأمر ليس سيِّئًا كما تظنّ. لا يستغرق وقتًا طويلًا، ولا يؤلم. كلُّ ما عليَّ فعله هو أن أنزع ملابسي وأستلقي. صحيح أنّ الأمر محرِج، لكنَّ الطبيبة كانت لطيفة، والممرِّضات أيضًا. تلقَّيتُ محاضرةً منهنَّ طبعًا حول توخِّي الحذر في المرَّات القادمة. علي أيِّ حال، لا تلم نفسك. إنَّها غلطتي أنا أيضًا. أنا قلت إنَّ الأمر سيكون على ما يرام، أليسَ كذلك؟ هوِّنْ عليك».

لكنَّني طوال طريق الذهاب إلى بلدة تشيبا والعودة منها شعرتُ بأنَّني غدوتُ شخصًا آخر. حتى بعد أن أوصلتها إلى

منزلها وعدتُ إلى غرفتي واستلقيتُ وأخذتُ أحملق في السقف، كنتُ أشعر بذلك التغيير. كنت شخصًا جديدًا، ولم يكن في إمكاني العودةُ إلى ما كنت عليه سابقًا. إنَّه الوعي بأنَّني لم أعد بريئًا. لم يكن ذلك حسًّا أخلاقيًّا، أو تأنيبَ ضمير. أعرف طبعًا أنَّني اقترفتُ خطأ كبيرًا، لكنَّني لم أكن أعاقب نفسي عليه. كان الأمر حقيقةً ملموسةً عليَّ أن أواجهها بهدوء ومنطق، ومن دون اعتبار لمسألة العقاب.

*

أوَّل ما خطر في بالي حين علمتُ بحَمْل كوميكو كان صورةَ الحوامل في قاعة الانتظار، أو بالأحرى الرائحة المميَّزة التي كانت عالقةً في المكان. لم أعرف ما هي تلك الرائحة بالضبط، هذا إنْ كانت رائحةَ شيءٍ أصلًا. فقد تكون شيئًا يُشبه الرائحة. عندما نادت الممرِّضة اسمَ الفتاة، نهضتْ ببطء من مقعدها البلاستيكيّ ومشت مباشرةً إلى الباب. لكنَّها قُبَيْل أن تقف ألقت عليَّ نظرةً تشي بابتسامةٍ على شفتيْها، أو ما تبقَّى من ابتسامةٍ كانت تريد أن ترسمَها ثم غيَّرتْ رأيَها.

كنتُ أعلم أنَّ الإنجاب لم يكن خيارًا واقعيًّا لنا، لكنَّني مع ذلك كنتُ رافضًا فكرةَ الإجهاض. حين قلتُ ذلك لكوميكو ردَّت: «لقد تحدَّثنا في هذا من قبل. لو أنجبتُ الآن سأخسر عملي، ويتوجَّب عليك أن تجد وظيفةً براتب أعلى كي تستطيع أن تُعيلني أنا والطفل. لن يبقى لدينا مالٌ لأيِّ شيء إضافيّ. لن نستطيع أن نفعل أيّ شيء نريده. من الآن فصاعدًا ستتضاءل الفرصُ أمامنا إلى اللاشيء. هل توافق على هذا؟»

«نعم، أوافق».

«حقًّا؟»

«لو ركَّزتُ في هذا الأمر فغالبًا ما سأجد وظيفةً، ربَّما عند خالي مثلًا. فهو يحاول أن يساعدني. يودّ أن يفتح محلًّا جديدًا، لكنَّه لم يجد شخصًا يثق فيه لتولِّي إدارته. أنا واثق بأنَّ راتبي سيكون أعلى ممَّا أحصل عليه الآن. صحيح أنَّها لن تكون شركةَ محاماة، ولكنْ لا يهمّ. لستُ مغرمًا بعملي الحالي على أيِّ حال».

«ستُدير مطعمًا إذن؟»

«أنا واثق بقدرتي على ذلك لو حاولت. وإنْ حدث أيُّ طارئ، فلديَّ بعضُ المال تركتْه لي والدتي. لن نموتَ جوعًا».

صمتتْ كوميكو، وظلَّت تفكِّر وقتًا طويلًا وأطرافُ عينيْها تتغضَّن. كنتُ أحبّ هذه التعابير الصغيرة فيها. ثم سألتني: «هل معنى هذا أنَّك تُريد إنجابَ طفل؟»

«لا أدري. أعرف أنَّكِ حامل، لكنَّني لم أدرك أنَّني قد أصبح أبًا، ولا أعرف حقًّا كيف ستتغيَّر حياتُنا لو أنجبنا طفلًا. أنتِ تحبّين عملك، ومن غير الإنصاف أن نحرمك إيَّاه. أظنّ أنَّنا نحن الاثنيْن في حاجةٍ إلى المزيد من الوقت معًا، لكنَّني أرى أيضًا أنَّ وجود الطفل سوف يوسِّع من آفاق عالمنا. لا أدري ما يجدر بنا فعلُه. هو مجرَّد شعور بأنَّني لا أُريدُكِ أن تُجهضي. لا أستطيع أن أقدِّم أيّ ضمانات. لستُ واثقًا تمامًا بهذا، ولا أملك أيّ حلول مدهشة. كلّ ما أملكُه هو هذا الشعور».

فكَّرتْ كوميكو برهةً وهي تفرك بطنَها بين الحين والآخر. «برأيك ما السبب في حملي؟ لديك فكرة؟»

هززتُ رأسي. «لا. كنَّا نتوخَّى الحذر دائمًا. وهذا بالضبط ما أردتُ تجنّبه. لذلك لا أدري كيف حدث هذا».

«ألم يخطر في بالك أنَّني ربَّما أقمتُ علاقة مع أحد؟ ألم تفكِّر في هذا الاحتمال؟»

«مطلقًا».

«لماذا؟»

«لا أدري. لا أدَّعي أنَّ لديَّ حاسَّةً سادسة، ولكنَّني متأكِّد».

كنَّا جالسَيْن إلى طاولة المطبخ نشرب النبيذ. كان الوقت متأخِّرًا في الليل والصمتُ يُخيِّم على المكان. ضيَّقتْ كوميكو عينيْها وحدَّقت في آخر رشفةٍ من كأسها. لم تكن تشرب إلَّا نادرًا، إذ تشرب كأس نبيذ حين يجافيها النوم. كان ينفعها هذا الحلّ دائمًا. أمَّا أنا فكنتُ أجاريها في الشراب لا أكثر. لم تكن لدينا كؤوسُ نبيذٍ حقيقيَّة، فكنَّا نشرب من كؤوس البيرة التي حصلنا عليها مجَّانًا من محلِّ الكحول.

قلتُ لها وقد أقلقني الأمر فجأةً: «وهل كانت لكِ علاقةٌ فعلًا؟»

فابتسمتْ وهزَّت رأسها. «هل تمزح؟ تعرف أنَّني لن أفعل شيئًا كهذا. كنتُ أقول ذلك كفرضيَّةٍ نظريَّةٍ لا أكثر». ثم اكتست تعابيرُها بملامح الجِدِّ ووضعتْ مرفقيْها على الطاولة. «مع ذلك، ففي بعض الأحيان لا أستطيع تحديد الأشياء. لا يمكنني تحديدُ

ما هو حقيقيّ وما ليس حقيقيًا. ما حدث فعلًا وما لم يحدث.. أحيانًا فقط».

«وهل هذا واحد من تلك الأحيان؟»

«نوعًا ما. ألا يحدث لك هذا الشيء؟»

فكّرتُ قليلًا. «لا، لا أذكر شيئًا كهذا».

«لا أعرف كيف أصفه. ثمّةَ نوع من الفجوة بين ما أشعر أنّه حقيقيّ وبين ما هو حقيقيّ فعلًا. يأتيني هذا الشعور بأنَّ شيئًا من نوعٍ ما موجود، في مكان ما داخلي.. مثل لصٍّ في المنزل يختبئ في خزانة الملابس.. يخرج مرّةً بين الحين والآخر لكي يعبث بأيِّ نظام أو منطق وضعتُه لنفسي. مثلما يُثير المغناطيس جنونَ الآلات».

«شيء من نوعٍ ما؟ لصّ؟ يا لهَذا الغموض!»

قالت كوميكو: «إنّه غامض، فعلًا»، ثم ازدردتْ ما تبقّى من نبيذها.

نظرتُ إليها وهلةً. «تعتقدين أنَّ هنالك علاقةً بين ذلك «الشيء من نوعٍ ما» وحقيقة أنّكِ حامل؟»

هزَّت رأسها. «لا. لا أقول إنّه توجد أو لا توجد علاقةٌ بينهما. المسألة وما فيها أنّني أحيانًا لا أكون متأكّدة من أنَّ الأمور تسير وفق نظام. هذا كلُّ ما أحاول قوله».

كان هنالك شيء من نفاد الصبر في كلامها. لقد وصلنا إلى نهاية الحوار. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدةَ صباحًا. مددتُ يدي فوق الطاولة وأمسكتُ يدها.

قالت كوميكو: «أرجو أن تترك لي هذا القرار. أعلم تمامًا أنَّها مشكلة كبيرة لنا نحن الاثنيْن. أعلم هذا. لكنَّني في هذا الأمر أُريدك أن تترك لي القرار. يُحزنني أنَّني لا أستطيع التعبير جيِّدًا عمَّا أُفكِّر وأشعر به».

«أعتقد أنَّ لديكِ الحقَّ في اتِّخاذ هذا القرار. أحترمُ هذا الحقّ».

«لدينا شهر أو نحو ذلك لكي نقرِّر. تحدَّثنا في الأمر وأعتقد أنَّني فهمتُ شعورك جيِّدًا. أمَّا الآن، فدعني أُفكِّر. لنتوقَّف عن الكلام في الموضوع فترة».

*

كنتُ في هوكايدو حين أجهضتْ كوميكو. لم تكن شركتي تبعث أيَّ موظَّفين خارج المدينة في مهامّ عمل، لكنَّها هذه المرَّة لم تجد أحدًا غيري لكي تبعثه إلى شمال البلاد. كان المطلوب منِّي أن أوصل حقيبةً تحتوي على أوراق، وأشرح شيئًا للطرف الذي سيستلمها، ثم أستلم منه أوراقًا وأعود. من الواضح أنَّ الأوراق كانت مهمَّة جدًّا ولا يمكن إرسالُها بالبريد. ولأنَّ جميع رحلات العودة إلى طوكيو كانت ممتلئة، فقد اضطُررتُ إلى المبيت ليلةً في فندق ساپورو. في ذلك اليوم نفسه ذهبتْ كوميكو لإجراء العمليَّة. اتَّصلت بي بعد الساعة العاشرة في الفندق وقالت: «أجريتُ العمليَّة عصرَ اليوم. آسفة لأنِّي لم أُخبرُك قبل ذلك، لكنَّهم لم يخبروني بالموعد إلَّا قبله بوقتٍ قصير، وقلتُ في نفسي من الأسهل علينا أن أتَّخذ القرار وأتدبَّرَ الأمرَ بنفسي بينما أنت مسافر».

«لا عليكِ».

«أودّ أن أُخبرَكَ المزيد، لكنّني ما زلت غير مستعدّة. سأُخبرك في وقتٍ لاحق».

«يمكننا التحدُّث حين أعود».

بعد هذا الاتّصال ارتديتُ معطفي وخرجتُ أتجوَّل في شوارع ساپورو. كنَّا في أوائل شهر آذار / مارس، والثلج يغطِّي جوانبَ الطرقات. الهواء بارد على نحوٍ يقترب من الإيلام، إذ تخرج الأنفاس في سحبٍ بيضاء لا تلبث أن تختفي. يرتدي الناسُ معاطفَ ثقيلةً وأوشحةً تصل إلى ذقونهم، يشقُّون الطريقَ في الأرصفة الممتلئة بالثلج بخطواتٍ حذرة. سيّارات الأجرة تروح وتغدو، وإطاراتُها تَصرّ على الطريق. وحين لم أعد أتحمَّل البرد، دخلتُ حانةً وشربت بسرعة ثم خرجتُ أمشي ثانيةً.

ظللتُ أمشي فترةً طويلةً. كانت ندفُ الثلج تتساقط بين وقتٍ وآخر، لكنَّها كانت ندفًا هشَّة، مثل ذكريات تتلاشى بعيدًا. دخلتُ حانةً أخرى تحت الأرض، تبيَّن أنَّها أكبرُ ممَّا تبدو من مدخلها. كان هناك مسرح صغير بجانب البار، عليه رجل يعزف القيثارةَ ويغنِّي. كان يجلس على كرسيٍّ معدنيٍّ وإحدى ساقيْه فوق الأخرى، وعلبةُ القيثارة ملقاة عند قدميْه.

جلستُ إلى البار أشرب وأستمع إلى الموسيقى. كان العازف يقول بين الأغاني إنَّها كلّها من تأليفه. كان في أواخر العشرينيَّات، بوجهٍ لا ملامحَ مميَّزةً فيه، يضع نظَّارةً بإطارٍ بلاستيكيٍّ أسود، ويرتدي بنطالًا من الجينز، وقميصًا صوفيًا

بمربَّعات يتدلَّى حول خصره، وينتعل حذاءً طويلًا. من الصعب تصنيفُ هذا النوع من الأغاني، لكنَّها ربَّما كانت تُسمَّى «شعبيَّة» في الماضي، على أنَّها النسخة اليابانيَّة منها. أوتار بسيطة، وألحان بسيطة، وكلمات غير لافتة. لم تكن تلك الموسيقى التي قد أتوقَّف للاستماع إليها.

في الأوضاع العاديَّة ما كنت لأكترث بهذه الموسيقى. كنتُ سأتناول مشروبي، وأدفع الفاتورة وأغادر. لكنَّ البرد كان ينخر عظامي، ولم أرغب في الخروج مرَّةً أخرى إلى أن أشعرَ بالدفء تمامًا. شربتُ كأسًا وطلبت غيرَها. بل لم أحاول أن أنزع معطفي أو وشاحي. حين سألني الساقي إنْ كنت أريد شيئًا آكله، طلبتُ بعضَ الجبن. حاولتُ التفكير، لكنَّني لم أستطع. لم أكن أعرف ولو مجرَّد ما كنتُ أريد التفكير فيه. كنتُ مثلَ غرفةٍ خالية. في الحانة كان صوتُ الموسيقى يُرجِّع الآن صدًى جافًا، أجوف.

فلمَّا انتهى الرجلُ من الغناء صفَّق له البعض، من دون حماس ولا مجاملة. لم يكن هناك أكثر من خمسة عشر زبونًا في المكان. نهض الرجل وانحنى في تحيَّةٍ لهم، وبدا أنَّه ألقى بعضَ التعليقات الظريفة التي ضحك لها قلَّةٌ منهم. ناديتُ الساقي وطلبتُ كأس وِسكي ثالثةً. وأخيرًا نزعتُ معطفي ووشاحي.

قال المغنِّي: «انتهى عرضي الليلة». توقَّف قليلًا ومرَّر عينيْه في المكان ثم أضاف: «ولكن لا بدَّ من أنَّ البعض منكم لم تعجبْه أغنياتي. لذلك، لديَّ شيء إضافيّ لكم. لا أفعل هذا دائمًا، لذا فأنتم محظوظون الليلة».

وضع قيثارتَه على الأرض، ثم أخرج من العلبة شمعةً بيضاء سميكة أشعلها بعود ثقاب، وقطّر قليلًا من الشمع في صحن، ثم أوقف الشمعة. أمسك بالصحن ورفعه عاليًا مثلَ فيلسوف يونانيّ. «هل يمكن إطفاء الأضواء من فضلكم؟» خفّف أحدُ الموظّفين الأضواء، فقال المغنّي: «أكثر قليلًا لو سمحتَ». ازدادت عتمةُ المكان فبرزت الشمعةُ واضحةً. أخذتُ أنظر إلى الرجل وشمعته، بينما أدفّئ الوِسكي براحتيّ.

ثم قال الرجلُ بصوت رقيق نافذ: «كما تعلمون، فإنّنا نَخْبر في حياتنا أنواعًا عديدةً من الألم. هناك آلامُ الجسد، وهناك آلامُ القلب. لقد خبرتُ الألمَ بأشكال كثيرة مختلفة، وأنا متأكّد من أنّكم خبرتموها أيضًا. غير أنّه في معظم الحالات بالتأكيد لم يكن من السهل عليكم أن تعبّروا عن حقيقة ذلك الألم لشخصٍ آخر. عادةً ما يقول الناس إنّهم هم وحدهم مَنْ يفهم الألمَ الذي يشعرون به. فهل هذا صحيح؟ ألا ترْوْن أنّنا حين نرى شخصًا يتألّم أمامنا نشعر بمعاناته وآلامه كما لو كانت فينا؟ هذه يا سادة هي قوّة التعاطف. هل فهمتم ما أعنيه؟»

سكت ونقّل نظره في المكان ثانيةً.

«ما يجعل الناسَ يغنّون الأغنيات للآخرين هو أنّهم يريدون الحصولَ على قوّةٍ لإثارة التعاطف، للتحرُّر من قشرة النفس الضيّقة، ومشاركة آلامهم وأفراحهم مع الآخرين. وهذا ليس سهلًا بالطبع. على سبيل التجربة إذن، أريدكم الليلةَ أن تجرّبوا نوعًا من التعاطف أبسطَ وأكثرَ ارتباطًا بالجسد. الأضواء من فضلك».

سكت الجميعُ هنا، وأعينُهم معلَّقة على المسرح. وسط هذا الصمت أخذ الرجلُ يحدِّق في الفراغ، كأنَّه يريد أن يدخل في لحظةِ صمتٍ أو يصل إلى حالةٍ من التركيز الذهنيّ. ثم رفع يده فوق الشمعة المضيئة، وأخذ يقرِّب راحته شيئًا فشيئًا من اللهب. أطلق أحدُ الحاضرين صوتًا يشبه التنهيدة، أو الآهة. طرف اللهب يحرق راحتَه، بل يمكنك أن تسمع احتراقَ الجلد. ندَّت عن امرأةٍ صرخةٌ، فيما أخذ الآخرون يراقبون وقد تجمَّدوا رُعبًا. تحمَّل الرجلُ الألم، وتغضَّن وجهُه في وجع. ما هذا؟! لماذا يُقْدم على شيءٍ أحمقَ كهذا؟ شعرتُ بجفاف في فمي. بعد خمس ثوانٍ أو ستّ، أبعد يدَه عن اللهب ووضع صحنَ الشمعة على الأرض. ثم شبك يديْه، وضغط راحتَه اليمنى على اليسرى.

«سيِّداتي سادتي كما رأيتم إذن، من الألم ما يُحرق الجلدَ». كان صوتُه قد عاد هادئًا كما كان، ثابتًا، باردًا. لم يبقَ أثرٌ للألم على وجهه، بل حلَّت محلَّه ابتسامةٌ باهتة. «وهذا الألم كان يمكنكم أن تشعروا به كما لو كان ألمَكُم أنتم. هذه قوَّة التعاطف».

باعد الرجلُ بين راحتيْه، وأطلق من بينهما وشاحًا أحمر رفيعًا، نشره أمام الجميع ثم مدَّ راحتيْه أمامهم. لا حروقَ على الإطلاق. لحظة صمت، ثم تنفَّسَ الناسُ الصعداء وصفَّقوا تصفيقًا حارًّا. اختلطت الأصواتُ بدلًا من التوتُّر الذي كان قد ملأ المكان. ثم وضع الرجل قيثارته في العلبة، وترجَّل عن المسرح كأنَّ شيئًا لم يكن، واختفى.

حين دفعت الفاتورة سألتُ الفتاةَ الواقفةَ عند الباب إنْ كان

ذلك الرجل يتردَّد كثيرًا إلى المكان، وإنْ كان يؤدِّي هذه الخدعة دائمًا.

فقالت: «لا أدري. إنَّها المرَّة الأولى هنا حسب علمي. لم أسمع عنه إلَّا اليوم، ولم يُخبرني أحد إنَّه يؤدِّي خدعًا سحريَّة. ولكن ألم يكن مدهشًا؟ كيف فعل ذلك؟ أراهن أنَّه سيُحْدث ضجَّةً لو ظهر في التلفاز».

«صحيح. لقد بدا أنَّه يُحرق نفسَه فعلًا».

مشيتُ عائدًا إلى الفندق. وفورَ أن استلقيتُ على السرير غالبني النوم كأنَّه كان في انتظاري طوال الوقت. فكَّرتُ في كوميكو، لكنَّها بدت بعيدة جدًّا، ثم أصبح من المستحيل أن أُفكِّر في أيِّ شيء. برز أمامي وجهُ الرجل الذي يُحرق يَده. لقد بدا أنَّه يحرقها فعلًا. ثم غفوت.

8

جذر الرغبة

في الغرفة 208

العبور من خلال الجدار

رأيتُ منامًا قبل حلول الفجر، هناك في قاع البئر. بيْد أنَّه لم يكن حُلُمًا. كان شيئًا تهيَّأ له أن يصبح في شكل حلم.

كنتُ أمشي وحيدًا. وكان وجهُ نوبورو واتايا معروضًا على شاشة تلفاز كبير، وسط بهو عريض. كان قد بدأ حديثه للتوِّ، يرتدي بذلةً من التويد، وقميصًا مخطَّطًا، وربطةَ عنقٍ زرقاء داكنة. كان يضمّ يديْه على طاولة أمامه، ويتحدَّث مباشرةً إلى الكاميرا. من خلفه عُلِّقتْ خريطةٌ كبيرة للعالم على الجدار. كان في البهو

ما يربو على المئة شخص، وكلٌّ واحد منهم توقَّف عمَّا كان يفعله كي يُنصت إليه، بتعابير جادَّة على وجوههم. كان نوبورو واتايا على وشك أن يُعلن عن شيء سوف يحدِّد مصيرهم.

توقَّفتُ أنا أيضًا ونظرتُ إلى شاشة التلفاز. كان نوبورو واتايا يتوجَّه بكلامه إلى ملايين الناس الذين لا يراهم، بنبرةٍ يبدو أنَّه تدرَّب عليها، لكنَّها صادقة تمامًا. وذلك الشيء غير المحتمل الذي طالما شعرتُ به حين ألقاه وجهًا لوجه أصبح الآن مخبوءًا في مكان خفيٍّ، سحيق. وتحدَّث بأسلوبه المتفرِّد في إقناعه، بتلك السكتات المضبوطة بدقَّة، ورنين الصوت، وتنوُّع تعابير الوجه، وكلّها تُضفي حسًّا واقعيًّا مؤثِّرًا. لقد بدا أنَّ نوبورو واتايا يتمرَّس أكثر فأكثر في دور المتحدِّث الخطيب. لا بدَّ من أن أعترف له بذلك، رغم كراهيَّتي له.

«وكما ترون أعزَّائي، فكلّ شيء معقَّد وبسيط في الوقت نفسه. تلك هي القاعدة الأساسيَّة التي تحكم العالم. ينبغي ألَّا ننساها أبدًا. فالأشياء التي تبدو معقَّدة، وهي بالفعل معقَّدة، بسيطةٌ جدًّا إذا ما تعلَّق الأمرُ بالدوافع. ذلك أنَّ المسألة تكمن في ما نبحث عنه. فالدافع جذر الرغبة، إنْ صحَّ التعبير. المهمّ هو أن تصل إلى الجذر. احفرْ تحت سطح الواقع، واصلِ الحفرَ، ثم واصلْ إلى أن تصل إلى رأس الجذر. فإنْ فعلتَ ذلك» وهنا أشار إلى الخريطة ثم قال «سيصبح كلّ شيء واضحًا في نهاية المطاف. هكذَا يسير العالم. أمَّا الحمقى فلا يستطيعون أن يفرُّوا من التعقيد الظاهر، فيتخبَّطون في الظلام بحثًا عن المَخْرج، ثم يموتون قبل أن يفهموا شيئًا واحدًا عن سنن العالم. لقد فقدوا كلَّ إحساس

بالاتِّجاه، كما لو أنَّهم في غابة كثيفة أو في قاع بئر. والسبب في فقدانهم حسَّ الاتِّجاه هو أنَّهم لا يفهمون المبادئ الأساسيَّة. لا شيء في رؤوسهم سوى القمامة والصخر. لا يفهمون شيئًا. لا شيء على الإطلاق. لا يكادون يفرِّقون بين الأمام والخلف، أو الأعلى والأسفل، أو الشمال والجنوب. لذلك لا يمكنهم أبدًا أن يَفرُّوا من الظلام».

توقَّف نوبورو واتايا عند هذا الموضع قليلًا كي يستوعب المشاهدون كلامَه جيِّدًا.

«ولكنْ دعونا من هؤلاء. لئن أرادوا أن يفقدوا حسَّ الاتِّجاه فأفضلُ ما يمكن لكم ولي أن نفعله هو أن ندعهم وشأنهم. فلدينا أشياء أَوْلى باهتمامنا».

وكلَّما سمعتُ أكثر ازددتُ غضبًا، إلى أن كدتُ أختنق من شدَّة الغضب. كان يتظاهر بأنَّه يُوجِّه كلامَه إلى العالم كلّه، لكنَّه في الواقع كان يخاطبني أنا وحدي. ولا بدَّ من أنَّه كان يفعل ذلك لغرضٍ غير سويّ. لم يكن أحد يُدرك ذلك، ولهذا السبب تحديدًا كان نوبورو واتايا قادرًا على استغلال منظومة التلفاز كي يبعث لي رسائلَ خفيَّة. كوَّرتُ يديّ إلى قبضتيْن في جيبيّ، لكنَّني لم أكن أملك سبيلًا إلى التنفيس عن غضبي. شعرتُ بعزلة عميقة جرَّاء عجزي عن إيصال غضبي هذا إلى مَنْ كانوا في البهو.

كان البهو مليئًا بأشخاصٍ يحرصون على سماع كلِّ كلمة يقولها نوبورو واتايا. عبرتُ من البهو وتوجَّهتُ مباشرةً إلى ممرٍّ يفضي إلى الغرف. كان الرجل العديم الوجه واقفًا هناك. فلمَّا

اقتربتُ نظر إليَّ بوجهه العديم الوجه، وتحرَّك كي يمنعني من المرور.

قال: «ليس هذا هو الوقت المناسب. لا مكان لك هنا الآن». غير أنَّ الألم الشديد الذي سبَّبه لي نوبورو واتايا حثَّني على الإصرار. مددتُ يدي ودفعتُ عديمَ الوجه جانبًا، فتمايل مثل طيفٍ وسقط. قال من خلفي، وكلٌّ كلمة من كلماته تنغرس في ظهري كالشظيَّة: «أقول هذا لمصلحتك. إن تقدَّمتَ أكثرَ من ذلك فلن تستطيع العودة. هل فهمت؟» تجاهلتُه ومضيتُ بخطوات سريعة. لم أعد خائفًا من أيِّ شيء. كنت أريد أن أعرف. لقد فقدتُ حسِّي بالاتِّجاه، ولكنْ لم يكن بإمكاني أن أظَل هكذا إلى الأبد.

مشيتُ في الممرِّ الذي يبدو مألوفًا، وافترضتُ أنَّ الرجل العديم الوجه سوف يلحق بي ويحاول أن يوقفني. لكنَّني حين نظرتُ خلفي لم أرَ أحدًا يقترب. كانت هناك أبواب متماثلة على طول الممرّ، وكلُّ باب له رقم، لكنَّني لم أتذكَّر رقمَ الغرفة التي أُدخلتُ فيها في المرَّة الماضية. كنتُ متأكِّدًا من أنَّني كنتُ أعرف الرقم آنذاك، لكنَّ محاولاتي لتذكُّره الآن باءت بالفشل، ولم يكن واردًا أن أفتح الأبوابَ كلَّها.

ظللتُ أمشي في الممرِّ جيئة وذهابًا إلى أن مررتُ بنادلٍ يحمل صينيَّة عليها زجاجةُ كتي سارك ووعاءُ ثلج وكأسان. تركتُه يَمضي وتبعتُه. كانت الصينيَّة بين الحين والآخر تعكس ضوءًا قادمًا من إضاءة السقف. لم ينظر النادلُ إلى الخلف، بل مضى قُدُمًا وهو ينظر أمامه بخطًى ثابتة. كان يصفِّر بين الوقت والآخر

بعضَ الألحان من أغنية سارق **العقعق**، وبالتحديد من المقدِّمة حين تُدقّ الطبول. كان يُحسن الإيقاع.

كان الممرّ طويلًا، لكنّني لم أصادف أحدًا آخر طوال الوقت الذي كنت أتبع النادل فيه. في النهاية توقّف أمام باب وطرقه ثلاث طرقات خفيفة. بعد عدّة ثوانٍ، فتح أحدُهُم البابَ، فدخل النادل يحمل الصينيّة. التصقتُ بالجدار، مختبئًا وراء مزهريّةٍ صينيّةٍ كبيرة، وانتظرت خروج النادل. كان رقم الغرفة (208). صحيح! لماذا لم أستطع أن أتذكّره؟

تأخّر النادل كثيرًا. نظرتُ في ساعتي، لكنّ العقارب توقّفتْ عن الحركة. تفحّصتُ أزهارَ المزهريّة وشممتُ كلَّ زهرة، فبدا لي أنّها أُحضرتْ قبل لحظات فقط من حديقةٍ ما، فقد كانت مفعمةً باللون والعطر. على الأرجح لم تُدرك هذه الأزهارُ بعدُ أنّها قُطعتْ للتوّ من جذورها. ثمّة حشرة مجنّحة صغيرة شقّت طريقَها إلى قلب وردةٍ حمراء ذات بتلات سميكة.

مرّتْ خمس دقائق أو نحو ذلك إلى أن خرج النادلُ خالي اليديْن، ومضى في الطريق الذي أتى منه وهو ينظر أمامه. وما إنْ اختفى عن نظري في منعطف الممرّ، حتى تقدّمتُ نحو الباب. حبستُ أنفاسي وأخذتُ أنصت، منتظرًا أن أسمع شيئًا من الداخل. لا صوت، ولا أيّة علامة على وجودِ أحد في الغرفة. قرّرتُ أن أتجرّأ وأطرق الباب. ثلاث طرقات. خفيفة. مثلما فعل النادل. ولكنْ لم يُجب أحد. انتظرتُ بضع ثوانٍ وطرقتُ ثلاثًا مرّة أخرى، بقوّة أكبر من المرّة السابقة. ولا جواب.

بعد ذلك أدرتُ مقبضَ الباب، فانفتح من دون صوت. بدت الغرفةُ مظلمةً تمامًا في البداية، لكنَّ ضوءًا خفيفًا تمكَّن من الإفلات من الستائر السميكة. استطعت أن أرى النافذة، وطاولةً وأريكة. كانت تلك هي الغرفة التي مارستُ فيها الجنسَ مع كريتا كانو. كانت في الواقع جناحًا، الصالة هنا وغرفة النوم في الخلف. على الطاولة تبيَّنتُ زجاجةَ الكتي سارك والكأسيْن ووعاء الثلج. فلمَّا فتحتُ الباب، انعكس ضوءُ الممرِّ على وعاء الثلج فأطلق شعاعًا حادًا. دخلتُ في الظلام وأغلقتُ الباب ورائي بهدوء. كان الهواء في الداخل دافئًا، مفعمًا برائحة الأزهار. حبستُ أنفاسي وأنصتُّ، تاركًا يدي اليسرى على مقبض الباب إنْ احتجتُ إلى فتحه في أيِّ وقت. لا بدَّ من أن يوجد شخص ما هنا، في مكانٍ ما. لا بدّ أنّ شخصًا طلب الوِسكي والثلج والكأسيْن من خدمة الغرف، ثم فتح الباب كي يدخل النادل.

*

«لا تشعل الأضواء». كان صوت امرأة، قادمًا من غرفة النوم. عرفتُ الصوتَ فورًا؛ فقد كان صوتَ المرأة الغامضة التي تتَّصل بي. تركتُ مقبضَ الباب وبدأتُ أتحسَّس طريقي نحو الصوت. كانت ظُلمة الغرفة أشدّ من ظلمة الصالة. وقفتُ في الممرِّ بين الغرفتيْن وبذلتُ جهدي كي أرى في الظلام. سمعتُ حفيفَ ملاءات السرير، وتحرّك طيفٌ أسود في الظلام. قالت: «دعها مظلمة هكذا».

«لا تقلقي. لن أُشعلَ الأضواء».

أبقيتُ قبضتي على عارضة الباب.

سألتني بصوت متعب: «هل جئتَ وحدك؟»

«طبعًا. خطر لي أنَّني سأجدكِ هنا. إمَّا أنتِ أو كريتا كانو. أريد أن أعرف أين كوميكو. كلّ شيء بدأ من تلك المكالمة الهاتفيَّة الأولى منكِ. أنتِ التي فتحتِ صندوقَ باندورا[1]. ثم بدأت الأشياءُ الغريبة تتعاقب، إلى أن اختفت كوميكو في النهاية. وهذا سبب مجيئي. وحدي. لا أعرف مَنْ تكونين، لكنَّكِ تملكين ما يشبه المفتاح. أليس كذلك؟»

فردَّت بنبرةٍ متحفِّظة: «كريتا كانو؟ لم أسمع باسمها من قبل. هل هي هنا أيضًا؟»

«لا أدري أين هي. لكنَّني التقيتُها هنا أكثرَ من مرَّة».

كانت رائحةُ الأزهار تأتيني مع كلِّ نَفَس. الهواء ثقيل. ثمَّة مزهريَّة مليئة بالأزهار في مكانٍ ما في هذه الغرفة. في مكانٍ ما من هذه العتمة، كانت الأزهار تتنفَّس، وتتمايل. هكذا، في الظلمة المملوءة بعطرها القويّ، بدأتُ أفقد الإحساسَ بوجودي الجسديّ. شعرتُ كما لو أنَّني أصبحتُ حشرةً صغيرة، أشقّ طريقي بين بتلات زهرة عملاقة. في انتظاري رحيقٌ دبق، وحبوبُ لقاح، وشُعَيْراتٌ ناعمة. كانت في حاجة إلى اجتياحي ووجودي.

قلت: «أتعرفين، أوَّلُ شيء أريد فعلَه هو معرفةُ مَنْ أنتِ.

---

(1) تجري هذه الجملة في الثقافة الغربيَّة مجرى الأمثال، وتُقال حين يفتح المرءُ على نفسه أبوابًا من المصائب والشرور. وهي في الأصل إحالةٌ على أسطورة إغريقيَّة، حيث «باندورا» هي المرأة الأولى وكانت معها جَرَّة (حُرِّفت لاحقًا إلى صندوق) تحتوي على شتَّى أنواع الشرور، فلمَّا فتحتْها خرجت منها كلُّ شرور البشريَّة. (المترجم)

تقولين إنَّني أعرفك، وقد حاولتُ جاهدًا أن أتذكَّرك، من دون فائدة. من أنتِ؟»

كرَّرتْ ورائي من دون أيَّة نبرةٍ تدلّ على السخرية: «مَن أنا؟ أريد شرابًا. صُبَّ لنا كأسيْن مع الثلج، من فضلك. ستشرب معي، أليس كذلك؟»

عدتُ إلى الصالة، وفتحتُ زجاجةَ الوِسكي، ووضعتُ ثلجًا في الكأسيْن ثم صببتُ الشراب. استغرق منّي ذلك وقتًا طويلًا بسبب الظلمة. حملتُ الكأسيْن إلى غرفة النوم، فقالت لي المرأة أن أضع كأسًا على الطاولة الجانبيَّة. «واجلسْ أنتَ على الكرسيِّ عند طرف السرير».

فعلتُ ما طُلب منّي، فوضعتُ كأسًا على الطاولة الجانبيَّة وجلستُ على كرسيٍّ منجَّدٍ على مبعدة والكأسُ في يدي. يبدو أنَّ عينيَّ اعتادتا الظلام. كنتُ أرى أطيافًا تتحرَّك. بدا أنَّ المرأة قد جلستْ على السرير، ثم سمعتُ قرقعةَ الثلج وهي تشرب. فأخذتُ أنا أيضًا رشفةً من الوِسكي.

ظلَّت المرأة صامتةً فترةً طويلةً، وكلَّما طال صمتُها ازدادت رائحةُ الأزهار قوَّةً.

«هل حقًّا تريد أن تعرف من أنا؟»

فقلتُ بصوتٍ متوتِّر في الظلام: «لهذا جئتُ إلى هنا».

«جئتَ إلى هنا تحديدًا كي تعرف اسمي، فعلًا؟»

تنحنحتُ بدلًا من الإجابة، لكنَّ الصوت كان غريبًا.

قلَّبت المرأةُ الثلجَ في كأسها بضعَ مرَّات. «تريد أن تعرف

اسمي. لكنَّني لا أستطيع أن أُخبرك، للأسف. أعرفك جيِّدًا. وأنت تعرفني جيِّدًا. لكنَّني **أنا** لا أعرفني».

هززتُ رأسي في الظلام. «لم أفهم. وقد سئمتُ الألغاز. أريد شيئًا ملموسًا يمكنني أن أمسكه بيديّ. حقائق ثابتة. شيئًا يمكنني أن أستخدمَه رافعةً أفتح بها الباب. هذا ما أريده».

بدا أنَّها تنتزع تنهيدةً من أعماق جسدها. «تورو أوكادا، أريدك **أنت** أن تكتشف اسمي. ولكنْ مهلًا، لستَ مضطرًّا إلى اكتشافه. **أنت تعرفه أصلًا**. كلُّ ما عليك هو أن تتذكَّره. فإنْ تذكَّرتَ اسمي، استطعتُ أن أخرجَ من هنا. بل استطعتُ أن أساعدك في العثور على زوجتك. أساعدك في العثور على كوميكو أوكادا. إنْ أردتَ أن تجد زوجتك، ابذلْ جهدَكَ في اكتشاف اسمي. هذه هي **الرافعة** التي تبحث عنها. لا وقتَ لديك للبقاء تائهًا. فكلُّ يوم يمضي من دون أن تجد الاسم، ستبتعد عنك كوميكو أوكادا أكثر فأكثر».

وضعتُ كأسي على الأرض. «أخبريني. أين هذا المكان؟ وكم مضى عليكِ هنا؟ وماذا تفعلين؟»

قالت المرأة وكأنَّها تذكَّرتْ للتوّ ماذا تفعل هنا: «عليكَ أن تغادر الآن. لو وجدَكَ هنا ستحدث مشكلة. إنَّه أخطر ممَّا تظنّ. قد يقتلك. لا أستبعد هذا منه».

«ومن يكون هذا؟»

لم تُجب، ولم أعرف ما أقول. شعرتُ بأنِّي تائه. لا شيء يتحرَّك في الغرفة. كان الصمت عميقًا، ثقيلًا، خانقًا. أحسستُ

بالحمّى. لعلّ السبب حبوبُ اللقاح. فبعد أن امتزجتْ بالهواء نفذتْ إلى رأسي وأثارت أعصابي.

«قل لي، سيِّد تورو أوكادا». قالت وقد تَغيَّر صوتُها فجأةً. كان يمكن لصوتها أن يتغيَّر في لحظة. الآن أصبح لزامًا أن يتوافق مع هواء الغرفة الثقيل. «ألا تشعر بأنَّك تُريد احتضاني مرَّةً أخرى؟ أن تولِج فيَّ؟ أن تقبِّل جسدي كلَّه؟ يمكنك أن تفعل بي ما تشاء. وسأفعل لك أيَّ شيء تريده... أيَّ شيء... الأشياء التي لا تفعلها لك أبدًا... زوجتُك... كوميكو أوكادا. سأجعلك تشعر بمتعة عظيمة لن تنساها أبدًا. إنْ ــ».

فجأةً ومن دون سابق إنذار، طُرق الباب. كان للطرق صوتُ مسمار يُدقّ. صوتٌ مشؤوم في هذا الظلام. برزتْ يدُ المرأة من الظلام فأمسكتني من ذراعي، وهمستْ: «تعال هنا. أسرِعْ». غاب ذلك الحسّ الحالم في صوتها الآن. وبدأ الطرقُ ثانيةً. طرقتان بالقوَّة نفسها. فتذكَّرتُ أنِّي لم أوصد الباب.

«أسرِعْ. عليك أن تخرج من هنا. هذا هو المخرج الوحيد».

تحرَّكتُ في الظلام وهي تسحبني. سمعتُ مقبضَ الباب يُدار ببطء، فسَرَتْ في بدني قشعريرة. وفي اللحظة التي اخترق فيها ضوءُ الممرِّ الظلام، انسللنا في الجدار. كان الجدار مثل الجيلاتين البارد، فأقفلتُ فمي كي لا يدخل فيه. وفجأةً أدركتُ ما يجري: إنَّني أَعْبر من خلال الجدار! للانتقال من مكانٍ إلى آخرُ كنت أعبر من جدار. رغم ذلك، بدا الأمر طبيعيًا جدًّا.

أحسستُ بلسان المرأة يدخل فمي. دافئًا ناعمًا، كان يدور

في فمي وحول لساني. رائحةُ الأزهار الثقيلة تدكّ جدرانَ رئتيّ. وهناك تحت عانتي، شعرتُ بحاجةٍ فاترة للقذف. أغلقتُ عينيّ كي أمنعَ ذلك. وبعد لحظة، أحسستُ بحرارة شديدة على وجنتي اليمنى. كان إحساسًا غريبًا. لم أشعر بألم، بل مجرّد وعيٍ بالحرارة. ولم أعرف إنْ كان مصدرُ الحرارة خارجيًّا أم من داخلي. وما لبث أن اختفى كلُّ شيء: لسانُ المرأة، ورائحةُ الأزهار، والحاجةُ إلى القذف، والحرارةُ على وجنتي. وعبرتُ من خلال الجدار. حين فتحتُ عينيّ، وجدتني في الجانب الآخر من الجدار.. في قاع بئرٍ عميقة.

9

البئر والنجوم
كيف اختفى السلَّم

كانت السماء وضَّاءةً بُعَيْد الخامسة صباحًا، لكنَّني استطعتُ أن أتبيَّن نجومًا عديدةً من فوقي. هذا ما قاله الملازم ماميا بالضبط: من قاع البئر يمكنك أن ترى النجومَ في وضح النهار. هكذا رأيتُ النجومَ متراصَّةً بأضوائها الخفيفة من نصف فتحة البئر، مثل عيِّنات معادن نادرة.

ذاتَ مرَّة حين خرجتُ مع أصدقائي للتخييم في أحد الجبال، وأنا في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري، رأيتُ نجومًا كثيرة تملأ السماء. كان يبدو كما لو أنَّ السماء ستسقط من ثقلها.

ولأنَّني لم أكن قد رأيتُ شيئًا كهذا من قبل، فقد جافاني النومُ حين نام الآخرون، فخرجتُ من الخيمة واستلقيتُ على الأرض أنظر في السماء. بين الفينة والأخرى كان شهابٌ يرسم قوسًا وضَّاءةً في السماء. لكنَّني كلَّما أطلتُ النظر ازددتُ توتُّرًا. كانت هناك نجوم كثيرة جدًّا، والسماء شاسعة، تبدو مثل جسم غريبٍ طاغٍ يحيط بي ويلفّني ويصيبني بالدوار. كنتُ حتى ذلك الوقت أعتقد أنَّ الأرض التي أقف عليها صلبةٌ وسوف تدوم إلى الأبد. أو ربَّما لم أُفكِّر في هذا قطّ، إذ كنتُ أعتبر الأمرَ حقيقةً بدهيَّة. ولكنْ في حقيقة الأمر لم تكن الأرضُ سوى قطعة صخر تسبح في طرفٍ صغير من الكون. إنَّها موطئ قدمٍ مؤقَّت، في هذا الفراغ الشاسع. في مقدور ضوءٍ عابرٍ من جسمٍ ما أو تحوُّلٍ صغيرٍ في طاقة الكون أن يقذف بالأرض بعيدًا (ونحن جميعًا معها). تحت هذه السماء الممتلئة بالنجوم اجتاحني الشكُّ في وجودي اجتياحًا طاغيًا (بالطبع ليس بهذا التعبير تحديدًا). كان اكتشافًا مذهلًا لصبيٍّ صغير.

كان النظر إلى نجوم الفجر من قاع البئر تجربةً استثنائيَّة، تختلف اختلافًا كبيرًا عن النظر إلى السماء المرصَّعة بالنجوم من على قمَّة جبل، وكأنَّ عقلي، ونفسي، ووجودي ذاته، كانت مربوطةً بإحكام بكلٍّ واحدة من تلك النجوم. شعرتُ بحميميَّة عميقة مع النجوم، فكانت نجومي أنا، لا يراها غيري من قعر هذه البئر المعتمة. هكذا اعتبرتُها نجومي وضممتُها إليَّ، وهي بدورها أخذت تغمرني بالطاقة والدفء.

مع انقضاء الوقت ودخول السماء تحت جناح الشمس

الصيفيَّة، كانت النجوم تطمس نفسَها عن نظري واحدةً تلو الأخرى. كانت تفعل ذلك برقَّةٍ بالغة، فأخذتُ أطالع انطماسَها مذهولًا. غير أنَّ شمس الصيف لم تمسح كلَّ النجوم من صفحة السماء؛ فبقيتْ بضعُ نجوم قويَّة رفضتْ أن تختفي، مهما صعدت الشمسُ في كبد السماء. أسعدني ذلك جدًّا، فقد كانت النجوم هي الشيءَ الوحيد الذي أستطيع رؤيته من مكاني، إن استثنيْت السُحب العابرة.

كنتُ قد تعرَّقتُ في نومي، فبدأ العرقُ يبرد ويبرِّدني. ارتعشتُ عدَّة مرَّات. ذكَّرني هذا العرقُ بغرفة الفندق المظلمة وامرأة الهاتف. ما تزال ترنّ في أذني كلُّ كلمةٍ قالتها، وكلُّ طرقة على الباب. وما تزال عالقةً بأنفي رائحةُ الأزهار القويَّة. نوبورو واتايا أيضًا، ما يزال يتحدَّث من وراء شاشة التلفاز. ظلَّت ذاكرةُ هذه الأشياء باقية، لم تبهتْ بمرور الوقت. وفقًا لذاكرتي، هذه الأشياء لم تكن حُلمًا.

فحتى بعد أن استيقظتُ ظللتُ أشعر بدفء شديد في وجنتي اليمنى، ومعه إحساسٌ خفيفٌ بالألم، كما لو أنَّ جلدي قد حُكَّ بورق صنفرة خشن. وضعتُ يدي على المكان الذي نما فيه شعرُ ذقني قليلًا، لكنَّ هذا لم يخفِّف الحرارةَ ولا الألم. كان من المستحيل أن أعرف ما يحدث في وجنتي وأنا في قاع هذه البئر المظلمة، من دون مرآة.

مددتُ يدي ولمستُ الجدار، ثم مرَّرتُ أصابعي وضغطتُ راحتي عليه، لكنَّني لم أجد شيئًا غريبًا. كان مجرَّد جدار إسمنتيّ. كوَّرتُ قبضتي ونقرتُ عليه. كان صلبًا، رطبًا قليلًا،

خاليًا من أيِّ ملامح. ما زلت أحسّ بذلك الإحساس الغريب الزَلِق منه حين عبرتُ من خلاله، كالمرور من نفقٍ داخل كتلة جيلاتين.

تحسَّستُ حقيبتي وأخرجتُ منها مطّارة الماء. مضى عليَّ يوم كامل بلا طعام. الفكرةُ نفسها جعلتني أتضوَّر جوعًا، لكنَّ هذا الشعور ما لبث أن تلاشى كما لو أنَّه غرق في خَدرٍ يُشبه النسيان. قرَّبتُ يدي من وجهي ثانيةً وحاولتُ أن أتبيَّن مقدار الشعر الذي نما في ذقني. كان شَعْرَ يومٍ واحد. لا شكَّ في ذلك إذن، مرّ يوم كامل. لكنَّ غيابي على الأرجح لم يؤثّر في أحد. لن يلاحظ إنسان أنَّني غبت. لو أنَّني اختفيْتُ من على وجه الأرض سيسير العالمُ كأنَّ شيئًا لم يكن. صحيح أنَّ الأمور شديدة التعقيد، لكنَّ الواضح هو أنْ لا أحدَ كان في حاجةٍ إليّ.

نظرتُ إلى النجوم ثانيةً. كان منظرها يهدِّئ من نبضات قلبي شيئًا فشيئًا. ثم خطر لي أن أتحسَّس موضعَ السلَّم. مددتُ يدي صوب مكانه، لكنّي لم أجد شيئًا. تحسَّستُ ما حول ذلك المكان، وتفحَّصتُ بدقَّة بالغة، لكنَّ السلَّم لم يكن هناك. لم يعد موجودًا في المكان الذي كان فيه. أخذتُ نَفَسًا عميقًا، وأخرجت المصباح من حقيبتي، وأشعلتُه. لا أثر للسلَّم. وقفتُ، ووجَّهتُ الضوءَ على الأرض ثم الجدار من فوقي إلى أقصى مدى يصل إليه الضوء. غير موجود في أيِّ مكان. تفصَّد العرقُ وأخذ يزحف على جانبيَّ مثل كائنٍ حيّ. انفلت المصباحُ من يدي، وسقط على الأرض، فانطفأ من أثر الوقوع. كانت هذه علامة. في تلك اللحظة توقَّف عقلي، فكان حبَّةَ رملٍ يسحبها الظلامُ المحيط.

توقَّف جسمي عن العمل، كما لو أنَّ أحدًا نزع قابسه الكهربائيّ. اجتاحني العدم.

استمرَّ هذا بضعَ ثوانٍ، إلى أن استعدتُ زمامَ نفسي. عادت وظائفُ جسدي شيئًا فشيئًا. انحنيتُ ألتقط المصباح عند قدميّ، ونقرتُ عليه بضعَ نقرات، ثم أشعلتُه ثانيةً. عاد الضوء من دون مشكلة. كنتُ في حاجة إلى تهدئة نفسي وترتيب أفكاري. الخوف والهلع لن يحلّا شيئًا. متى كانت آخر مرَّة تفقَّدت فيها السلَّم؟ بالأمس، في وقتٍ متأخِّر من الليل، قُبَيْل أن أغفو. كنتُ قد تأكَّدت من وجوده ثم نمت. هذا مؤكَّد. لقد اختفى السلَّم أثناء نومي. سحبه أحدٌ ما.

أطفأتُ المصباحَ واستندتُ على الجدار، ثم أغمضتُ عينيّ. أوَّلُ ما أحسستُ به هو الجوع. كان يسري في داخلي مثلَ موجةٍ تغمرني وتذهب بعيدًا. ما إنْ ذهبتْ حتى وقفتُ في مكاني خاليًا أجوف، مثلَ حيوانٍ منزوعِ الأحشاء. بعد أن انقضت حالة الذعر لم أعد أشعر بالرعب أو اليأس. كلُّ ما شعرتُ به في تلك اللحظة نوعٌ من الاستسلام.

*

حين عدتُ من ساپورو احتضنتُ كوميكو وواسيتُها. كانت تشعر أنَّها تائهة حائرة. في ذلك اليوم طلبتْ إجازةً من عملها. «لم أستطع أن أنام البارحة لحظةً. ظهر موعدُ العيادة في الوقت المناسب، لذلك اتَّخذت القرار وحدي». بكت قليلًا بعد أن قالت ذلك.

قلتُ لها: «انتهى الأمر الآن، ولا فائدة من التفكير فيه. لقد

ناقشنا المسألة وهذا ما توصَّلنا إليه. إنْ كان هناك شيء آخر تريدين الحديثَ عنه، فالأفضل أن تتحدَّثي الآن، ثم نغلق الموضوع وننساه. قلتِ في الهاتف إنّ هناك شيئًا تريدين إخباري به».

هزَّت كوميكو رأسها: «لا تشغلْ بالَكَ. معك حقّ، لننسَ الأمر».

مضينا في حياتنا فترةً نتجنَّب أيَّ ذكرٍ لإجهاض كوميكو. لكنَّ الأمر لم يكن سهلًا. فقد نتحدَّث في شيء مختلفٍ تمامًا، ثم يحلّ الصمتُ علينا فجأةً. كنَّا نذهب إلى السينما في الإجازات الأسبوعيَّة، وفي الظلام قد نركِّز في الفيلم، لكنَّنا نفكِّر في أشياء لا علاقةَ لها بالفيلم، أو نريح عقولَنا بعدم التفكير في أيِّ شيء. كنتُ دائمًا أُدرك أنَّ كوميكو الجالسة إلى جانبي تفكِّر في شيء مختلف تمامًا عمَّا أُفكِّر فيه. كنتُ أحسّ بذلك.

بعد السينما كنَّا نذهب لشرب البيرة أو لتناول وجبةٍ ما. وفي بعض الأحيان لم نكن نعرف ما يمكننا أن نتحدَّث فيه. استمرَّ هذا ستَّة أسابيع. كانت ستَّة أسابيع طويلة جدًّا. فلمَّا انقضت قالت لي كوميكو: «ما رأيك أن نذهب في رحلة لقضاء إجازة؟ غدًا الجمعة، ويمكننا أن نأخذ إجازةً إلى الأحد. يحتاج الناس إلى هذا التغيير من وقتٍ إلى آخر».

قلتُ مبتسمًا: «أفهم تمامًا ما تقولين، لكنِّي أتساءل إنْ كان أحدٌ في شركتنا يعرف معنى الإجازة».

«اطلبْ إجازةً مَرَضيَّة. قل إنَّك مُصاب بالإنفلونزا أو شيئًا كهذا. وأنا أيضًا».

أخذنا القطارَ إلى كارويزاوا. اخترتُ هذا المكان لأنَّ كوميكو قالت إنَّها تريد مكانًا هادئًا في الجبال، حيث يمكننا أن نمشي طويلًا. كنَّا في شهر نيسان / إبريل، فلم يكن ذلك موسمًا سياحيًّا. الفندق هادئ جدًّا، ومعظم المحالّ مغلقة، لكنَّ هذا بالضبط ما كنَّا نريده. لم نفعل شيئًا سوى المشي كلّ يوم، من الصباح حتى المساء.

*

استغرق الأمر يومًا ونصفَ اليوم كي تُفرِّغ كوميكو عن مشاعرها. وفور أن فعلتْ ذلك جلستْ في الفندق تبكي ساعتيْن تقريبًا. لزمتُ الصمتَ طوال الوقت، واكتفيتُ باحتضانها وهي تبكي.

شيئًا فشيئًا بدأتْ تتحدَّث. عن الإجهاض. عن مشاعرها في ذلك الوقت. عن إحساسها الشديد بالتيه. عن إحساسها بالوحدة حين كنتُ في هوكايدو، وأنَّها لم تستطع أن تتخلَّص من الشعور بالوحدة وهي تُجري العمليَّة.

«لا تُسئ فهمي. لستُ نادمةً على ما فعلتُ. كان هذا هو الحلَّ الوحيد. أُدركُ هذا جيِّدًا. لكنَّ الذي يؤلمني حقًّا هو أنَّني أريد أن أُخبرك بكلِّ شيء، كلّ شيء، لكنَّني لا أستطيع. لا أستطيع أن أُخبرك كيف أشعر بالضبط».

رفعتْ كوميكو شعرَها، فكشفتْ عن أُذنها الصغيرة، وهزَّت رأسَها قليلًا.

«لستُ أنوي أن أُخفي الأمر عنك. سوف أخبرك. فأنت

الوحيد الذي أستطيع أن أخبره. لكنّني لا أقدر على فعل ذلك الآن. لا أستطيع أن أعبّر عنه بالكلمات».

«أهو شيء من الماضي؟»

«كلّا».

«خذي وقتك. إلى أن تكوني مستعدّةً للكلام. الوقت هو الشيء الوحيد الذي نملك وفرةً منه. وسأكون إلى جانبك. فلا داعي للعجلة. أُريدكِ فقط أن تتأكّدي من شيء واحد. أيّ شيء يخصُّك، أيّ شيء ما دام يخصُّك، سأعتبره يخصُّني أيضًا. لا تقلقي أبدًا».

«شكرًا. ما أسعدني لأنّني تزوّجتك».

لكنّنا لم نملك وقتًا كثيرًا كما كنتُ أعتقد. تُرى ما الذي عجزتْ كوميكو عن التعبير عنه؟ هل للأمر علاقةٌ باختفائها؟ ربّما لو حاولتُ أن أسحبَ منها الكلام آنذاك لتجنّبتُ فقدانَها. لكنّي بعد التفكير أدركتُ أنّه لم يكن بإمكاني إجبارها. قالت إنّها لا تستطيع التعبير عن الأمر. لقد كان بالتأكيد شيئًا لا تقوى عليه.

*

«هييه! سيّد طائر الزنبرك!». كان صوتَ مايو كاساهارا. كنتُ نائمًا آنذاك نومًا غير عميق، فظننتُ أنّ الصوت في حلمي. لكنّه لم يكن حلمًا. حين نظرتُ عاليًا رأيتُ وجهَ مايو كاساهارا، صغيرًا بعيدًا. «أعرف أنّك هناك في الأسفل! أجبني، سيّد طائر الزنبرك!»

«أنا هنا».

«ولماذا؟ ما الذي تفعله هناك؟»

«أفكّر».

«تفكّر؟ ولماذا في قاع البئر؟ لا بدَّ من أنَّ المكان غير مريح أبدًا!».

«هكذا يمكنني أن أركّز فعلًا. المكان مظلم وبارد وهادئ».

«هل تفعل ذلك كثيرًا؟»

«لا، لم أفعله في حياتي من قبل. لم أنزل في بئرٍ هكذا».

«وهل نجح الأمر؟ هل ساعدك في التفكير؟»

«لا أدري بعد. ما زلتُ أجرِّب».

تنحنحتْ مايو كاساهارا، فتردَّد الصدى بقوَّة في قاع البئر.

«على أيَّة حال، سيِّد طائر الزنبرك، هل لاحظتَ اختفاءَ السلَّم؟»

«طبعًا. قبل مدَّة قصيرة».

«وهل عرفتَ أنَّني أنا التي سحبته؟»

«كلَّا، لم أعرف هذا».

«إذن مَن ظننتَ أنَّه أخذه؟»

«لم أعرف. بصراحة، لم يخطر في بالي أنَّ أحدًا أخذه. ظننتُه اختفى وحسب».

صمتتْ مايو كاساهارا، ثم قالت بنبرة حذرٍ في صوتها كما لو أنَّها تخشى من حيلةٍ في كلامي: «اختفى. ماذا تقصد بأنَّه اختفى وحسب؟ إنَّه، لوحده.. هكذا.. اختفى؟»

«ربَّما».

«أتدري سيِّد طائر الزنبرك، ربَّما من المضحك أن أقول هذا الآن، لكنَّك غريب الأطوار. لم أُصادف أشخاصًا غريبي الأطوار هكذا».

«لا أعتبر نفسي غريبَ الأطوار جدًّا».

«إذن ما الذي يدعوك إلى الظنِّ أنَّ السلالم يمكن أن تختفي هكذا؟»

حككتُ وجهي بيديّ وحاولتُ التركيزَ في هذا الحوار مع مايو كاساهارا. «أنتِ التي سحبتِ السلّم، أليس كذلك؟»

«طبعًا أنا. ولا يتطلَّب الأمرُ ذكاءً شديدًا لمعرفة ذلك. تسلَّلتُ ليلًا وسحبتُ السلّم».

«ولماذا؟»

«ولِمَ لا؟ ألا تعرف كم مرَّةً ذهبتُ إلى بيتك بالأمس؟ أردتُكَ أن تأتي معي للعمل مرَّةً أخرى. لم أجدك طبعًا، ثم وجدتُ رسالتك التي تركتَها في المطبخ. انتظرتُ طويلًا، لكنَّك لم تعد. ثم خطر لي أنَّك قد تكون عند البيت الخالي. فوجدتُ غطاءَ البئر مفتوحًا والسلَّمَ معلَّقًا بداخله. ولكنْ لم يخطر في بالي أنَّك قد تكون هنا. ظننتُ أنَّ أحد العمَّال كان هناك ثم ترك السلّم. بصراحة، كم شخصًا يمكن أن ينزل إلى قاع بئر لكي يفكِّر؟»

«معك حقّ».

«على أيَّة حال، بعد ذلك تسلَّلتُ ليلًا وذهبتُ إلى بيتك، لكنِّي لم أجدك. ثم خطر لي الأمر فجأةً، أنَّك قد تكون في قاع

البئر. لم أعرف طبعًا ما الذي تفعله هنا، لكنْ كما قلتُ سابقًا أنت غريب الأطوار. فجئتُ إلى البئر وسحبتُ السلّم. لا بدَّ من أنَّ ذلك أثار أعصابك».

«نعم، صحيح».

«ألديك طعام أو شراب هناك؟»

«قليل من الماء. لم أُحضر معي أيَّ طعام. ولكن لديَّ ثلاثُ سكّرات ليمون».

«منذ متى وأنت هناك؟»

«منذ صباح الأمس».

«لا بدَّ من أنَّك جائع».

«أظنُّ ذلك».

«ألا تريد التبوُّل مثلًا؟»

حين ذكرت الأمرَ أدركتُ أنَّني لم أتبوَّل منذ جئت. «كلَّا. لا أشرب أو آكل كثيرًا».

«أتدري سيِّد طائر الزنبرك، قد تموت هناك. يعتمد الأمرُ على مزاجي. فأنا الوحيدة التي تعرف أنَّك هناك، وأنا مَنْ خبَّأَ السلّم. هل تدرك ذلك؟ لو تركتُكَ الآن ومضيتُ، فسوف تموت. يمكنك أن تصرخ طبعًا، ولكنْ لا أحد سيسمعك. ولن يخطر في بال أحد أنَّك في قاع بئر. ولا أظنُّ أنَّ أحدًا سيلاحظ اختفاءك. لستَ موظَّفًا، وزوجتُك هربتْ. ربَّما في نهاية المطاف سيلاحظ أحدُهم اختفاءك ويُخبر الشرطة، لكنَّك ستكون قد مُتّ، ولن يجدوا جثّتك أبدًا».

«بالطبع معك حقّ. يمكنني أن أموت هنا. يعتمد الأمرُ على مزاجك».

«وكيف تشعر حيال ذلك؟»

«مذعور».

«لا يوحي صوتُكَ بذلك».

كنتُ ما أزال أحكّ وجنتيَّ. هنا يداي وهنا وجنتاي. لم أكن أراها في الظلام، لكنَّها ما تزال هنا. ما يزال جسدي موجودًا. «ربَّما لأنَّ الفكرة لم ترسخْ في عقلي بعد».

«لكنَّها رسختْ في عقلي **أنا**. أعتقد أنَّ قتل شخصٍ آخر أسهلُ ممَّا يظنّ الناس».

«ربَّما يعتمد الأمر على طريقة القتل».

«سيكون الأمر غايةً في السهولة. كلُّ ما عليَّ فعلُه هو أن أتركك هنا. لستُ مضطرَّةً إلى فعل شيء. فكِّرْ في الأمر، سيِّد طائر الزنبرك. تخيَّلْ قدر معاناتك وأنت تموت جوعًا وعطشًا في هذا الظلام. لن يكون سهلًا».

«معكِ حقّ».

«أنتَ لا تصدِّقني، أليس كذلك سيِّد طائر الزنبرك؟ تعتقد أنَّني لا يمكن أن أفعل شيئًا بهذه القسوة».

«لا أدري. المسألة ليست أن أصدِّق أنَّكِ تستطيعين فعلَ ذلك، أو لا تستطيعين. أيّ شيء يمكن أن يحدث. الاحتمال قائم. هذا رأيي».

قالت مايو كاساهارا بنبرةٍ شديدة البرود: «لا أتحدَّث عن الاحتمال. اسمعْ، لديَّ فكرة خطرت لي الآن. لقد تجشَّمتَ عناءَ النزول إلى هناك لكي تفكِّر. لِمَ لا أصلحُ الأمرَ كي يمكنك التركيزُ في أفكارك على نحوٍ أفضل؟»

«وكيف ذلك؟»

«كيف؟ هكذا». قالتها، وأغلقت النصفَ المفتوحَ من غطاء البئر. لا شيء سوى الظلام.

10

مايو كاساهارا.. عن الموت والتطوُّر
شيءٌ من مكانٍ آخر

كنتُ أزحف في ظلام دامس. كلُّ ما استطعتُ رؤيتَه هو العدم. وكنتُ في الواقع جزءًا من ذلك العدم. أغمضتُ عينيَّ أنصتُ إلى صوت قلبي، وصوتِ الدم وهو يدور في جسدي، وصوتِ انقباضات الرئتيْن، وتموُّجات أحشائي الفارغة من أيِّ طعام. في ذلك الظلام الحالك كانت كلُّ حركة، وكلُّ خفقةٍ، تتعاظم على نحوٍ هائل. كان هذا جسدي، لحمي، لكنَّه في الظلام بدا أكثرَ جسديَّةً وحساسيَّةً ممَّا ينبغي.

وما لبث أن تملَّص عقلي الواعي من جسدي.

رأيتُ نفسي طائرَ الزنبرك، أطير في سماء الصيف فأحطُّ على فرع شجرة كبيرة في مكانٍ ما، ألفُّ زنبركَ العالم. لئن غاب طائرُ الزنبرك، فلا بدَّ من أن يحلَّ محلَّه شخصٌ آخر. لا بدَّ من أن يلفّ أحدٌ زنبركَ العالم، وإلَّا فسوف يبلى الزنبرك ويتوقَّف عن العمل. لكنْ لم يبدُ أنَّ أحدًا لاحظ اختفاءَ طائر الزنبرك، إلَّا أنا.

حاولتُ أن أقلِّد صيحةَ طائر الزنبرك في حلقي. لم ينجح الأمر. وكلُّ ما خرج منِّي صوتٌ قبيحٌ لا معنى له، أشبه بفرك شيئيْن قبيحيْن لا معنى لهما. لا أحد يمكنه أن يُصدر ذلك الصوتَ إلَّا طائر الزنبرك الحقيقيّ. هو وحده الذي يستطيع لَفَّ زنبرك العالم كما ينبغي له أن يُلفّ.

ومع ذلك، وأنا طائر زنبرك بلا صوت وعاجز عن لفّ زنبرك العالم، فقد قرَّرتُ أن أُحلِّق في سماء الصيف، وكان الأمر سهلًا. فحين تكون في الأعلى، كلُّ ما عليك فعله هو أن تصفِّق بجناحيْك لضبط الاتِّجاه والارتفاع. هكذا في لحظةٍ واحدة تَعلَّم جسدي هذه المهارة وحلَّق بي بسهولة إلى أيِّ مكان أريده. نظرتُ إلى العالم من منظور طائر الزنبرك. وكلَّما اكتفيت من الطيران حططتُ على فرع شجرة ونظرتُ من خلال الأوراق إلى أسقف المنازل والشوارع. راقبتُ الناس وهم يتحرَّكون ويمضون في حياتهم. لكنَّني للأسف لم أستطع أن أرى جسدي. هذا لأنَّني لم أرَ طائر الزنبرك قطّ، فلم أعرف كيف يبدو.

ظللتُ هكذا فترةً طويلةً (ترى كم طالت؟) لكنّ تحوُّلي إلى طائر الزنبرك لم يقدني إلى أيِّ مكان. كان الطيران ممتعًا طبعًا، لكنِّي لم أكن لأقضي وقتي في المتعة إلى الأبد. ثمَّة شيء لا بدَّ

لي من إنجازه في هذه الظلمة في قاع البئر. فعدتُ إلى كوني أنا.

*

زارتني مايو كاساهارا ثانيةً بُعَيْد الساعة الثالثة. الثالثة عصرًا. حين فتحتْ نصفَ الغطاء انطلق الضوءُ من الأعلى. كان شعاعًا قويًّا من نهار الصيف. خفضتُ رأسي وأغمضتُ عينيَّ كي أحميَهما، بعد أن اعتادتا الظلامَ الحالك. لكنَّ فكرة الضوء نفسها أسالت بضعَ دمعات.

«مرحبًا سيِّد طائر الزنبرك. أما زلتَ حيًّا؟ سيِّد طائر الزنبرك؟ أجبْني إنْ كنتَ ما تزال حيًّا».

«أنا حيّ».

«جائع بالتأكيد».

«أظنّ ذلك».

«ما زلتَ تظنّ ذلك؟ سيستغرق الأمر بعضَ الوقت حتى تموت جوعًا. المتضوِّرون جوعًا لا يموتون بسهولة ما دام لديهم ماء».

قلتُ والشكُّ يتردَّد من صوتي في البئر: «ربَّما صحيح». أظنّ أنَّ الصدى كان يكبِّر أيَّ ملمحٍ في صوتي.

«بل صحيح فعلًا. بحثتُ في الموضوع صباحَ اليوم في المكتبة. عن كلِّ ما يتعلَّق بالجوع والعطش. هل تعرف، سيِّد طائر الزنبرك، أنَّ شخصًا عاش تحت الأرض واحدًا وعشرين يومًا؟ أثناء الثورة الروسية؟»

«صحيح؟»

«لا بدَّ من أنَّه عانى كثيرًا».

«نعم، بالتأكيد».

«نجا من الموت، لكنَّه فقد كلَّ شعره وأسنانه. كلَّ شيء. صحيح أنَّه عاش، لكنَّ الذي مرَّ به كان مروِّعًا».

«بالتأكيد».

«حتى لو فقدتَ أسنانكَ وشعرَك، فإنَّني أظنّ أنَّه يمكنك أن تعيش حياةً طبيعيَّةً إنْ حصلت على شعر مستعار وأسنان مستعارة».

«نعم، وقد حدثتْ تطوُّراتٌ كبيرة في الشعر المستعار والأسنان المستعارة منذ الثورة الروسيَّة. ربَّما يسهِّل ذلك الأمور».

قالت وهي تتنحنح: «أتعرف يا سيِّد طائر الزنبرك...».

«ماذا؟»

«لو أنَّ الناس يعيشون إلى الأبد، لا يَكْبرون في السنّ، ولا يموتون ولا يعتلُّون، أتعتقد أنَّهم سيكلِّفون أنفسَهم عناءَ التفكير في الأشياء كما نفعل الآن؟ أقصد أنَّنا نُفكِّر في كلّ شيء: الفلسفة وعلم النفس والمنطق، والدين، والأدب. أعتقد أنَّه لو لم يكن هناك موت لَمَا ظهرتْ في العالم أفكارٌ وآراءٌ على هذا القدر من التعقيد. أقصد ـ».

قطعتْ مايو كاساهارا كلامَها وظلَّت صامتة، فتعلَّقتْ كلمتُها «أقصد» في ظلام البئر مثل شظيَّةٍ من فكرة. ربَّما فقدت الرغبةَ في قول المزيد. أو ربَّما كانت في حاجة إلى وقت كي تفكِّر بما

ستقوله. انتظرتُ في صمت كي تكمل، وما يزال رأسي إلى الأرض. خطر لي أنَّها لو أرادت قتلي هَهنا، فلن يَصْعب عليها ذلك. يمكنها أن تُلقي صخرةً كبيرة؛ وإنْ حاولتْ بضعَ مرَّات، فلا بدَّ من أن تُصيبني إحداها في رأسي.

«أقصد... هذا رأيي، ولكنْ... على الناس أن يفكِّروا في معنى أن يكونوا أحياء في لحظتهم تلك، لأنَّهم يعلمون أنَّهم سيموتون يومًا ما. صحيح؟ فمن سيفكِّر في معنى الحياة لو كان سيعيش إلى الأبد؟ لماذا يأبهون بذلك؟ ولو فُرض عليهم أن يأبهوا، فعلى الأرجح أنْ يقولوا لأنفسهم: «لا بأس، لدينا وقت طويل. سنفكِّر في ذلك لاحقًا». أمَّا نحن فلا يمكن أن ننتظر إلى وقت لاحق. علينا أن نفكِّر في الأمر في لحظته. قد تدهسني شاحنةٌ عصرَ الغد، وأنت يا سيِّد طائر الزنبرك، قد تجوع حتى تموت. بعد ثلاثة أيَّام من الآن، قد تكون ميِّتًا في قاع بئر. أرأيت؟ لا أحد يعرف ما سيحدث. لذلك نحتاج إلى الموت كي نتطوَّر. هذا رأيي. الموت شيء ضخم برَّاق، وكلَّما ازداد حجمهُ وبريقُه اضطُرِرْنا إلى إثارة جنوننا ونحن نفكِّر في هذه الأشياء».

سكتتْ مايو كاساهارا.

«قل لي سيِّد طائر الزنبرك...».

«ماذا؟»

«هناك، في قاع البئر في الظلام، هل كنتَ تفكِّر في موتك؟ في الكيفيَّة التي ستموت بها هناك؟»

فكَّرتُ لحظةً في سؤالها. «كلَّا، هذا هو الشيء الذي لم أكن أُفكِّر فيه».

فقالت مايو كاساهارا بنبرة ازدراء كما لو أنَّها تتحدَّث إلى حيوان مشوَّه: «ولم لا؟ لماذا لم تُفكِّر فيه؟ أنت تواجه الموتَ فعليًّا الآن. لا أمزح. قلتُ لك من قبل إنَّ الأمر يعود إليَّ في موتك أو حياتك».

«يمكنكِ أن تُلقي صخرة».

«صخرة؟ ماذا تقصد؟»

«يمكنكِ أن تأتي بصخرة كبيرة وتُلقيها عليَّ».

«نعم، طبعًا. يمكنني ذلك». لكنْ يبدو أنَّ الفكرة لم تَرُقْها. «على أيَّة حال، سيِّد طائر الزنبرك، لا بدَّ من أنَّك جائع جدًّا. سيزداد الأمرُ سوءًا، وسوف ينفد الماءُ منك. كيف إذن لا تفكِّر في الموت؟ ألا ترى أنَّ هذا غريب؟»

«نعم، أعتقد أنَّه غريب. لكنَّني كنتُ أُفكِّر في أشياء كثيرة طوال الوقت. ربَّما سأُفكِّر في الموت أيضًا، حين أبدأ في التضوُّر جوعًا. ما تزال أمامي ثلاثةُ أسابيع قبل أن أموت، أليس كذلك؟»

«إنْ كان لديك ماء. هذا ما حدث للروسيّ. كان من كبار أصحاب الأراضي، أو شيئًا كهذا. قذف به الحرسُ الثوريُّ في منجم قديم، ولكنْ كان هناك ماءٌ يتسرَّب من الجدار، فأخذ يلعقه، فأنقذ نفسَه. كان في ظلام حالك، مثلك تمامًا. ولكن لا ماءِ كثير لديك، أليس كذلك؟»

فقلتُ بصدق: «لا. بقي القليل».

«إذن عليك أن تحرص عليه. خذ رشفاتٍ صغيرة. وخذ

وقتك في التفكير. عن الموت. عن كيف ستموت. ما يزال لديك وقت كثير».

«لِمَ أنتِ مُصرَّة على أن أفكّر في الموت؟ ما مصلحتُكِ في ذلك؟»

فردَّت بسرعة: «لا مصلحة لي. ما الذي يجعلك تعتقد أنَّ لديَّ مصلحة في أن تُفكّر **أنت**، في موتك؟ إنَّها حياتك **أنت**. لا شأن لي بها. أنا مهتمَّة.. لا أكثر».

«من باب الفضول؟»

«نعم. الفضول. الفضول في معرفة كيفيَّة موت الناس. شعورهم بالموت. فضول».

صمتتْ مايو كاساهارا. حين انتهى الحوار، امتلأ المكان بصمتٍ عميق من حولي، وكأنَّه كان ينتظر هذه الفرصة. أردتُ أن أرفع وجهي وأنظر إلى الأعلى. لأرى ما إذا كان في الإمكان رؤيةُ مايو كاساهارا من هناك. لكنَّ الضوء كان قويًّا. كان سيحرق عينيّ بالتأكيد.

قلتُ لها: «هناك شيء أودّ أن أُخبرك به».

«حسنًا. أخبرني».

«كان لزوجتي عشيق. متأكِّد من هذا على الأقلّ. لم أُدرك ذلك من قبل، لكنَّها كانت تُعاشره منذ أشهر، حين كانت تعيش معي. لم أُصدِّق في البداية، لكنِّي كلَّما فكَّرت أكثر زاد اقتناعي بالأمر. والآن، حين أنظر إلى الوراء، أستطيع أن أرى علاماتٍ كثيرةً. فقد كانت تعود إلى البيت في ساعات متأخِّرة، أو تجفل

منّي حين ألمسها. لكنّني لم أستطع أن أفهم هذه العلامات. كنتُ أثق بها. لم يخطر في بالي قطّ أنّها قد تكون على علاقة بشخص. لم يخطر في بالي».

قالت: «يا للهول».

«وذات يوم تركتِ البيتَ ولم تعد. تناولنا الإفطارَ معًا في ذلك اليوم، وذهبتْ إلى عملها بملابسها المعتادة. كلُّ ما كان معها حقيبتها، ثم أخذتْ بلوزةً وتنّورةً من المغسلة. هذا فقط. لا وداع، ولا رسالة. لا شيء. رحلتْ كوميكو. تركتْ كلَّ أشيائها، ملابسَها وكلَّ شيء. ولا أظنُّها تعود.. إليَّ. على الأقلّ ليس برغبتها. هذا ما أعرفه».

«وهل تعتقد أنَّ كوميكو مع الرجل الآخر الآن؟»

قلتُ وأنا أهزّ رأسي: «لا أدري». حين تحرَّك رأسي ببطء كان الهواءُ المحيط يبدو مثلَ ماءٍ ثقيل، ولكنْ دون إحساس الماء. «ربَّما يكونان معًا».

«أنت الآن منهار إذن سيِّد طائر الزنبرك، ولهذا نزلتَ إلى قاع البئر».

«كنتُ منهارًا بالطبع حين عرفتُ ما حدث. ولكنْ ليس هذا هو السبب في مجيئي إلى هنا. لستُ هاربًا من الواقع. كما قلتُ لكِ سابقًا، كنت في حاجة إلى مكان أكون فيه وحدي لأركِّز تفكيري. كيف ومتى بدأ الخلل في علاقتي بكوميكو؟ هذا ما لستُ أفهمه. لا أقول إنَّ كلّ شيء كان عظيمًا. نحن رجل وامرأة في العشرينيَّات من عمرنا، ولنا شخصيَّتان مختلفتان، التقينا في

مكانٍ ما وأصبحنا نعيش معًا. بالطبع لدينا مشكلات، مثل أيّ زوجيْن. لكنَّني كنتُ أعتقد أنَّ علاقتنا كانت جيِّدة، وأنَّ المشكلات الصغيرة ستُحلّ مع الوقت. كنتُ مخطئًا. أظنُّ أنَّه فاتني شيء، فارتكبتُ خطأً جوهريًا. هذا ما جئتُ لأفكِّر فيه».

لم تقل هي شيئًا. ازدردتُ ريقي.

«لا أدري إنْ كنتِ ستفهمين ما أقوله. حين تزوَّجنا، قبل ستّ سنوات، كنَّا نحاول أن نبني عالمًا جديدًا، مثل بناء بيتٍ جديد في أرض خالية. كانت لدينا صورةٌ واضحةٌ لِما نريده. لم نكن في حاجة إلى منزل فاخر وما إلى ذلك، بل مجرَّد سقفٍ يغطِّينا ما دمنا معًا. لم نكن في حاجة إلى أيَّة أشياء إضافيَّة. بدت كلُّ الأمور بسيطة جدًّا لنا آنذاك. هل شعرتِ بهذا الشعور من قبل؟ أنَّكِ تريدين الذهابَ إلى مكان جديدٍ تمامًا وتصبحين شخصًا مختلفًا تمامًا؟»

«بالتأكيد. أشعر بذلك دائمًا».

«هذا ما كنَّا نحاول أن نفعله حين تزوَّجنا. كنتُ أريد الخروجَ من نفسي: مِنْ أنا التي كانت موجودةً في ذلك الوقت. وكذلك أرادت كوميكو. كنَّا نحاول في عالمنا الجديد أن نعثر على نفسَيْنا الجديدتيْن، الملائمتيْن أكثر لجوهرنا. كنَّا نؤمن أنَّ في وسعنا العيش بطريقة تُناسب حقيقتنا أكثر».

بدا أنَّ مايو كاساهارا تُغيِّر مركزَ جاذبيَّتها في الضوء. أحسستُ بحركتها. كأنَّها كانت تنتظرني أن أُكمل، ولكنْ لم يكن لديَّ ما أقوله أكثر ممَّا قلته. لم يخطر شيء في بالي، وأحسستُ

بالتعب من صوتي في تلك البئر الإسمنتيَّة.

«هل فهمتِ ما أقصد؟»

«طبعًا».

«وما رأيك؟»

«أوه، أنا مجرَّد طفلة. لا أعرف أيّ شيء عن الزواج، ولا أعرف ما كان يدور في عقل زوجتك حين بدأتْ تواعد رجلًا آخر أو حين هجرتْكَ. ولكنْ يبدو لي ممَّا قلتَه أنَّ فكرتك كانت خاطئةً منذ البداية. هل فهمتني، سيِّد طائر الزنبرك؟ ما كنتَ تقوله الآن... من شبه المستحيل أن يستطيع أحد فعلَ شيء كهذا، أن يقول «حسنًا، أنا الآن سأصنع عالمًا جديدًا» أو «حسنًا، أنا الآن سأصبح شخصًا مختلفًا تمامًا». هذا رأيي. قد تعتقد أنَّكَ صنعتَ عالمًا جديدًا أو نَفْسًا جديدةً، لكنَّ نفسك القديمة ستكون دائمًا حاضرة، تحت السطح، وما إنْ يحدث شيء حتى تطلّ برأسها وتقول لك «أنا هنا». يبدو أنَّك لا تُدرك ذلك. أنت قادم من مكانٍ آخر. وحتى فكرة أن تُعيد صناعة نفسك، حتى هذه الفكرة من مكانٍ آخر. أنا الطفلة أعرف هذا يا سيِّد طائر الزنبرك، أفلا تعرفه أنت؟ كيف لا تفهم ذلك؟ في رأيي، هذه مشكلة كبيرة. وما يحدث لك إنَّما هو عقاب على هذه المشكلة. عقاب من العالم الذي تريد التخلُّص منه، أو من النفس التي تريد أن تتخلَّى عنها. هلَ فهمتني؟»

بقيتُ صامتًا، أُحدِّق في الظلام الذي يُغلِّف قدميَّ. لم أعرف ما أقول.

ثم قالت برقّة: «حسنًا سيّد طائر الزنبرك واصل التفكير. فكّر، فكّر».

ووُضع الغطاء على فتحة البئر مرّة أخرى.

*

أخرجتُ المطّارة من حقيبتي وهززتُها، فتردّد صوتُ الماء في الظلام. ربّما بقي ربعُ المطّارة. أسندتُ رأسي إلى الجدار وأغمضتُ عينيّ. لعلّ مايو كاساهارا على حقّ. فهذا الشخص، هذه النفس، هذه الأنا، إنّما جاءت من مكان آخر. كلُّ شيء أتى من مكان آخر، وسوف يذهب إلى مكان آخر. وما أنا إلّا ممرٌّ للشخص الذي اسمُه أنا.

أنا الطفلة أعرف هذا، يا سيّد طائر الزنبرك، أفلا تعرفه أنت؟ كيف لا تفهم ذلك؟

11

الجوعُ ألمًا
رسالة كوميكو الطويلة
الطائر نبيًّا

غفوتُ واستيقظتُ بضع مرَّات. كانت غفوات قصيرة غير مستقرَّة، كغفوة مسافرٍ على الطائرة. كلَّما لاح النوم العميق جفلتُ واستيقظتُ، وكلَّما اقتربت اليقظةُ داهمني النعاس، وهكذا دوالَيْك. كان الوقت في غياب تغيُّر الضوء يتمايل مثلَ عربةٍ غير ثابتَة. أمَّا جِلستي غير الطبيعيَّة في ذلك المكان فلم تبقِ على أملٍ للراحة. كلَّما صحوتُ، نظرتُ في ساعتي لمعرفة الوقت. كان مرورُ الوقت ثقيلًا، متقطِّعًا.

فلمَّا لم يبقَ لي شيء أفعله، رحتُ ألتقط المصباحَ وأُشعله في أيِّ اتِّجاه كيفما اتَّفق، على الأرض، أو الجدران أو غطاء البئر. فلم أجد في كلِّ مرَّة سوى الأرض نفسِها، والجدران نفسِها، وغطاء البئر نفسِه. كان الظلّ الناتج من الضوء يتمايل، يمتدّ ويتقلَّص، ينتفخ وينقبض. وحين تعبتُ من ذلك أخذتُ أُزجِّي الوقت بلمس وجهي، أُمرِّر أصابعي على كلِّ خطٍّ وفجوة، أتفحَّص ملامحي من جديد كي أعرف شكلها. فلم أكن مهتمًّا من قبلُ بشكل أذنيَّ. لو أنَّ أحدًا طلب إليَّ أن أرسم أذني، ولو مجرَّد مخطَّطٍ بسيط، فلن أعرف. أمَّا الآن، فيمكنني أن أرسم كلَّ تجويف وانحناءة بدقَّةٍ عالية. كان غريبًا بالنسبة إليَّ أن تكون الأذنان مختلفتيْن. لم أكن أعرف كيف حدث ذلك. ولم أعرف تأثيرَ هذا الاختلاف (فعلى الأرجح ثمَّة تأثيرٌ ما).

كانت عقاربُ ساعتي تُشير إلى السابعة وثماني وعشرين دقيقة. لقد نظرتُ في ساعتي ما لا يقلّ عن مئتَيْ مرَّة منذ أن جئتُ إلى هنا. الساعة الآن 7:28 مساءً. هذا مؤكَّد. لو كانت مباراة بيسبول، لكنَّا الآن في نهاية الجولة الثالثة أو بداية الرابعة. في طفولتي كنتُ أحبّ الجلوسَ في المقاعد العالية والنظرَ إلى نهار الصيف الذي لا يريد أن ينقضي. كانت الشمس قد نزلتْ تحت الأفق الغربيّ، لكنَّ الشفق ما يزال وضَّاءً، جميلًا. كشَّافاتُ الملعب مدَّت ظلالَها على الساحة كأنَّما تُشير إلى شيءٍ ما. يُشعَلُ الكشَّافُ الأوَّل ثم الآخر بحرص بالغ، بُعَيْد انطلاق المباراة. ومع ذلك كان ما يزال هنالك ضوءٌ في السماء يكفي لقراءة صحيفة. هكذا ظلَّت ذكرى النهار الطويل باقيةً عند الباب كي

تمنع مساءَ الصيف من الدخول.

لكنَّ الإضاءة الاصطناعيَّة كانت تَكْسب الجولةَ شيئًا فشيئًا وتنتصر بهدوء على ضوء الشمس، فتنشر ألوانَها البهيجة. خُضرةُ الساحة، وسوادُ الأرض، والخطوطُ البيضاء المستقيمة المرسومة فوقها، والطلاءُ اللامع فوق مضارب اللاعبين الذين ينتظرون دورهم، ودخانُ السجائر الذي يسبح في شعاع الضوء (فيبدو في الأيَّام الخالية من الريح مثلَ أرواحٍ تجول بحثًا عن شخصٍ تأخذه)؛ كلّ هذه تبدأ في الظهور بوضوح باهر. باعةُ البيرة يرفعون أيديَهم في الضوء، فتظهر أوراقُ النقد المدسوسة بين أصابعهم. ينهض الجمهور من مقاعدهم يتبعون مسارَ كرةٍ عالية، فترتفع أصواتُهم مع ارتفاع الكرة أو تختفي في تنهيدة. أسرابُ طيورٍ تعود إلى أعشاشها فتحلّق باتّجاه البحر. هكذا كان الملعب عند السابعة والنصف مساء.

تذكَّرتُ مباريات البيسبول التي شاهدتُها على مرّ السنين. ذاتَ مرَّة وأنا صغير جاء فريق «سينت لِوِس كاردينلز» إلى اليابان من أجل مباراة ودِّيَّة. شاهدتُ المباراة مع أبي من مقعدٍ قريب. قبل المباراة اصطفَّ لاعبو الفريق الضيف حول الساحة يحملون سلالًا مليئةً بكرات التنس الموقَّعة، يرمونها نحو الجمهور بأسرع ما يمكن. فجُنَّ جنونُ الناس وهم يحاولون الإمساك بكرة من تلك الكرات، لكنَّني بقيت في مقعدي دون حراك، وما لبثت أن تلقَّيتُ كرةً في حِجري. كان ضربًا من السحر، غريبًا ومفاجئًا.

نظرتُ في ساعتي مرَّةً أخرى. السابعة وستّ وثلاثون دقيقة. انقضت ثماني دقائق منذ آخر مرَّة. ثماني دقائق لا أكثر. نزعت

الساعة وقرَّبتها من أذني. كانت ما تزال تدقّ، فهززتُ كتفيَّ مستغربًا في العتمة. ثمَّة شيء غريب يحدث في إحساسي بالوقت. هكذا قرَّرت ألَّا أنظر في ساعتي فترةً. صحيح أنْ لا شيء أفعله، لكنَّ النظر كثيرًا في الساعة لم يكن تصرُّفًا حكيمًا. عليَّ بذلُ مجهود كبير كي أمنع نفسي من ذلك. كان الألم من ذلك أشبهَ بما أحسستُ به حين أقلعتُ عن التدخين. فمنذ اللحظة التي قرَّرتُ فيها ألَّا أفكِّر في الوقت، لم يستطع عقلي أن يفكِّر في شيء آخر. إنَّه نوعٌ من التناقض، من الانفصام. فكلَّما حاولتُ نسيان الوقت دُفعتُ إلى التفكير فيه. وما هي إلَّا ثوانٍ حتى كانت عيناي تبحثان عن الساعة على معصمي الأيسر. وكلَّما حدث ذلك أشحت بوجهي وأغمضتُ عينيَّ، وجاهدتُ كي لا أنظر. في النهاية نزعتُ الساعة ووضعتُها في حقيبتي. ومع ذلك، فقد ظلَّ عقلي يتحسَّس مكانَ الساعة داخل الحقيبة، حيث ظلَّت تدقّ الوقت ثانيةً بعد أخرى.

هكذا مرَّ الوقت في الظلام، من دون الحاجة إلى عقارب الساعة. هكذا يمضي الوقتُ غيرَ مقسوم، غيرَ محسوب. وما إنْ فقد الوقتُ نقاط تحديده حتى لم يعد خطًّا مستمرًّا، بل أصبح شيئًا يشبه السائلَ الذي يتمدَّد وينكمش كما يشاء. في هذا الوقت نمتُ وصحوتُ، ونمتُ وصحوتُ، وشيئًا فشيئًا اعتدتُ الحياةَ من دون أجهزةٍ لحساب الوقت. لقد مرَّنتُ جسمي كي يُدرك أنَّني لم أعد في حاجة إلى الوقت. لكنَّني سرعان ما شعرتُ بتوتُّر هائل. صحيح أنَّني تحرَّرت من عادة النظر إلى الساعة كلَّ خمس دقائق، لكنَّني فور أن غاب إطارُ الزمن عنِّي بدأتُ أشعر كما لو أنَّني

أُلقيتُ في البحر ليلًا من على سطح سفينةٍ عابرة. لم يسمع أحدٌ صرخاتي، ومضت السفينةُ في طريقها تبتعد أكثر فأكثر إلى أن كادت تغيب عن النظر.

أقلعتُ عن المحاولة، فأخرجتُ الساعةَ من الحقيبة وأعدتُها إلى معصمي. كانت العقارب تُشير إلى الساعة السادسة والربع. ربَّما السادسة والربع صباحًا. آخر مرَّة نظرتُ فيها إلى الساعة كانت تُشير إلى السابعة وستّ وثلاثين دقيقة، مساء. من المنطقيّ إذن الاستنتاج بأنَّ إحدى عشرة ساعة قد انقضت منذ ذلك الوقت. يصعب أن تكون قد مرَّت ثلاث وعشرون ساعة. لكنَّني لم أكن متأكِّدًا. ما الفرق الجوهريّ بين إحدى عشرة ساعة وثلاث وعشرين ساعة؟ أيًّا ما كانت الساعة، فقد اشتدَّ جوعي كثيرًا. كان الإحساس بالجوع الشديد مختلفًا تمامًا عمَّا تخيَّلته. كنتُ أفترض أنَّ الجوع عبارة عن شعور بالفراغ، لكنَّه كان أقرب إلى الألم الجسديّ الصرف. كان ألمًا جسديًّا تمامًا، ومباشرًا، مثلَ التعرُّض للطعن أو الخنق. غير أنَّ الألم كان متفاوتًا، غير ثابت. يزداد أحيانًا مثلَ المدّ حتى أكاد أفقد وعيي، ثم ينحسر شيئًا فشيئًا.

ولكي أشتِّت ذهني عن التفكير في نوبات الجوع المؤلمة، حاولتُ أن أركِّز في شيء آخر. غير أنَّه لم يعد في إمكاني أن أفكِّر جيِّدًا. كانت شظايا الأفكار تنساق إلى عقلي، ثم تختفي بسرعةٍ كما جاءت. وكلَّما حاولتُ أن أقبض على فكرة، تنساب من بينَ أصابعي مثلَ حيوانٍ هلاميّ عديم الشكل.

نهضتُ على قدميّ، ومدَّدتُ أطرافي، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا. كان كلّ شيء في جسمي يؤلمني. كلّ عضلة وكلّ مفصل يصرخ

ألمًا، من أثر الجلوس الطويل في تلك الوضعيَّة. أخذتُ أمدِّد جسمي للأعلى ببطء، ثم بدأتُ أثني ركبتيّ، لكنَّني شعرتُ بالدوار بعد المرَّة العاشرة. جلستُ مرَّةً أخرى على الأرض، وأغمضتُ عينيَّ. كان هناك رنينٌ في أذنيّ، والعرقُ يتفصَّد من وجهي. أردتُ التشبُّث بشيء، لكنَّني لم أجد شيئًا أمسكه. شعرتُ برغبة في التقيُّؤ، ولكنْ لم يكن في جوفي شيء يمكن أن أُفرغَه. حاولتُ أن أتنفَّس عميقًا، لعلَّ ذلك ينشِّط عقلي بتجديد الهواء الداخل إلى جسمي، لكنَّ الغمائم التي كانت في عقلي لم تنقشع. قلتُ في خاطري إنَّ جسمي شديدُ الضعف الآن، بل إنَّني في الواقع حاولتُ أن أردِّد الجملة بصوتٍ عالٍ: «جسمي شديد الضعف الآن»، لكنَّ فمي لم يستطع أن ينطق بها. قلت في نفسي ليتني أرى النجوم، لكنَّ مايو كاساهارا كانت قد أغلقت رأس البئر.

ظننتُ أنَّ مايو كاساهارا سوف تعود في الصباح، لكنَّها لم تأتِ. قضيتُ الوقت في انتظارها وأنا مستند إلى الجدار، وظلَّ الشعورُ بالغثيان يرافقني طوال الصباح، وعقلي لا يقوى على التركيز في أيِّ شيء ولو لوقتٍ قصير. استمرَّت نوباتُ الجوع ذهابًا وإيابًا، والظلامُ من حولي يزداد كثافةً ويقلّ. وهكذا مع كلِّ موجةٍ جديدة كان يتلاشى جزءٌ آخر من مقدرتي على التركيز، مثل أثاث البيت الذي يسطو عليه اللصوصُ قطعةً قطعة.

انقضت الظهيرةُ ولم تأتِ مايو كاساهارا. فأغمضتُ عينيَّ وحاولتُ أن أنام، لعلِّي أحلم بكريتا كانو. لكنَّ نومي كان خفيفًا لا يستدعي الأحلام. وسرعانَ ما توقَّفتُ عن أيَّة محاولة للتركيز.

فكلّ الذكريات المتشظّية بدأتْ تزورني. كانت تأتي في هدوء، مثل الماء يملأ كهفًا صغيرًا تحت الأرض. الأماكن التي ذهبتُ إليها، والناسُ الذين التقيتُهم، والجروح، والحوارات، والمشتريات، والمفقودات، تذكّرتُها كلّها بوضوح شديد وتفاصيل مذهلة. فكّرتُ في المنازل والشقق التي سكنتُها، وفكّرت في النوافذ والخزانات والأثاث والأضواء. فكّرتُ في المعلّمين والأساتذة الذين درستُ عندهم منذ المرحلة الابتدائيّة حتى الكلّيّة. قليلٌ جدًّا من هذه الذكريات ذات علاقة بالأخرى. كانت صغيرةً، عقيمةً، تأتيني بلا ترتيب زمنيّ. وبين الحين والآخر تُصيبني نوبةُ جوعٍ أخرى تقطع هذه الذكريات. ومع ذلك فقد كانت كلُّ ذكرى غايةً في الوضوح، تهزّني بقوّةٍ مثل الإعصار.

جلستُ هناك أراقب عقلي وهو يلاحق هذه الذكريات، إلى أن جاءت حادثةٌ وقعتْ في الشركة قبل ثلاث سنوات أو أربع. كانت حادثةً حمقاء لا هدف منها، لكنّني كلّما أطلتُ التأمُّل في تفاصيلها العبثيّة زاد انزعاجي، إلى أن تحوّل الانزعاجُ إلى غضب عارم. غضبٍ لفرط شدّته غطّى على كلِّ شيء آخر، تعبي وجوعي وخوفي، فأطلق في بدني قشعريرةً وسارع من أنفاسي. كنتُ أسمع دقّات قلبي، وأشعر بالغضب يندفع في مجرى دمي مليئًا بالأدرينالين. كانت مشادّةً نتجتْ من سوء فهم بسيط. كان الرجل الآخر قد توجّه إليّ بعباراتٍ شنيعة، ورددتُ عليه أيضًا، لكنّنا أدركنا سخافةَ الأمر واعتذرنا بعضنا إلى بعض، ثم أنهينا المشكلةَ من دون أحقاد. تَحدث هذه الأشياء حين تكون مشغولًا أو متعبًا، فيزلّ لسانُكَ ببعض التعليقات المتهوّرة. لذلك نسيتُ الأمر. لكنّني

في ذلك الظلام الحالك في قاع البئر، حيث ابتعدتُ عن الواقع، عادت إليَّ الذكرى حيَّةً بوضوحٍ حارق. كنتُ أشعر بحرارتها على جلدي، وأسمع صوتَها وهي تحرقه. لماذا كان ردّي على تلك العبارات ردًّا ضعيفًا رخوًا؟ الآن، من مكاني، استطعتُ أن أُفكِّر بأشياء كثيرة كان يمكنني أن أقولها له. صقلتُ الردود، وشحذتها، وكلَّما ازدادت حدَّةً، ازددتُ غضبًا.

بعدها، فجأةً، تبخَّر الشيطانُ الذي تملَّكني، ولم يعد هذا الأمر يعنيني. لماذا تأتيني هذه الذكريات القديمة هكذا؟ ما فائدتُها؟ الرجل الآخر ربَّما نسي الأمر تمامًا. أنا نسيتُه ولم أذكره إلَّا قبل دقائق. أخذتُ نَفَسًا عميقًا، وأرخيتُ كتفيّ وتركتُ جسدي يعود إلى العتمة. حاولتُ ملاحقةَ ذكرى أخرى، ولكنْ حين ذهب الغضب لم تبقَ لديَّ ذكريات. أصبح رأسي الآن فارغًا مثلَ جوفي.

وما لبثتُ أن بدأتُ أتحدَّث إلى نفسي، أتمتم بأفكار متشظِّية لم أعرف أنَّها موجودة في عقلي. لم أستطع أن أمنع نفسي. سمعتُ فمي يتحدَّث، لكنَّني لم أكد أفهم شيئًا ممَّا أقوله. كان فمي يتحرَّك من تلقاء نفسه، يغزل جدائلَ طويلةً من الكلمات في الظلام، كلمات لم أستطع أن أفهم معناها. كانت تخرج من ظلمةٍ، وتدخل في ظلمة أخرى. أمَّا جسدي فلم يكن سوى نفقٍ فارغ، يوصل الكلماتِ من هنا إلى هناك. كانت بالتأكيد شظايا أفكار، لكنَّها أفكار تدور خارج وعيي.

ترى ما الذي كان يحدث؟ هل كانت أعصابي على وشك التلف؟ نظرتُ في ساعتي. كانت عقاربها تُشير إلى الثالثة واثنتيْن

وأربعين دقيقة. عصرًا على الأرجح. تخيَّلتُ كيف يكون النهار في عصر يومٍ صيفيٍّ في هذا الوقت. تخيَّلتُ نفسي في ذلك الضوء. وأصختُّ السمع لأيِّ صوت قد تلتقطه أذناي، لكنَّني لم أسمع شيئًا. لا سيكادات، ولا تغريد طيور، ولا أصوات أطفال. ربَّما لم يلفّ الطائرُ الزنبركَ في الوقت الذي قضيتُه هنا، فتوقَّف العالمُ عن الحركة. ربَّما اهترَأ الزنبرك شيئًا فشيئًا، فوصلنا إلى مرحلةٍ توقَّفت فيها كلٌّ حركة، بدءًا من تدفُّق النهر وحفحفةِ أوراق الشجر إلى تحليق الطيور في السماء.

أين مايو كاساهارا يا تُرى؟ لماذا لم تأتِ؟ مرَّ وقت طويل ولم تعد. فخطر لي أنَّه ربَّما قد وقع لها شيء مروِّع، كحادث سيَّارة مثلًا. في هذه الحالة لم يعد أحد في هذا العالم يعرف أنَّني هنا. وسوف أموت فعلًا ميتةً بطيئةً في قعر البئر. فقرَّرتُ أن أنظر إلى الأمور من منظور آخر. لم تكن مايو كاساهارا شخصًا مستهترًا، ولن تتصرَّف على نحوٍ يُعرِّضها لدهس سيَّارة. لعلَّها كانت في غرفتها الآن، تراقب الفِناء بين الحين والآخر بمنظارها، تتصوَّر حالي وأنا هنا في البئر.

كانت تتعمَّد ما تفعله. تتركني هنا وقتًا طويلًا لكي أشعر بالذعر، والهَجْر. هكذا أظنّ. إنْ كان هذا ما تحاول فعله، فقد نجحتْ تمامًا. كنتُ مذعورًا بالفعل. وكنتُ أشعر بالهَجر. وكلَّما خطر لي أنَّني قد أتعفَّن هنا في هذه العتمة ثَقُلت أنفاسي من الرعب الذي تملَّكني. وإذ ينقضي الوقتُ يزداد ضعفي، إلى أن تشتدّ عليَّ نوباتُ الجوع بما يكفي لقتلي. لكنَّني قبل ذلك قد أفقد القدرة على تحريك جسمي. فحتى لو جاء أحدهم وأرخى إليَّ السلَّم، فقد لا

أستطيع أن أصعد. قد يتساقط شعري وأسناني كلّها.

ثم لاح لي أن أُفكّر في مسألة الهواء. فقد مضى عليَّ يومان الآن وأنا هنا في قعر هذه الأسطوانة الإسمنتيَّة العميقة، والأنكى من ذلك أنَّ رأس البئر مغلق بالغطاء. لا تهوئة على الإطلاق. فبدأتُ أحسّ بأنَّ الهواء من حولي ثقيل جدًّا. لم أكن أدري أكان ذلك من صنع خيالي أم أنَّ الهواء كان ثقيلًا بالفعل بسبب نقص الأوكسجين. قرَّرتُ أن أختبر ذلك بالشهيق والزفير، لكنَّني كلَّما تنفَّست ساء الوضع. تفصَّد العرق منِّي لفرط الخوف. وما إنْ بدأتُ التفكير في الهواء حتى اجتاح الموتُ عقلي، فأصبح شيئًا حقيقيًّا، وشيكًا. ظهر الموت هكذا مثلَ ماءٍ أسود صامت، يتسرَّب إلى كلِّ طرف من أطراف وعيي. كنتُ حتى هذه اللحظة أُفكِّر في احتمال التضوُّر جوعًا؛ وهذا يمنحني وقتًا طويلًا. لكنَّ الأمور سوف تسير على نحو أسرع إنْ نفد الأوكسجين.

تُرى كيف يكون إحساسُ الموت اختناقًا؟ كم يستغرق من الوقت؟ هل سيكون موتًا بطيئًا مضنيًا، أم سأفقد الوعي تدريجًا وأموت كما لو أنَّ النعاس غالبني فنمت؟ تخيَّلتُ مايو كاساهارا تأتي إلى البئر فتجدني ميّتًا. سوف تُناديني مرَّات عدَّة، وحين لا أُجيبها ستعتقد أنَّني نائم فتقذفني ببضع حصيات. ثم تُدرك أنَّني ميِّت.

أردتُ أن أصرخ وأنادي. أردتُ أن أصرخ بأنَّني محبوس هنا. بأنَّني جائع. بأنَّ الهواء يفسد. شعرتُ بأنَّني قد عدتُ طفلًا صغيرًا قليلَ الحيلة هرب في نزوةٍ طائشة ولم يعرف كيف يعود إلى بيته. لقد نسيتُ الطريق. كان هذا حلمًا راودني مرَّات عديدة.

كان كابوس شبابي. أن أتيه، ولا أعرف طريق العودة. كنتُ قد نسيت هذه الكوابيس منذ سنوات، لكنَّها عادت إليَّ الآن في قعر هذه البئر بوضوحٍ مروِّع. لقد عاد الزمن إلى الوراء في هذه العتمة، فابتلعه نوعٌ مختلفٌ من الزمن.

أخرجتُ المطَّارة من الحقيبة، وفتحتُها بحرصٍ شديد كي لا أهدر قطرةً واحدة، ثم سكبتُ القليلَ من الماء في فمي. تركتُه هناك فترة طويلة، أتلذَّذ برطوبته، ثم ابتلعته ببطء قدر الإمكان. وحين مرَّ الماء من حلقي أصدر صوتًا عاليًا، وكأنَّ أداةً صلبةً ثقيلةً سقطتْ على الأرض.

*

«سيِّد أوكادا!» كان أحدُهم يُناديني. سمعتُ الصوت في منامي. «سيِّد أوكادا! سيِّد أوكادا! استيقظْ أرجوك!»

كان الصوتُ يشبه صوتَ كريتا كانو. استطعتُ أن أفتح عينيَّ، لكنَّ شيئًا لم يتغيَّر. كنتُ ما أزال مُحاطًا بالظلام ولا أرى شيئًا. لا توجد حدود واضحة بين المنام واليقظة. حاولتُ أن أنهض، لكنَّ أصابعي لم تعد تقوى على ذلك. كان جسمي باردًا متجمِّدًا، مثل خِيارةٍ منسيَّة في زاوية ثلَّاجة. كان الإنهاك والضعف قد استحوذا على عقلي. لا يهمّني، افعلي ما شئتِ، سأنتصب في عقلي مرَّةً أخرى وأقذف في الواقع. افعلي ما شئتِ، إنْ كان هذا ما تريدين. في وعيي المضبَّب هذا انتظرتُ يدَيْها كي تفكّ حزامي، لكنَّ صوت كريتا كانو كان في الأعلى. «سيِّد أوكادا! سيِّد أوكادا!» نظرتُ إلى الأعلى، فوجدتُ نصفَ غطاء البئر مفتوحًا، ومن فوقه سماء جميلة مرصَّعة بالنجوم، سماء

على شكل نصف قمر.

«أنا هنا».

رفعتُ نفسي واستطعتُ أن أقف. نظرتُ إلى الأعلى وصرختُ مرَّة أخرى: «أنا هنا!»

قالت كريتا كانو **الحقيقيَّة**: «سيِّد أوكادا! هل أنت هناك؟»

«نعم، أنا هنا!»

«كيف حدث هذا؟»

«هذه حكاية طويلة».

«لا أسمَعُكَ جيِّدًا. من فضلك ارفعْ صوتَك».

«هذه حكاية طويلة! سأُخبركِ بعد أن أخرج من هنا. الآن لا أستطيع أن أرفع صوتي كثيرًا».

«هل هذا السلّم لك؟»

«نعم».

«وكيف استطعت أن تخرجه من البئر؟ هل رميته؟»

«طبعًا لا!» لماذا أفعل ذلك؟ وكيف يمكنني أن أفعل ذلك؟ «طبعًا لا! أحدهم سحبه ولم يُخبرني».

«ولكن سيكون من المستحيل أن تخرج».

قلتُ وأنا أحاول أن أحافظ على صبري. «طبعًا. هذا ما حدث. لا يمكنني الخروج من هنا. من فضلك هل يمكنكِ أن تنزلي السلّم؟ هكذا **أستطيع** أن أخرج».

«نعم طبعًا. سأنزله الآن».

«لحظة! قبل أن تنزليه تأكَّدي من أنَّه مربوط بإحكام في جذع الشجرة، وإلَّا ـ».

لكنَّها لم تردّ. بدا أنْ لا يوجد أحد هناك. ركَّزتُ نظري في رأس البئر، لكنَّني لم أرَ أحدًا. أخذتُ المصباح من حقيبتي ووجَّهتُه إلى الأعلى، لكنَّ الضوء لم يقع على أيِّ هيئة بشريَّة. كلّ ما رأيته هو السلّم، معلَّقًا في مكانه كما لو أنَّه كان هناك طوال الوقت. أطلقتُ تنهيدةً عميقة، فلمَّا خرجتْ شعرتُ بعقدةٍ صلبة في أعماقي وقد انحلَّت وذابت.

صرختُ: «هييه، كريتا كانو!» ولا جواب.

كانت ساعتي تشير إلى الواحدة وسبع دقائق. بعد منتصف الليل طبعًا. هذا ما استنتجتُه من النجوم المضيئة. وضعتُ حقيبتي على ظهري، وأخذتُ نَفَسًا عميقًا، وبدأتُ الصعود. لم تكن عمليَّة الصعود على هذا السلّم المتزعزع سهلة. كانت كلُّ عضلة وعظمة ومفصل في جسدي تصرخ ألمًا مع أيِّ حركة. كنتُ أصعد خطوةً خطوةً بحذر، وسرعان ما أحسستُ بلفحة دفءٍ في الهواء، ثم رائحة عشب. بدأتُ أسمع أصوات الحشرات. وصلت إلى حافَّة البئر، وسحبتُ نفسي سحبةً أخيرة، ثم تقلَّبتُ على سطح الأرض. انتهى الأمر. ها أنا فوق الأرض مرَّةً أخرى. ظللتُ فترةً مستلقيًا على ظهري لا أفكِّر في شيء. نظرتُ إلى السماء وأخذتُ أتنفَّس بعمقٍ مرَّةً تلو الأخرى. كان الهواء دافئًا في هذه الليلة الصيفيَّة، تغمره رائحةُ الحياة. شممتُ التراب، والعشب، وكانت الرائحة ذاتها كافيةً كي تشعر يداي بنعومة التراب والعشب. كنتُ أودّ لو أقبض عليهما بيديّ وألتهمهما.

لم تعد هناك أيُّ نجوم في السماء. ولا نجمة. كان بالإمكان رؤيتُها من قاع البئر فقط. أمّا الآن فلا يبدو في السماء سوى قمر ضخمٍ شبه مكتمل.

لا أعلم كم قضيتُ من الوقت مستلقيًا هناك. فقد بقيتُ فترةً طويلة لا أفعل شيئًا سوى الاستماع إلى دقّات قلبي. شعرتُ بأنّني يمكن أن أعيش هكذا فقط، أسمع دقّات قلبي. لكنّني في النهاية نهضتُ ونظرتُ حولي. لم يكن هناك أحد. كانت الحديقة ممتدّةً في الظلام، وتمثالُ الطائر ما يزال يحدِّق في السماء كعادته. لا أضواء في منزل مايو كاساهارا. مجرَّدُ قنديلٍ واحد في فنائها يعكس ضوءًا باهتًا على الزقاق المهجور. تُرى أين اختفت كريتا كانو؟

على أيّة حال، كان أوّل ما ينبغي فعلُه هو العودة إلى البيت. أعود إلى البيت وأشرب شيئًا، وآكل شيئًا، وآخذ حمّامًا طويلًا. لا بدَّ من أنَّ رائحتي أصبحتْ كريهة. عليَّ أنْ أتخلّص من هذه الرائحة أوّلًا، ثم أملأ معدتي الخالية. وكلّ شيء آخر يأتي بعد ذلك.

مشيت في الطريق نفسه، لكنَّ الزقاق بدا مختلفًا، غير مألوف. ربّما بسبب نور القمر بدت علاماتُ الركود والتعفُّن واضحةً شديدة، وكنتُ أشمّ شيئًا يشبه رائحةَ اللحم المتعفِّن من حيوانات ميّتة، ورائحة خراء وبول. كثير من سكّان المنازل كانوا ما يزالون مستيقظين، يتحدَّثون أو يتناولون الطعام وهم يشاهدون التلفاز. من إحدى النوافذ تسرَّبتْ رائحةُ طعام دَسِم فهجمتْ على عقلي ومعدتي. مررتُ بمكيِّف هواءٍ يهدر، فغمرني بهواءٍ دافئ.

سمعتُ صوت دشّ استحمام، ورأيتُ طيْف شخصٍ من وراء نافذة حمَّام.

تسلّقتُ الجدار خلف بيتي وهبطتُ في الفِناء. من هذا المكان بدا البيتُ مظلمًا وكأنَّه يحبس أنفاسه. لا أثر فيه لأيِّ نوعٍ من الدفء أو الحميميَّة. كان يُفترض أن يكون هذا هو المكانَ الذي أعيش فيه حياتي، لكنَّه بدا الآن مجرَّد مبنًى خالٍ من دون أيّ أثر للحياة البشريَّة. لكنَّني لم أعرف لي بيتًا غير هذا.

خطوتُ إلى الشرفة، وفتحتُ البابَ الزجاجيّ. ولأنَّ البيت كان مغلقًا فترةً طويلة، فقد كان الهواء بداخله ثقيلًا راكدًا. رائحتُه مزيجٌ من الفاكهة المختمرة والمبيدات الحشريَّة. لاحظتُ أنَّ رسالتي التي تركتُها على طاولة المطبخ ما تزال في مكانها. والصحون التي غسلتُها ما تزال مصفوفةً في مكانها. أخذتُ كأسًا وملأتُها مرَّةً بعد مرَّةٍ بماء الصنبور. لم يكن في الثلَّاجة شيء مميَّز. مجرَّد تشكيلة من الطعام البائت، وبعض المقادير المستخدمة: بيض، لحم خنزير، سلطة بطاطا، باذنجان، خسّ، طماطم، توفو، جبن، حليب. صببتُ بعضَ الحليب في طاسة من الكورن فليكس وأكلت. يُفترض أنّني جائع جدًّا، لكنَّني لم أعد أشعر بالجوع بعد أن رأيتُ الطعامَ في الثلَّاجة. في الواقع كنتُ أشعر بالغثيان. لكنَّني كي أهدِّئ معدتي الفارغة، أكلتُ بعض البسكويت. ولم يدفعني هذا إلى الرغبة في تناول شيء آخر.

ذهبتُ إلى الحمَّام، ونزعتُ ملابسي وألقيتُ بها في الغسَّالة. ثم دخلتُ تحت الدشّ الساخن، وفركتُ جسمي كلَّه وغسلتُ شعري. ما يزال غطاءُ شعر كوميكو معلَّقًا في الحمَّام. الشامبو

الذي تُفضّله، والبلسم، والمشط البلاستيكيّ الذي تستخدمه لغسل شعرها. فرشاةُ أسنانها. خيطُ الأسنان. كلُّ شيء بدا كما كان قبل أن ترحل. لا تغيير منذ غياب كوميكو، سوى أنَّها لم تَعُدْ هنا.

وقفتُ أمام المرآة وتفحّصتُ وجهي. كان شعرُ ذقني قد نما قليلًا. لحظة تردُّد، ثم قرَّرتُ ألّا أحلق. فلو حلقتُ الآن فسأجرح نفسي. لا بأس من الانتظار حتى صباح الغد، إذ لستُ على موعد مع أحد. فركتُ أسناني، وتمضمضتُ مرّات عدَّة، وخرجتُ من الحمَّام. ثم فتحتُ علبة بيرة، وأخذتُ حبَّة طماطم وقطعةَ خسٍّ من الثلّاجة، وأعددتُ سلطة. وما إنْ أكلتها حتى أحسستُ برغبة في المزيد من الطعام، فأخذتُ سلطة بطاطا، ووضعتُها بين شريحتَيْ خبز، وأكلتها. لم أنظر في الساعة إلّا مرَّة واحدة. كم ساعةً مرَّت وأنا في البئر؟ مجرَّدُ التفكير في الوقت جعل رأسي ينبض. لا، لا يجدر بي التفكيرُ في الوقت. هذا هو الشيء الوحيد الذي عليَّ أن أتجنَّب التفكير فيه الآن.

عدتُ إلى الحمَّام، وتبوّلتُ طويلًا وأنا مغمض العينيْن. لم أكد أصدِّق أنَّه استغرق كلّ ذلك الوقت، وشعرتُ بأنَّني قد أفقد وعيي وأنا واقف هناك. بعد ذلك ذهبتُ إلى الصالة، وتمدَّدتُ على الأريكة، وأخذت أُحدِّق في السقف. كان إحساسًا غريبًا. جسدي متعب، لكنَّ عقلي مستيقظ تمامًا. لم أشعر برغبة في النوم على الإطلاق.

*

فجأةً خطر لي أن أتفقَّد صندوقَ البريد؛ فربَّما وصلتني رسالةٌ

وأنا في البئر. ذهبتُ إلى الصندوق فوجدتُ رسالةً جديدة. لم يكن على الظرف عنوانُ المرسِل، لكنَّ الخطّ كان خطّ كوميكو بالتأكيد، إذ تكتب كلَّ حرفٍ صغير بدقّة متناهية كأنَّها ترسمه. كانت طريقتها في الكتابة تستغرق وقتًا طويلًا، لكنَّها الطريقة الوحيدة التي تعرفها. وقعتْ عيناي مباشرةً على ختم البريد. لم يكن واضحًا، لكنَّني استطعتُ أن أقرأ «تاكا» وربَّما «ماتسو». هل هي مدينة تاكاماتسو في محافظة كاغاوا؟ لكنَّ كوميكو، بحسب علمي، لا تعرف أحدًا في تاكاماتسو. لم نَزُرْ تلك المدينةَ قطّ، ولم تذكر لي أنَّها استقلَّت العبَّارةَ إلى شيكوكو أو عبرت الجسرَ الجديد. لم يَرِدِ اسمُ تاكاماتسو قطُّ في حواراتنا. ربَّما ليست تاكاماتسو.

على أيَّة حال، أخذتُ الرسالة إلى المطبخ وجلستُ إلى الطاولة، وفتحتُ الظرف بالمقصّ بعناية كي لا أقطع الورقة التي بداخله. ولكي أهدِّئ نفسي رشفتُ رشفةً من علبة البيرة التي تركتها.

«لا بدَّ من أنَّكَ صُدمت واستبدَّ بك القلقُ حين اختفيْتُ فجأةً من دون أن أقول شيئًا». هكذا بدأتْ كوميكو رسالتَها المكتوبة بالحبر الأزرق ـ المسودّ كعادتها، على ورق الرسائل الرفيع الذي يُباع في كلِّ مكان.

كنتُ أودّ أن أرسلَ لك رسالةً في وقتٍ أبكر، وأبذلَ جهدي في شرح كلّ شيء، لكنَّ الوقت تسرَّب منِّي وأنا أُفكِّر كيف يمكنني التعبيرُ عن مشاعري بدقَّة وشرحُ وضعي الحاليّ على نحوٍ مفهوم. والحقيقة أنَّني مُستاءة ممَّا سبَّبْتُه لك.

لعلَّك بدأتَ الآن تُفكِّر في أنَّني على علاقة برجل آخر. ارتبطتُ به في علاقة جنسيَّة منذ ثلاثة أشهر تقريبًا. هو شخص لا نعرفه أبدًا، التقيْتُه في مجال عملي. ولا يهمّ مَن يكون؛ فلن أراه مرَّةً أخرى. الأمر انتهى، بالنسبة إليَّ على الأقلّ. لا أدري إنْ كان في هذا عزاءٌ لك.

هل كنتُ أحبُّه؟ لا يمكن لي أن أُجيب عن هذا السؤال. فالسؤال نفسه خارج الموضوع. هل كنتُ أحبّك؟ هذا السؤال يمكنني أن أُجيب عنه من دون تردُّد. نعم. لطالما كنتُ سعيدةً جدًّا لأنَّني تزوَّجتُكَ. وما زلتُ أشعر بهذا. قد تسأل نفسَكَ لماذا إذن كنتُ على علاقة برجل آخر، وختمتُها بالهرب من البيت؟ طوال تلك العلاقة كنتُ أسأل نفسي السؤالَ نفسَه مرارًا وتكرارًا: لماذا أفعل ذلك؟

لا يمكنني أن أشرح الأمر. لم تكن عندي أدنى رغبة في اتِّخاذ عشيق أو علاقة عابرة. كانت هذه الأفكارُ آخرَ ما يخطر في بالي حين بدأتُ أقابله. التقينا بضع مرَّات في مجال العمل. ورغم أنَّنا انسجمنا سريعًا، فإنَّ حديثنا لم يخرج عن سياق العمل إلَّا في تعليق عابر واحد على الهاتف. كان أكبرَ منِّي بكثير، ولديه زوجةٌ وأطفال، ولم يكن في واقع الأمر جذَّابًا. لم يخطر في بالي قطّ أنَّني قد أُقيم علاقةً معه.

لا أقول إنَّني كنتُ متحرِّرة من فكرة الانتقام منك. فقد كانت تعتمل في ذاكرتي تلك الليلةُ التي قضيْتَها مع امرأة. صدَّقتك حين قلتَ إنَّك لم تفعل شيئًا معها، لكنَّ هذا في حدِّ ذاته لا يجعل تصرُّفَكَ صحيحًا. هكذا كنت أشعر. لكنَّني مع ذلك لم أدخل في

علاقة كي أنتقم منك. أذكرُ جيّدًا أنّني قلتُ سأفعل، لكنَّه كان مجرَّد تهديد. لقد ضاجعتُه لأنَّني كنتُ أريد مضاجعتَه. لأنَّني لم أكن أحتملُ أنْ لا أضاجعه. لأنَّني لم أستطع أن أكبح رغبتي الجنسيَّة.

التقينا ذات يوم في اجتماع عمل بعد فترة انقطاع. وبعد الاجتماع خرجنا لتناول العشاء، ثم ذهبنا لتناول مشروب. ولأنَّني لا أستطيع تناولَ الشراب، طبعًا، فكلّ ما كان عليَّ أن أفعله لمجاملته هو أن أتناول كأسًا من عصير البرتقال. لذلك لم يكن للخمر أيُّ دور في ما حدث. كنَّا نتحدَّث ونتناول الطعام على نحوٍ اعتياديٍّ، ثم فجأةً تلامسنا عن طريق الخطأ، وكلّ ما شعرتُ به آنذاك هو رغبتي في أن أكون بين أحضانه. ففي اللحظة التي تلامسنا فيها، عرفتُ أنَّه يريد جسدي، ويبدو أنَّه أحسَّ برغبتي في جسده. كان الأمر أشبَه بتيَّار كهربائيٍّ طاغٍ لا تفسير له سرى فينا. شعرتُ كما لو أنَّ السماء قد سقطتْ فوقي. كانت وجنتاي مشتعلتَيْن، وقلبي يخفق بقوَّة، وثمَّة شعور ثقيل كأنَّ شيئًا يذوب تحت خصري. لم أكن قادرةً على الجلوس جيِّدًا على مقعدي. كان الشعور شديدًا. في بادئ الأمر لم أُدركْ ما يحدث داخلي، لكنِّي سرعان ما أدركتُ أنَّها الشهوة. ولفرطِ رغبتي فيه كنتُ أكاد لا أستطيع التنفُّس. وما هي إلَّا لحظات حتى وجدنا نفسَيْنا في فندقٍ قريب، ونمارس الجنسَ بقوَّةٍ جامحة.

أعلمُ أنَّ هذه التفاصيل التصويريَّة سوف تجرحك، لكنِّي أعتقد أنَّه على المدى الطويل سيكون من الأفضل لو قلتُ كلَّ شيء بالتفصيل وبصدقٍ كامل. قد يكون الأمر صعبًا، لكنِّي أريدك

أن تتحمَّل الألم وتُكملَ القراءة.

ما فعلتُه معه لا علاقة له مُطلقًا بـ «الحبّ». فكلُّ ما أردتُه منه هو أن يضمّني بين ذراعيْه وأن يدخل فيّ. لم أشعر في حياتي كلّها بحاجةٍ خانقةٍ كهذه إلى جسد رجل. كنتُ قد قرأتُ عن «الرغبة غير المحتملة» في الكتب، لكنَّني حتى ذلك اليوم لم يكن في إمكاني أن أتخيَّلَ معنى تلك العبارة.

فلماذا ظهرتْ هذه الحاجةُ فجأةً، ولماذا لم تظهر معكَ أنتَ بل مع شخص آخر؟ لا أدري. ما أعرفه هو أنَّ الرغبة التي شعرتُ بها كان يستحيل إخمادُها، ولم أحاول حتى أن أُخمدها. أرجو أن تفهم أنَّني لم يخطر في بالي لحظةً واحدةً أنَّني كنتُ أخونك. فالجنس الذي مارستُه معه في ذلك الفندق كان شيئًا أشبه بالجنون. كي أكون صريحةً معك، لم أشعر في حياتي قطّ بشيء مثل تلك المتعة. لا، الأمر ليس بهذه البساطة. المسألةَ ليست مسألة «شعور بالمتعة». كان جسدي يتمرَّغ في وحلٍ ساخن. عقلي كان مغمورًا في متعةٍ صرف إلى حدّ الانفجار، ثم انفَجَرَ. كان شيئًا مُعجِزًا. كان واحدًا من أروع الأشياء التي حدثتْ في حياتي.

بعد ذلك، كما تعلم، أخفيتُ الأمر. لم تُدرك أنت أنَّني كنتُ على علاقة برجلٍ آخر. لم يخامرْكَ الشكُّ لحظة، حتى حين بدأتُ أتأخَّر في العودة إلى البيت. أنا متأكّدة من أنَّكَ كنتَ تثق بي ثقةً كاملة. كنتَ تظنّ أنَّني لن أخونَك أبدًا. لم أشعر بالذنب مطلقًا أنَّني خنتُ تلك الثقة. كنتُ أتَّصل بك من غرفة الفندق وأقول لك إنَّني سأتأخَّر بسبب العمل. كنتُ أراكم الكذبةَ فوق

الكذبة، لكنَّها لم تسبِّب لي أيَّ انزعاج. بل لقد بدت طبيعيَّة جدًّا بالنسبة إليَّ. كان قلبي في حاجةٍ إلى حياتي معك. البيت الذي نعيش فيه كان المكان الذي أنتمي إليه. هو العالم الذي أنتمي إليه. لكنَّ جسدي كان يحترق رغبةً في الجنس معه. كان نصفي هنا، ونصفي هناك. كنتُ أعلم أنَّه عاجلًا أمْ آجلًا سينتهي الأمرُ إلى الانفصال، لكنَّني في ذلك الوقت شعرتُ بأنَّ هذه الحياة المزدوجة يمكن أن تستمرَّ إلى الأبد. فهنا أعيش بهدوءٍ معك، وهناك أطارحهُ الغرامَ الجامح.

أُريدك أن تفهم شيئًا واحدًا على الأقلّ. المسألة ليست أنَّكَ أدنى منه في الجنس، أو غيرُ جذَّاب جنسيًّا، أو أنَّني ضجرتُ من الجنس معك. كلُّ ما في الأمر أنَّ جسدي في ذلك الوقت كان يمرّ بظمأٍ جامح لا يُقاوم. ولم أملكْ من الأمر شيئًا لأمنعه. لا أدري لماذا تحدث لي هذه الأشياء. كلّ ما أستطيع قوله هو أنَّها حدثتْ. خلال الأسابيع التي كنتُ أضاجعه فيها شعرتُ بضعَ مرَّات بممارسة الجنس معك أيضًا. فقد بدا لي من غير المنصف أن أضاجعَه ولا أضاجعك أنت. لكنَّني لم أعد أشعر بشيء على الإطلاق وأنا بين ذراعيْك. لا بدَّ من أنَّك لاحظتَ ذلك. فقد كنتُ أختلق الأعذارَ شهريْن تقريبًا كي لا أمارس الجنس معك.

وذات يوم، طلب منِّي أن أهجرَكَ. قال إنَّنا ملائمان جدًّا بعضنا لبعض. ولا سببَ يمنعنا من أن نكون معًا. قال إنَّه سيترك أسرَته. طلبتُ منه أن يمهلني بعضَ الوقت للتفكير. لكنَّني، وأنا في طريق العودة بالقطار بعد لقائي به، أدركتُ أنَّني لم أعد أشعر بأيِّ شيء تجاهه. كان شيئًا غير مفهوم، ولكن في اللحظة التي

طلب منّي فيها أن أهربَ معه اختفى ذلك الشعورُ المميَّز الذي كان في داخلي كما لو أنَّ ريحًا قويّة اقتلعتْه. هكذا اختفت رغبتي فيه من دون أن تترك أثرًا.

وهنا بدأتُ أشعر بالذَّنْب تجاهك. قلتُ سابقًا إنَّني لم أكن أشعر بالذنب مطلقًا في الوقت الذي كنتُ أحمل رغبةً قويَّةً فيه. كلُّ ما كنتُ أشعر به هو الراحة لأنَّك لم تلاحظ شيئًا. كنتُ أقول لنفسي إنَّني أستطيع فعل أيّ شي ما دمتَ لا تلاحظ. كان ارتباطي به ينتمي إلى عالم آخر يختلف عن ارتباطي بك. فلمَّا تبخَّرتِ الرغبةُ لم أعد أعرفُ أين أنا.

لطالما اعتبرتُ نفسي إنسانةً صادقة. نعم، لديَّ أخطائي، لكنَّني في الأشياء المهمَّة لا أكذب على أحد أو أخدع نفسي. فلم أُخفِ عنك شيئًا قطّ. كان هذا مصدرَ اعتزازٍ بالنسبة إليَّ، لكنَّني طوال أشهر كاملة كنتُ أكذب عليك الكذبةَ تلو الأخرى من دون أدنى شعور بالذَّنْب.

وهذا في حدِّ ذاته بدأ يعذِّبني. فشعرتُ كما لو أنَّني إنسانة فارغة تافهة عديمةُ الجدوى. وإنْ شئتَ الحقَّ فربَّما يكون هذا صحيحًا. لكنَّ ثمَّة شيئًا آخر ما يزال يُزعجني: كيف حدث أن شعرتُ برغبة جنسيَّة طاغية في رجلٍ لم أكن أشعر ولو بالحبِّ تجاهه؟ هذا ما لا أستطيع أن أستوعبه. لولا تلك الرغبة لكنتُ الآن أعيش معك بسعادة، ولكان هذا الرجل ما يزال صديقًا أتبادل معه الأحاديثَ في المناسبات. لكنَّ ذلك الشعور، تلك الشهوةَ الجامحة، مزَّقتْ كلَّ شيء بنيْناه معًا على مرِّ السنين. لقد أخذتْ منّي كلّ ما كنتُ أملكُه: أخذتك أنت، والبيتَ الذي

أنشأناه، وعملي. لماذا يا تُرى حدث ذلك؟

بعد عمليَّة الإجهاض التي أجريْتُها قبل ثلاث سنوات قلتُ لك إنَّ هناك شيئًا أريد أن أُخبرك به. هل تذكر؟ ربَّما كان من الأفضل أن أقوله. ربَّما كان من الأفضل أن أُخبرك بكلِّ شيء في قلبي قبل أن تصل الأمورُ إلى ما وصلتْ إليه. ربَّما لم يكن ليحدث كلُّ هذا. لكنَّني حتى الآن، وبعد أن حدث ما حدث، لا أعتقد أنَّني سأستطيع أن أُخبرك بشعوري آنذاك. والسبب هو أنَّني بمجرَّد وضع مشاعري في كلمات، سوف يتدمَّر كلُّ شيء أكثر ممَّا هو مدمَّرٌ الآن. لذلك شعرتُ بأنَّ الأفضل هو أن أكتم الأمر في نفسي وأختفي.

أنا آسفة لأنَّني مضطرَّة إلى إخبارك، لكنَّ الحقيقة هي أنَّني لم أستطع قطّ أن أحصل على متعة جنسيَّة حقيقيَّة معك، لا قبل الزواج ولا بعده. كنتُ أحبّ أن تأخذني بين ذراعيْك، لكنَّ كلَّ ما كنتُ أحسّ به هو إحساس غامض بعيد يكاد ينتمي إلى شخص آخر. والذَّنب ليس ذنْبك أبدًا. فعجزي عن الشعور كان ذنبي أنا وحدي. كان هناك شيء أشبهُ بالانسداد في داخلي يكبح أيَّ أحاسيس جنسيَّة. فلمَّا انحلَّ هذا الانسداد (لأسبابٍ لا أعلمها) بممارسة الجنس معه، لم أعد أعرف كيف أتصرَّف.

كان هناك دومًا شيء حميميّ رقيق بيننا، أنا وأنت. كان موجودًا منذ البداية. لكنَّه ضاع الآن، إلى الأبد. لقد دُمِّر ذلك الانسجامُ الخفيّ. لأنَّني دمَّرتُه. أو بالأحرى، ثمَّة شيء جعلني أُدمِّره. أنا آسفة لأنَّ ذلك حدث. قليلون هم الذين يحظون بفرصةٍ كتلك التي كانت لديَّ معك، وإنَّني أكره الشيء الذي تسبَّب في

كلٌّ هذا. لا تتخيَّل كم أكرهه. أُريد أن أعرف ما هو بالضبط، ولا بدَّ من أن أعرف ما هو بالضبط. عليَّ أن أبحث عن منبعه، وأحكمَ عليه وأُعاقبَه. لا أدري إنْ كنتُ أملك ما يكفي من القوَّة لفعل ذلك. لكنَّني متأكِّدة من شيء واحد: هذه مشكلتي وحدي. لا علاقة للأمر بك.

بقي شيء واحد أطلبُه منك. من فضلك لا تشغلْ نفسَكَ بأمري. ولا تحاولْ أن تجدني. انسني، وفكِّرْ في بدء حياة جديدة. وفي ما يتعلَّق بعائلتي، فسوف أتَّخذ ما يلزم. سأُرسل إليهم رسالةً أشرح فيها أنَّ الخطأ خطأي أنا، ولستَ مسؤولًا عن شيء. بذلك لن يسبِّبوا لك أيّ متاعب. وأعتقدُ أنَّ إجراءات الطلاق الرسميَّة ستبدأ قريبًا. سيكون هذا أفضلَ حلٍّ لنا نحن الاثنيْن. لذا، أرجوكَ ألَّا تعارضهم. وأمَّا ملابسي وأغراضي التي تركتها، فأرجو منك أن تتخلَّص منها أو تتبرَّع بها. كلّ شيء أصبح من الماضي الآن. وأيّ شيء استخدمتُه في حياتي معك، لم يعد لي الحقّ في استخدامه بعد الآن.

وداعًا.

قرأتُ الرسالةَ مرَّةً أخرى من بدايتها إلى النهاية، ثم أعدتُها إلى الظرف. أخرجتُ علبة بيرة أخرى من الثلَّاجة وشربتُها.

إنْ كانت كوميكو تريد الاستمرارَ في إجراءات الطلاق، فذلك يعني أنَّها لا تنوي الانتحارَ فورًا. شعرتُ ببعض الراحة. ثم لاحت لي حقيقة أنَّني لم أُمارس الجنس مع أحدٍ منذ شهريْن تقريبًا. فقد كانت كوميكو تتجنَّب الأمر طوال الوقت، كما قالت

في رسالتها. قالت لي إنَّ لديْها أعراضَ التهاب في المثانة، وقد نصحها الطبيبُ بتجنُّب الجنس لبعض الوقت. وبطبيعة الحال صدَّقتُها. لم يكن لديَّ سبب كي لا أُصدِّقها.

خلال ذينك الشهريْن مارستُ الجنسَ مع نساء في أحلامي، أو في عالمِ آخر لا أملك من الكلمات لوصفه إلَّا أن يكون حلمًا. كانَ ذلك مع كريتا كانو وامرأةِ الهاتف. لكنَّ شهريْن انقضيا دون أن أُمارس الجنسَ مع امرأة حقيقيَّة في هذا العالم الحقيقيّ. استلقيتُ على الأريكة أُحدِّق في يديّ إذ وضعتهما على صدري، ورحتُ أُفكِّر في آخر مرَّةٍ رأيتُ فيها جسمَ كوميكو. تخيَّلتُ التقوُّسَ الناعمَ لظهرها حين رفعت السحَّاب، ورائحةَ الكولونيا خلف أذنيْها. إنْ كان ما قالته في رسالتها حقيقةً قاطعة، فعلى الأرجح أنَّني لن أُمارس الجنسَ مع كوميكو أبدًا. لقد كتبتْ ذلك بوضوحٍ وجزم. إذن لا يمكن أن يكون كلامُها سوى حقيقة قاطعة.

كلَّما فكَّرتُ في احتمال أن تكون علاقتي بكوميكو قد أصبحتْ جزءًا من الماضي، بدأتُ أشتاق إلى دفء ذلك الجسد الذي كان لي ذاتَ يوم. كنتُ أستمتع بالجنس معها. صحيح أنَّني استمتعتُ به قبل الزواج، ولكنَّني بقيتُ أستمتعُ بممارسة الجنس معها حتى بعد أن انقضت عدَّةُ سنوات وغاب ذلك الشبقُ الأوَّلي. كان يمكنني أن أتذكَّر ملمسَ كلّ جزءٍ فيها بوضوح تامّ: ظهرها الممشوق، ورقبتها، وساقيْها، ونهديْها. كنتُ أستطيع أن أتذكَّر كلّ الأشياء التي فعلتُها لها، وفعلتْها لي، طوالَ عشرتنا الجنسيَّة.

لكنَّ كوميكو الآن منحتْ جسدها ذلكَ الشخصَ الذي لا

أعرفُه، بقوَّةٍ لا أستطيع تخيُّلها. لقد اكتشفتْ متعةً لم تستطع أن تحصل عليها من الجنس معي. لعلَّها، وهي تمارس الجنسَ معه، كانت تتلوَّى وتتقلَّب بما يكفي لهزِّ السرير، وتتأوَّه عاليًا بما يكفي لكي يسمَعها مَن في الغرفة المجاورة. لربَّما فعلتْ أشياءَ معه لم تكن لتفعلها معي أبدًا. ذهبتُ إلى المطبخ وفتحتُ الثلَّاجة، وأخذتُ علبةَ بيرة، وشربتُها. ثم أكلتُ سلطة بطاطا. شعرتُ برغبة في الاستماع إلى الموسيقى، فأدرتُ المذياع واخترتُ محطَّة الموسيقى الكلاسيكيَّة. كانت كوميكو تقول: «أنا متعبة جدًّا اليوم. لستُ في المزاج. آسفة حقًّا». فأقول: «لا بأس. لا مشكلة». حين انتهت معزوفةُ تشايكوفسكي، **سربنادة الوتريَّات**، بدأت معزوفة بيانو تُشبه معزوفات شومان. كانت مألوفةً، لكنَّني لم أستطع أن أتذكَّر اسمَها. فلمَّا انتهت قالت المذيعةُ إنَّها المقطوعة السابعة من عمل شومان، **مشاهد الغابة**، وعنوانُها «الطائر نبيًّا». تخيَّلتُ كوميكو تلوي فخذيْها تحت الرجل، ترفع ساقيْها، وتغرس أظفارها في ظهره، يسيل لعابُها على ملاءة السرير. قالت المذيعة إنَّ شومان قد رسم مشهدًا خياليًّا فيه طائرٌ غامضٌ يعيش في الغابة، يتنبَّأ بالمستقبل.

تُرى ما الذي كنتُ أعرفُه عن كوميكو؟ من دون أيّ صوت سحقتُ علبةَ البيرة في يدي وألقيتُ بها في سلَّة المهمَلات. هل يُعقل أن تكون كوميكو التي خِلتُ أنَّني أفهمها، كوميكو التي أخذتُها بين أحضاني طوال تلك السنوات، ليست سوى قشرة سطحيَّة لكوميكو الحقيقيَّة، مثلما أنَّ معظم العالم ينتمي إلى عالم قناديل البحر؟ إنْ كان الأمر كذلك، فما بال السنوات الستّ التي

قضيْناها معًا؟ ماذا كانت؟ أيّ معنى لها؟

*

رنَّ الهاتف بينما كنتُ أقرأ رسالة كوميكو مرَّة أخرى. انتفضتُ من على الأريكة. من يا تُرى يتَّصل بي في الساعة الثانية صباحًا؟ كوميكو؟ لا أظنُّها تتَّصل أبدًا. ربَّما مايو كاساهارا. رأتني أُغادر البيت الخالي وقرَّرت أن تتَّصل بي. أو ربَّما كريتا كانو، تُريد أن تشرح لي سبب اختفائها. وربَّما امرأة الهاتف تُريد أن تُخبرني بشيء. كانت مايو كاساهارا على حقّ. لديَّ نساء كثيرات في حياتي. مسحتُ العرق من وجهي بمنشفة، ثم تناولتُ سمَّاعة الهاتف.

«آلو؟»

«آلو؟» لم يكن صوت مايو كاساهارا، ولا صوت كريتا كانو، ولا صوت المرأة الغامضة. كانت مالطا كانو.

«آلو؟ هل معي السيِّد أوكادا؟ اسمي مالطا كانو. لا أدري إنْ كنت تتذكَّرني».

قلتُ وأنا أحاول تهدئة دقَّات قلبي: «طبعًا أتذكَّرك جيِّدًا». وكيف لي ألَا أتذكَّرها؟

«أعتذر عن الاتِّصال بك في هذا الوقت المتأخِّر. لكنَّ الأمر طارئ. أُدرك تمامًا قلَّة الذوق في اتِّصالي هذا، ولك الحقّ في أنْ تغضِب، لكنَّني مضطرَّة لذلك. أرجو المعذرة».

قلتُ لها لا بأس، فقد كنتُ مستيقظًا على أيَّة حال ولم أنزعج أبدًا.

12

ما اكتشفتُه حين حَلَقتُ
ما اكتشفتُه حين استيقظتُ

قالت مالطا كانو: «أتَّصلُ بكَ في هذا الوقت المتأخِّر يا سيِّد أوكادا لأنَّني شعرتُ بضرورة أن أتواصل معك في أقرب فرصة ممكنة». خُيِّل إليَّ وأنا أسمعُها بأنَّها كانت تختار كلماتها وترتِّبها في جملٍ منظَّمة وفقًا لمنطقٍ صارم. وهذا ما كانت تفعله دائمًا. «إنْ لم يكن لديك مانع، فهناك عدَّة أسئلة أودُّ أن أطرحها عليك سيِّد أوكادا. هل تسمح لي؟»

أنزلتُ نفسي على الأريكة والسمَّاعةُ في يدي. «تفضَّلي، اسألي كما تشائين».

«هل كنتَ خارج البيت في اليومين الماضيَيْن سيِّد أوكادا؟ حاولتُ الاتِّصال بك مرَّاتٍ عديدة، ولم تكن تردّ».

«نعم، كنتُ خارج البيت. كنتُ أريد الابتعادَ عن البيت فترة. كنت في حاجة إلى خلْوَةٍ للتفكير. لديَّ أشياء كثيرة ينبغي عليَّ التفكيرُ فيها».

«نعم سيِّد أوكادا، أعلمُ هذا. أتفهَّم مشاعرك. تغيير الجوّ قد يكون مُفيدًا جدًّا حين يحتاج المرء إلى التفكير بعناية ووضوح. لكنْ، سيِّد أوكادا، واعذرْني على تطفُّلي، ألم تكن في مكان بعيد جدًّا؟»

قلت بغموض مقصود: «في الواقع، ليس بعيدًا جدًّا». نقلتُ السمَّاعة من يدي اليسرى إلى اليمنى وقلت: «لا أعرف كيف أصفه. كنتُ في مكان مقطوع. لا يمكنني ذكرُ التفاصيل الآن. لديَّ أسبابي. ولم أعد إلَّا قبل وقت قصير. لذلك لا أقوى على الشرح الطويل لفرط تعبي».

«أتفهَّم ذلك سيِّد أوكادا. لكلٍّ منَّا أسبابه. لن أضغط عليك. لا بدَّ من أنَّك متعب جدًّا، إذ يبدو التعبُ واضحًا على صوتك. عمومًا، لا عليك. ما كان يجدر بي أن أُزعجَكَ بأسئلة كثيرة في هذا الوقت. أعتذرُ جدًّا. يمكننا مناقشةُ الأمر في وقت أنسب لاحقًا. أعلمُ أنَّه من قلَّة الذوق طرحُ أسئلة شخصيَّةٍ كهذه، لكنَّني ما فعلتُ ذلك إلَّا لأنَّني كنتُ قلقةً من وقوع شيٍ بالغ السوء لك في الأيَّام القليلة الماضية».

حاولتُ أن آتي بردٍّ مناسب، لكنَّ الصوت الذي خرج من

حلقي لم يكن ردًّا بقدر ما كان لهاثَ حيوان مائيّ أخطأ في تنفُّسه. شيء بالغ السوء. من بين كلّ الأشياء التي حدثتْ لي أيُّها كان السيّئ وأيُّها لم يكن سيّئًا؟ أيُّها كان حسنًا وأيُّها لم يكن حسنًا؟

قلتُ وقد استعدت صوتي: «أشكركِ على اهتمامك، لكنَّني بخير. لا أقول إنَّ شيئًا جيِّدًا حدث لي، ولكنْ لم يحدث لي مكروه أيضًا».

«يُسعدني سماعُ ذلك».

«كلُّ ما في الأمر أنَّني متعب».

تنحنحتْ مالطا كانو بصوتٍ لطيف وقالت: «بالمناسبة سيِّد أوكادا، لا أدري إنْ كنتَ قد لاحظتَ أيَّ تغيّر جسديّ كبير في الأيّام القليلة الماضية».

«تغيّر جسدي؟ فيَّ أنا؟»

«نعم سيِّد أوكادا. نوع من التغيُّر في جسدك».

رفعتُ وجهي ونظرتُ إلى انعكاس صورتي في الباب الزجاجي، لكنِّي لم أتبيَّنْ أيَّ شيء يمكن أن يُقال عنه تغيّرًا جسديًّا. كنتُ قد فركتُ جسمي كلَّه في الحمَّام ولم أُلاحظ شيئًا.

«أيّ نوعٍ من التغيّر تقصدين؟»

«لا أعرف نوعَه بالضبط، لكنَّ المفترض أن يكون واضحًا لأيِّ شخصٍ ينظر إليك».

مددتُ يدي اليسرى على الطاولة وحدَّقتُ في راحتي، فلم أَرَ شيئًا. لم تتغيَّر على أيِّ نحو. لا هي مغطَّاة بورق الذهب، ولا

خيوط عناكب بين الأصابع. فلا هي جميلة ولا قبيحة. «حين قلتِ إنَّ التغيير واضح لأيٍّ شخصٍ ينظر إليَّ، ماذا كنتِ تقصدين؟ شيء مثل جناحيْن يبرزان من ظهري؟»

ردَّت مالطا كانو بصوتها الاعتياديّ المنبسط: «قد يكون شيئًا كهذا. طبعًا أقصد أنَّه احتمال واحد».

«بالطبع».

«إذن، هل لاحظتَ تغيّرًا كهذا؟»

«لا، على الأقلِّ ليس بعد. أقصد لو برز جناحان من ظهري فسوف أُلاحظُ بالتأكيد، أليس كذلك؟»

«طبعًا. ولكنْ لا تستهن بالأمر سيِّد أوكادا. فإدراكُ المرء حالَهُ ليس أمرًا بسيطًا. ليس في وسع الإنسان أن ينظرَ إلى وجهه مباشرةً بعينيْه مثلًا. لا مناصَ من أن ينظر إلى انعكاس صورته في المرآة. ومن خلال التجربة أصبحنا نعتقد أنَّ الصورة صحيحة، لكنَّه مجرَّد اعتقاد».

«لن أستهينَ بالأمر».

«هناك شيء آخر أُريد أن أسألك عنه سيِّد أوكادا. فقدتُ التواصلَ مع أختي كريتا منذ مدَّة، مثلما فقدتُ التواصلَ معك. قد تكون مصادفةً، لكنَّها غريبة جدًّا. لا أدري إنْ كنت تعرف شيئًا عن الأمر».

«كريتا كانو؟!»

«نعم. هل يخطر شيء في بالك؟»

أجبتها أنْ لا. شعرتُ (من دون أن أعرف السبب) بأنَّه من

الأفضل ألَّا أقول شيئًا لمالطا كانو عن حقيقة أنَّني تحدَّثتُ مع كريتا ثم اختفت فجأةً. كان مجرَّد شعور.

«كانت كريتا قلقةً من فقدانها التواصلَ معك، سيِّد أوكادا. خرجتِ البارحةَ وقالت إنَّها تنوي زيارةَ بيتك علَّها تجد شيئًا، لكنَّها لم تعد حتى الآن. ولسببٍ أو لآخر لم أعد أحسّ بوجودها».

«أها. عمومًا، إنْ جاءت إلى هنا فسوف أُخبرها أن تتَّصل بكِ مباشرة».

ظلَّت مالطا كانو صامتةً بعضَ الوقت. «أُصارحك القول بأنِّي قلقة على كريتا. فأنت تعلم أنَّ العملَ الذي نؤدِّيه، أنا وهي، ليس عملًا عاديًّا. لكنَّها ليست متمرِّسةً في ذلك العالم مثلي. لا أقول إنَّها ليست موهوبة، بل إنَّها موهوبة جدًّا. لكنَّها لم تتأقلمْ بعدُ مع موهبتها تأقلمًا كاملًا».

«أها».

عادت إلى الصمت ثانيةً. وكان صمتُها هذه المرَّة أطول، فشعرتُ بأنَّها متردِّدة نوعًا ما.

«ألو؟ أما زلتِ على الخطّ؟»

«نعم سيِّد أوكادا».

فقلت مرَّةً أخرى: «إنْ رأيتُ كريتا سأحرص على إخبارها بأن تتَّصل بك».

«شكرًا جزيلًا». وبعد أن اعتذرتْ عن اتِّصالها في هذا الوقت المتأخِّر، أغلقتِ الخطّ. أغلقتُ الخطَّ أنا أيضًا، ونظرتُ

إلى انعكاس صورتي في الزجاج مرَّةً أخرى. ثم خطر لي أنَّني قد لا أتحدَّث مع مالطا كانو مرَّةً أخرى أبدًا. قد يكون هذا آخرَ تواصلٍ لي معها. قد تختفي من حياتي إلى الأبد. لم يكن لديَّ سبب يدعوني إلى التفكير في ذلك. كان مجرَّد شعور.

*

فجأةً لاح لي السلّم. كنتُ قد تركتُه معلَّقًا في البئر. كلَّما أسرعتُ في إحضاره كان أفضل. فقد تطرأ مشكلاتٌ لو وجده أحدُهم هناك. ثم إنَّ كريتا كانو اختفت، وكنتُ قد رأيتها آخر مرَّة عند البئر.

وضعتُ المصباح في جيبي، وارتديتُ حذائي، ومشيتُ إلى الحديقة ثم تسلَّقت الجدار من جديد. مررتُ بالزقاق إلى البيت الخالي. كان منزل مايو كاساهارا مظلمًا. عقاربُ ساعتي تقترب من الثالثة صباحًا. دخلتُ فناءَ البيت الخالي وتوجَّهتُ مباشرةً إلى البئر. كان السلّم ما يزال مربوطًا بجذع الشجرة ومعلَّقًا في البئر التي ما تزال نصفَ مفتوحة.

شيءٌ ما دفعني إلى أنْ أنظر في البئر وأُنادي كريتا كانو بصرخة ضعيفة. لم أسمع ردًّا. أخرجتُ المصباح ووجَّهته إلى الأسفل. لم يصل شعاعُ المصباح إلى القاع، لكنَّني سمعتُ صوتَ تأوُّه. ناديْتُ باسمها مرَّة أخرى.

قالت كريتا كانو: «لا تقلقْ، أنا هنا».

فسألتُها بصوت خفيض: «وما الذي تفعلينه في مكانٍ كهذا؟»

ردَّت بنبرة حائرة: «ماذا أفعل؟ أفعلُ مثلما كنتَ أنت تفعل

سيِّد أوكادا. أفكِّر. إنَّه بالفعل المكان الأنسب للتفكير، أليس كذلك؟»

«آه، نعم. أظنّ ذلك. لكنَّ أختك اتَّصلت بي في البيت قبل قليل. إنَّها قلقة جدًّا عليكِ. نحن الآن بعد منتصف الليل ولم تعودي إلى البيت، وتقول إنَّها لا تحسّ بوجودك. طلبتْ منِّي أن أتواصل معها مباشرةً إنْ رأيتُكِ».

«أها. أشكرَك إذن على تجشُّم العناء إلى هنا».

«لا شكر على واجب، كريتا كانو. هلَّا خرجتِ من هناك؟ أريد التحدُّث معك».

لم تردّ.

أطفأتُ مصباحي وأعدتُه إلى جيبي.

«لمِ لا تنزلْ إلى هنا سيِّد أوكادا؟ يمكننا أن نجلس هنا ونتحدَّث».

قلتُ في نفسي إنَّها ليست فكرة سيِّئة أنْ أنزل في البئر من جديد وأتحدَّثَ مع كريتا كانو، لكنَّني فكَّرت في الظلمة العفنة في قاع البئر فأحسستُ بشيء ثقيل في معدتي.

«آسف، لكنَّني لن أنزل مرَّةً أخرى. والأفضل أن تخرجي أنتِ أيضًا. قد يسحب أحدُهم الحبلَ ثانيةً. والهواء هناك راكد عفن».

«أعلمُ ذلك، لكنَّني أريد الجلوس قليلًا هنا. لا تشغلْ بالك بي».

لم يكن بالإمكان فعل شيء ما دامت لا تنوي الخروج من البئر.

«حين تحدَّثتُ مع أختك في الهاتف لم أقل لها إنَّني رأيتكِ هنا. أرجو ألَّا أكون قد أسأتُ التصرُّف. شعرتُ لحظتها أنَّه من الأفضل ألَّا أقول شيئًا».

«معك حقّ. أرجو ألَّا تُخبر أختي أنَّني هنا». ثم أضافت بعد لحظة: «لا أريدها أن تقلق عليَّ، وأحتاج أنا أيضًا إلى فرصةٍ لأُفكِّر أحيانًا. سأخرج فور أن أنتهي. من فضلك أودّ الآن أن أجلس بمفردي، إنْ سمحتَ. لن أسبِّب لكَ أيَّ متاعب».

قرَّرتُ أن أتركها وأعود إلى البيت. يمكنني الرجوع في الصباح للاطمئنان عليها. فلو سحبتْ مايو كاساهارا الحبلَ من جديد، فسيمكنني أن أساعد كريتا كانو وأُخرجَها بطريقةٍ أو بأخرى. عدتُ إلى البيت وبدَّلتُ ملابسي وتمدَّدتُ على السرير. أمسكتُ بالكتاب الذي كنتُ أقرأ فيه، وفتحته. لم أستطع أن أنام مباشرةً لفرط توتُّر أعصابي، لكنَّني ما إنْ قرأتُ صفحتيْن حتى نعست. أغلقت الكتاب، وأطفأت الأضواء، ورحتُ في نومٍ عميق.

*

حين استيقظتُ كانت الساعة تُشير إلى التاسعة والنصف صباحًا. ولمَّا كنتُ قلقًا على كريتا كانو فقد ارتديتُ ملابسي من دون أن أغسل وجهي، وهرعتُ في الزقاق إلى البيت الخالي. كانت الغيوم أدنى إلى الأرض، في حين كان هواءُ الصباح المشبَّع بالرَطوبة يُنذر بالمطر في أيِّ لحظة. لم يكن السلّم في البئر. لا بدَّ من أنَّ أحدًا حلَّ وثاقه من جذع الشجرة وحمله إلى مكان آخر. كان نصفا الغطاء في مكانهما، وعلى كلِّ نصفٍ حجر.

فتحتُ نصفًا واحدًا ونظرتُ في البئر، وناديْتُ كريتا كانو. لم يأتني جواب. جرَّبتُ بضع مرَّات أخرى، ورحتُ أنتظر أيّ جواب. قلتُ في نفسي قد تكون نائمة، فألقيتُ ببضع حَصَيات، ولكنْ بدا لي أنَّه لم يعد هناك أحد في قاع البئر. لا بدَّ من أنَّ كريتا كانو خرجتْ من البئر عندما حلّ الصباح ثم فكَّت السلَّمَ وأخذتْه معها. فأعدتُ الغطاء إلى مكانه وابتعدتُ عن البئر.

لمَّا عدتُ إلى الزقاق استندتُ على سور البيت الخالي أنظر إلى منزل مايو كاساهارا. خطر لي أنَّها قد تراني كما تفعل دائمًا فتخرج، لكنَّها لم تأتِ. كلّ ما حولي كان غارقًا في الصمت. فلا بشر، ولا أصوات من أيِّ نوع، ولا حتى صوت سيكادا. أزجيتُ الوقت في حفر الأرض بطرف حذائي. كان هناك شيء مختلف في الحيّ، شيء غير مألوف، كما لو أنَّه في الفترة التي قضيْتُها في البئر حلّ واقعٌ جديدٌ محلَّ الواقع القديم لهذا المكان. كنتُ قد بدأتُ أشعر بهذا الشعور القويّ منذ أن خرجتُ من البئر وعدتُ إلى البيت.

مشيتُ عائدًا إلى البيت، فدخلتُ الحمَّام وفركتُ أسناني. كان شعرُ ذقني قد نما أكثر، فبدوتُ مثل ناجٍ من سفينة جانحة. كانت هذه أوَّلَ مرَّة في حياتي أترك فيها شعرَ ذقني ينمو إلى هذا المستوى. فكَّرتُ قليلًا في ترك لحيتي تكبر، ثم قرَّرتُ أن أحلقها بعد لحظات. لسببٍ لا أعرفه بدا لي أنَّ من الأفضل أن أحتفظ بوجهي كما كان حين رحلتْ كوميكو.

بلَّلتُ وجهي بمنشفة ساخنة، ثم وضعت معجونَ الحلاقة. وبدأت أحْلق ببطء وعناية، كي لا أجرح نفسي. حلقت الذقنَ

أوَّلًا، ثم الخدَّ الأيسر، فالأيمن. فلمَّا أوشكتُ على الانتهاء من الخدِّ الأيمن شهقتُ ممَّا رأيتُ في المرآة: بقعة زرقاء مسودَّة. ظننتُ للوهلة الأولى أنَّني لطَّختُ وجهي بشيء ما عن طريق الخطأ، فمسحتُ ما بقي من معجون الحلاقة، وغسلتُ وجهي بالماء والصابون، وفركتُ مكانَ البقعة بقميص داخليّ. لكنَّ البقعة لم تختفِ. بدا أنَّها اخترقت بشرتي واستقرَّت عميقًا. لمستُها بإصبعي، فلم أجد فرقًا بينها وبين بقيَّة وجهي سوى أنَّها أسخنُ قليلًا. كانت علامة. علامة في وجهي في المكان نفسه الذي أحسستُ فيه بالحرارة حين كنتُ في البئر.

قرَّبتُ وجهي من المرآة وتفحَّصتُ العلامةَ بعناية. كانت تحت عظمة الخدّ الأيمن، وفي حجم راحة يد مولودٍ صغير. أمَّا لونها الأزرق فكان يميل إلى السواد، مثل الحبر الأزرق ـ المسودّ الذي تستخدمه كوميكو.

ثمَّة تفسير مُحتمل وهو أن يكون هذا نتيجةَ حساسيَّةٍ ما. فربَّما لمستُ شيئًا في البئر أثار بشرتي، كما يفعل الورنيش. ولكنْ أيُّ شيء في قاع البئر يمكنه أن يُسبِّبَ ذلك؟ كنتُ قد تفحَّصتُ كلّ زاوية وصدع في المكان بمصباحي، ولم أجد سوى القاعِ الترابيّ والجدارِ الإسمنتيّ. كما أنَّ الحساسيَّات لا تترك علاماتٍ واضحةً كهذه.

اعترِاني ذعر طفيف. ففقدتُ إحساسي بالاتِّجاه بضعَ لحظات، كما يحدث حين تجتاحكَ موجةٌ هائلةٌ على الشاطئ وتسحبك بعيدًا. سقط القميصُ من يدي، واصطدمتُ بسلَّة المهملات ودستُ على شيء ما، وأنا أدمدم بحروفٍ لا معنى لها. ثم

استطعتُ أن أستعيد توازني، فانحنيتُ على المغسلة وبدأتُ أفكِّر بهدوء في التعامل مع هذه الحقيقة.

أفضل ما يمكنني فعلُه الآن هو الانتظار. يمكنني الذهابُ إلى طبيب لاحقًا. قد تكون حالة عارضة، ستختفي من تلقاء نفسها، مثل اهتياج البشرة. ولأنَّ العلامة تكوَّنتْ في بضعة أيَّام، فقد تختفي في بضعة أيَّام أيضًا. ذهبتُ إلى المطبخ وأعددتُ لنفسي قهوة. كنتُ جائعًا، لكنَّني كلَّما حاولتُ أن آكل شيئًا توارت شهيَّتي كالسراب.

تمدَّدتُ على الأريكة وأخذتُ أنظر إلى المطر الذي بدأ يتساقط. كنتُ بين الفينة والأخرى أذهب إلى الحمَّام وأنظر في المرآة، فلا أرى أيَّ تغيير في العلامة. لقد صبغتْ جزءًا من وجنتي بلونٍ أزرقَ داكنٍ عميق (يكاد يكون جميلًا).

لا يخطر في بالي سوى شيء واحد يمكن أن يكون السببَ في ذلك، وهو عبوري من الجدار في ذلك الوهم الذي يشبه الحلم، حين كانت امرأةُ الهاتف تقودني من يدي. فقد سحبتني عبر الجدار كي نهرب من ذلك الشخص الخطير الذي فتح البابَ وكان قادمًا نحونا. في اللحظة التي عبرتُ فيها الجدار أحسستُ بتلك الحرارة في وجنتي، في المكان الذي ظهرتْ فيه العلامة. لكنَّني بطبيعة الحال لا أعرف العلاقة السببيَّة بين عبوري من الجدار وظهورِ العلامة على وجهي.

كان الرجلُ العديمُ الوجهِ قد تحدَّث إليَّ في بهو الفندق. «ليس هذا هو الوقت المناسب. لا مكان لك هنا الآن». لكنَّني

تجاهلتُ تحذيره ومضيتُ في طريقي. كنتُ غاضبًا من نوبورو واتايا، وغاضبًا من حَيرتي. ربَّما بسبب هذا ظهرتْ لي العلامة.

وقد تكون العلامة دمغةً تركها ذلك الحلمُ أو التوهُّمُ الغريب. كأنَّهم يقولون لي من خلال العلامة: **لم يكن ذلك حلمًا. لقد وقع بالفعل. وكلَّما نظرتَ إلى المرآة سوف تتذكَّره رغمًا عنك.**

هززتُ رأسي. ما تزال هناك أشياء كثيرةٌ غامضة. أمَّا الشيء الأكيد فهو أنَّني لم أفهم شيئًا. بدأ رأسي ينبض، ولم أعد قادرًا على التفكير. لم أشعر برغبة في فعل شيء. فأخذتُ رشفةً من القهوة الدافئة وواصلتُ النظر إلى المطر.

*

في عصر ذلك اليوم اتَّصلتُ بخالي. كنتُ في حاجة إلى التحدُّث مع أحد (أيًا يكن) عن هذا الشعور الذي راودني بأنَّني أُنزع من عالم الواقع.

فلمَّا سألني عن كوميكو قلتُ له إنَّها بخير، وهي في رحلة عمل قصيرة. كان يمكنني أن أُخبره بما حدث فعلًا، ولكنْ من المستحيل وضعُ الأحداث الأخيرة في ترتيب منطقيٍّ مفهوم. أنا نفسي لم أستوعب ما حدث، فكيف لي أن أشرَحه لشخصٍ آخر؟ قرَّرت أن أُخفي الأمرَ عنه في الوقت الحاليّ.

سألته: «كنتَ تسكن في هذا البيت، أليس كذلك؟»

«بلى. لمدَّة ستّ سنوات أو سبع. لحظة... اشتريتُ هذا البيت حين كنتُ في الخامسة والثلاثين من عمري، وسكنتُ فيه إلى أن بلغتُ الثانية والأربعين. سبع سنوات. ثم انتقلتُ إلى

منزلي الحاليّ حين تزوَّجت. أمَّا ذلك البيت فقد سكنت فيه وحدي».

«كنت أريد أن أسألك، هل حدث لك مكروه حين كنت هنا؟»

«مكروه؟ مثل ماذا؟»

«مثل مرضٍ ما أو انفصال عن امرأة مثلًا».

ضحك خالي من قلبه. «الأكيد أنَّني انفصلتُ عن أكثر من امرأة، ولكنْ ليس في ذلك البيت فقط. لا يمكنني أن أعتبر هذا مكروهًا، فلم يكن من بينهنَّ مَنْ ندمتُ على الانفصال عنها إنْ شئت الصدق. أمَّا عن المرض... هممم. فلا، لا أظنّ ذلك. كانت لديَّ عقدةٌ ظهرتْ في قفاي، هذا كلّ ما أذكره. الحلّاق هو الذي رآها، ونصحني بإزالتها، فذهبتُ إلى الطبيب، لكنَّ الأمر لم يكن خطيرًا. تلك هي المرَّة الأولى والأخيرة التي ذهبت فيها إلى الطبيب أثناء سكني في ذلك البيت. لا بدَّ من أن أحصل على تخفيض على تأميني الصحّيّ!»

«إذن لا توجد أيّة ذكريات سيّئة لك في هذا المكان؟»

قال خالي بعد لحظة تفكير: «لا، أبدًا. ولكنْ لماذا تسأل هذه الأسئلة الآن؟»

«لا شيء. زارت كوميكو عرّافًا فملأ رأسَها بحكايات عن هذا البيت. إنَّه سيِّئُ الطالع وما إلى ذلك. أنا لا أصدِّق هذا الكلام الفارغ، لكنَّني وعدتُها أن أسألك عن الأمر».

«أها. أظنّ أنَّهم يسمُّون ذلك «مَلامح البيت». لا أعرف شيئًا

عن هذه الأمور، لكنَّني عشتُ في ذلك البيت وانطباعي عنه أنَّه جيِّد ولا مشكلة فيه. أمَّا بيت مياواكي فله قصَّة أخرى طبعًا. لكنَّك بعيد عنه».

«من سكن هذا البيت بعدك؟»

«بعدي أنا. . سكن معلِّمٌ وأسرتُه في البيت ثلاث سنوات، ثم زوجان شابَّان سكناه خمسَ سنوات. كان لديهما مشروعٌ ما، لكنَّني لا أذكره. طبعًا لا أستطيع الزعم أنَّ كلّ من عاش في البيت كان سعيدًا. كان لديَّ وكيلٌ عقاريٌّ هو الذي يُدير شؤونَ البيت. لم ألتقِ هؤلاء الناس قطّ، ولا أعرف لماذا انتقلوا من البيت، لكنَّني لم أسمع عن مكروه حدث لهم. أفترضُ أنَّهم بعد فترة أرادوا مكانًا أوسع، أو شيئًا كهذا».

«ذات مرَّة أخبرني أحدهم أنَّ تدفُّق البيت مكبوت. هل لديك فكرةٌ عن الأمر؟»

«التدفُّق مكبوت؟»

«لا أعرف معنى ذلك. لكن هذا ما قيل لي».

فكَّر خالي قليلًا ثم قال: «لا، لا شيء يخطر في بالي. ولكنْ ربَّما سَدُّ الزقاق لم يكن فكرةً حكيمة. بصراحة، من الغريب أن يكون هناك طريقٌ بلا مدخل أو مخرج. فالمبدأ الأساس للطرق والأنهار وما إلى ذلك هو أن تتدفَّق. فإنْ سَدَدْتها أصبحتْ راكدة».

«فهمت. هناك شيء آخر أريد أن أسألكَ عنه. هل سبق أن سمعتَ صيحة طائر الزنبرك في الحيّ؟»

«ماذا؟ ما طائر الزنبرك؟»

فحدَّثتُه عن طائر الزنبرك وكيف جاء إلى الشجرة ذاتَ يوم وأحدث تلك الصيحةَ التي تُشبه لفَّ الزنبرك.

«هذا شيء جديد. لم أرَ أو أسمعْ شيئًا كهذا. أنا أحبّ الطيور، وكنتُ أحرص على الاستماع إلى تغريدها، لكنَّني لم أسمع قطّ عن شيء شبيه. هل تقصد أنَّ له علاقةً بالبيت؟»

«لا. كنت فقط أتساءل إنْ سمعتَ عنه».

«إنْ كنت تريد حقًّا دقائقَ هذه الأمور، مثل الناس الذين سكنوا هناك وما إلى ذلك، فعليكَ بالعجوز السيِّد إتشيكاوا، الوكيل العقاريّ مقابل المحطَّة. مكتب «سيتاغايا داي إتشي للعقارات». قل له إنَّك من طرفي. كان يُدير شؤونَ بيتي سنوات، ويعيش في ذلك الحيّ منذ سنوات طويلة جدًّا، لذلك قد يُجيبك عن كلِّ ما تريد معرفَته. هو الذي أخبرني عن بيت مياواكي. وهو من كبار السنِّ الذين يحبُّون التحدُّث مع الآخرين. لا بدَّ من أن تُقابله».

«سأُقابله إذن. شكرًا».

«كيف يسير بحثُكَ عن العمل؟»

«لا شيء حتى الآن. بصراحة لم أبذل جهدًا كبيرًا. كوميكو تعمل، وأنا أعتني بالبيت، والأمور تسير على ما يرام في الوقت الحاليّ».

بدا وكأنَّه يفكِّر في شيء بضع لحظات، ثم قال: «أخبرْني حين تصل الأمورُ إلى وضع صعب. قد أتمكَّن من مساعدتك».

«شكرًا لك. سأفعل». وهنا انتهى حوارُنا.

فكَّرتُ في الاتِّصال بالوكيل العقاريّ وسؤاله عن البيت والناس الذين سكنوه، ولكنْ بدا لي من السخف مجرَّدُ التفكير في هذا الكلام الفارغ. فقرَّرتُ أن أنسى الأمر.

استمرَّ هطولُ المطر خفيفًا طوال العصر، فبلَّل أسقفَ البيوت وأشجارَ الأفنية، والأرض. تناولتُ خبزًا محمَّصًا وحساءً على الغداء، وقضيتُ العصر على الأريكة. كنتُ أريد الخروجَ للتسوُّق، لكنَّني تردَّدتُ بسبب العلامة على وجهي. ندمتُ لأنَّني حلقتُ ذقني. ما تزال لديَّ بعضُ الخضروات في الثلَّاجة، وبعضُ المأكولات المعلَّبة. ولديَّ رزّ وبيض. لديَّ إذن ما يكفي ليوميْن أو ثلاثة من الوجبات المتواضعة.

لم أُفكِّر في شيء وأنا مستلقٍ على الأريكة. قرأتُ في كتاب، واستمعتُ إلى موسيقى كلاسيكيَّة، وحدَّقتُ في المطر المنهمر. لقد وصلتْ قدراتي التأمُّليَّة حدَّها الأدنى، ربَّما بسبب التركيز الطويل في قاع البئر. فحين أُحاول أن أُفكِّر في شيء أشعر بألم في رأسي كما لو أنَّه محشور بين فكَّيْ ملزمة. وكلَّما حاولتُ أن أتذكَّر شيئًا أحسّ بأنَّ صريرًا يخرج من عضلاتي وأعصابي من أثر المحاولة. شعرتُ أنَّني تحوَّلت إلى رجل الصفيح في رواية ساحر أوز العجيب، فقد صدأتْ مفاصليَ وأصبحتْ في حاجة إلى تزييت.

كنتُ بين الحين والآخر أذهب إلى الحمَّام وأتفحَّص العلامةَ على وجهي، لكنَّها ظلَّت كما هي: لا هي انتشرتْ، ولا هي

تقلَّصتْ. لونها أيضًا لم يشتدّ ولم يخفّ. لاحظتُ أنّني، بسبب ربكتي حين اكتشفت العلامة، نسيتُ أن أحلق بعضَ الشُعَيْرات فوق شفتي. غسلتُ وجهي مرَّةً أخرى ووضعتُ معجونَ الحلاقة، وحلقتُ الشعر المتبقِّي.

وبينما كنتُ أروح وأغدو إلى المرآة، فكَّرتُ في ما قالته مالطا كانو على الهاتف: إنَّه ينبغي ألَّا أستهين بالأمر، وأنَّنا أصبحنا نعتقد أنَّ صورتنا في المرآة صحيحة. لذلك ذهبتُ إلى غرفة النوم ونظرتُ إلى وجهي في المرآة الطويلة التي كانت تستخدمها كوميكو لارتداء ملابسها. لكنَّ العلامة ما تزال في مكانها. لم يكن وهمًا ناتجًا من المرآة الأخرى.

لم ألحظ أيَّ تغيّر جسدي باستثناء تلك العلامة. قِستُ حرارتي، فوجدتُها عاديَّة. كان جسدي طبيعيًّا تمامًا، باستثناء الشعور ببعض الجوع، ونوباتِ الغثيان الطفيف (الذي قد يكون استمرارًا لِما شعرتُ به في قاع البئر).

انقضى عصرُ اليوم في هدوء. لم يرنّ الهاتف، ولم تصل رسائلُ جديدة، ولم يأتِ أحدٌ من الزقاق، ولم تكن هناك أصواتُ جيران. لا قطط عبرت الحديقة، ولا طيور جاءت وغرّدت. كانت تأتي حشرةُ سيكادا بين الوقت والآخر، لكنَّ صوتَها لم يكن حادًّا كعادته.

بدأتُ أشعر بالجوع قُبَيْل الساعة السابعة، فأعددتُ عشاءً من المعلَّبات والخضروات. استمعتُ إلى أخبار المساء على الإذاعة لأوَّل مرَّة منذ فترة طويلة، ولكنْ لا شيء مميَّزًا حدث في العالم. تُوفِّي بضعة مراهقين في حادث سير على الطريق السريع حين حاول

سائقُ السيَّارة أن يتجاوز سيَّارةً أخرى. أُحيل مديرُ بنكٍ وبعضُ الموظَّفين على التحقيق بسبب قرضٍ ماليّ منحوه بطريقة غير قانونيَّة. ربَّةُ بيتٍ من ماشيدا تبلغ من العمر ستَّةً وثلاثين عامًا تعرَّضتْ للضرب بمطرقة حتى الموت من شابّ في الشارع. لكنَّ هذه الأحداث كلَّها من عالم آخر. الشيء الوحيد الذي كان يحدث في عالمي هو أنَّ المطر يتساقط على الفِناء. خفيفًا، دون صوت.

عند التاسعة مساءً انتقلتُ من الأريكة إلى السرير، وبعد أن قرأتُ فصلًا من الكتاب الذي كنتُ أقرأه، أطفأتُ الأضواءَ ونمت.

استيقظتُ في منتصف شيء يشبه الحلم. لم أستطع أن أتذكَّر ما كان يحدث في الحلم، ولكنْ يبدو واضحًا أنَّه كان مليئًا بالتوتُّر؛ فقد كان قلبي يخفق بقوَّة. كانت الغرفة ما تزال مظلمة. ظللتُ فترة بعد استيقاظي لا أذكر أين أنا، ثم أدركتُ أنَّني في بيتي، على سريري. كانت عقاربُ الساعة تشير إلى ما بعد الثانية صباحًا. لعلَّ نومي المضطرب في البئر هو السببُ في إفساد نظام نومي. فلمَّا تبخَّرتْ حيرتي أحسستُ بالحاجة إلى التبوُّل. ربَّما بسبب البيرة التي شربتُها. كنتُ أفضِّل إكمالَ نومي، لكنَّني كنتُ مضطرًّا. حين أقنعتُ نفسي وجلستُ على السرير، مرَّت يدي على جسم شخصٍ ينام إلى جواري. لم يكن هذا غريبًا، فهو المكان الذي كانت تنام فيه كوميكو دائمًا. كنتُ معتادًا النومَ بجوار أحد. لكنَّني أدركتُ حينها أنَّ كوميكو لم تعد موجودةً معي. لقد رحلت. **شخصٌ آخر ينام إلى جواري.**

حبستُ أنفاسي وأشعلتُ الضوء. كانت كريتا كانو.

13

تتمَّة قصَّة كريتا كانو

كانت كريتا كانو عاريةً تمامًا، مستلقيةً على السرير وهي نائمة تواجهني، من دون أيّ ملابس ولا حتى غطاء، كاشفةً عن نهديْن جميليْن، وحلمتيْن ورديَّتيْن صغيرتيْن، وبطن مسطَّح، وشعرِ عانةٍ مهذَّبِ الأطراف في شكل مثلَّث، كمساحةٍ مظلَّلة في رسم. كان جسمُها شديدَ البياض، وفيه وهجٌ جديد. ورغم حيرتي في تفسير وجودها هنا، إلَّا أنَّني ظللتُ أحدّق في جسمها الجميل. كانت ركبتاها ملتصقتيْن مع ميلان قليل، وساقاها متوازيتيْن تمامًا. شعرها قد انسدل فوق وجهها فغطَّى نصفَه، فلم أستطع أن أرى عينيْها، لكنَّها بالتأكيد كانت نائمة. لم ترتعش قيدَ أنملة حين أشعلتُ الضوء، وظلَّتْ تتنفَّس بانتظام وهدوء. استيقظتُ تمامًا

الآن. أخرجتُ ملاءة صيفيَّة خفيفة من الخزانة ووضعتُها عليها، ثم أطفأتُ الضوء، وذهبتُ إلى المطبخ كي أجلس إلى الطاولة قليلًا.

تذكَّرتُ العلامة. ما تزال تلك البقعة على خدِّي دافئةً حين لمستُها. ما تزال موجودة إذن، فلا حاجة بي إلى النظر في المرآة. لم تكن من تلك الأشياء البسيطة التي تختفي من تلقاء نفسها بين يوم وليلة. فكَّرتُ في البحث عن طبيب أمراض جلديَّة في دليل الهاتف، ولكنْ بِمَ أجيب الطبيبَ إنْ سألني عن السبب؟ كنتُ في بئر يومَيْن أو ثلاثة. لا، لا علاقة للأمر بالعمل. كنتُ فقط أُفكِّر هناك. تصوَّرتُ أنَّ قاع البئر سيكون مكانًا ملائمًا للتفكير. لا، لم آخذ أيَّ طعام معي. لا، البئر ليست في بيتي، بل في بيتٍ آخر. بيتٍ خال في الحيّ. دخلتُه من دون إذن.

تنهَّدت. لا يمكن طبعًا أن أقول هذا لأيِّ شخص.

أسندتُ مرفقيَّ على الطاولة، ووجدتُ نفسي أُفكِّر في جسد كريتا كانو العاري بكلِّ تفاصيله. كانت نائمةً على سريري. فكَّرتُ في تلك المرَّة حين مارستُ معها الجنسَ في حلمي وهي ترتدي فستانَ كوميكو. ما يزال لديَّ إحساس واضح بملمس بشرتها، وثقلها فوقي. لكنَّني من دون تمحيص دقيق لخطوات تلك الحادثة لن أستطيع تحديدَ النقطة التي انتهى فيها الحقيقيُّ ليبدأ غيرُ الحقيقيّ. فالجدار العازل بين المنطقتَيْن قد بدأ يذوب. في ذاكرتي على الأقلِّ بدا الحقيقيّ وغيرُ الحقيقيّ متجاورَيْن بالوضوح نفسه والقوَّة نفسها. لقد ضاجعتُ كريتا كانو، لكنَّني في الوقت نفسه لم أُضاجعْها.

وكي أُفرِغ رأسي من هذه الصور الجنسيَّة المشوَّشة، ذهبتُ إلى المغسلة ورششتُ ماء باردًا على وجهي. بعد قليل ذهبتُ أتفقَّد كريتا كانو. كانت ما تزال غارقةً في نوم عميق، وقد دفعتِ الملاءةَ إلى خصرها. من مكاني هنا كنتُ لا أرى إلَّا ظهرها. فذكَّرني هذا بآخر ما شاهدتُه من ظهر كوميكو. وفجأةً أدركتُ أنَّ قوام كريتا كانو كان شبيهًا جدًّا بقوام كوميكو. لم ألحظ هذا التشابهَ إلَّا الآن بسبب الاختلاف الكبير بينهما في الشعر والملبس والمكياج. كان لهما الطولُ نفسه، والوزنُ نفسه كما يبدو. ربَّما ترتديان مقاسَ الملابس نفسه.

حملتُ بطَّانيَّتي الصيفيَّة إلى الصالة، وتمدَّدتُ على الأريكة وأخذتُ أقرأ. كنتُ أقرأ كتابًا تاريخيًّا استعرتُه من المكتبة عن الإدارة اليابانيَّة لمنشوريا قبل الحرب، والمعركة مع السوفييت في نومونهان. كانت قصَّة الملازم ماميا قد أثارت اهتمامي بشؤون تلك الفترة، فاستعرتُ عدَّة كتب في هذا الموضوع. ومع ذلك فلم ألبث سوى عشر دقائق في قراءة الكتاب حتى نعست. وضعتُ الكتاب على الأرض، كي أريح عينيَّ قليلًا، لكنَّني رحتُ في نوم عميق رغم أنِّي لم أطفئ الأضواء.

أيقظني صوتٌ من المطبخ. حين ذهبتُ أتبيَّن مصدرَ الصوت وجدتُ كريتا كانو تُعِدُّ إفطارًا، وترتدي قميصًا أبيض مع سروالٍ أزرقَ قصير. كلاهما من ملابس كوميكو.

سألتُها وأنا واقف عند باب المطبخ: «أين ملابسكِ؟»

قالت وهي تُدير رأسها نحوي: «أوه، أنا آسفة. كنتَ نائمًا،

فسمحت لنفسي باستعارة ملابس زوجتك. أعلمُ أنَّ هذا من قلَّة الذوق، ولكنْ لم يكن لديَّ أيُّ شيء ألبسه». كانت قد عادت إلى موضة الستِّينيَّات منذ أن رأيتُها آخر مرَّة، باستثناء الرموش الاصطناعيَّة.

قلت: «لا بأس. ما أريد معرفتَه هو أين ذهبتْ ملابسُكِ».

قالت: «فقدتُها».

«فقدتِها؟»

«نعم، فقدُتها في مكانٍ ما».

دخلتُ المطبخ، واستندتُ إلى الطاولة وأنا أراقب كريتا كانو وهي تُعدّ بيضًا مقليًّا. بحركات رشيقة كسرت البيضَ وأضافت بعضَ البهارات ثم مزجت الخليط.

«تقصدين أنَّكِ أتيتِ إلى هنا عاريةً؟»

«نعم هذا صحيح». قالت الجملة وكأنَّ الأمر طبيعيّ جدًّا. «كنتُ عارية تمامًا. أنت تعرف ذلك سيِّد أوكادا، فأنتَ الذي غطَّيتني بالملاءة».

«صحيح. ولكنْ ما أُريد معرفته هو أين وكيف فقدتِ ملابسَكِ، وكيف استطعتِ الوصولَ إلى هنا من دون أن ترتدي شيئًا».

ردَّت وهي تحرِّك المقلاة كي تطوي قرصَ البيض: «لا أعلم أكثر ممَّا تعلم».

«لا تعلمين أكثر ممَّا أعلم!»

وضعتْ كريتا كانو قرصَ البيض في صحن وزيَّنته بأعواد من

البروكولي المغليَّة. كما أعدَّت بعضَ الخبز المحمَّص ووضعتْه على الطاولة مع القهوة. وضعتُ أنا الزبدةَ والملحَ والفلفلَ على الطاولة، ثم جلستُ معها متقابليْن نتناول الفطور كزوجيْن جديديْن.

حينها تذكَّرتُ علامتي. لم يبدُ على كريتا كانو أيَّ تعجُّبٍ حين نظرتْ إليَّ، ولم تسألني عنها. مددت يدي ألمس العلامة فوجدتُها دافئةً قليلًا كما كانت.

«هل تؤلمك سيِّد أوكادا؟»

«لا، أبدًا».

حملقتْ في وجهي وقالت: «تبدو كأنَّها علامة».

«أنا أيضًا أعتقد أنَّها علامة. لا أدري ما إنْ كان ينبغي أنْ أستشير طبيبًا».

«تبدو لي من الأشياء التي لن يستطيع الطبيبُ أن يُعالجها».

«قد تكونين على حقّ. ولكنْ لا أستطيع أن أتجاهل الأمر».

فكَّرتْ كريتا كانو لحظةً وهي ممسكة بشوكة. «إنْ كنتَ بحاجة إلى بعض الأغراض أو شيء كهذا، فيمكنني أن أقوم بذلك بدلًا منك. يمكنك البقاءُ في البيت قدر ما تشاء إنْ لم ترد الخروج».

«ممتنٌّ للطفك، ولكنْ لا بدَّ أنَّ لديك مشاغلك، ولا يمكنني أن أحبسَ نفسي هنا إلى الأبد».

فكَّرتْ قليلًا ثم قالت: «ربَّما مالطا كانو تستطيع التعامل مع هذا الأمر».

«هل يمكنكِ الاتِّصالُ بها من فضلك؟»

ردَّت كريتا كانو وهي تقضم قطعةً من البروكولي: «مالطا كانو تتصل بالآخرين لكنَّها لا تسمح للآخرين بالاتِّصال بها».

«ولكنْ أنتِ تستطيعين الاتِّصالَ بها، أليس كذلك؟»

«بلى طبعًا. أنا أختها».

«إذن، حين تتحدَّثين إليها في المرَّة القادمة اسأليها عن العلامة في وجهي. أو اطلبي منها أن تتَّصل بي».

«اعذرني، لكنَّني لا أستطيع فعل ذلك. من غير المسموح لي أن أتحدَّث مع أختي نيابةً عن شخص آخر. هذه قاعدة بيننا».

تنهَّدتُ وأنا أدهن الخبز بالزبدة. «هل تقصدين أنَّني إذا احتجتُ إلى الحديث مع مالطا كانو، فكلُّ ما يمكنني فعلُه هو انتظار أن تتَّصل هي بي؟»

«بالضبط». ثم هزَّت رأسها وقالت: «ولكنْ في ما يخصّ هذه العلامة، أنصحُكَ أن تنساها لفترة ما دامت لا تسبِّب لك ألمًا أو حكَّة. شخصيًّا لا أسمح لأشياءَ كهذه أن تُزعجَني. ولا يجدر بك أن تسمح لها بإزعاجك سيِّد أوكادا. هذه الأشياء تحدث أحيانًا».

«ربَّما».

بعد ذلك مضينا نتناول فطورَنا في صمت عدَّة دقائق. لم أتناول فطوري مع شخص آخر منذ مدَّة، وهذا الفطور بالتحديد كان لذيذًا. بدت كريتا كانو سعيدةً حين أخبرتُها بذلك.

قلتُ لها: «على أيَّة حال، في ما يخصّ ملابسك...».

فقالت باهتمام واضح: «هل يزعجك أنَّني ارتديتُ ملابس زوجتك من دون استئذان؟»

«لا، أبدًا. لا يهمّني ما ترتدين من ملابس كوميكو. لقد تركتْها هنا. ما يهمّني هو كيف فقدتِ ملابسَكِ».

«وحذائي أيضًا».

«كيف حدث هذا؟»

«لا أذكر. كلّ ما أعرفه هو أنَّني استيقظتُ وأنا في سريرك بلا ملابس. لا أذكر ما حدث قبل ذلك».

«لكنَّكِ نزلتِ في البئر بعد أن خرجتُ أنا. أليس كذلك؟»

«نعم، أذكر هذا. ونمتُ هناك. لكنَّني لا أذكر أيّ شيء بعد ذلك».

«لا تذكرين أيّ شيء عن خروجِكِ من البئر؟»

«لا شيء أبدًا. ثمَّة فجوةٌ في ذاكرتي». رفعتْ كريتا كانو سبَّابتيْها وباعدت بينهما عشرين سنتيمترًا تقريبًا. لكنَّني لم أفهم كم يُفترض أن يساوي هذا بمقدار الزمن.

«معنى هذا أنَّكِ لا تذكرين ما فعلتِه بالسلّم أيضًا. هل تعرفين أنَّه اختفى؟»

«لا أعرف أيّ شيء عن السلّم. بل إنَّني لا أذكر إنْ استخدمُته للخروج من البئر».

حدَّقتُ في كوب القهوة الذي في يدي بعض الوقت. «هل تمانعين لو أرى قاعَ قدميْكِ؟»

«لا طبعًا لا أمانع». جلستْ في الكرسيّ الذي بجانبي ومدَّت ساقيْها باتِّجاهي. أمسكتُ بكاحليْها وتفحَّصتُ أخمص قدميْها. كانا نظيفيْن. لا وجود لأيٍّ أثر على قدميْها الجميلتيْن. لا جروح ولا طين، لا شيء على الإطلاق.

«لا جروح، ولا طين».

«أها».

«كان المطر يتساقط باستمرار بالأمس. لو أنَّكِ فقدتِ حذاءكِ في مكانٍ ما ومشيتِ، لتلطَّختْ قدماكِ بالطين. ولا بدَّ من أنَّكِ دخلتِ عن طريق الحديقة. لكنَّ قدميْكِ نظيفتان، ولا أثر للطين في أيِّ مكان».

«أها».

«وهذا يعني أنَّكِ لم تسيري حافيةَ القدميْن إلى هنا».

أمالت رأسها في إعجاب: «كلام منطقيّ».

«قد يكون منطقيًّا، لكنَّه لا يقود إلى نتيجة. أين فقدتِ ملابسَكِ، وحذاءَكِ، وكيف مشيتِ من هناك إلى هنا؟»

هزَّت كريتا كانو رأسها. «لا أعلم».

*

وقفتْ كريتا كانو عند المغسلة مستغرقةً في غسل الصحون، في حين جلستُ على الطاولة أُفكِّر في تلك الأسئلة. لم أكن أعلم أنا أيضًا.

سألتُها: «هل تحدث لكِ هذه الأشياءُ كثيرًا؟ أعني أنْ لا تستطيعي تذكُّرَ أين كنتِ».

«هذه ليست المرَّة الأولى. حدث لي من قبل أنَّني لم أتذكَّر أين كنت أو ماذا كنتُ أفعل. لا يحدث كثيرًا، لكنَّه يحدث من وقتٍ إلى آخر. ذاتَ مرَّةٍ فقدتُ بعض ملابسي أيضًا. لكنْ هذه أوَّل مرَّة أفقد فيها كلَّ ملابسي وحذائي وكلَّ شيء».

أغلقتِ الصنبورَ ومسحتِ الطاولةَ بمنشفة.

«أتدرين كريتا كانو، لم تُخبريني بعدُ بقصَّتك كلّها. آخرَ مرَّةٍ توقَّفتِ في منتصف القصَّة ثم اختفيْتِ. هل تذكرين؟ إنْ لم يكن لديكِ مانع، أودّ أن أعرف بقيَّة القصَّة. قلتِ لي إنَّ عصابةً أمسكتْ بك وأرغمتكِ على العمل عاهرةً، لكنَّكِ لم تُخبريني ما حدث بعد أن التقيتِ نوبورو واتايا وضاجعتِه».

استندتْ كريتا كانو على المغسلة ونظرتْ إليَّ. كانت قطراتٌ من الماء تجري بين أصابعها وتسقط على الأرض. ومن قميصها تبرز حلمتاها بوضوح، وتذكّراني بجسدها العاري الذي رأيتُه الليلةَ الماضية.

«حسنًا إذن. سأخبركَ بكلِّ ما حدث بعد ذلك. الآن».

جلستْ كريتا كانو مرَّةً أخرى قبالتي.

«سببُ مغادرتي في ذلك اليوم قبل إكمال قصَّتي يا سيِّد أوكادا هو أنَّني لم أكن مستعدَّة لقول كلّ شيء. كنتُ قد بدأتُ قصَّتي لأنَّني شعرتُ بأنَّه ينبغي أن أُخبرَكِ ما حدث لي بصدقٍ قدرَ المستطاع. لكنَّني اكتشفتُ أنِّي لا أستطيع المواصلةَ إلى النهاية. لا بدَّ من أنَّك صُدمتَ حين اختفيْتُ فجأة».

هكذا بدأتْ تتحدَّث وقد وضعتْ يديْها كلتيْهما على الطاولة

ونظرتْ مباشرةً في عينيّ.

«نعم، صُدمتُ، رغم أنَّه ليس أغربَ ما حدث لي مؤخَّرًا».

*

«كما قلتُ لكَ سابقًا، كان آخرُ زبونٍ لي في عملي عاهرةً هو نوبورو واتايا. وحين قابلتُه للمرَّة الثانية بوصفه عميلًا عند مالطا كانو عرفتُه فورًا. كان من المستحيل أن أنساه. ولا أدري إنْ تذكَّرني أمْ لا. فالسيِّد واتايا من النوع الذي يُظْهر مشاعره.

«ولكن دعني أضع الأحداثَ في ترتيبها الزمنيّ. سأحدِّثكَ أوَّلًا عن لقائي نوبورو واتايا وهو زبونٌ لي. كان هذا قبل ستّ سنوات.

«ذكرتُ لكَ سابقًا أنَّني في ذلك الوقت كنتُ أمُرُّ بحالةٍ لا أملكُ فيها أيَّ مفهوم للألم. لا الألم فحسب، بل لم يكن عندي أيُّ إحساس من أيّ نوع. كنتُ أعيش في خَدَر لا قرار له. هذا لا يعني إنَّني كنتُ عاجزة عن الإحساس بأيِّ شيء؛ فقد كنتُ أعرف إنْ كان الشيءُ ساخنًا أم باردًا أمْ مؤلمًا. لكنَّ هذه الأحاسيس كانت تأتيني كأنَّها من مكان بعيد، من عالمٍ لا علاقةَ له بي. لهذا السبب لم أكن أمانع إقامةَ علاقات جنسيَّة مع الرجال مقابلَ المال. فمهما فعلوا بي فإنَّ الأحاسيس التي أحسّها لم تكنْ لي. جسدي الذي لا يحسّ لم يكن جسدي.

«ذكرتُ لكَ أيضًا أنَّ عصابةً جعلتني أعمل في شبكتها للدعارة. كنتُ أمارس الجنسَ مع الرجال حين يطلبون منِّي، وأقبل المالَ حين يدفعون لي. وهنا توقَّفتُ في قصَّتي».

فأومأتُ إليها.

«في ذلك اليوم طلبوا منّي أن أذهب إلى غرفة في الطابق السادس عشر من فندق في وسط المدينة. كان للزبون اسمٌ غريب: واتايا. طرقتُ الباب ودخلتُ، فوجدتُ الرجلَ جالسًا على الأريكة. كان يشرب قهوة وهو يقرأ في كتاب. كان يرتدي قميصًا أخضر وبنطالًا قطنيًا بنّيًا. شعره قصير، ويلبس نظّارة ذاتَ إطار بُنّيّ. على الطاولة التي أمامه كوبٌ وإبريقُ قهوة والكتاب. يبدو أنّه كان مستغرقًا في القراءة؛ فقد رأيتُ في عينيْه نوعًا من الحماس. لم تكن ملامحه لافتةً أبدًا، لكنَّ في عينيْه طاقةً غريبةً جدًّا. حين رأيتُهما للمرَّة الأولى ظننتُ لوهلةٍ أنَّني أخطأتُ في الغرفة. لكنَّني لم أُخطئ. قال لي الرجل أنْ أدخل وأوصد الباب.

«ظلَّ على الأريكة، وأخذ يمرِّر عينيْه على جسدي من دون أن يقول كلمة. من رأسي إلى قدميّ. هذا ما كان يحدث عادةً حين أدخل غرفةَ زبون. معظمُ الرجال يفعلون ذلك. اسمحْ لي سيِّد أوكادا أن أطرح عليك السؤال، ولكن هل سبق أنْ كنتَ مع عاهرة؟»

أجبتها أنْ لا.

«وكأنَّهم ينظرون إلى سلعةٍ اشتروْها. عمومًا لا تلبث الواحدة منّا أن تعتاد هذه النظرة. في نهاية المطاف، هم يدفعون المال مقابل هذا الجسد، ومن المنطقيّ أن يتفحّصوا ما يدفعون له. لكنَّ الطريقة التي نظر بها إليَّ هذا الرجل كانت مختلفة. فقد بدا لي

أنَّه يخترق جسدي وينظر إلى شيء في الجانب الآخر. أربكتني عيْناه، إذ شعرتُ بأنّي إنسانة نصف شفّافة.

«أعتقد أنّي ارتبكتُ قليلًا. سقطتْ حقيبتي على الأرض، فأصدرتْ صوتًا خفيفًا، لكنّني لبرهة من الوقت لم أكد أدرك ما فعلتُ لفرط ارتباكي. ثم انحنيتُ لألتقط الحقيبة. كان المشبك قد انفتح حين ارتطم بالأرض، فتبعثرتْ بعضُ أدوات مكياجي. التقطتُ قلمَ الحواجب، وكريمَ الشفاه، وقنّينةَ عطرٍ صغيرة، فأعدتها إلى حقيبتي. أمّا هو فقد ظلّ طوال الوقت يحدّق فيَّ بعينيْه المتمرّستيْن.

«حين انتهيْتُ من جمع أغراضي من الأرض، قال لي أن أخلع ملابسي. سألتُه إنْ كان في إمكاني أن أستحمّ أوّلًا، لأنّني تعرَّقتُ قليلًا. كان الجوّ حارًّا ذلك اليوم، وقد تعرَّقتُ في المترو. قال إنَّ الأمر لا يهمّ. ليس لديه وقت طويل. أرادني أن أخلع ملابسي فورًا.

«ما إنْ تعرَّيت حتى طلب إليَّ أن أستلقي على بطني في السرير، ففعلت. أمرني أن أبقى ثابتة في مكاني، وأن أغمض عينيّ، وأن لا أتحدَّث إلّا حين يُكلّمني.

«جلس إلى جانبي من دون أن يخلع ملابسَه. وهذا كلّ ما فعله. جلس. لم يلمسني. ظلّ جالسًا هكذا ينظر إلى جسمي العَاري. استمرّ هذا عشرَ دقائق تقريبًا، وأنا مستلقية هناك على بطني لا أتحرَّك. كنتُ أشعر بعينيْه تحفر في رقبتي وظهري ومؤخِّرتي وساقيّ، بحدَّة تكاد تكون مؤلمة. خطر لي أنَّه قد يكون

عاجزًا جنسيًا. نُصادِفُ مثلَ هؤلاء الزبائن من وقتٍ إلى آخر. يدفعون لإحضار عاهرة، ويطلبون منها أن تخلع ملابسها، ثم ينظرون إليها. بعضُهم يعرُّونها ويستمْنُون في حضورها. هناك أصناف كثيرة من الناس تلجأ إلى العاهرات، لأسباب كثيرة. افترضتُ أنَّه واحد منهم.

«لكنَّه بعد برهةٍ مدَّ يده وبدأ يلمسني. تحرَّكتْ أصابعُه العشرة على جسدي، من كتفيَّ إلى ظهري، ومن ظهري إلى مؤخِّرتي، تبحث عن شيء ما. لم يكن هذا نوعًا من المداعبة. ولم يكن تدليكًا بالطبع. كانت أصابعُه تتحرَّك على جسدي بعنايةٍ شديدة، كأنَّما تَتْبع طريقًا على خارطة. وطوال الوقت الذي كان يلمسني فيه، بدا أنَّه يفكِّر (ليس بأيِّ معنى من معاني الكلمة) لكنَّه كان يُفكِّر مليًّا في شيء بتركيز شديد.

«أحيانًا كانت أصابعُه تبدو وكأنَّها تجول هنا وهناك خبطَ عشواء، لكنَّها أحيانًا أخرى تتوقَّف وتظلّ في المكان نفسه وقتًا طويلًا. شعرتُ كما لو أنَّ الأصابع نفسَها كانت تنتقل من حالة الحيرة إلى اليقين. هل كلامي واضح؟ كلُّ إصبع بدا أنَّه كائنٌ حيٌّ يُفكِّر، وله إرادةٌ مستقلَّة. كان إحساسًا غايةً في الغرابة. غريبًا ومقلقًا.

«مع ذلك فقد أثارت لمساتُه شهوتي. لأوَّل مرَّةٍ في حياتي. كان الجنس بالنسبة إليَّ مجرَّدَ مصدر للألم، إلى أن أصبحتُ عاهرة. الفكرةُ نفسها غمرتني بالخوف. الخوف من الألم الذي أعرف أنَّني سأضطرّ إلى تحمُّله. هذا عكسُ ما حدث لي بعد أن أصبحتُ عاهرة؛ فلم أكن أحسّ بشيء. لم أعد أحسّ بالألم،

ولكنِّي لم أحسّ بأيِّ إحساس آخر. كنتُ أتأوّه وأتظاهر بالنشوة كي أُمتع الزبونَ، لكنَّ ذلك كلّه كان مصطنعًا. كان مجرَّدَ وظيفة. غير أنَّه حين لمسني كانت تأوُّهاتي حقيقيَّة. خرجتْ من أعماق جسدي. أدركتُ أنَّ شيئًا في داخلي قد بدأ يتحرَّك، وكأنَّ مركز ثقلي كان يغيِّر مكانَه في جسدي، من مكانٍ إلى آخر.

«في النهاية، توقَّف الرجل عن تحريك أصابعه. كانت يداه على خصري، وهو يُفكِّر كما يبدو. أحسستُ من رؤوس أصابعه أنَّه يحاول تسكينَ نفسه، بهدوء ينظِّم أنفاسَه. ثم بدأ ينزع ملابسَه. أبقيتُ عينيَّ مغمضتيْن ووجهي مدفونًا في الوسادة، في انتظارِ ما سيحدث بعد ذلك. وحين تعرَّى باعد بين ساقيَّ وذراعيَّ.

«كانت الغرفة هادئةً على نحوٍ يبعث على الخوف. الصوت الوحيد المسموع كان صوتَ مكيِّف الهواء. حتى الرجل نفسه لم يصدر أيّ أصوات. لم أكن أسمع أنفاسه نفسَها. وضع راحتيْه على ظهري. فارتخيْت. لمس قضيبُه مؤخِّرتي، لكنَّه كان ما يزال مرتخيًا.

«عندها بدأ الهاتفُ يرنّ. فتحتُ عينيَّ وأدرتُ رأسي لأنظر إلى وجه الرجل، لكنَّه على ما يبدو لم يكن يُدرك أنَّ الهاتف يرنّ. رنَّ الهاتف ثماني مرَّات أو تسعًا، ثم توقَّف. وعادت الغرفة إلى هدوئها».

توقَّفتْ كريتا كانو هنا وبدأتْ تتنفَّس أنفاسًا منتظمة. ظلَّت صامتة، تنظر إلى يديْها. «آسفة، هل تسمح لي بأن أرتاح قليلًا؟»

«نعم، أكيد». ملأتُ كوبَ قهوتي مرَّةً أخرى ورشفتُ منه. وهي شربتْ ماءها البارد. جلسنا من دون كلام عشرَ دقائق كاملة.

ثم واصلتْ: «بدأتْ أصابعُه تتحرَّك ثانيةً، تلمس كلَّ شيء في جسدي، كلَّ شيء من دون استثناء. فقدتُ القدرةَ على التفكير، وامتلأتْ أذناي بصوت قلبي، يخفق ببطءٍ غريب. لم أعد أستطيع التحكُّم في نفسي. صرختُ مرَّةً تلو الأخرى وهو يداعبني. حاولتُ أن أُبقي صوتي خفيضًا، لكنَّ شخصًا آخر كان يستخدم صوتي للتأوُّه والصراخ. شعرتُ كما لو أنَّ كلّ برغي في جسدي قد انفكَّ. وبعد وقت طويل جدًّا، وأنا ما أزال مستلقيةً على بطني، وضع شيئًا بداخلي من الخلف. حتى الآن لا أعرف ما هو. كان ضخمًا وصلبًا، لكنَّه لم يكن قضيبَه. متأكِّدة من هذا. أذكر أنَّني قلتُ لنفسي: كنتُ على حقّ، فهو عاجز جنسيًّا.

«أيًّا ما كان ذلك الشيء الذي أَدْخَله، فقد جعلني أحسّ بالألم لأوَّل مرَّة منذ محاولتي الفاشلة للانتحار. كان ألمًا حقيقيًّا شديدًا يخصُّني أنا وحدي. كيف لي أن أشرح؟ كان الألم شديدًا لا يوصف، وكأنَّ جسدي يُشقُّ إلى نصفيْن. مع ذلك، ورغم هذا الألم المريع، إلَّا أنَّني كنتُ أتلوَّى من اللذَّة بقدر ما أتلوَّى من الألم. كانت اللذَّة والألم شيئًا واحدًا. هل فهمتَ ما أقصد؟ كان الألمُ مرتكزًا على اللذَّة، واللذَّةُ مرتكزةً على الألم. لذلك كان عليَّ أن أتجرَّع الاثنيْن كشيءٍ واحد. ظلَّ جسدي ينشقّ إلى نصفيْن بين الألم واللذَّة. ولم يكن بمقدوري أن أمنعَه. ثم حدث شيء غريب جدًّا. فمن بين النصفيْن دبّ شيءٌ لم أرَ أو ألمسْ مثلَه من قبل. لم أستطع تحديدَ حجمه، لكنَّه كان مبلَّلًا وزَلِقًا مثلَ مولودٍ

جديد. لم أعرف ما هو. كان دائمًا في داخلي، لكنَّني لم أكن أعلم عنه. لقد سحبه هذا الرجل من داخلي.

«كنتُ أريد أن أعرف ما يكون. أردتُ أن أراه بعينيّ. لقد كان في نهاية المطاف جزءًا منِّي، ولي الحقّ في أن أراه. لكنَّ هذا كان مستحيلًا. لقد كنتُ عالقةً في وابلٍ من اللذَّة والألم. فلمَّا كنتُ كائنًا جسديًا صرفًا، لم يمكنني إلَّا أن أصرخ، وأسيِّلَ لعابي، وأهزَّ فخذيَّ. مجرَّدُ فتح عينيَّ كان أمرًا مستحيلًا.

«ثم وصلتُ إلى الذروة الجنسيَّة، رغم أنَّها كانت أقربَ إلى السقوط من جرفٍ عالٍ منها إلى الذروة. صرختُ، وشعرتُ كما لو أنَّ كلّ قطعة زجاج في الغرفة قد تهشَّمتْ. لم أشعر بها فحسب، بل إنَّني رأيتُ وسمعتُ النوافذَ والكؤوسَ وهي تتهشَّم إلى شظايا صغيرة، وأحسستُ بها تنهمر فوقي. بعدها أحسستُ بالغثيان. بدأ وعيي ينحسر، وغدا جسمي باردًا. أعلمُ أنَّ ما سأقوله يبدو غريبًا، لكنَّني شعرتُ كأنَّني أصبحتُ طاسةً من العصيدة الباردة: دبقةً مكتَّلة، وكلُّ كتلةٍ كانت تخفق ببطء وقوَّة مع كلّ نبضة في قلبي. عرفتُ هذا الخفقان؛ فقد حدث لي من قبل. ولم يستغرق الأمرُ منِّي وقتًا طويلًا كي أتذكَّره. عرفتُه، ذلك الألمَ القاتل الذي لا ينتهي، ذلك الألمَ الذي خَبِرْتُه قبل محاولة الانتحار. كان الألم يرفع الغطاءَ عن وعيي فيفتحه بقوَّةٍ لا تُقاوم، ويسحب منه هلامَ ذكرياتي من دون إرادة منِّي. قد يبدو هذا غريبًا، لكنَّني كنتُ أشبهَ بميِّتةٍ تشاهد تشريحَ جثَّتها. هل فهمتَ قصدي؟ كنتُ أشعر أنَّني أُشاهد جسدي وهو يُقطع، ثم تُنزع منِّي أعضائي، عضوًا بعد الآخر.

«ظللتُ مستلقيةً هناك، يسيل لعابي فوق الوسادة، تهدّني الرعشات، مترعةً بالشبق. كنتُ أعرف أنَّ عليَّ السيطرةَ على نفسي، لكنَّني فقدتُ القوّة. كلُّ برغيّ في جسدي قد سقط، ولم ينفكّ فحسب. لكنَّني رغم دماغي الغائم شعرتُ بوحدتي وعجزي بوضوح شديد. كلّ شيء كان يتدفَّق منِّي. الأشياء المحسوسة وغير المحسوسة كانت تتحوَّل إلى سائل يتدفَّق خارجًا من جسدي كاللعاب أو البول. كنتُ أعرف أنَّه لا ينبغي لي السماحُ بحدوث ذلك، وبأنَّه لا ينبغي أن أسمح لنفسي بالانسكاب هكذا إلى أن أنتهي، لكنَّني لم أكن أملك من الأمر شيئًا. كلّ ما استطعتُ فعله هو أن أشاهد. ولا أدري كم استمرّ ذلك. بدا لي أنَّ كلّ ذكرياتي، ووعيي، كلّها قد تسرَّبتْ بعيدًا. كلّ شيء كان بداخلي أصبح خارجه الآن. وأخيرًا، غلَّفني الظلامُ في لحظةٍ كانسدال ستارة ثقيلة.

«فلمَّا استعدتُ وعيي كنتُ شخصًا آخر».

توقَّفتُ كريتا كانو عن الكلام، ونظرتْ إليّ.

قالت برقَّة: «هذا ما حدث».

لم أقل شيئًا، بل انتظرتُ بقيَّة القصَّة.

14

رحيل كريتا كانو مجدَّدًا

ومضتْ كريتا كانو في قصَّتها.

«عشتُ بضعة أيَّام بعد ذلك وأنا أحسّ بأنَّ جسدي قد تداعى. كنتُ أمشي ولا أحسّ بأنَّ قدميَّ تلمسان الأرض. كنتُ أتناول الطعام ولا أحسّ بأنِّي أمضغ شيئًا. وحين أجلس ينتابني شعور مخيف بأنَّ جسدي يسقط في مكانٍ لا قرار له، أو يطفو عاليًا تحت منطاد كبير، في فضاء لا حدود له. لم يعد بإمكاني أن أعزو حركات جسدي وأحاسيسي إلى نفسي. كانت تعمل كما تشاء، من دون الرجوع إلى إرادتي، من دون أمرٍ منِّي أو توجيه. ولم أكن أعرف كيف أستعيد الهدوءَ في هذه الفوضى العارمة. كلّ ما أملك هو أن أنتظر الأشياء كي تهدأ من تلقاء نفسها. أغلقتُ

على نفسي غرفتي طوالَ اليوم، أكاد لا آكل شيئًا، وقلتُ لأسرتي إنّني متوعّكة.

«انقضت بضعةُ أيّام على هذا النحو، ثلاثة أيّام أو أربعة. ثم فجأةً هدأ كلّ شيء، وكأنَّ ريحًا عاتيةً هبَّت ومضت في طريقها. نظرتُ حولي، وتفحَّصتُ نفسي، فأدركتُ أنّني أصبحتُ إنسانةً جديدةً، مختلفة تمامًا عمَّا كنتُ عليه. كانت هذه نفسي الثالثة. أمَّا الأولى فهي تلك التي عاشت تحت سطوة الألم الذي لا ينتهي. وأمَّا الثانية فهي تلك التي عاشت في خَدَرٍ لا يعرف الألم. النفس الأولى هي أنا في حالتي الأصليَّة، بعجزي عن التخلُّص من ربقة الألم. فلمَّا حاولتُ أن أتخلَّص منه (أيْ حاولتُ الانتحار) تحوَّلتُ إلى نفسي الثانية، أنا الموقَّتة. صحيحٌ أنَّ الألم الجسديّ الذي كان يعذِّبني اختفى، لكنَّ أحاسيسي الأخرى كلَّها انحسرتْ معه أيضًا. فاختفت منِّي إرادةُ العيش، وطاقةُ الجسد، وقدرتي على التركيز، كلُّها ذهبتْ مع الألم. وبعد أن عبرتُ هذه الفترةَ الانتقاليَّة الغريبة إذا بي أجد أنا جديدةً. لم أكن أعرف إنْ كانت هذه الأنا هي التي ينبغي لها أن تكون، غير أنّني كنتُ أملك الحسّ (رغم أنَّه حسّ مبهم) بأنَّني على الأقلّ أَمضي في الاتّجاه الصحيح».

رفعتْ كريتا كانو عينيْها ونظرتْ إليَّ، كأنَّها تريد أن تسمعَ انطباعي عن قصَّتها. كانت يداها ما تزالان فوق الطاولة.

فقلتُ: «حسنًا إذن. ما تريدين قولَه هو أنَّ الرجل منحكِ نَفْسًا جديدةً، أليس كذلك؟»

قالت كريتا كانو وهي تهزّ رأسها: «ربَّما نعم». كان وجُهها خاليًا من أيّ تعبير، مثلَ قاع بركةٍ جافَّة. «حين داعبني ذلك الرجلُ واحتضنني وجعلني أشعر بتلك اللذَّة الجنسيَّة الشديدة لأوَّل مرَّة في حياتي، حدث لي تغيّرٌ جسديّ هائل. لا أعرف لماذا حدث هذا، ولماذا مِن ذلك الرجل تحديدًا دون البقيَّة. أيًّا ما كان الأمرُ، تبقى الحقيقة أنَّني وجدتُ نفسي في وعاء جديد تمامًا. وفور أن تخطَّيتُ حيرتي العميقة التي أشرتُ إليها، قرَّرتُ أن أقبل هذه النفسَ الجديدة باعتبارها نفسًا حقيقيَّةً أكثر، أقلُّه لأنَّها منحتني القدرةَ على الهروب من خَدَري السحيق؛ فقد كان أشبه بسجنٍ خانق.

«مع ذلك فقد ظلَّت مرارةُ الأمر معي فترةً طويلة، كمثل ظلٌ قاتم. فكلَّما تذكَّرتُ أصابعه العشرة، وكلَّما تذكَّرتُ الشيءَ الذي أدخله فيّ، وكلَّما تذكَّرتُ ذلك الشيءَ الهلاميَّ المتكتِّلَ الذي خرج منِّي (أو أحسستُ أنَّه خرج منّي)، انتابني اضطرابٌ شديد. شعرتُ بغضب، ويأس، لأنَّني لم أكن أعرف كيف أتعامل مع الأمر. حاولتُ أن أمحو ذلك اليومَ من ذاكرتي، لكنَّني لم أستطع، فالرجل قد فتح شيئًا في داخلي. ظلَّ معي ذلك الإحساسُ بفتح شيء في داخلي مرتبطًا بذلك الرجل، مشفوعًا بإحساسٍ صريحٍ بالانتهاك. كانت مشاعر متناقضة. هل فهمتَ قصدي؟ كان التحوُّل الذي مررتُ به، من دون شكٌ شيئًا صحيحًا وحقيقيًّا. بيد أنَّ هذا التحوُّل جاء من شيء قذر، خاطئ ومزيَّف. هذا التناقض نفسه، هذا الانفصام، ظلَّ يعذِّبني فترة طويلة جدًّا».

مرَّةً أخرى حدَّقتْ كريتا كانو في يديْها على الطاولة.

«بعد ذلك توقَّفتُ عن بيع جسدي. لم يعد ثمَّة معنى لذلك». وظلَّ وجهُ كريتا كانو خاليًا من أيِّ تعبير.

«واستطعتِ أن تتركي عملَكِ هكذا مرَّةً واحدة؟»

هزَّت رأسَها: «نعم هكذا مرَّة واحدة. لم أقل شيئًا لأحد، وتوقَّفتُ عن بيع نفسي، ولم أسبِّب مشكلة لأحد. كان الأمر غايةً في السهولة على نحوٍ يكاد يكون مخيِّبًا للأمل. فقد ظننتُ أنَّهم سيتَّصلون بي، وأعددتُ نفسي لهذا اليوم، لكنَّه لم يأتِ. لم يقولوا لي شيئًا على الإطلاق، رغم أنَّهم كانوا يعرفون عنواني ورقمَ هاتفي. كان بإمكانهم تهديدي. ولكنْ لم يحدث أيُّ شيء.

«وهكذا عدتُ مرَّةً أخرى فتاةً عاديَّة، ظاهريًّا على الأقلّ. بحلول ذلك الوقت كنتُ قد سدَّدتُ لأبويّ ما استدنتُه منهما، وادَّخرتُ مبلغًا جيِّدًا لنفسي. كما دفعتُ لأخي، فاشترى سيَّارةً جديدةً أخرى يضيِّع وقته في التسكُّع بها، لكنَّه لم يكن ليتخيَّل ما فعلتُه كي أُعيدَ إليه نقوده.

«كنتُ في حاجة إلى وقتٍ كي أتكيَّف مع نفسي الجديدة. أن أعرف أيَّ نوعٍ من الكائنات هي، وكيف تعمل، وبماذا تشعر، وكيف؟ كان عليَّ أن أفهم كلَّ واحدٍ من هذه الأشياء عبر التجربة، أن أحفظها وأُخزِّنها. هل فهمتَ قصدي؟ كلُّ شيء قد انسكب من داخلي وضاع. كنتُ جديدةً تمامًا، لكنِّي كنتُ أيضًا فارغةً تمامًا. كان عليَّ أن أملأ ذلك الفراغ، شيئًا فشيئًا. كان عليَّ أن أشيِّد هذا الشيءَ الذي أسميتُه «أنا»، أو بالأحرى أصنعَ الأشياءَ التي أتألَّفُ منها.

«كنتُ ما أزال مقيَّدةً على مقاعد الدراسة، لكنَّني لم أكن أنوي العودةَ إلى الجامعة. كنتُ أغادر البيت صباحًا، أذهب إلى الحديقة، أجلس وحدي على مقعدٍ طوال النهار، لا ألوي على شيء. أو أتجوَّل في أرجاء الحديقة هنا وهناك. فإنْ سقط المطر ذهبتُ إلى المكتبة العامَّة، ووضعتُ كتابًا على الطاولة أمامي، وأتظاهر بالقراءة. كنتُ في بعض الأحيان أقضي النهارَ كلَّه في دُور السينما، أو أطوف حول المدينة بالقطار على خطِّ يامانوتي الدائريّ. كنتُ أشعر كما لو أنَّني أطفو في فضاءٍ معتم، وحدي. لم يكن هناك أحد ألجأ إليه طلبًا للنصح. فلو أنَّ أختي مالطا كانت هنا لأخبرتُها بكلِّ شيء، لكنَّها في ذلك الوقت كانت في عزلتها في جزيرة مالطا. لم أكن أعرف عنوانَها، ولا أيَّ طريقةٍ للتواصل معها. لذلك كان عليَّ أن أحلَّ مشكلاتي هذه بنفسي. لم أجد ولو كتابًا يشرح ذلك الشيءَ الذي مررتُ به. ومع ذلك، ورغم أنِّي كنتُ وحيدة تمامًا، فإنَّني لم أكن تعسة. كنتُ قادرةً على التعلّق بنفسي. على الأقلِّ كانت لديّ نفسٌ أتعلَّق بها.

«نفسي الجديدة هذه كانت قادرةً على الإحساس بالألم، ولكنْ ليس بالحدَّة السابقة. كنتُ أشعر بالألم، لكنَّني في الوقت نفسه كنتُ قد تعلَّمتُ الهروبَ منه. أقصد أنَّني كنت أستطيع فصلَ نفسي عن نفسي الجسديَّة التي تحسّ بالألم. هل فهمتَ قصدي؟ كنتُ أستطيع أن أقسّم نفسي إلى نَفْسٍ جسديَّة وأخرى غير جسَديَّة. ربَّما يصعب تصديقُ الأمر حين أصفه على هذا النحو، ولكنْ ما إن تتعلَّم الطريقة حتى تُدرك أنَّ الأمر ليس صعبًا. فحين يعتريني الألم، أترك نفسي الجسديَّة. الأمر أشبه بأن تنسلّ إلى

الغرفة المجاورة حين يأتي شخص لا تريد أن تقابله. الأمر طبيعيّ جدًّا. كلّ ما هنالك أنّي أُدرك وصولَ الألم، وأشعر بوجوده، لكنّني لست هناك، بل في الغرفة المجاورة. وهكذا أتخلّص من ربقة الألم».

«ويمكنكِ الانفصالُ عن نفسك هكذا متى تشائين؟»

قالت كريتا كانو بعد لحظة تفكير: «في أوّل الأمر لم يكن ذلك ممكنًا إلّا حين يُصيبني ألمٌ جسدي. كان الألم هو المفتاحَ لفصلِ وعيي. ولكنْ بعد ذلك تعلّمتُ بمساعدة مالطا أن أفعل ذلك بحسب إرادتي، إلى حدٍّ ما. لكنَّ هذا لم يحدث إلّا بعد وقت طويل.

«ولم تمضِ فترةٌ طويلةٌ حتى وصلتْ رسالةٌ من مالطا كانو، أخبرتني فيها أنّها انتهت أخيرًا من سنوات تدريبها الثلاث في مالطا، وسوف تعود إلى اليابان خلال أسبوع. وقد قرّرتْ أن تكون عودتُها إلى اليابان نهائيّةً. فرحتُ كثيرًا بهذا الخبر؛ فقد مضت ثماني سنوات تقريبًا من دون أن أراها. وكما ذكرتُ لك سابقًا، فقد كانت مالطا هي الشخصَ الوحيدَ الذي يُمكنني أن أُفضي إليه بكلٍّ ما في قلبي.

«وفي اليوم الذي وصلتْ فيه إلى اليابان أخبرتُها بكلِّ ما حدث لي. ظلّت تستمع إلى قصّتي الطويلة العجيبة من أوّلها إلى آخرها من دون أن تعلّق بكلمة، أو تطرح سؤالًا. فلمّا انتهيتُ أطلقتْ تنهيدةً عميقة وقالت: «أعلم أنّه كان ينبغي أن أكون معكِ، أن أعتني بكِ طوال هذه الفترة. لا أدري لماذا لم أُدرك أنَّ لديك

مشكلات كبيرةً كهذه. ربَّما لأنَّكِ كنتِ شديدةَ القرب منِّي. على أيِّ حال، كانت لديَّ أعمال لا بدَّ من أن أُنجزها، وأماكن لا بدَّ من أن أزورها، بمفردي. لم يكن لي في الأمر حيلة.

«طلبتُ إليها ألَّا تلوم نفسها. ففي نهاية الأمر كانت تلك مشكلاتي أنا، وكانت الأمور تتحسَّن شيئًا فشيئًا. فكَّرتْ في الأمر بُرهةً. لم تقل شيئًا، ثم قالت: «كلُّ ما مررتِ به منذ رحيلي عن اليابان مؤلم ومرير، ولكن كما قلتِ فقد كنتِ تَمْضين نحو الحالة الصحيحة، خطوةً خطوة. لقد انقضى أسوأُ ما في الأمر، ولن يعود. هذه الأشياء لن تحدث لكِ مرَّةً أخرى أبدًا. صحيحٌ أنَّ الأمر لن يكون سهلًا، ولكنَّكِ سوف تستطيعين نسيانَ الكثير من الأشياء بمجرَّد أن تنقضي فترةٌ من الزمن. غير أنَّ المرء لا يمكن أن يستمرَّ في هذه الحياة من دون نفسٍ حقيقيَّة. فهي مثل الأرض التي نقف عليها. من دون أرضٍ لا يمكن أن نبني شيئًا. «ولكنْ ثمَّة شيء ينبغي ألَّا تنسيه، وهو أنَّ ذلك الرجل انتهك جسدَكِ. ما كان ينبغي أن يحدث هذا. كان يمكن أن تُفقدي إلى الأبد، وكان يمكن أن تُضطرِّي إلى التجوال في الفراغ إلى الأبد. لحسن الحظِّ لم تكوني في حالتكِ الحقيقيَّة الأصليَّة، ولذلك جاءت النتيجةُ معكوسة؛ فعِوضًا من أن يحبسكِ حرَّركِ من حالتك الانتقاليَّة. كان هذا محضَ مصادفةٍ حسنة. أمَّا الانتهاك، فيبقى داخلَكِ، وسوف يكون عليكِ أن تتخلَّصي منه بنفسك ذات يوم. لن أستطيع مَساعدتَكِ في هذا، بل ولا يمكنني أن أدلَّك على الطريقة. عليكِ اكتشافُ الطريقة والاعتماد على نفسك».

«بعد ذلك منحتني أختي اسمي الجديد، كريتا كانو. قالت

إنَّني مولودة جديدة، وبحاجة إلى اسم جديد. راقني الاسمُ منذ البداية. ثم بدأتْ مالطا كانو تستخدمني وسيطةً روحيَّة. تحت إشرافها تعلَّمتُ أكثر كيف أسيطر على نفسي الجديدة، وكيف أفصل الروحَ عن الجسد. أخيرًا، ولأوَّل مرَّة في حياتي، أصبحتُ قادرةً على العيش بحسٍّ من السلام. بطبيعة الحال كانت نفسي الحقيقيَّة ما تزال شيئًا بعيدًا عن متناول فهمي. كنتُ حتى ذلك الوقت أحتاج إلى أشياء كثيرة قبل أن يتحقَّق ذلك. غير أنِّي الآن وجدتُ في مالطا كانو رفيقةً تقف إلى جانبي، ويمكنني أن أعتمد عليها. وجدتُ فيها شخصًا يفهمني ويقْبَلني، فأصبحتْ مرشدتي وحاميتي».

«ولكنَّكِ بعد ذلك التقيتِ نوبورو واتايا مرَّةً أخرى، أليس كذلك؟»

أومأتْ كريتا كانو برأسها. «صحيح. التقيتُ نوبورو واتايا مرَّةً أخرى. حدث هذا في بدايات شهر آذار / مارس من هذا العام، أيْ بعد أكثر من خمس سنوات من انتهاكه إيَّايَ وطورِ التحوُّل الذي مررتُ به وبدايةِ عملي مع مالطا كانو. كان لقاؤنا حين زار بيتَنا لرؤية مالطا كانو. لم نتحدَّث. لمحتُه فقط في الرواق، لكنَّ لمحةً واحدة فقط كانت كافيةً كي أتجمَّد في مكاني كمن صعقه البرق. كان **ذلك الرجل**. آخرَ رجلٍ يشتريني.

«انتحيتُ بمالطا كانو جانبًا، وقلتُ لها إنَّ هذا الرجل هو الذي انتهكني. فقالت: «حسنًا. دعي الأمر لي. لا تقلقي، وكوني بعيدةً بحيث لا يراكِ». فعلتُ ما قالته، ولذلك لا أعرف ما دار بينه وبين مالطا كانو».

«تُرى ما الذي يمكن أن يريدَه من مالطا كانو؟»

هزَّت رأسها وقالت: «اعذرني سيِّد أوكادا، لا أعرف».

«الناس يأتونكم لأنَّهم يريدون شيئًا، أليس كذلك؟»

«نعم، صحيح».

«ما طبيعة الأشياء التي يريدونها؟»

«أشياء كثيرة جدًّا».

«نعم، ولكنْ ما طبيعة تلك الأشياء؟ هلَّا أعطيتِني مثالًا واحدًا؟»

عضَّتْ شفَتها لحظةً ثم قالت: «يسألون عن أشياء مفقودة. عن أقدارهم. عن المستقبل. كلّ شيء».

«وأنتما تعرفان هذه الأشياء؟»

«نعم. ليس كلّ شيء، ولكنْ معظم الأجوبة هنا». وأشارت إلى جبهتها. «كلُّ ما عليكَ هو الدخول إليها».

«مثل الدخول في بئر؟»

«نعم».

وضعتُ مرفقيّ على الطاولة وأخذتُ نَفَسًا طويلًا عميقًا.

«إنْ لم يكن لديك مانع، بقي شيء أريد أن أعرفه منكِ. لقد ظهرتِ لي في أحلامي بضعَ مرَّات. وكنتِ تفعلين ذلك بوعي. كان الأمر يحدث بإرادتك، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح. كان يحدث بإرادتي. دخلتُ في وعيِكَ واتَّصل جسدي بجسدك».

«يمكنكِ فعلُ أشياء كهذه؟»

«نعم. هذا واحد من اختصاصاتي».

«اتَّصل جسدُك بجسدي في عقلي». فلمَّا سمعتُ نفسي أقولُ هذه الكلمات شعرتُ كما لو أنَّني علَّقتُ لوحةً سرياليَّةً على جدارٍ أبيض. ثم كرَّرتُ الكلام وكأنِّي أنظر إلى اللوحة من بعيد لأتأكَّد من أنَّها غير معوجَّة: «اتَّصل جسدُك بجسدي في عقلي. لكنَّني لم أطلب شيئًا منكما قطّ. لم يخطر في بالي قطّ أن أعرف شيئًا منكما. أليس كذلك؟ إذن ما الذي دفعكِ إلى فعل شيءٍ كهذا؟»

«مالطا كانو هي التي أمرتني بذلك».

«تقصدين أنَّ مالطا كانو استخدمتكِ وسيطةً كي تصل إلى داخل عقلي. عن أيِّ شيء كانت تبحث؟ عن أجوبة لنوبورو واتايا؟ أمْ لكوميكو؟»

لزمتْ كريتا كانو الصمتَ برهة. بدت حائرةً. «صدقًا، لا أعرف. لم أُعطَ معلوماتٍ تفصيليَّة. بهذه الطريقة يمكنني أن أعمل وسيطةً بطريقة أكثر عفويَّة. مهمَّتي الوحيدة هي أنْ أجعل عقول الناس تَعْبر من خلالي، بينما مالطا كانو هي التي تُضفي المعنى على ما أجده هناك. ولكنْ أرجو أن تفهم يا سيِّد أوكادا أنَّ مالطا كانو في صفِّك. لا تنسَ أنَّني أكره نوبورو واتايا، والهمّ الأوَّل لمالطا كانو هو أن ترعاني. لقد فعلتْ مالطا ذلك من أجلك سيِّد أوكادا. هذه قناعتي».

*

ذهبتْ كريتا كانو إلى محلِّ السوبرماركت. أعطيتُها بعضَ

المال واقترحتُ عليها أن تُغيِّر ملابسها وترتدي شيئًا يليق بالخروج. فأومأتْ موافقةً وذهبتْ إلى غرفة كوميكو وارتدت بلوزةً قطنيَّةً بيضاء وتنُّورةً مزركشة بالأزهار.

«سيِّد أوكادا، ألا يزعجك أن أرتدي ملابسَ زوجتك؟»

هززتُ رأسي. «طلبتْ في رسالتها أن أتخلَّص من ملابسَها. لن ينزعج أحد إذن لو ارتديتِ ملابسها».

وكما توقَّعتُ، كانت الملابس على مقاسها تمامًا، على نحوٍ غريب. حتى مقاسُ الحذاء كان نفسَه. غادرتْ كريتا كانو البيت وهي ترتدي نعال كوميكو. حين نظرتُ إلى كريتا كانو في ملابس كوميكو شعرتُ مرَّةً أخرى بأنَّ الواقع كان يُغيِّر اتِّجاهه، كمثل باخرةٍ تغيِّر مسارَها ببطء.

بعد أن خرجتْ كريتا كانو استلقيتُ على الأريكة وأخذتُ أحدِّق في الحديقة بعقلٍ فارغ. عادت بسيَّارة أجرة بعد نصف ساعة، تحمل ثلاثة أكياس كبيرة مليئة، ثم أعدَّت لحمَ خنزير مع البيض، وسلطةَ سردين.

سألتْني كريتا كانو فجأةً بعد أن فرغنا من الطعام: «قل لي سيِّد أوكادا، هل لديكَ أيُّ اهتمامٍ بكريت؟»

«كريت؟ تقصدين جزيرةَ كريت، في البحر المتوسِّط؟»

«نعم».

فهززتُ رأسي. «لا أدري. لا أقول إنِّي غيرُ مهتمّ. في الحقيقة لم أُفكِّر في الأمر».

«هل تودّ الذهابَ معي إلى كريت؟»

«أذهب معك إلى كريت؟»

«أريد أن أبتعد عن اليابان فترة. هذا ما كنتُ أُفكِّر فيه طوال الوقت في البئر بعد خروجك. فمنذ أن منحتني مالطا اسمَ كريت شعرتُ بأنِّي أرغب في زيارة هذه الجزيرة ذات يوم. قرأتُ عدَّة كتب عنها كي أستعدّ، بل إنَّني درستُ اللغةَ اليونانيَّة كي أستطيع العيش هناك عندما تحين الفرصة. ولديَّ مدَّخرات كبيرة، تكفي أن نعيش نحن الاثنان فترةً معقولةً من دون أيّ صعوبة. لن يكون المالُ عائقًا».

«وهل تعرف مالطا كانو عن مخطَّطاتك للذهاب إلى كريت؟»

«لا، لم أقل لها شيئًا عن هذا. لكنَّني واثقة بأنَّها لن تُعارض الفكرة. بل ربَّما سترى في ذلك خيرًا لي. صحيح أنَّها كانت تستخدمني وسيطًا روحيًّا في السنوات الخمس الماضية، لكنَّها لا تستغلَّني كمجرَّد أداة. كانت تفعل ذلك أيضًا من باب مساعدتي على الاستشفاء. فهي ترى أنَّ عبورَ عقولٍ وأَنَواتٍ كثيرة من خلالي سيمكِّنني من الوصول إلى فهمٍ راسخٍ لنفسي. هل تفهم ما أقصده؟ الأمر بالنسبة إليَّ نوعٌ من التجربة البديلة لأن تكون عندي «أنا».

«خَطَر لي الآن أنَّني لم أقل مرَّةً في حياتي لأحد بوضوح «أريد أن أفعل ذلك». بل إنَّني لم أقل حتى لنفسي «أريد أن أفعل ذلك». فمنذ لحظة مولدي عشتُ مع الألم في محور حياتي. كان هدفي الوحيد في الحياة أن أجد طريقةً للتعايش مع ذلك الألم الشديد. وبعد أن بلغتُ العشرين واختفى الألم حين حاولتُ الانتحار، حَلَّ الخَدَرُ العميقُ مكانَ الألم. كنتُ أشبهَ بجثَّةٍ تمشي

على الأرض. كما لو أنَّ حجابًا سميكًا من غياب الإحساس انسدل فوقي. لم يكن عندي أيُّ قدرٍ (ولا نتفة) ممَّا يمكن أن أُسمِّيه إرادتي. وحين انتَهَكَ نوبورو واتايا جسدي وفتح عقلي، اكتسبتُ نفسي الثالثة. لكنَّني مع ذلك لم أكن نفسي. كلُّ ما حقَّقتُه هو أن أبلغ الوعاءَ الضروريَّ الأدنى للنفس. مجرَّد وعاء. ولمَّا كنت وعاءً، فقد استطعتُ، بإشراف مالطا كانو، أن أجعل أنَوَاتٍ عديدةً تَعْبر من خلالي.

«على هذا النحو إذن قضيتُ السنوات الستَّ والعشرين من حياتي. تخيَّلْ، طوال ستّ وعشرين سنة كنتُ لا شيء. هذه هي الفكرة التي هزَّتني بقوَّة حين كنتُ في البئر وحدي أُفكِّر. أدركتُ أنَّ الشخص المُسمَّى «أنا» لم يكن شيئًا على الإطلاق طوال تلك السنوات. لم أكن سوى عاهرة. عاهرة جسد. وعاهرة عقل.

«أمَّا الآن، فأنا أحاول أن أفهم نفسي الجديدة. فلستُ وعاءً ولا وسيطًا. إنَّني أحاول أن أجد نفسي على صفحة هذه الأرض».

«أتفهَّم ما تقولينه، ولكنْ لماذا تريدين الذهابَ إلى كريت معي؟»

«لأنَّه قد يكون في ذلك خيرٌ لنا نحن الاثنيْن. في الوقت الحاليّ لا حاجة لأن يكون أيٌّ منَّا هنا، وأظنّ أنَّه سيكون من الأفضل لنا كليْنا أن لا نكون هنا. قل لي سيِّد أوكادا، هل لديك أشياء لا بدَّ من أن تفعلها؟ هل ثمَّة مخطَّط لديك لِما سوف تفعله بدءًا من هذه اللحظة؟»

«الشيء الذي ينبغي عليَّ أن أفعلَه هو الحديث مع كوميكو. ولا أستطيع أن أفعل أيّ شيء آخر إلى أن نلتقي وجهًا لوجه وتقول لي إنَّ حياتنا الزوجيَّة انتهت. لكنَّني لا أعرف كيف سأجدها».

فقالت كريتا كانو وهي تنظر في عينيّ: «فإنْ وجدتَها وعرفتَ أنَّ حياتَكَ الزوجيَّة «انتهت» على حدِّ قولك، هل ستفكِّر في الذهاب معي إلى كريت؟ ينبغي لكلٍّ منَّا أن يبدأ شيئًا جديدًا. ويبدو لي أنَّ الذهاب إلى جزيرة كريت لن يكون بدايةً سيِّئة».

«أبدًا، على الإطلاق. قد يكون مفاجئًا، لكنَّه ليس سيِّئًا».

ابتسمتْ كريتا كانو، وأدركتُ أنَّ هذه هي المرَّة الأولى التي تبتسم فيها. فشعرتُ إلى حدٍّ ما بأنَّ التاريخ بدأ يتَّجه نحو المسار الصحيح. قالت: «ما يزال لدينا وقت. سيستغرق الأمر أسبوعيْن على الأقلّ حتى أستعدّ. أرجو منك أن تُفكِّر في الأمر سيِّد أوكادا. لا أدري إنْ كان عندي أيُّ شيء أُقدِّمه إليك. يبدو لي أنَّني لا أملك ما أقدِّمه الآن. فأنا فارغة بكلِّ ما تعنيه الكلمة. للتوّ فقط بدأتُ أملأ هذا الوعاءَ الفارغ، شيئًا فشيئًا. لعلِّي أستطيع أن أمنحك نفسي، سيِّد أوكادا، إنْ كان ذلك يكفي بالنسبة إليك. أعتقد أنَّه يمكننا مساعدة بعضنا بعضًا».

هززتُ رأسي وقلت: «سأُفكِّر في الأمر. الحقيقةُ أنَّني سعيد جدًّا لأنَّكِ عرضتِ عليَّ هذا العرض، وأعتقد أنَّه سيكون شيئًا رائعًا أن نذهب معًا. ولكنْ لديَّ أشياء كثيرة ينبغي أن أُفكِّر فيها، وأشياء كثيرة ينبغي أن أسوِّيها».

«إنْ قلتَ في النهاية إنَّك لا تريد الذهاب إلى كريت فلا بأس. لن يجرحَني ذلك. سأشعر بالأسف، لكنَّني أريد جوابَكَ الصادق».

*

ظلَّت كريتا كانو في بيتي تلك الليلة أيضًا. وفيما كانت الشمس تغرب دعتْني إلى الخروج كي نتمشَّى في الحديقة القريبة. قرَّرتُ أن أنسى ما كان بي وأخرج. فما فائدة القلق من أشياء كهذه؟ مشينا ساعةً في ذلك المساء الصيفيّ اللطيف، ثم عدنا إلى البيت وتناولنا العشاء.

بعد العشاء قالت لي كريتا كانو إنَّها تريد مضاجعتي. قالت إنَّها تريد ممارسة جنسٍ جسديٍّ معي. كان طلبُها مفاجئًا، ولم أعرف ما ينبغي فعله، وهذا بالضبط ما قلته لها: «هذا مفاجئ جدًّا. لا أعرف ما الذي ينبغي عليَّ فعله».

نظرتْ إليَّ وقالت: «سواء ذهبتَ معي إلى كريت أو لم تذهب، سيِّد أوكادا، فإنِّي أُريدكَ أن تضاجعني مرَّةً واحدة، فقط مرَّةً واحدة، كعاهرة. أريدك أن تشتري جسدي. هنا، والليلة. ستكون هذه تجربتي الأخيرة، وبعدها لن أكون عاهرةَ جسدٍ أو عاهرةَ عقل. وسوف أتخلَّى عن اسم كريتا كانو أيضًا. لكنَّني لكي أفعل ذلك أحتاج إلى حدٍّ فاصلٍ واضح، أحتاج إلى علامةٍ تقول «الأمر ينتهي هنا»».

«أتفهَّم حاجتَكِ إلى حدٍّ فاصل، ولكنْ لماذا ينبغي أن يكون عبر ممارسة الجنس معي؟»

«ألم تفهم بعد يا سيِّد أوكادا؟ إنَّني حين أضاجعك وألصقُ جسدي بجسدك في الواقع، إنَّما أَعْبر من خلالك، من هذا الشخص الذي يُدعى السيِّد أوكادا. فإنْ فعلتُ ذلك تحرَّرتُ من شعور الانتهاك في داخلي. سيكون هذا هو الحدَّ الفاصل».

«اعذريني، لكنَّني لا أحبّ أن أدفع المالَ مقابل الجنس».

عضَّت كريتا كانو شفتَها وقالت: «حسنًا، ما رأيك بأن تعطيني شيئًا من ملابس زوجتك، وأحذيتها، بدلًا من المال. سيكون هذا ثمنَ جسدي. أعتقد أنَّه لا بأس في ذلك، صحيح؟ هذا سيُنقذني».

«ينقذك؟ تقصدين أنَّكِ سوف تتحرَّرين من انتهاك نوبورو واتايا العالق بداخلك؟»

«نعم، هذا ما أقصده».

حدَّقتُ فيها. كان وجهُ كريتا كانو مَنْ دون الرموش المستعارة أقربَ إلى وجوه الأطفال. قلتُ لها: «أخبريني، من يكون نوبورو واتايا حقًّا؟ إنَّه شقيقُ زوجتي لكنِّي أكاد لا أعرفه. بمَ يفكِّر؟ وماذا يريد؟ كلُّ ما أعرفه على وجه اليقين هو أنَّنا نكره بعضنا بعضًا».

«نوبورو واتايا شخصٌ ينتمي إلى عالم يقع على طرف النقيض من عالمك». ثم بدت وكأنَّها تبحث عن كلمات تحتاج إليها كي تكمل. «في العالم الذي تخسر فيه كلَّ شيء يا سيِّد أوكادا، نوبورو واتايا يكسب كلَّ شيء. في العالم الذي تكون فيه مرفوضًا، يكون هو مقبولًا. والعكس بالعكس. ولهذا السبب يكرهك كرهًا شديدًا».

«ولكنْ ما الذي يجعله ينتبه إلى وجودي أصلًا؟ فهو مشهورٌ وصاحبُ نفوذ. أنا بالنسبة إليه مجرَّد صفر. فلماذا يضيِّع وقتَه وجهدَه في كرهي أنا؟»

هزَّت كريتا كانو رأسَها: «الكراهية أشبهُ بالظلِّ الطويل القاتم. في أغلب الأحيان، حتى الشخص الذي يسقط عليه الظلّ لا يعرف مِنْ أين أتى. إنَّها أشبهُ بالسلاح ذي الحدَّيْن؛ فأنت حين تجرح الشخصَ الآخرَ إنَّما تجرحُ نفسَكَ أيضًا. وكلَّما أمعنتَ في طعن الشخص الآخر، أمعنتَ في طعن نفسك. كثيرًا ما تكون الكراهيةُ قاتلةً، ولكنْ ليس من السهل أن تتخلَّص منها. أرجوك كُنْ حذرًا، سيِّد أوكادا. فهي غايةٌ في الخطورة. فما إنْ تتجذَّر الكراهيةُ في قلبك، حتى يُصبح من العسير جدًّا أن تستأصلها».

«وأنتِ استطعتِ أن تشعري به، أليس كذلك؟ أقصد جذرَ الكراهية في قلب نوبورو واتايا».

«نعم استطعتُ. وأستطيع. هذا هو الشيء الذي قسم جسدي إلى نصفيْن، الشيء الذي انتهكني يا سيِّد أوكادا. ولهذا السبب لا أريده أن يكون آخرَ زبون لي كعاهرة. هل فهمت؟»

في تلك الليلة نمتُ مع كريتا كانو. نزعتُ عنها ما كانت ترتديه من ملابس كوميكو، والتصق جسدي بجسدها. في هدوء، ولطف. كان الأمر أشبهَ بامتدادٍ لحُلمي، كما لو أنَّني كنتُ أُعيد فعلَ الأشياء التي فعلتُها مع كريتا كانو في الحلم، ولكنْ في الواقع. كان جسدُها حقيقيًّا نابضًا بالحياة. ولكنْ ظلَّ هناك شيء مفقود، ألا وهو الحسُّ الواضح بأنَّ هذا كان يحدث فعلًا. فقد

استحوذ عليَّ التوهُّم عدَّة مرَّات بأنَّني كنتُ أفعل ذلك مع كوميكو، لا مع كريتا كانو. كنتُ متأكِّدًا من أنَّني سأستيقظ في اللحظة التي أقذفُ فيها. لكنَّني لم أستيقظ. قذفتُ داخلها. كان واقعًا. واقعًا حقيقيًّا. ولكنَّني كلَّما أدركتُ تلك الحقيقة بدا الواقعُ أقلَّ واقعيَّةً. كان الواقع يأتي مفكَّكًا ويتحرَّك بعيدًا عن الواقع، خطوةً خطوةً. ومع ذلك، فقد كان واقعًا.

قالت لي كريتا كانو وذراعاها تطوِّقان ظهري: «سيِّد أوكادا، لنذهبْ معًا إلى كريت. لم يعد هذا المكان لنا. لا لكَ، ولا لي. علينا الذهابُ إلى كريت. لو بقيتَ هنا سيحدث لكَ شيء سيِّئ. أعرفُ ذلك. ومتأكِّدة منه».

«شيء سيِّئ؟»

«شيء سيِّئ جدًّا، جدًّا». قالت نبوءتها بصوتٍ خفيض لكنَّه نافذ، مثل الطائر المتنبِّئ الذي كان يعيش في الغابة.

15

الشيء السيِّئ الوحيد الذي حدث في بيت مايو كاساهارا
مايو كاساهارا وذلك الشيء المقزِّز

صوتُ امرأة على الهاتف: «آلو، سيِّد طائر الزنبرك».
ضغطتُ السمَّاعة على أذني، ونظرتُ إلى ساعتي. الرابعة عصرًا. كنتُ نائمًا على الأريكة حين رنَّ الهاتف، غارقًا في عرقي. كانت في الواقع قيلولةً قصيرةً غير مريحة، لم تخلِّف وراءها سوى ذلك الإحساس الجسديّ بأنَّ شخصًا ما كان يجلس فوقي وأنا نائم. لا أعرف مَنْ يكون، لكنَّه انتظر حتى نمت وجاء فوقي، ثم نهض وغادر قُبَيْل أن أستيقظ.

قال صوتُ المرأة في ما يُشبه الهمس: «آلووو». بدا الصوتُ وكأنَّه يمرُّ عبر هواء رفيع جدًّا كي يصل إليَّ. «أنا مايو كاساهارا...».

حاولتُ أن أقول: «هييبه»، لكنَّ فمي لم يتحرَّكْ كما أردتُ له. ربَّما خرجتْ الكلمةُ أشبهَ بالآهة.

سألتني في نبرة تلميح: «ماذا تفعل؟»

قلتُ وأنا أُحرِّك السمَّاعة بعيدًا كي أتنحنح: «لا شيء. لا شيء، مجرَّد قيلولة».

«هل أيقظتك؟»

«طبعًا. ولكنْ لا بأس. كانت مجرَّد قيلولة».

تردَّدتْ مايو كاساهارا لحظةً، ثم قالت: «ما رأيك أن تأتي إلى بيتي سيِّد طائر الزنبرك؟»

أغمضتُ عينيَّ، فرأيتُ في الظلام أضواءَ تطوف بألوانٍ وأشكالٍ مختلفة.

قلت: «لا بأس».

«أنا أتشمَّس في الفناء. تعال مباشرةً إلى هناك».

«حسنًا».

«قل لي سيِّد طائر الزنبرك، هل أنت غاضب منِّي؟»

«لا أدري. على أيِّ حال، سأستحمّ وأُغيِّر ملابسي، وآتي إليك. هناك شيء أودّ أن أحدِّثكِ عنه».

أخذتُ حمَّامًا باردًا سريعًا لأنفض ما كان عالقًا بعقلي، وفتحتُ الماء الساخن قليلًا، ثم ختمتُ بماء بارد مرَّةً أخرى. أفاقني هذا من النعاس، لكنَّ جسمي ظلَّ ثقيلًا. كانت ساقاي ترتعشان، واضطررتُ عدَّة مرَّات إلى الإمساك بعلَّاق المنشفة أو الجلوس على حافَّة الحوض. لعلِّي كنت مرهقًا أكثرَ ممَّا ظننت.

نشَّفتُ نفسي وفركتُ أسناني، ثم نظرتُ إلى نفسي في المرآة. كانت العلامةُ الزرقاءُ ما تزال في مكانها على خدِّي الأيمن، لم يتغيَّر لونها. ثمَّة خيوط حمراء صغيرة حول مُقلتيَّ، وهالاتٌ سود تحت عينيّ. وجنتاي غائرتان، وشعري بحاجة إلى تشذيب. كنتُ أشبهَ بجثَّةٍ عادت لتوِّها إلى الحياة وشقَّت طريقَها خارج القبر.

ارتديتُ قميصًا وسروالًا قصيرًا، مع قبَّعة ونظَّارة شمسيَّة. حين وصلتُ إلى الزقاق وجدتُ أنَّ هذا الجوّ الساخن لن يزول قريبًا. وكلّ شيء حيّ يدبّ فوق الأرض كان يلهث، رجاةَ أن يسقط المطرُ فجأةً، ولكنْ لم تكن هناك أيُّ سحابة في السماء. ثمَّة غطاء من الهواء الساخن الراكد يُحيط بالزقاق. كان المكان مهجورًا كعادته، وهذا أفضل. لم أكن أُريد أن أُقابل أحدًا في جوٍّ ساخن كهذا، وبوجهي المريع هذا.

في فناء البيت الخالي كان تمثالُ الطائر يرنو إلى السماء كعادَته، بأَنَفَة. لكنَّه كان يبدو أكثر حزنًا ممَّا رأيتُه آخر مرَّة، ومتعبًا. كان ثمَّة شيء أكثر توتُّرًا في تحديقته، إذ بدا كما لو أنَّه يحدِّق في شيء كئيب جدًّا يسبح في السماء. لو كان بمقدوره

لحوِّل نظرَه عنها، ولكنْ لم يكن له خيار إلَّا النظر. أمَّا الحشائش الطويلة المحيطة بالتمثال فكانت ساكنةً بلا حركة، مثل جوقة في مسرحيَّة إغريقيَّة تنتظر بأنفاسٍ لاهثة هبوطَ الوحي الإلٰهيّ. وعلى السطح كان هوائيُّ التلفاز يُسقط مجسَّاتِه الفضِّيَّة في الحرارة الخانقة. كان كلّ شيء تحت ذلك الصيف القاسي جافًّا، منهكًا.

بعد هذه النظرة في فناء البيت الخالي، مشيتُ إلى فناء مايو كاساهارا. كانت شجرةُ البلُّوط تُلقي بظلال باردة كما يبدو على الحديقة، غير أنَّ مايو كاساهارا اختارت أن تتجنَّبها كي تتمدَّد تحت الشمس القاسية. فقد استلقت على ظهرها في كرسيٍّ، ترتدي «بيكيني» صغيرًا بلون الشوكولاتة، وكانت قطعتا البيكيني صغيرتَيْن جدًّا ومثبَّتتَيْن بخيوط لا أكثر. لا أدري كيف لأحدٍ أن يسبح بهذه الملابس. كانت ترتدي النظَّارة التي رأيتُها في لقائنا الأوَّل، وحبَّاتُ العرق الكبيرة تتفصَّد من وجهها. تحت الكرسيّ منشفة، وكْريم واقٍ من الشمس، وبضعُ مجلَّات. على مقربةٍ علبتا «سپرايت» فارغتان، تحوَّلتْ إحداهما إلى منفضة سجائر. ثمَّة خرطومٌ بلاستيكيٌّ ملقًى في الحديقة، لم يكلِّف أحدٌ نفسَه بلفِّه بعد استخدامه آخر مرَّة.

حين اقتربتُ نهضتْ مايو كاساهارا ومدَّت يدَها تُطفئ المذياع. كانت قد اسمرَّت أكثر بكثير من المرَّة الماضية. لم يكن اسمرارًا طبيعيًّا من قضاء يومَيْن على البحر؛ فكلّ جزءٍ من جسدها، من رأسها حتى أخمص قدميْها، كان محمَّصًا على نحوٍ جميل. يبدو أنَّها لم تكن تفعل شيئًا طوال النهار سوى أن

تتشمَّس، بما في ذلك الوقت الذي كنتُ فيه داخل البئر بالتأكيد. ألقيتُ نظرةً على الفناء. لم يتغيَّر. ما تزال الحديقة الواسعة مشذَّبة، والبركةُ فارغة، لكنَّها تبدو الآن ظمآنةً بما يكفي لكي تُشعرك بالعطش.

جلستُ على الكرسيّ المجاور لها، وأخرجتُ من جيبي سكَّرة ليمون. كان غلافُها الورقيّ قد التصق بها لفرط الحرارة.

نظرتْ مايو كاساهارا إليَّ برهةً من دون أن تقول شيئًا. «ما الذي حدث لك سيِّد طائر الزنبرك؟ ما تلك العلامةُ على وجهك؟ إنَّها علامة، أليس كذلك؟»

«أظنُّها كذلك. على الأرجح. لكنَّني لا أعرف من أين جاءت. نظرتُ فوجدتُها على وجهي».

رفعتْ مايو كاساهارا نفسَها على مرفقٍ واحد وأخذت تُحدِّق في وجهي. مسحتْ حبَّاتِ العرق قرب أنفها، ودفعتْ نظَّارتها إلى الأعلى قليلًا. كانت عدساتُها الداكنة تُخفي عينيْها تمامًا.

«لا تعرف؟ لا تعرف أين حدثتْ أو كيف؟»

«أبدًا».

«أبدًا؟»

«خرجتُ من البئر، وبعد برهةٍ نظرتُ في المرآة فرأيتُها. هذا ما حدث».

«هل تؤلمك؟»

«لا تسبِّب ألمًا أو حكَّة. لكنَّها دافئة قليلًا».

«هل ذهبتَ إلى الطبيب؟»

هززتُ رأسي. «على الأرجح سيكون مضيعةً للوقت».

«نعم ربَّما. أنا أكره الأطبَّاء أيضًا».

نزعتُ قبَّعتي ونظَّارتي، واستخدمتُ منديلي لأنشِّفَ العرقَ الذي تَعلَّق في جبيني. أمَّا قميصي الرماديّ فقد اسودّ من جهة الإبطيْن لفرط العرق.

قلتُ لها: «بيكيني جميل».

«شكرًا».

«يبدو لي أنَّه مصنوع من بقايا الأقمشة، للاستفادة القصوى من الموارد الطبيعيَّة المحدودة».

«أحيانًا أنزع القطعةَ العلويَّة حين لا يكون هناك أحد».

«رائع!»

قالت على سبيل التبرير: «لا يوجد شيء كثير تحتها أصلًا».

صحيح، نهداها تحت قطعة البيكيني ما يزالان صغيريْن.
«هل سبق أن سبحتِ بهذا الشيء؟»

«أبدًا. أنا لا أُجيد السباحة. ماذا عنك سيِّد طائر الزنبرك؟»

«نعم، أُجيد السباحة».

«إلى أيِّ مسافة؟»

«المسافة طويلة».

«عشرة كيلومترات؟»

«ربَّما. . . ألا يوجد أحد في البيت؟»

«غادروا بالأمس إلى منزلنا الصيفيّ في إيزو. كلّهم يريدون السباحة في عطلة الأسبوع. طبعًا أقصد والديّ وأخي الصغير».

«إلّا أنتِ؟»

هزَّت كتفيْها، ثم أخرجت سيجارةً وعودَ ثقاب من داخل منشفتها، وأشعلتْ سيجارة.

«منظرَك مُريع، سيِّد طائر الزنبرك».

«بالطبع منظري مريع. بعد أيَّام في قاع البئر من دون أكل أو شراب. أيٌّ كان في مكاني سيكون منظرُه مريعًا».

نزعتْ مايو كاساهارا نظَّارتها واستدارت لتواجهني. ما يزال ذلك الجرحُ عند عينها. «قل لي سيِّد طائر الزنبرك، هل أنت غاضب منِّي؟»

«لا أدري. لديَّ ألف شيء أفكِّر فيه قبل أن أُقرِّر أن أغضب منك».

«هل عادت زوجتك؟»

هززتُ رأسي. «أرسلتْ إليَّ رسالةً، وقالت إنَّها لن تعود أبدًا».

«مسكين يا سيِّد طائر الزنبرك». نهضتْ مايو كاساهارا ومدَّت

يدَها لتضعها بلطفٍ على ركبتي. «مسكين، مسكين. أتدري يا سيِّد طائر الزنبرك، قد لا تصدِّق ما سأقوله، لكنَّني كنتُ أنوي إنقاذَكَ من البئر في النهاية. كنتُ أريد إخافتَكَ وتعذيبَكَ قليلًا لا غير. كنتُ أُريد أن أرى إنْ كنتُ أستطيع أن أجعلك تصرخ. كنتُ أُريد أن أعرف مدى تحمُّلك قبل أن تتشوَّشَ تمامًا وتفقدَ عقلك».

لم أعرف كيف أردّ، فاكتفيتُ بالإيماء.

«هل صدَّقتَ أنَّني كنتُ جادَّة حين قلت إنَّني سأتركك تموت هناك؟»

لم أُجِب مباشرةً. وَّرتُ سكَّرة الليمون في فمي، ثم قلت: «لم أكن متأكِّدًا. كنتِ تبدين جادَّة، وفي الوقت نفسه بدا أنَّكِ تحاولين إخافتي فقط. حين يكون المرء في قاع بئر يتحدَّث إلى شخصٍ في الأعلى، يحدث شيءٌ غريبٌ للصوت، فلا يمكنه أن يلتقط التعابيرَ في صوت الشخص الآخر. في نهاية المطاف، المسألة ليست مسألةَ أيّ الأمرَيْن صحيح وأيُّهما خطأ. ما أقصده هو أنَّ الواقع يتكوَّن من هذه الطبقات المختلفة. ربَّما في ذلك الواقع كنتِ جادَّةً في محاولة قتلي، أمَّا في هذا الواقع فلم تكوني كذلك. الأمرُ يعتمد على أيِّ واقعٍ تعتمدينه أنتِ، وأيّ واقعٍ أعتمدُه أنا».

أدخلتُ غلافَ سكَّرتي في ثقب علبة السبرايت.

قالت مايو كاساهارا وهي تُشير إلى الخرطوم: «هلَّا أسديْتَ إليَّ خدمةً سيِّد طائر الزنبرك؟ هل يمكنك أن ترشّني بالماء؟ الجوّ

حارررر جدًّا. سينطبخ دماغي إنْ لم أبلّل نفسي قليلًا».

نهضتُ ومشيت كي أرفع الخرطوم الأزرق عن الأرض. كان دافئًا مرتخيًا. ومن خلف الشجيرات فتحتُ الصنبور، فجاء الماءُ ساخنًا في البداية بسببِ ما كان عالقًا داخل الخرطوم، ثم بدأ يَفْتر إلى أن خرج الماءُ البارد. تمدَّدتْ مايو كاساهارا على العشب وصوَّبتُ الخرطومَ إليها.

أغمضتْ عينيْها وتركت الماءَ يغسل جسمَها. «أوه، ما أجمله من شعور! لا تفوّت الفرصةَ سيِّد طائر الزنبرك».

قلتُ: «ملابسي ليست للسباحة». لكنَّ مايو كاساهارا بدت مستمتعةً جدًّا، وكان الجوّ شديد الحرارة فلم أستطع أن أُقاوم. خلعتُ قميصي المبلَّلَ بالعرق وانحنيْتُ، وتركتُ الماءَ البارد يغسل رأسي. وأثناء ذلك ابتلعتُ قليلًا من الماء. كان باردًا ولذيذًا».

سألتُها: «لحظة، هل هذا ماءُ بئر؟»

«طبعًا. يأتي من مضخَّة. رائع أليس كذلك؟ بارد جدًّا، ويمكنك أن تشربه. أحضرنا شخصًا من وزارة الصحَّة لإجراء فحصٍ على الماء، وقال إنَّه نظيف جدًّا، وتكاد لا تجد ماءً بهذه النظافة في طوكيو. كان مندهشًا. ومع ذلك نخاف أن نشربه؛ فالمنازل هنا متراصَّة، ولا ندري ما الذي يمكن أن يدخل في الماء».

«ولكنْ ألا ترين أنَّ الأمر غريب؟ بئر مياواكي جافَّة تمامًا، في حين أنَّ بئركم فيها ماء عذب. ولا يفصل بينهما إلَّا زقاق. فلماذا تختلفان هكذا؟»

أمالت مايو كاساهارا رأسَها في حيرة. «ربَّما حدث شيء تسبَّب في تحوُّل تدفُّق الماء قليلًا، فجفَّت بئرُهم ولم تجفّ بئرُنا. لكنَّني طبعًا لا أعرف السببَ بالضبط».

«هل وقع مكروه في بيتكم؟»

عبستْ مايو كاساهارا وهزَّت رأسها. «المكروه الوحيد الذي حدث في هذا البيت منذ عشر سنوات هو أنَّه مملّ جدًّا!»

نشَّفتْ نفسَها ثم عرضتْ أن تُحضر لي علبةَ بيرة، فوافقتُ. أحضرتْ علبتَيْن «هايِنِكن» من البيت. شربتُ واحدةً، وشربتْ هي الأخرى.

«قُلْ لي سيِّد طائر الزنبرك، ماذا قرَّرتَ أن تفعل الآن؟»

«لم أُقرِّر بعد. لكنَّني على الأرجح سأبتعد عن هنا. ربَّما أبتعد عن اليابان».

«تبتعد عن اليابان؟ إلى أين تذهب؟»

«إلى كريت».

«كريت؟ هل للأمر علاقة بتلك المرأة التي اسمُها كريتا الفلانيَّة؟»

«إلى حدٍّ ما، نعم».

فكَّرتْ مايو كاساهارا لحظة ثم سألت: «وهل كريتا الفلانيَّة هذه هي التي أنقذتْكَ من البئر؟»

«اسمها كريتا كانو. نعم هي نفسُها».

«لديك أصدقاء كثر، أليس كذلك سيِّد طائر الزنبرك؟»

«لا، أبدًا. بل المعروف عنِّي أنَّ أصدقائي قليلون جدًّا».

«ولكنْ كيف عرفتْ كريتا كانو أنَّكَ في البئر؟ أنت لم تخبر أحدًا أنَّك ستذهب إلى هناك، أليس كذلك؟ إذن كيف عرفتْ مكانَك؟»

«لا أدري».

«عمومًا، إذن ستذهب إلى كريت؟»

«لم أقرِّر بعد. إنَّه مجرَّدُ احتمالٍ واحد. عليَّ أن أسوِّي الأمورَ مع كوميكو أوَّلًا».

وضعتْ مايو كاساهارا سيجارةً بين شفتيْها وأشعلتْها. ثم لمست الجرحَ قرب عيْنها بطرف إصبعها.

«أتدري سيِّد طائر الزنبرك، طوال الوقت الذي كنتَ فيه في البئر، كنتُ هنا أتشمَّس. كنتُ أراقب حديقةَ البيت الخالي، وأتشمَّس، وأُفكِّر في حالك في البئر، في أنَّكَ جائع وتقترب من الموت شيئًا فشيئًا. كنتُ الوحيدة التي تعرف أنَّكَ هناك ولا تستطيع الخروج. وحين فكَّرتُ في ذلك أصابني إحساسٌ واضحٌ بما كنتَ تشعر به: الألم والتوتُّر والخوف. هل فهمتَ قصدي؟ حين فعلت ذلك استطعتُ أن أقترب منك كثيرًا! لم أكن لأتركَكَ تموت. هذه هي الحقيقة. فعلًا. لكنَّني أردتُ أن أمضي في الأمر إلَى اقتراب نهايته. إلى أن تبدأ في الانهيار ويجنّ جنونُكَ من الفزع فلا تستطيع المزيدَ من الاحتمال. شعرتُ حقًّا أنَّ ذلك سيكون الأفضل، لي ولك».

«حسنًا، اسمعي. أعتقدُ أنَّكِ لو مضيتِ فعلًا إلى قُرب النهاية، لربَّما أردتِ أن تصلي إلى نهايته. سيكون ذلك أسهلَ بكثير ممَّا تظنِّين. لو أنَّك وصلتِ إلى ذلك الحدّ، فكلّ ما يتطلَّبه الأمرُ منكِ مجرَّدُ دَفعة أخيرة. وبعد ذلك ستقولين لنفسك إنَّ ذلك قد كان الأفضلَ.. لي ولكِ». وازدردتُ جرعةَ بيرة.

فكَّرتْ مايو كاساهارا في كلامي قليلًا وهي تعضّ شفتَها. «قد تكون على حقّ. حتى أنا لست متأكِّدة».

شربتُ الجرعةَ الأخيرة من بيرتي ونهضتُ، فوضعتُ نظَّارتي الشمسيَّة وارتديتُ قميصي المبلَّلَ بالعرق. «شكرًا على البيرة».

«أتدري سيِّد طائر الزنبرك، البارحة بعد أن غادر أهلي المنزل ذهبتُ إلى قاع البئر. بقيتُ هناك خمسَ ساعات أو ستًّا تقريبًا، من دون أن أتحرَّك».

«إذن أنتِ التي أخذتِ السلّم».

فقالت وقد قطَّبتْ وجهها: «نعم. أنا».

أدرتُ بصري نحو العشب. كانت الأرض المبلَّلة تطلق بخارًا يُشبه السديمَ الحراريّ. وأدخلتْ مايو كاساهارا عقب سيجارتها في علبة سپرايت فارغة.

«في أوَّل ساعتيْن لم أشعر بشيء يستحقّ الذكر. انزعجتُ طبعًا من الظلام الحالك، لكنَّني لم أكن خائفة. لستُ من أولئك الفتيات اللاتي يصرخن بأعلى أصواتهنَّ من أيّ شيء. لكنَّني أدركتُ أنَّ الأمر لا يقتصر على الظلام. كنتَ هناك سيِّد طائر

الزنبرك، وتعرف أنْ ليس هناك ما يُخيف. ولكنْ بعد بضع ساعات بدأتْ معرفتي بمن أكون تنقص شيئًا فشيئًا. وإذ جلستُ هناك في الظلام أدركتُ أنَّ شيئًا في داخلي، في داخل جسمي، كان يكبر ويكبر. شعرتُ كما لو أنَّ هذا الشيء الذي بداخلي كان ينمو، مثلَ جذور شجرةٍ في أصيص، فما إنْ تكبر حتى تُحطّم ذلك الوعاء. أيًّا ما كان ذلك الشيء، فقد كان ساكنًا في داخلي وأنا تحت ضوء الشمس، لكنَّه في الظلام تغذّى على شيءٍ ما وبدأ ينمو بسرعة شديدة، مخيفة. حاولتُ أن أوقفه، لكنِّي لم أستطع. وهنا خفت فعلًا. لم أشعر بالخوف هكذا في حياتي. هذا الشيء الذي في داخلي، الشيء الأبيض المقزِّز مثل كتلة دهن، كان يسيطر عليَّ، يلتهمني. كان هذا الشيء المقزِّز صغيرًا جدًّا في البداية يا سيِّد طائر الزنبرك».

توقَّفتْ مايو كاساهارا عن الكلام قليلًا، وأخذتْ تُحدِّق في يديْها كأنَّها تتذكَّر ما حدث لها ذلك اليوم. «كنتُ خائفة جدًّا. أعتقد أنَّ هذا هو ما أردتُكَ أنتَ أن تشعر به. أظنّ أنَّني أردتُكَ أن تسمع صوتَ الشيء الذي يأكلك من الداخل».

جلستُ على كرسيٍّ ونظرتُ إلى جسم مايو كاساهارا، الذي كان لا يُغطِّيه ذلك البيكيني الصغير إلَّا بصعوبة. كانت في السادسة عشرة من عمرها، لكنَّ قوامَها قوامُ صبيَّةٍ في الثالثة عشرة أوَ الرابعة عشرة. نهداها وفخذاها غايةٌ في الصِّغر. ذكَّرني جسمُها بتلك الرسوم التي تَسْتخدم القَدْر الأدنى من الخطوط، لكنَّها تُضفي حسًّا واقعيًّا واضحًا. ومع ذلك، ففي جسمها شيء يشي

بالتقدُّمِ الطاعنِ في السنِّ.

فجأةً خطر لي أن أسألها. «هل سبق أنْ شعرتِ بأنَّ شيئًا ما انتَهَكَكِ؟»

«انتهكني؟» نظرتْ إليَّ وقد ضيَّقتْ عينيْها. «أتقصد جسديًّا؟ تقصد اغتصابًا؟»

«جسديًّا أو عقليًّا».

نظرتْ مايو كاساهارا إلى جسمها، ثم عادت تنظر إليَّ. «جسديًّا، لا. أقصد أنَّني ما زلتُ عذراء. سمحتُ لفتًى أن يلمس جسمي، ولكنْ من فوق ثيابي».

أومأتُ متفهِّمًا.

«عقليًّا، لا أدري. بصراحة لا أفهم معنى الانتهاك العقليّ».

«ولا أنا. إنَّها فقط مسألة إنْ كنتِ تشعرين بأنَّ هذا حدث لكِ أم لم يحدث. إنْ لم تشعري به، فعلى الأرجح أنَّكِ لم تُنتهكي».

«ولكنْ لماذا تسأل عن هذا؟»

«أعرف أحدًا لديه هذا الشعور، ويسبِّب له مشكلاتٍ معقَّدة. عمومًا هناك شيء أُريد أن أسألَكِ عنه. لماذا تفكِّرين في الموت دائمًا؟»

وضعتْ سيجارةً بين شفتيْها وأشعلتْ عودَ ثقاب بيدٍ واحدة. ثم وضعتْ نظَّارتها.

«معنى كلامَكَ أنَّك لا تفكِّر في الموت كثيرًا سيِّد طائر الزنبرك؟»

«أُفكِّر في الموت طبعًا، ولكنْ ليس طوال الوقت. مرَّةً كلَّ فترة. كبقيَّة الناس».

«سأقول لكَ رأيي، سيِّد طائر الزنبرك. كلُّنا وُلدنا بشيء مختلف في جوهر وجودنا. وهذا الشيء (أيًّا ما كان) يصبح أشبهَ بمصدر الحرارة الذي يشغِّل كلَّ واحدٍ منَّا من الداخل. وأنا لديَّ واحد طبعًا، كبقيَّة الناس. ولكنَّه أحيانًا يخرج عن السيطرة. ينتفخ أو يتقلَّص داخلي، فيهزُّني. وما أريد فعلَه حقًّا هو إيجادُ طريقة لإيصال هذا الشعور إلى شخصٍ آخر. لكنْ يبدو أنَّني لا أستطيع. الآخرون لا يفهمون. قد تكون المشكلة فيَّ أنا، ربَّما لا أشرح الأمرَ جيِّدًا، لكنَّني أعتقد أنَّهم لا يستمعون جيِّدًا. يتظاهرون بالاستماع، لكنَّهم لا يستمعون. لذلك تثور ثائرتي أحيانًا وأفعلُ أشياءَ مجنونة».

«مجنونة؟»

«مثلًا أن أحبسَكَ في البئر، أو أضعَ يديَّ على عينَي الشخص الذي يقود الدرَّاجةَ الناريَّة وأنا خلفه».

حين قالت هذه الجملة تحسَّستْ الجرحَ قرب عينها.

«إذن هكذا وقع حادثُ الدرَّاجة؟»

صوَّبتْ مايو كاساهارا نظرةَ استفهامٍ نحوي، وكأنَّها لم تسمعني. لم أستطع أن أرى تعبيرَ عينيْها من وراء النظَّارة الداكنة،

ولكنْ يبدو أنَّ نوعًا من الخَدَر تسرَّب في وجهها، مثلَ زيتٍ يُصبّ على ماءٍ راكد.

«ماذا حدث للفتى؟»

ظلَّت تنظر إليَّ والسيجارةُ بين شفتيْها. أو بالأحرى ظلَّت تنظر إلى علامتي. «هل عليَّ أن أُجيب عن هذا السؤال، سيِّد طائر الزنبرك؟»

«إنْ لم ترغبي بذلك فلا تُجيبي. أنتِ مَنْ أثار الموضوع. إنْ لم ترغبي في الحديث عنه فلا تتحدَّثي».

ران الصمتُ عليها، وبدتْ حائرة. ثم سحبتْ نَفَسًا طويلًا من سيجارتها ونفثت الدخانَ ببطء. وبحركة ثقيلة، أزالت نظَّارتَها ورفعتْ وجهَها ناحيةَ الشمس، بعينيْن مغمضتيْن. كنتُ أرقبها، فأشعر أنَّ تدفُّق الزمن يبطؤ شيئًا فشيئًا، كما لو أنَّ زنبركَ الوقت بدأ يهترئ.

قالت أخيرًا بصوتٍ يخلو من أيِّ تعبير، وكأنَّها تستسلم لشيءٍ ما: «مات».

«مات؟»

نفضتْ رمادَ سيجارتها، ثم التقطتْ منشفتَها تمسح العرقَ المتفصِّد من وجهها مرَّةً تلو المرَّة. وأخيرًا، كما لو أنَّها تذكَّرتْ شيئًا فجأةً، قالت باقتضاب: «كنَّا مسرعين. حدث ذلك قرب إينوشيما».

نظرتُ إليها من دون أن أقولَ شيئًا. كانت تمسك بطرف

المنشفة في يد، وتضغط على وجنتيْها. سُحُبُ الدخان البيض تتصاعد من سيجارتها بين أصابعها، من دون ريح تعترضها، فكانت تصعد مستقيمةً إلى الأعلى، مثلَ لافتة دخانٍ صغيرة. بدتْ حائرةً بين الضحك والبكاء. على الأقلِّ هذا ما شعرتُ به. كانت تتأرجح على ذلك الخطِّ الضيِّق الذي يفصل بين احتمالٍ وآخر، لكنَّها في نهاية الأمر لم تسقط في أيِّ جانب. تمالكتْ نفسَها، ووضعت المنشفَة على الأرض، ثم سحبتْ نَفَسًا من سيجارتها. كانت الساعة تقترب من الخامسة، والحرارةُ لا تفكِّر في الانحسار.

«قتلتُه. طبعًا لم أقصد ذلك. كنتُ فقط أريد أن أرفع سقفَ المغامرة. كنَّا نفعل مثلَ هذه الأشياء دائمًا. مثل لعبة. كنتُ أغمض عينيْه أو أدغدغه ونحن فوق الدرَّاجة، ولكن لم يحدث شيء. إلَّا في ذلك اليوم...».

رفعتْ مايو كاساهارا وجهَها ونظرتْ إليَّ.

«عمومًا سيِّد طائر الزنبرك، لا، لا أشعر أنَّني انتُهِكْتُ. كنتُ أريد فقط أن أقترب من ذلك الشيء المقزِّز إنْ استطعت. كنتُ أريد أن أغويه بالخروج منِّي ثم أُقطِّعه إربًا. لا بدَّ من أن ترفع السقفَ إنْ أردتَ أن تغوي ذلك الشيء بالخروج منك. هذه هي الطريقة الوحيدة. لا بدَّ من أن تُقدِّم له طُعمًا جيِّدًا». هزَّت رأسَها ببطء، ثم أردفت: «لا، لا أعتقد أنَّني انتُهكت. لكنَّني لم أُنقَذ أيضًا. لا يوجد مَنْ يستطيع إنقاذي الآن، سيِّد طائر الزنبرك. يبدو لي العالمُ فارغًا. وكلُّ ما أراه حولي زائف. الشيء الوحيد غير

الزائف هو ذلك الشيء المقزّز في داخلي».

جلستْ مايو كاساهارا فترةً طويلةً تأخذ أنفاسًا قصيرةً منتظمة. لم تكن هناك أيُّ أصوات أخرى، لا طيور ولا حشرات. هدوء مروِّع ساد الفناء، وكأنَّ العالم أصبح فارغًا.

ثم استدارت تواجهني. بدتْ وكأنَّها تذكَّرتْ شيئًا. اختفت كلُّ التعابير من وجهها، كما لو أنَّه مُسح تمامًا. «قل لي سيِّد طائر الزنبرك، هل مارستَ الجنسَ مع تلك التي اسمُها كريتا كانو؟»

أومأتُ لها مؤكِّدًا.

«هل ستبعث إليَّ رسائلَ من كريت؟»

«أكيد، إنْ ذهبت».

قالت بعد تردُّد: «أتدري سيِّد طائر الزنبرك، أظنُّني سأعود إلى المدرسة».

«أوه، إذن غيَّرتِ رأيَكِ في المدرسة؟»

هزَّت كتفيْها: «إنَّها مدرسة أخرى. رفضتُ العودة إلى مدرستي. أمَّا الجديدة فهي بعيدةٌ عن هنا. عمومًا، ربَّما لن أراك فترة».

هززتُ رأسي، ثم أخرجتُ سكَّرة ليمون ووضعتُها في فمي. نظرتْ مايو كاساهارا حولها ثم أشعلت سيجارة.

«قل لي سيِّد طائر الزنبرك، هل ممتع أن تمارس الجنسَ مع نساءٍ مختلفات؟»

«لا علاقة للأمر بهذا».

«نعم نعم، سمعتُ هذا من قبل».

فقلتُ: «نعم». لم يكن لديَّ ما أقوله.

«انسَ الأمر. ولكنْ أتدري، سيِّد طائر الزنبرك، الحقيقة أنَّني قرَّرت أخيرًا العودةَ إلى الدراسة بسببك».

«ولماذا؟»

فقالت: «نعم، ولماذا». ثم ضيَّقتْ عينيْها ونظرتْ إليَّ. «ربَّما أردتُ العودة إلى حياة أكثر طبيعيَّةً. ولكنَّ الحقيقة، يا سيِّد طائر الزنبرك، أنَّني استمتعتُ جدًّا برفقتك. لا أمزح. أنت شخص فوق العادة، لكنَّك تُقْدِم على أفعالٍ غير طبيعيَّة أحيانًا. كما أنَّك... كيف أصفك؟ صعبُ التوقُّع. وهكذا فإنَّ رفقتَكَ لم تكن مملَّة بأيِّ حالٍ من الأحوال. لا تتخيَّل مدى إفادة ذلك لي. أن لا أتعرَّض للملل يعني أن لا أُضطَرَّ إلى التفكير في كثير من الأمور السخيفة. أليس كذلك؟ من هذه الناحية أنا سعيدة لأنَّني تعرَّفتُ إليك. ولكنْ بصراحة، فقد أصابني هذا بالتوتُّر أيضًا».

«من أيِّ ناحية؟»

«لا أدري كيف أشرح ذلك. أحيانًا، حين أنظر إليك أشعر بأنَّك ربَّما تصارع شيئًا ما من أجلي. أعلم أنَّ كلامي يبدو غريبًا، ولكن حين يحدث هذا أشعر بأنَّني إلى جانبك، وأنَّني أتعرَّق معكَ في هذا الصراع. هل فهمتني؟ دائمًا تبدو هادئًا، وكأنَّ ما يحدث حولك لا يعنيك، لكنَّك لست كذلك. أنت بطريقتك الخاصَّة

نقاتل بكلِّ قوَّة، وإنْ لم يستطع الآخرون أن يروْا ذلك بمجرَّد النظر إليك. لو لم تكن كذلك لما ذهبتَ إلى البئر. ولكنْ على أيِّ حال، أنت لا تُقاتل من أجلي طبعًا. أنت تبذل قصارى جهدك تحاول أن تصارع هذا الشيء أيًّا ما يكون، والسبب الوحيد هو أنَّك تريد العثورَ على كوميكو. لذلك لا معنى لأن أتعرَّق أنا من أجلك. أعرف هذا كلَّه، ولكنْ مع ذلك، لا أملك إلَّا أن أشعر بأنَّك فعلًا تُقاتل من أجلي سيِّد طائر الزنبرك، وبأنَّك بطريقةٍ ما ربَّما تقاتل من أجل أُناس كثيرين في الوقت الذي تقاتل فيه من أجل كوميكو. ربَّما لهذا السبب تبدو في منتهى الحمق أحيانًا. هذا ما أراه يا سيِّد طائر الزنبرك. لكنَّني حين أراك تفعل ذلك، يُصيبني التوتُّر، وينتهي بي الأمر إلى الشعور بأنِّي مستنزَفة. أقصد أنَّه يبدو وكأنَّكَ لن تستطيع الانتصار أبدًا. لو كان لي أن أراهن على هذه المباراة، فسوف أراهن على خسارتك. آسفة، ولكنْ هذا ما أراه. أنت عزيز عليَّ، لكنَّني لا أريد أن أفلس».

«أتفهَّم تمامًا».

«لا أريد أن أراك تغرق، ولا أريد أن أتعرَّق من أجلك أكثرَ ممَّا فعلت. لهذا قرَّرتُ العودةَ إلى عالمٍ طبيعيٍّ أكثر. ولكنْ لو أنَّني لم ألتقكَ هنا، هنا أمام هذا البيتِ الخالي، فلا أظنّ أنَّني كنتُ سأصل إلى هذه النتيجة. ما كنتُ لأُفكِّر أبدًا في العودة إلى الدراسة، وسأظلّ أجول هنا وهناك في عالمٍ ليس طبيعيًّا جدًّا. بهذا المعنى إذن، كنتَ أنتَ السببَ يا سيِّد طائر الزنبرك. لستَ عديمَ الفائدة على الإطلاق».

أومأتُ إليها. كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يمدحني فيها أحدٌ منذ وقت طويل.

ثم اعتدلتْ مايو كاساهارا في كرسيِّها وقالت: «تعالَ هنا سيِّد طائر الزنبرك».

نهضتُ من كرسيّي واقتربتُ منها.

«اجلس هنا سيِّد طائر الزنبرك».

فجلستُ إلى جانبها.

«أرني وجهَكَ سيِّد طائر الزنبرك».

حدَّقتْ في وجهي برهةً، ثم وضعتْ يدَها على ركبتي، وضغطتْ براحة يدها الأخرى على العلامة في وجهي.

قالت في ما يُشبه الهمس: «مسكين سيِّد طائر الزنبرك. أعرف أنَّك ستُعاني أشياءَ كثيرة. حتى قبل أن تعرفها أنت. ولن يكون لك خيار في الأمر. كالمطر حين يتساقط. والآن أغمضْ عينيْك، سيِّد طائر الزنبرك. بقوَّة. وكأنَّهما مغلقتان بالصمغ».

أغمضتُ عينيّ بقوَّة.

وضعتْ مايو كاساهارا شفتيْها على العلامة. كانت شفتاها صغيرتيْن رفيعتيْن، وكأنَّهما شفتان مستعارتان متقنتان. ثم فرَّجت بين شفتيْها ومرَّرتْهما على العلامة، ببطء شديد، فلمستْ كلَّ جزءٍ منها. أمَّا يدها التي على ركبتي فظلَّت في مكانها. أحسستُ بملمسها الدافئ النديّ قادمًا من مكان بعيد، من مكان أبعد ممَّا لو عبرت كلَّ حقول الدنيا. ثم تناولتْ يدي ووضعتْها على الجرح

الذي قرب عينها. حرّكت أصابعي على تلك الندبة، فخفقت أمواجُ وعيها عبر أصابعي ووصلتْ إليّ، مثل رَجْع صوتٍ للحنين. خطر لي أنَّه ينبغي لأحدٍ أن يحتوي هذه الفتاةَ بين ذراعيْه ويحتضنها بقوَّة. ربَّما شخص آخر غيري. شخص مؤهَّل لأن يمنحها شيئًا.

«وداعًا سيِّد طائر الزنبرك. أراكَ في وقتٍ لاحق».

16

أبسط الأشياء
انتقام على نحوٍ راقٍ
ذلك الشيء في علبة القيثارة

في اليوم التالي اتَّصلتُ بخالي وقلتُ له إنَّني قد أترك المنزل خلال الأسابيع القليلة القادمة. اعتذرتُ له لأنَّني لم أُبلغْه برغبتي هذه قبل وقتٍ كاف، لكنَّني شرحتُ له أنَّ كوميكو تركتني فجأةً من دون سابق إنذار. لم يعد هناك معنى لإخفاء الأمر عنه. أخَبرتُه أنَّها أرسلتْ إليَّ رسالة تقول فيها إنَّها لن تعود، وإنَّني أريد الابتعاد عن هذا المكان رغم أنِّي لا أعرف كم من الوقت أحتاج. ران الصمتُ بعد هذا الشرح الموجز، وبدا أنَّ خالي

يُفكِّر في شيءٍ ما. ثم قال: «هل لي أن أزورَكَ قريبًا؟ أريد أن أرى بعينيّ ما يحدث. كما أنَّني لم أَرَ المنزلَ منذ فترة طويلة».

*

جاء خالي بعد ليلتيْن، ونظر إلى العلامة في وجهي لكنَّه لم يقل شيئًا. لعلَّه لم يجد ما يقوله، فاكتفى بنظرة استغراب وتضييق عينيْن. أحضر لي معه زجاجةَ وِسكي وفطائرَ عجينة السمك اشتراها من «أوداوارا». جلسنا في الشرفة، نأكل الفطائرَ ونشرب الوِسكي.

قال وهو يهزّ رأسَه مرَّات عدَّة: «ما أجملَ العودةَ إلى الجلوس في الشرفة مرَّةً أخرى. منزلنا طبعًا ليس به شرفة. أحيانًا أشتاق إلى هذا البيت فعلًا. هناك شعور خاصّ في الشرفات لا تجدُهُ في أيِّ مكانٍ آخر».

ظلَّ هكذا فترةً يحدِّق في القمر، وكان هلالًا رفيعًا أبيض يبدو كما لو أنَّ شخصًا انتهى للتوِّ من شحذه. بدا لي معجزةً من معجزات الدنيا أن يسبح شيءٌ كهذا في السماء.

سألني هكذا على سبيل الارتجال: «من أين جاءتك تلك العلامة؟»

«لا أدري»، وازدردتُ قليلًا من الوِسكي. «ظهرتْ فجأةً. ربَّما قبل أسبوع. ليتني أستطيع أن أشرح الأمر أكثر، لكنَّني فعلًا لا أعرف كيف ظهرتْ».

«هل ذهبتَ إلى الطبيب؟»

هززتُ رأسي نافيًا.

«لا أريد أن أحشر أنفي في ما لا يخصُّني، ولكنْ سأقول لكَ شيئًا: ينبغي عليك أن تجلسَ وتُفكِّرَ مليًّا لتحدِّد أهمَّ شيء بالنسبة إليك».

أومأتُ إليه. «كنتُ فعلًا أُفكِّر في ذلك. لكنَّ الأمور معقَّدة جدًّا ومتداخلة. ويبدو أنَّني غير قادر على فصلها بعضها عن بعض والتعامل معها واحدةً واحدة. لا أعرف كيف أفكّ الأشياء المتداخلة».

فابتسم. «تريد رأيي؟ أعتقد أنَّه ينبغي عليك البدءُ بالتفكير في أبسط الأشياء، ثم تمضي إلى الأخرى. مثلًا، يمكنك أن تقفَ على ناصية شارعٍ ما يومًا بعد يوم وتنظر إلى المارَّة. لا داعي للتعجُّل في اتِّخاذ قرارك. قد يكون الأمر صعبًا، لكنَّ المرء يحتاج في بعض الأحيان إلى التوقُّف والتمهُّل. ينبغي عليك أن تدرِّب نفسَكَ على النظر إلى الأشياء بعينيْك أنت، إلى أن يتَّضح شيء ما. ولا تتردَّد في منح الأمر ما يكفي من الوقت. فبذلُ الوقت الطويل في شيءٍ ما قد يكون أرفعَ أنواع الانتقام».

«انتقام؟ ماذا تقصد بالانتقام؟ ومِن مَن؟»

قال خالي وهو يبتسم: «ستعرف قريبًا».

*

جلسنا على الشرفة نشرب أكثرَ من ساعة، ثم قال إنَّه أطال المكوثَ فنهض وانصرف. بقيتُ وحدي جالسًا في الشرفة، متَّكئًا

على عمودٍ أُحدِّق في الحديقة تحت نور القمر. ظللتُ فترةً قادرًا على تنفُّس ما خلَّفه خالي من هواء الواقعيَّة أو أيًّا ما كان، وأحسستُ للمرَّة الأولى منذ فترة طويلة جدًّا براحة حقيقيَّة.

لكنَّ هذا الهواء تبخَّر في غضون سويْعات، وما لبث أن حلَّت محلَّه عباءةٌ من الحزن الشاحب. هكذا عدتُ في نهاية الأمر إلى عالمي، وعاد خالي إلى عالمه.

*

قال خالي إنَّه ينبغي عليَّ التفكيرُ في أبسط الأشياء أوَّلًا، لكنَّني وجدتُ من المستحيل أن أُميِّز بين البسيط والصعب. وهكذا، في اليومِ التالي بعد انقضاء ساعة الذروة، ركبتُ القطارَ إلى شنجوكو. قرَّرتُ أن أقف هناك وأنظر في وجوه المارَّة. لم أكن متأكِّدًا إنْ كان في الأمر فائدة، لكنَّه أفضل من أن لا أفعل شيئًا. لئن كان النظرُ في وجوه الناس إلى حدِّ السأم مثالًا على الشيء البسيط، فلن أخسر شيئًا إنْ جرَّبت. وإنْ نجح الأمرُ فقد يمنحني ذلك إشارةً إلى معنى الأشياء «البسيطة» بالنسبة إليَّ.

في اليوم الأوَّل قضيتُ ساعتيْن جالسًا على جدارٍ خفيض يمتدّ على طرف شتلات ورودٍ أمام محطَّةِ شنجوكو، أراقب أوجهَ المارَّة. لكنَّ عدَدهم كان هائلًا، وكانوا يُسرعون في المشي، فلم أستطع أن أتبيَّن وجهَ أحدٍ منهم جيِّدًا. والأنكى من ذلك أنَّ متشرِّدًا جاءني وأخذ يتحدَّث طويلًا ويُرغي ويُزبد، فاقترب رجلُ شرطة مرَّات عدَّة يُحدِّق بي. لذلك تركتُ تلك المنطقة المزدحمة، وقرَّرت البحثَ عن مكانٍ أنسب لتفحُّص وجوه المارَّة.

مشيتُ في الطريق تحت السكك الحديديَّة على الجانب الغربيّ من المحطَّة. وبعد أن قضيتُ بعض الوقت ماشيًا، وجدتُ ساحةً مرصوفةً أمام بناية زجاجيَّة. في تلك الساحة منحوتةٌ وبعضُ المقاعد الجميلة التي يمكن أن أجلسَ عليها وأنظرَ إلى الناس كما أشاء. لم تكن أعدادُ الناس كبيرةً مثلما هي عند مدخل المحطَّة، ولا متشرِّدون هنا يحملون زجاجات الوِسكي في جيوبهم. قضيتُ النهار هنا، غدائي من الدونَت والقهوة من محلّ «دَنْكِن دونتس»، وعدتُ إلى البيت قبل زحمة المساء.

في بادئ الأمر لم يلفت نظري سوى الرجال الذين تساقط شعرُهم. والفضلُ في ذلك يعود إلى التدريب الذي تلقَّيْته مع مايو كاساهارا لإجراء تلك الاستطلاعات. فلا تلبث عيناي أن ترصدا رأسًا أصلع، فأصنِّف الرجلَ إلى التصنيف (أ) أو (ب) أو (ج). ما دامت هذه هي الحال، فقد كان ينبغي عليَّ إذن أن أتَّصل بمايو كاساهارا وأعرضَ عليها العملَ معها مرَّة أخرى!

غير أنِّي بعد بضعة أيَّام وجدتُ نفسي قادرًا على الجلوس والنظر إلى وجوه الناس من دون أن أفكِّر في شيء. معظم الذين مرُّوا أمامي كانوا موظَّفين في البناية. كان الرجال يرتدون قمصانًا بيضاء وربطات عنق ويحملون حقائب. وأمَّا النساء فكنَّ غالبًا ينتعلن أحذيةً عاليةَ الكعوب. ومن بين مَنْ رأيتهم أيضًا أصحابُ المَحالّ والمطاعم في البناية نفسها، وأسرٌ تصعد إلى السطح كي تنظر إلى المدينة من الأعلى، وبضعةُ مارَّة عابرين من نقطةٍ إلى أخرى. أغلب الناس لم يكونوا يمشون بسرعة. أخذتُ أنظر إليهم

جميعًا، من دون أيّ غرض واضح. من حين إلى آخر يظهر شخص يلفت انتباهي لسببٍ أو لآخر، فأركّز في وجهه وألاحقه بعينيّ.

هكذا كنتُ أذهب كلّ يوم بالقطار إلى شنجوكو عند العاشرة صباحًا، بعد ساعة الذروة، وأجلس على مقعدٍ في الساحة بلا حَراكٍ تقريبًا حتى الرابعة عصرًا، لا أفعل شيئًا سوى التحديق في وجوه الناس. أدركتُ أنّني إذا ما ركّزت عينيّ على وجهٍ واحدٍ كلّ مرّة، فسأستطيع أن أُفرغ رأسي تمامًا. لم أكلّم أحدًا، ولم يُكلّمني أحد. لم أُفكّر في شيء، ولم أشعر بشيء. كثيرًا ما شعرتُ بأنّني قد أصبحتُ جزءًا من المقعد الحجريّ.

لكنّ امرأةً كلّمتني ذاتَ مرّة. كانت امرأةً في منتصف العمر، أنيقة الملبس، ترتدي فستانًا ورديًا ضيّقًا، ونظّارةً شمسيّةً بإطار ظهر السلحفاة، وقبّعةً بيضاء، وكانت تحمل معها حقيبةً بيضاءَ مخرّمة. ساقاها جميلتان، وكانت تنتعل نعليْن بيضاويْن جلديّتيْن غاليتَي الثمن. كانت مفرطةً في مكياجها، ولكن من دون أن يسبّب ذلك إزعاجًا لمن ينظر إليه. سألتني إنْ كنتُ في ضائقةٍ ما، فنفيتُ. قالت لي أراك كلّ يوم هنا، فماذا تفعل؟ قلت لها إنّني أنظر في وجوه الناس. سألتني إن كان لذلك هدف ما، فقلت لا.

جلستْ إلى جانبي، وأخرجتْ علبةً من سجائر فرجينيا الرفيعة، وأشعلتْ واحدةً بقدّاحتها الذهبيّة. عرضتْ عليّ سيجارة، فهززتُ رأسي. ثم نزعتْ نظّارتها الشمسيّة، وأخذتْ تُحدّق في وجهي، أو بالأحرى في العلامة. حدّقتُ أنا أيضًا في عينيْها،

لكنَّني لم أستطع أن أتبيَّن التعبيرَ فيهما. لم أرَ شيئًا سوى مقلتيْن داكنتيْن تعملان كما يُراد لهما. أمَّا أنفها فكان صغيرًا مدبَّبًا. شفتاها رفيعتان، وعليهما لونٌ وُضع بعناية فائقة. لم يكن من السهل تخمينُ سنّها، لكنَّني أُقدِّره في منتصف الأربعينيَّات. من النظرة الأولى تبدو أصغر، لكنَّ الخطوط على جانبيْ أنفها تشي بانقضاء الزمن.

سألتني: «هل لديك نقود؟»

فاجأني سؤالها. «نقود؟ ماذا تقصدين؟»

«أسألك فقط إنْ كانت لديك نقود. هل أنت مفلس؟»

«كلَّا، لستُ مفلسًا في الوقت الحاليّ».

زمَّت شفتيْها إلى جانب واحد، كأنَّما تتأمَّل ما قلتُه، وواصلتْ توجيهَ تركيزها الكامل ناحيتي. ثم أومأتْ برأسها، ووضعتْ نظَّارتها، وألقت سيجارتَها على الأرض، ونهضتْ برشاقة وانسلَّت، من غير أن تنظر في اتِّجاهي. أدهشني تصرُّفها، فأخذتُ أرقبها إلى أن اختفت في الزحام. لعلَّها مختلَّة العقل، لكنَّ منظرها اللامع لا يرجِّح هذا الاحتمال. دستُ على سيجارتها، فأطفأتُها، ثم نظرتُ حولي فرأيتُ المكان ممتلئًا بالعالم الطبيعيّ الحقيقيّ. كان الناس ينتقلون من مكان إلى آخر، كلٌّ إلى شأنه. لم أكن أعرفهم، ولم يعرفوني. أخذتُ نَفَسًا عميقًا، وعدتُ إلى تفحُّص الوجوه، من دون أن أُفكِّر في شيء.

واصلتُ على هذا المنوال في الجلوس هناك أحدَ عشرَ يومًا.

كنتُ كلَّ يوم أتناول الدونت والقهوة ولا أفعل شيئًا سوى النظر في وجوه المارَّة. لم أتحدَّث إلى أحد طوال الأحد عشر يومًا، باستثناء ذلك الحوار العقيم مع المرأة المتأنِّقة. لم أفعل شيئًا مميَّزًا، ولم يحدث لي شيء مميَّز. لكنَّني حتى بعد هذا الخواء الطويل لم أستطع الوصولَ إلى أيِّ خلاصة. كنتُ ما أزال في متاهة معقَّدة، غيرَ قادرٍ على حلِّ أبسط مشكلة.

ولكنْ في اليوم الحادي عشر وقع شيء غريب جدًّا. كان يومَ أحد، وقد بقيتُ هناك أنظر في الوجوه وقتًا أطول من المعتاد. كان القادمون إلى شنجوكو يومَ الأحد يختلفون عن أولئك الذين يأتون في زحام أيَّام الأسبوع، ولم تكن هناك ساعةُ ذروةٍ يومَ الأحد. لمحتُ شابًّا متوسِّط الطول يحمل علبةَ قيثارةٍ سوداء. كان يلبس نظَّارةً بإطار بلاستيكيّ أسود، وشعره ينسدل على كتفيْه، ويرتدي سترةً زرقاء وبنطالًا من الجينز، وينتعل حذاءً باليًا. مرَّ من جانبي وهو ينظر أمامه. يبدو من عينيْه أنَّه يتفكَّر في شيء ما. لمَّا رأيتُه فزّ شيء في داخلي، وخفق قلبي. **أعرف هذا الشابّ**. رأيتُه من قبل في مكانٍ ما. لكنَّ الأمر استغرقني بضعَ ثوانٍ حتى أتذكَّره. كان المغنِّي الذي رأيتُه في تلك الحانة في سابورو. هو نفسُه، من دون شك.

قفزتُ من مكاني وهرعتُ وراءه. كان يمشي متروِّيًا فأدركتُه بسرعة. بقيتُ خلفه بعشر خطوات، أُكيِّف سرعتي مع سرعته. فكَّرتُ في أن أتحدَّث معه. أقول له مثلًا: «ألستَ الذي كنت تغنِّي في سابورو قبل ثلاث سنوات؟ سمعتُكَ هناك». فيقول:

«أوه، حقًّا؟ شكرًا لك». ثم ماذا؟ هل أقول له: «كانت زوجتي تُجهض في تلك الليلة، وقد هَجَرَتْني قبل فترةٍ قليلة، وكانت تعاشر رجلًا آخر»؟ هكذا قرَّرتُ أن أكتفي بأن أتبعه ثم أقرِّر لاحقًا. ربَّما تخطر لي فكرةٌ وأنا أمشي.

كان يسير مبتعدًا عن المحطَّة، فاجتازَ المباني العالية، وعَبَرَ شارعَ أومي السريع باتِّجاه يويوغي. بدا مستغرقًا في التفكير. لم يلتفتْ أو يتردَّد لحظة؛ فلعلَّه من سكَّان هذه المنطقة. ظلَّ يمشي بالسرعة نفسها، ناظرًا أمامه. تبعتُه، وأنا أُفكِّر في ذلك اليوم الذي أجهضتْ فيه كوميكو. ساپورو في أوائل آذار / مارس. كانت الأرض صلبةً متجمِّدة، تتساقط عليها رقائقُ الثلج بين الفينة والأخرى. هكذا عدتُ بذاكرتي إلى تلك الشوارع، فامتلأتْ رئتاي بالهواء المجمَّد، ورأيتُ الأنفاسَ البيضاءَ تخرج من أفواه الناس.

ثم صَعَقَتْني الحقيقة! في ذلك الحين بدأت الأشياءُ تتغيَّر. نعم، بالضبط. كانت تلك نقطةَ تحوُّل، بعدها بدأتْ تظهر علاماتُ التغيّر في التدفُّق من حولي. أدركتُ الآن أنَّ الإجهاض كان حدثًا فائقَ التأثير بالنسبة إلينا كلَيْنا، لكنَّني في ذلك الوقت لم أستطع أن أُدرك أهمِّيَّتَه الحقيقيَّة. كان الإجهاض نفسه قد صرف انتباهي كلَّه، في حين أنَّ الشيء المهمّ حقًّا ربَّما كان شيئًا آخر تمامًا.

قالت: كان عليَّ أن أفعل ذلك. شعرتُ بأنَّه أفضلُ ما يمكن فعلُه، وأنَّه خيرٌ لنا نحن الاثنيْن. لكنَّ ثمَّة شيئًا آخر لم أُخبِرْك

عنه، ولا يمكنني أن أُعبِّر عنه. ليس في نيَّتي أن أُخفي عنك شيئًا، لكنَّني لستُ أدري ما إذا كان هذا الشيءُ حقيقيًّا. ولهذا لا أستطيع أن أُعبِّر عنه.

في ذلك الوقت لم تكن متأكِّدة من أنَّ ذلك الشيء كان حقيقيًّا. وهذا الشيء من دون شكّ كان مرتبطًا بالحَمْلِ أكثرَ من ارتباطه بالإجهاض. لعلَّه كان شيئًا متعلِّقًا بالجنين. ولكنْ ما عساه يكون؟ ما الذي أدخَلها في هذه الحَيْرة؟ هل كانت على علاقة برجل آخر فرفضتْ أن تُنجب طفله؟ لا، هذا مستحيل. فقد قالت بنفسها إنَّ ذلك مستحيل. كان طفلي، هذا أكيد. ومع ذلك، فقد كان هناك شيءٌ لم تستطع أن تُخبرني إيَّاه. وذلك الشيء كان مرتبطًا بقرارها أن تهجرَني. كلّ شيء بدأ من هناك.

لكنَّني لم أكن أعرف السرَّ المخبوءَ عنِّي. كنتُ وحدي المتروكَ وحيدًا، في الظلام. وكلُّ ما كنتُ أعرفه على وجه اليقين هو أنَّني إذا ما فشلت في الكشف عن سرِّ ذلك الشيء فلن تعود إليَّ كوميكو أبدًا. بدأتُ أشعر بحسٍّ من الغضب يتنامى داخلي، وكان غضبًا موجَّهًا إلى ذلك الشيء الذي ظلَّ خفيًّا عنِّي. مددتُ ظهري، وسحبتُ نَفَسًا عميقًا، فهدَّأتُ خفقانَ قلبي. غير أنَّ الغضب كان قد تسرَّب مثل الماء إلى كلِّ أطرافي. كان غضبًا منقوعًا في الأسى، ولم يكن لي من سبيل إلى التنفيس عنه في شيءٍ أُحطِّمه، أو إلى تبديده بطريقةٍ ما.

*

ظلَّ الشابّ يمشي بوتيرته الثابتة. اجتازَ مسارَ خطّ أوداكيو،

وعَبَرَ مجموعةً من المحالّ إلى ضريح، ثم إلى أزقّةٍ متداخلة. تبعتُه وأنا أُكيِّف سرعتي مع سرعته كي لا يلاحظني. وكان واضحًا أنّه لم يلاحظني؛ فلم ينظر مرّةً حوله. كان هناك شيء في هذا الرجل يجعله مختلفًا عن الآخرين. فلم يكتفِ بأنّه لم ينظر خلفه قطّ، بل إنّه كذلك لم ينظر يمنةً ولا يسرة. كان في غاية التركيز. تُراه في أيِّ شيء كان يفكِّر؟ أم أنّه كان لا يفكِّر في أيّ شيء؟

وما لبث أن دلف إلى منطقة هادئة من شوارع مهجورة، تصطفّ إلى جوانبها منازلُ من طابقيْن ذاتُ هياكلَ خشبيَّة. كان الطريق ضيِّقًا ملتويًا، والمنازلُ متراصَّةً تمامًا. كانت قلَّةُ الناس في هذا المكان غريبةً؛ فأكثرُ من نصف المنازل خالية. ثمَّة لافتات مثبَّتة على أبواب المنازل الخالية، وطلباتُ تصريحٍ بالبناء معلَّقة في الخارج. بين المنازل أراضٍ فارغةٌ كالأسنان المفقودة، مملوءة بحشائش صيفيَّة ومُحاطة بأسوار تُشبه السلاسل. ربَّما كان هناك مخطَّط لهدم هذه المنطقة برمَّتها وتشييدِ بناياتٍ عالية. أمام أحد المنازل القليلة المسكونة أصصُ لبلابٍ وأزهار أخرى، ودرّاجةٌ من ثلاث عجلات، وفي نافذة الطابق الثاني منشفةٌ وملابسُ سباحة لطفل تُركتْ لتجفّ. القطط في كلِّ مكان، تحت النوافذ، وعند الأبواب، ترمقني بأعيُن متعبة. ورغم أنّنا في أوّل المساء فلا أثر للناس. أربكتْني جغرافيَّةُ هذا المكان فلم أستطع تحديدَ الشمال من الجنوب. خمَّنتُ أنّني في تقاطعٍ بين يويوغي وسنداغايا وهاراجوكو، لكنّني لم أكن متأكِّدًا.

يبدو على أيِّ حال أنّها كانت منطقةً منسيَّةً من هذه المدينة. ولعلَّها أُهملتْ لأنَّ الطرق فيها كانت ضيِّقة إلى درجة أنَّ

السيّارات لا تستطيع المرور فيها إلّا بصعوبة. هي منطقةٌ لم تصل إليها يدُ التخطيط بعد. فحين دخلتُها شعرتُ وكأنَّ الزمن قد عاد عشرين أو ثلاثين عامًا إلى الوراء. وفي لحظةٍ ما أدركتُ أنَّ هدير السيّارات المستمرّ قد انقشع تمامًا. شقّ الرجلُ طريقَه في شوارع متداخلة إلى أن وصل إلى بنايةٍ خشبيَّةِ الهيكل، ففتح البابَ الأماميّ ودخل، وأغلق الباب. لكنَّ الباب على حدِّ رؤيتي لم يُقفل.

وقفتُ هناك فترة. كانت عقاربُ الساعة تُشير إلى السادسة وعشرين دقيقة. استندتُ إلى سور السلاسل في الأرض الخالية على الجانب الآخر من الشارع وأخذتُ أنظر إلى البناية. كانت بنايةَ شققٍ اعتياديَّة، من طابقيْن وهيكل خشبيّ، يتَّضح ما فيها بسهولة من المدخل ومخطَّطِ الغرف. لقد عشتُ في مبنى كهذا حين كنتُ طالبًا. كانت هناك خزانةُ أحذية في الرواق، وحمّام مشترك، ومطبخ صغير، ولا يسكن هذه الشقق إلّا الطلّاب أو العزّاب. لكنَّ هذه البناية تحديدًا لا تُشعرك بأنَّ هناك مَنْ يسكنها؛ فقد كانت خالية من أيِّ صوت أو حركة. لا توجد لافتةُ اسمٍ على الباب. مجرَّد فراغ طويل في المكان الذي ينبغي أن يكون فيه الاسم. النوافذ كلّها مغلقة وستائرها منسدلة، رغم حرارة الجوّ.

لعلَّ هذه البناية مثل شقيقاتها سوف تُهدم قريبًا، ولم يعد أحد يسكن فيها. ولكنْ إن كان الأمر هكذا، فما الذي يفعله رجلُ القيثارة هنا؟ كنتُ أنتظر نافذةً تُفتح بعد دخوله، لكنَّ شيئًا لم يتحرَّك.

لا يمكن أن أظلّ واقفًا في هذا الزقاق المهجور إلى الأبد. لذا مشيتُ إلى باب البناية ودفعتُه. كانت ملاحظتي صحيحة، وانفتح البابُ بسهولة. وقفتُ عند الباب لحظةً أحاول أن أستشعر هذا المكان، لكنّني لم أستطع أن أتبيّن شيئًا في هذا المكان الكئيب. كان مشبعًا بالهواء الساخن الراكد، نظرًا لإغلاق النوافذ. ذكّرتني رائحةُ العفن بالهواء في قاع البئر. تفصّد العرقُ من إبطيّ لفرط الحرارة، وسقطتْ حبّةُ عرق خلف أذني. بعد لحظة تردُّدٍ خطوتُ إلى الداخل وأغلقتُ البابَ خلفي بهدوء. كنتُ أُريد أن أتأكّد إنْ كان هناك أحدٌ يسكن في هذه البناية، فنظرتُ في الأسماء المكتوبة (إنْ وُجدتْ) على صناديق البريد أو خزانة الأحذية. لكنّي قبل أن أفعلَ ذلك أدركتُ أنَّ شخصًا كان هناك. شخصًا ما كان يراقبني.

فإلى يمين المدخل كانت خزانةُ الأحذية أو ما يشبه ذلك، وخلفها مباشرةً يقف ذلك الشخص، كأنَّه مختبئ. حبستُ أنفاسي ونظرتُ صوبه. كان الشخص الواقف هناك هو الشابّ صاحبَ صندوق القيثارة. من الواضح أنَّه كان مختبئًا خلف الخزانة منذ أن دخل البناية. خفق قلبي بقوّة كمطرقة فوق مسمار. ما الذي كان يفعله هناك؟ ينتظرني؟ دفعتُ نفسي إلى القول: «مرحبًا. كنتُ أريد أن أسألك ــ».

لكنَّ الكلمات لم تكد تخرج من فمي حتى هوى شيء على كتفي بقوّة. لم أعرف ما الذي حصل، وكلّ ما شعرتُ به آنذاك ضربةٌ شديدةُ القوّة. ظللتُ واقفًا في مكاني، ذاهلًا. لكنّني في

اللحظة التالية أدركتُ ما حدث. فقد قفز الرجلُ برشاقة قردٍ من خلف الخزانة وضربني بمضرب بيسبول. ولمّا وقفتُ هناك ذاهلًا، رفع مضربه مرّةً أخرى وهوى به عليّ. حاولتُ أن أتفادى الضربة، لكنّ الوقت قد فات. تلقّيتُ هذه الضربة على ذراعي اليسرى، ففقدتُ الإحساسَ بها لحظة. لم يكن هناك ألم. لا شيء على الإطلاق. كلّ ما في الأمر أنّ ذراعي بأكملها قد ذابت في الهواء.

لكنّني وجدتُ نفسي دونما شعور أركلُه، في ردّة فعل غير مقصودة. لم أتدرّبْ قطّ على الفنون القتاليّة، لكنّ صديقًا لي في المدرسة الثانويّة كان يُتقن الكاراتيه وعلّمني بعضَ الحركات. كان يُدرّبني على بعض الركلات يومًا بعد يوم. لم تكن حركاتٍ عجيبةً. مجرّد تدريب على الركلات القويّة العالية المستقيمة. قال لي إنّ هذا هو أهمّ ما يمكن تعلّمه للحالات الطارئة. وقد كان على حقّ؛ فالرجل كان منصرفًا إلى مضربه ولم يتوقّع أن يتلقّى أيّ ركلة. كنتُ ثائرًا مثلَه، ولم أعرف إلى أين أصوّب ركلتي، ولم تكن قويّة جدًّا، لكنّ الصدمة أفقدتْه توازنَه. توقّف عن الضرب، وأخذ يحدّق فيّ بعينيْن فارغتيْن وكأنّه قد حلّ فاصل زمنيّ في تلك اللحظة. فلمّا رأيتُ هذه الفرصة صوّبتُ ركلةً أقوى وأدقّ إلى ما بين فخذيْه، فتلوّى ألمًا وانتزعتُ المضرب من يديْه. ثم ركلتُه بقوّةٍ في ضلوعه. حاول أن يمسك بساقي، فركلتُه مرّةً أخرى. وأخرى في المكان نفسه. ثم حطّمتُ فخذَه بالمضرب. أطلق صرخةً باهتةً وهوى على الأرض.

في أوّل الأمر ركلتُه وضربتُه من واقع الخوف المحض، كي أُدافع عن نفسي. لكنّه ما إنْ وقع على الأرض حتى وجدتُ خوفي قد تحوَّل إلى غضبٍ واضح. كان الغضب ما يزال موجودًا، ذلك الغضب الذي تدفَّق داخلي حين كنتُ أمشي وأُفكِّر في كوميكو. أمَّا الآن وقد أطلقتُ هذا الغضب فقد خرج عن السيطرة وتحوَّل إلى شيءٍ أقربَ إلى الكراهية الشديدة. هويتُ على فخذه مرَّةً أخرى بالمضرب. كان لعابُه يسيل من طرف فمه. وبدأتْ كتفي وذراعي اليسرى تخفقان ألمًا من أثر ضربتَيْه، فهيَّج الألمُ غضبي أكثرَ فأكثر. كان وجهُ الرجل قد تلوَّى ألمًا، لكنَّه حاول أن ينهض من على الأرض. لم أستطع أن أستخدمَ ذراعي اليسرى، فألقيتُ بالمضرب وجلستُ فوق الرجل، ولكمتُه في وجهه بيدي اليمنى. مرَّةً تلو المرَّة، إلى أن تخدَّرتْ أصابعُ يدي وبدأتْ تؤلمني. كنتُ أريد أن أستمرّ في ضربه إلى أن يفقد الوعي. أمسكتُ برقبته وهويتُ برأسه على الأرض الخشبيَّة. في حياتي كلّها لم أبارز أحدًا بقبضة اليد، ولم أضرب أحدًا بكلٍّ قوَّتي، لكنَّني الآن لم أكن أملك إلَّا أن أفعل ذلك، ولم أكن أستطيع التوقُّف. كان عقلي يأمرني بالتوقُّف، ويقول لي لا داعي لأيِّ ضربة أخرى؛ فالرجل لم يعد يستطيع الوقوفَ على قدميْه. لكنَّني لم أستطع أن أتوقَّف. أدركتُ أنِّي أصبحتُ اثنيْن. لقد انفصمتُ إلى شخصيْن، ولم أعد قادرًا على السيطرة على شخصي الثاني. سَرَتْ في بدني قشعريرةٌ شديدة.

ثم لاحظتُ أنَّ الرجل كان يبتسم. حتى وأنا أستمرّ في

ضربه، ظلَّ يبتسم. وكلَّما أمعنتُ في ضربه، كبرت ابتسامتُه، إلى أن تفجَّر الدمُ من أنفه وشفتيْه، وخَنَقه بصاقُه، فأطلق ضحكةً عالية. خطر لي أنَّه مجنونٌ ولا شكّ، فتوقَّفتُ عن ضربه ووقفتُ منتصبًا.

نظرتُ حولي فرأيت علبةَ القيثارة على خزانة الأحذية. تركتُ الرجل في مكانه يضحك، واقتربتُ من العلبة. أنزلتُ العلبةَ إلى الأرض وفتحتُها. لم يكن هناك شيء في داخلها. لا قيثارة، ولا شموع. نظر إليَّ الرجل وهو يضحك ويسعل. كنتُ أكاد لا أستطيع التنفُّس. وفجأةً أصبح الهواءُ الساخن في داخل البناية لا يُحتمل. رائحةُ العفن، وإحساسي بعرقي، ورائحةُ الدم واللعاب، وحسّي بالغضب والكراهية، كلُّها اجتمعتْ وأصبحتْ شيئًا لا يُحتمل. دفعتُ البابَ وخرجتُ، وأغلقتُ الباب خلفي. لا أثر لأحدٍ في المنطقة. وكلّ ما كان يتحرَّك هناك قطٌّ بُنِّيٌّ كبير يمشي ببطءٍ في الأرض الخالية، غيرَ منتبهٍ إلى وجودي.

أردتُ أن أخرج من ذلك المكان قبل أن يراني أحد. لم أعرف في أيِّ اتِّجاه أسير، لكنَّني بدأتُ أمشي. وما لبثتُ أن وجدتُ موقفَ حافلات كُتب عليه «إلى محطَّة شنجوكو». كنتُ أودّ أن أُهدِّئ أنفاسي وثائرةَ عقلي قبل وصول الحافلة، لكنَّني لم أستطع. كنتُ أُكرِّر على نفسي: كلُّ ما كنتُ أريدُ فعلَه هو النظر إلى وجوه الناس! كنتُ فقط أنظر إلى وجوه المارَّة كما قال لي خالي. كنتُ أحاول فقط أن أفكّ أبسطَ التعقيدات في حياتي؛ هذا كلّ ما في الأمر. فلمَّا صعدتُ إلى الحافلة التفتَ الركَّابُ

نحوي، وكلّ واحدٍ ينظر إليَّ مستغربًا ثم يشيح بوجهه. قلتُ في نفسي لعلّها العلامة على وجهي. لكنّي انتبهتُ بعد ذلك إلى زخّات الدم على قميصي الأبيض (غالبًا من أنف ذلك الرجل)، وإلى مضرب البيسبول الذي ما زلتُ أمسك به.

وانتهى بي الأمر أن أخذت المضربَ معي إلى البيت وألقيتُ به في الخزانة.

في تلك الليلة بقيتُ مستيقظًا حتى طلوع الشمس. بدأت الأماكنُ التي ضُربتُ فيها على كتفي وذراعي تنتفخ وتنبض ألمًا، في حين احتفظتْ قبضتي اليمنى بإحساس اللكمات على وجه الرجل مرّةً تلو المرَّة. وانتبهتُ إلى أنَّ قبضتي ما تزال متكوِّرةً، مستعدَّةً للقتال. حاولتُ أن أُرخيها، لكنَّها لم تستجب. أمَّا عن النوم، فالمسألة لم تكن أنّني لم أستطع، بل لم أكن أريدُ أن أنام. فلو نمت في تلك الحالة فلن ترحمني الكوابيس. حاولتُ أن أُهدِّئ نفسي، فجلستُ إلى طاولة المطبخ أرتشف الوسكي الذي تركه خالي، وأستمع إلى موسيقى هادئة. كنتُ أريد أن أتحدَّث مع أحد. أريد أن يُحدِّثني أحد. وضعتُ الهاتف على الطاولة وحدَّقتُ فيه ساعات. فليتَّصل بي أحد، أرجوكم، أيُّ أحد، حتى لو كانت امرأةَ الهاتف الغامضة. لا يهمّني إنْ كان حديثًا قذرًا عقيمًا أو مقرفًا أو مشؤومًا. لا يهمّ. كنتُ فقط أريد أحدًا أن يتحدَّث معي.

لكنَّ الهاتف لم يرنّ. أنهيتُ ما تبقَّى من نصف زجاجة الوِسكي، وحين بزغ النهارُ انسللتُ إلى سريري ونمت. أرجو أن

لا أحلم، أرجو أن يكون نومي خاليًا، اليوم فقط.

لكنَّني حلمتُ طبعًا. وكما توقَّعت، كان حلما مروِّعًا. كان فيه ذلك الرجل صاحبُ علبة القيثارة. وفعلتُ الأشياءَ نفسَها التي فعلتُها في الواقع: تبعتُه، وفتح بابَ البناية، وشعرتُ بوقع المضرب، والضربات التي سددتها للرجل مرَّةً تلو الأخرى. لكنَّ الحلم اتَّخذ مسارًا آخر بعد ذلك. فحين توقَّفتُ عن ضربه ونهضتُ عنه وهو يضحك، أخرج سكِّينًا صغيرةً حادَّةً من جيْبه. التقط نصلُ السكِّين شيئًا من نور المساء الذي تسرَّب عبر الستائر، فعكس بريقًا أبيضَ يُشبه لونَ العظم. لكنَّ الرجل لم يستخدم السكِّين لمهاجمتي، بل نزع ملابسه وبدأ يسلخ جلده كما تُقشَّر التفَّاحة. كان يفعل ذلك بسرعة، وهو يضحك. تفجَّر الدمُ من جسمه، فتشكَّلتْ بركةٌ سوداء على الأرض. كان يمسك السكِّينَ بيده اليمنى، فيسلخ ذراعَه اليسرى، ثم يمسك السكِّينَ بيده اليسرى المدمَّاة فيسلخ بها ذراعَه اليمنى. وفي النهاية أصبح كتلةَ لحم حمراء، لكنَّه ظلَّ يضحك من تلك الفجوة السوداء في فمه، ومقلَتاه البيضاوان تتحرَّكان على نحوٍ متقطِّع فوق كتلة لحمه النيئة. بعد ذلك بدأ جلدُه المسلوخُ يزحف باتِّجاهي، كأنَّما في ردِّ فعلٍ على علوِّ ضحكته غير الطبيعيّ. حاولتُ أن أهرب، لكنِّي لم أستطع أن أُحرِّك ساقيّ. وصل الجلدُ إلى قدميَّ وبدأ يتسلَّقني، فأخذ يزحف على جلدي ويَعْلق به مثلَ الطلاء. كانت رائحةُ الدم تنتشر في المكان، وسرعان ما تغطَّت ساقاي وجسدي ووجهي بجلده. لم تعد عيناي تَرَيان شيئًا، وتردَّد صدى الضحكة في

الظلام الأجوف. عندها، استيقظتُ.

اعتراني الخوفُ والحيرة. بل إنَّني لم أشعر بوجودي. كانت أصابعي ترتعش. لكنَّني في الوقت نفسه عرفتُ أنَّني وصلتُ إلى نتيجة.

لم يكن في استطاعتي (ولا يجدر بي) أن أهرب، لا إلى كريت، ولا إلى أيٍّ مكان آخر. كان عليَّ أن أستعيدَ كوميكو. كان عليَّ أن أسحبَها بيديَّ وأُعيدَها إلى هذا العالم. فإنْ فشلتُ، فقد انتهيتُ. سيضيع منِّي هذا الشخص، أو النفسُ التي أُسمِّيها «أنا».

تصميم الغلاف نجاح طاهر

حكايةٌ تبدو للوهلة الأولى قصةً بوليسيَّة، أو روايةً عن علاقةٍ زوجيَّة تتمزَّق، أو تنقيبًا عن أسرارٍ دفينة من خبايا الحرب العالميَّة الثانية.

تورو أوكادا: شابٌّ يابانيّ يبحث عن قطّ زوجته المفقود. غير أنَّه سرعان ما يَجِدُ نفسه في رحلة بحثٍ عن زوجته نفسها في عالمٍ آخر خفيّ. يتقاطع بحثُه عن القطّ مع بحثه عن الزوجة، فيلتقي زمرةً غريبةً من الأصدقاء والأعداء الذين يأتي كلّ واحد منهم ومعه حكاية: بدءًا من الفتاة المرحة، والسياسيّ الحقود، وانتهاءً بمقاتل انقلبتْ حياتُه بعد ما رآه أثناء الحملة اليابانيّة على منشوريا.

روايةٌ أخّاذة يمتزجُ فيها الهزلُ بالشرّ. عملٌ عبقريٌّ يضاهي في ميدانه روائعَ يوكيو ميشيما.

"من المستحيل أن تتوقَّف عن قراءتها".
DAILY TELEGRAPH

"قطعةٌ أدبيَّة مذهلة... لا شبيه لها".
NEW YORK OBSERVER

ISBN: 978-9953-89-715-8



دار الآداب